

الأستاذ: أحمد مومن

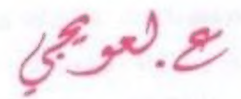
دائرة الإنجليزية

معهد اللغات الأجنبية – جامعة قسنطينة

اللسانيات

النشأة و التطور

الطبعة الثانية 2005





ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية . بن عكنون . الجزائر

رقم النشر: 4.09.4377
رقم ر.د.م.ك (I.S.B.N) : 9961 0.0559.7
رقم الإيداع القانوني : 2002-918

مقدمة

إن الغرض من هذا البحث هو التعريف باللسانيات و تأصيلها و تطورها، و بالدراسات اللغوية المختلفة التي مهدت السبيل إليها، و جعلتها علما قائما بذاته.

و بما أن التفكير اللغوي قد أخذ يتطور شيئا فشيئا على مر العصور حتى أصبح على ما هو عليه في العصر الحديث، فإننا نسير في هذا السبيل سيرا زمنيا. فنحاول أن نسلط الضوء على أهم الدراسات اللغوية التي توصلت إليها بعض الشعوب القديمة كالمصريين والسومريين، و الأكاديين، و الفينيقيين، و الهنود، و الإغريق، و الرومان.

و ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن تلك الإسهامات القيمة التي ظهرت في القرون الوسطى و مطلع العصر الحديث، و عن اللسانيات المقارنة و التاريخية التي سادت خلال القرن التاسع عشر للميلاد.

و من أجل الوصول إلى حقيقة الدرس اللساني الحديث، فإننا نتناول بالتفصيل المدارس اللسانية التي ظهرت بأوروبا في القرن العشرين كمدرسة جنيف التي أرسى قواعدها فردنان دي سوسير، و مدرسة براغ التي أسّسها فيلام مثيزيوس (Vilem Mathesius)، ومدرسة كوبنهاغن التي وضع أسسها لويس يلمسليف (Louis Hjelmslev) وهان يورغن أولدال (Han Jorgen Uldall) ، و مدرسة لندن التي اقترن اسمها خاصة باسم فيرث (J.R.Firth).

و نعرج بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية لنتعرف عن التيارات اللسانية الكبرى التي برزت هناك، كاللسانيات الوصفية و البنيوية لبلومفيلد (Bloomfield) ، و القواعد التوليدية التحويلية لتشومسكي (Chomsky) ، و علم الدلالة كما تحدث عنه ريتشردز وأوغدن (Richards and Ogden) وغيرهما، و الدلالة التوليدية لـ : ليكوف (Lakoff) ، و مكاولي (McCawley) ، و روس (Ross) ، و الدلالة التفسيرية لـ : كاتز (Katz) ، و قواعد الحالات لـ : فيلمور (Fillmore) .

و تجدر الإشارة هنا إلى أننا أمضينا عدة سنوات في جمع المادة و ترجمتها و دراستها معتمدين في ذلك على المصادر الأجنبية الحديثة بالدرجة الأولى. و قد حاولنا - بقدر المستطاع -

أن يكون الأسلوب سهلا ، و المصطلح دقيقا، و العمل كله مفيدا و ممتعا.

إن مثل هذه الدراسات المتخصصة في الحقول اللسانية تبقى قليلة مقارنة بالدراسات الأدبية ، و مازالت بحاجة الى أقلام الباحثين لإثراء المكتبة العربية و إغنائها بما يطرأ من تجديدات في عالم اللسانيات.

و في الأخير، نرجو أن يُحقق هذا البحث الغاية التي نطمح إليها من خلال هذا العرض الشامل عن أهم الدراسات اللغوية قديما و حديثا من حيث ماهيتها، و أهدافها، و مناهجها. كما لا يفوتنا أن نعبر عن شكرنا و امتناننا لكل من قدم لنا يد العون و المساعدة من أجل إنجاز هذا البحث، و إخراجه على هذه الصورة التي نود أن تنال إعجاب القارئين واهتماماتهم.

و الله ولي التوفيق

أحمد مومن.

توطئة

إن الحديث عن اللغة بدأ في عصور ضاربة جذورها في أعماق التاريخ، و لكن كان في شكل تأملات فلسفية حول نشأة اللغة، و أسبقية اللغة أو الفكر، و العلاقة بين الدال و المدلول و أقسام الكلام ...الخ. أما الدراسات اللغويّة التي تبنّت مناهج علمية، فقد ظهرت في العالم الغربي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. و يلاحظ المتتّبع لتطور الفكر اللغوي أن هناك علاقة وطيدة بين القدماء و المعاصرين، و أن هناك مسائل عالجها الأوائل بطريقة وصفية موضوعية، و استفاد لا محالة منها علماء اللغة في العصر الحديث.

و اللسانيات كباقي العلوم الأخرى تنهل من منابع الدراسات القديمة، و لا يمكن أن تستغني عنها أبدا . و هذا ما نلاحظه عند بعض الباحثين المحدثين الذين كتبوا في اللسانيات و طوّروا مناهجها، و تطرقوا الى النظريات اللغوية القديمة، و حاولوا إحياءها، و إعادة صياغة بعض جوانبها.

و كما هو شائع بين أوساط الدارسين للغة، فإن اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة. وحسب مونان (Mounin) [1] فإن أول استعمال لكلمة "لسانيات" (Linguistique) كان في سنة 1833م، أما كلمة " لساني " (Linguiste) فقد استعملها رينوار (Rainouard) سنة 1816 م في مؤلفه : « مختارات من أشعار الجوّالة ». *

و السؤالان اللذان قد يتبادران للذهن عند قراءة هذا التعريف هما : ما هي اللغة ؟ وما هي الدراسة العلميّة ؟

أما عن السؤال الأول، فهناك عدة تعريفات للغة أتى بها بعض مشاهير النحاة واللسانيين . لقد عرّف العالم العربي ابن جني (ت 392 هـ) اللغة بقوله : " أمّا حدّها ـ أي اللغة ـ فإنها أصوات يُعبّر بها كل قوم عن أغراضهم ." [2] و في نظر الأمريكي سابير

(1) George Mounin, La linguistique du XXe siècle, Presses Universitaires de France, 1972, p.5.
*Choix des poesis des troubadours, t.I, p.1.

(2) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، 1952، 33/1

(Sapir) ، "فإن اللغة نظام بشري غير غريزي لتبليغ الأفكار و الأحاسيس و الرغبات بوساطة رموز (SYMBOLS) مستحدثة بطريقة إرادية ."[1] و يبدو أن هورنبي (A.S.Hornby) صاحب قاموس أوكسفورد قد تأثر بهذا التعريف الذي جاء به " سابير "، و لكنه خالفه في الجزء الأخير بقوله : " ... بوساطة نظام من الأصوات و الرموز الصوتية ". و قد ذهب بلوش وتراجر (Bloch and Trager) إلى تعريف اللغة بقولهما : " إنها نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية يتم بواسطتها التعاون بين أفراد مجموعة اجتماعية معيّنة." [2] و رأى هال (Hall) "أن اللغة نمط ثقافي منتظم يمكّن الناس من التواصل و التعامل فيما بينهم بوساطة رموز اعتباطية شفوية سمعية متعارف عليها ." [3] أما اللساني الأمريكي تشومسكي (Chomsky) الذي أحدث ثورة في اللسانيات بظهور أول كتاب له في عام 1957م ، فقد عرّف اللغة بقوله: "من الآن فصاعدا، سأعدُّ اللغة مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل، كل جملة محدودة الطول و متكونة من مجموعة محدودة من العناصر. "[4] و نلاحظ أن تشومسكي لم يذكر أي شيء عن الوظيفة التواصلية للغة، و لا عن الطبيعة الرمزية لعناصرها، و لكنه شدّد على خصائصها البنيوية وإمكانية دراستها من وجهة رياضية محضة. و بشكل عام، فإن هذه التعريفات تنظر الى اللغات على أساس أنها أنظمة من الرموز وُضعت خصيصا لتسهيل عملية الاتّصال .

أما عن السؤال الثاني، فإن اللسانيات علم استقرائي موضوعي تجريبي و منهجي، أي يقوم على الملاحظات، و الفرضيات، و التجارب، و المسلّمات، و يُعنى بالحقائق اللغوية القابلة للاختيار و بالمبادئ الثابتة، و يقنن نتائجه في صيغ مجردة أو رموز جبريّة رياضية. و إن كان هذا الكلام لا يختلف فيه اثنان، فليس كل ما تدرسه الفروع اللسانية المختلفة يتمتع بدرجة علمية غير قابلة للنقاش. فاللسانيات ـ كما يقول بولينغر (Bolinger) ـ "ليست كالفيزياء أو الديناميكا الهوائية * (Aerodynamics) حيث قد يؤدي الخطأ الواحد إلى انهيار جسر أو

(1) E.Sapir, Language, Harcourt Brace , 1921, p.8.
(2) B.Bloch and G. Trager, Outline of Linguistic Analysis , Baltimore, 1942, p.8.
(3) R.A. Halle, An Essay on Language, Chilton Books, 1968, p. 158.
(4) N. Chomsky, Syntactic Structures, Mouton, 1957, p. 13.

* الديناميكية الهوائية فرع من علم الديناميكا يبحث في حركة الهواء والسوائل الغازية الأخرى وفي القوى المؤثرة في الأجسام المتحركة عبر الهواء.

ارتطام طائرة ... إنّها لم تبلغ سن الرشد بعد ، و الدليل على ذلك هو السيل المتدفق للمصطلحات التي لا تُعمَّر طويلا، و تموت بموت صاحبها، و تُدفن معه إلى الأبد ." [1]

و مازال كثير من اللسانيين يستعملون مصطلح " النحو " (Grammar أو Grammaire) ويقصدون بذلك اللسانيات، فيقولون النحو التاريخي (Historical Grammar) تارة و اللسانيات التاريخية (Historical Linguistics) تارة أخرى. و يستخدمون النحو الوصفي (Descriptive Grammar) أحيانا و اللسانيات الوصفية (Descriptive Linguistics) أحيانا أخرى ... و هكذا. و لكنهم يميّزون بين النحو التقليدي (Traditional Grammar) الذي يُقنن اللغة الفصيحة الموروثة عن كبار الأدباء، و يساعد المتعلمين على معرفة الاستعمال اللغوي الصحيح من جهة واللسانيات الحديثة التي تتوخى دراسة اللغات الإنسانية كلّها، كما هي منطوقة أو مكتوبة في نقطة زمنية معينة، و بالخصوص في الوقت الحاضر لمعرفة خصائصها العامة من جهة أخرى. و تجدر الإشارة هنا الى أن الدراسة اللغوية في القديم كانت دراسة معيارية غير مستقلة خاضعة لمتطلبات بعض الفروع الأخرى كالدين، و الفلسفة، و المنطق، و التاريخ، و البلاغة والنقد الأدبي و البيولوجيا. أما اللسانيات بوصفها علما مستقلا فقد بدأت في القرن العشرين و هي الآن في تطوّر مستمر.

و ما يستقطب انتباه الدارسين اليوم هو أن إشكالية المصطلح لا تزال قائمة في الوطن العربي حتى الآن ، و ذلك بدءا من كلمة " لسانيات" التي استعملناها هنا، و التي قال عنها تمام حسّان : بأنه في الندوة التي عقدت في تونس فيما بين 13 و 19 ديسمبر 1978 كان الاتفاق بين الحاضرين من المشتغلين بالدراسات اللغوية على تسمية علم اللغة باسم اللسانيات[2] . و من المصطلحات العربية التي تدل على هذا العلم أيضا كما جاءت في عناوين كتب و مقالات عديدة نذكر ما يلي : علم اللغات، علم اللغات المعاصر، علم اللغة الحديث، علوم اللغة، علم فقه اللغة، علم اللسان، الدراسات اللغوية الحديثة، اللغويات، اللغويات الحديثة الألسنية، الألسنيات .... الخ.

(1) D.Bolinger, Aspects of Language, New York, 1976, p. 554.
(2) حسان تمام، الأصول: دراسة ابيستومولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1982 . ص 266

و في الوقت الحاضر تشعبت اللسانيات إلى عدة فروع. و يتم التمييز بينها بإضافة صفة لكلمة لسانيات لنحصل بذلك على اللسانيات النظرية، و اللسانيات التطبيقية، و اللسانيات الوصفية. و نستمر على هذا المنوال، فنقول اللسانيات الآلية، و الأنتروبولوجية، و الأنتولوجية، والاجتماعية، و الإحصائية، و الفلسفية، و الفيرثيّة (Firthian) ، و القروسطية، و الكمية، والمعيارية، و التاريخية، و المقارنة، و الموسّعة، و النفسية، و النمائية (Developmental) والنهجية، والنهضوية، و الوظيفية، و البحتة، و التركيبية، و التحليلية، و التصنيفية، و التطورية، والتعليمية، والتفاعلية، والجبرية، و التقابلية (Contrastive) ، و الجغرافية، و الحديثة، والحسابية، والديناميكية، والرياضية، و السياسية، و الشعبية، و العامة، والعصبية، والعقلية، و العيادية ...الخ.

كما يمكن للسانيات أن تدرس لغات معينة أو بعض العائلات اللغوية، و ذلك مثل اللسانيات الهندية الأمريكية، و اللسانيات الجرمانية، و اللسانيات الرومانسية، و اللسانيات السامية، و اللسانيات الحامية، و اللسانيات السلافية، و اللسانيات الهنديّة الأوروبية .... الخ.

و على الرغم من تعدد الفروع اللسانية، فإن ما ينبغي على القارئ أن يعرفه هو أن الدراسات اللغوية كلها التي ظهرت منذ القديم إلى يومنا هذا قد مرت بمراحل ثلاث :

1 ـ النحو التقليدي (Traditional Grammar) :

و يطلق على الدراسات النحوية الأولى التي ظهرت في العصور القديمة، و شملت دراسات الهنود، و الإغريق، و الرومان، و العرب، و دراسات القرون الوسطى، و عصر النهضة، و ذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

2 ـ اللسانيات التاريخية و المقارنة (Historical and Comparative Linguistics)

و هي اللسانيات التي هيمنت بصورة واضحة على القرن التاسع عشر الميلادي في أوروبا . و تدرس تطوّر الظواهر المفرداتية و الصرفية و التركيبية و الصوتية و الدلالية للغة ما عبر العصور التاريخية المختلفة، و مقارنتها بالظواهر نفسها في اللغات التي تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة .

3 ـ اللسانيات الآنية (Synchronic Linguistics) :

يتكون المصطلح الأجنبي من Syn بمعنى « في » و Chronic بمعنى « زمن » ويطلق على هذه الشعبة من اللسانيات أيضا اللسانيات الوصفية، و تُعنى بدراسة اللغة كما هي مستعملة في مكان و زمان معينين، و خاصة في الزمن الحاضر، و ذلك بوصف مستوياتها المعجمية، و الصوتية، و الصرفية، و التركيبية، و الدلالية بطريقة علمية. و يقابل مصطلح اللسانيات الآنية اللسانيات الزمانية أو التطورية (Diachronic Linguistics). ويتكون هذا المصطلح من Dia بمعنى « عَبْرَ » و Chronic بمعنى « زمن »، و يَعْني دراسة تطور اللغة عبر الزمن. و هناك مصطلح آخر يستعمل مرادفا للسانيات الزمانية و هو اللسانيات التاريخية (Historical Linguistics) .

إن مهمة اللسانيات النظرية لا تكمن في استخراج أحكام تتعلق بالخطأ و الصواب في الاستعمال اللغوي، أو تطوير مناهج التدريس، و تيسير طرائق التعليم، أو المساعدة على اكتساب كل الأساليب الأدبية و البلاغية، و إنما تكمن في دراسة المبادئ العامة التي تتبنى عليها اللغات ، و وصف ميكانيزماتها المتأصلة، و تشخيص الاختلافات الموجودة بينها، و انتقاء أو ابتكار المصطلحات التي ينبغي استخدامها بغض النظر عما إذا كانت هذه اللغة من اللغات الشرقية أو الغربية، البدائية أو الحضارية. فالمهم بالنسبة للسانيات هنا هو الكشف عن البنى النحوية و الصوتية و الدلالية للغات و معرفة وظائفها العامة. و بعبارة وجيزة، إن اللسانيات علم وصفي (Descriptive) غير معياري (Non-Normative) يهدف إلى اكتشاف القواعد المستعملة من قبل أفراد مجموعة لغوية معيّنة، و تسجيلها بطريقة مختصرة و دقيقة، و لا يحاول أن يفرض عليها قواعد أخرى خاصة بالاستعمالات الصحيحة، بل يستعى كل السعي إلى إبعاد الأحكام القيمية و الاجتماعية و المنطقية. إنه علم يصف اللغات أو اللهجات كما هي مستعملة في الواقع، و لا كما يجب أن تكون .

الفصل الأول

دراسة اللغة في العصور القديمة

تدل البحوث الحديثة على أن الحضارات الشرقية قد اهتمت باللغة اهتماما لا نظير له في البقاع المختلفة من العالم. ففي القرن العاشر قبل الميلاد، وذلك قبل بداية الحضارة الغربية في اليونان، كانت بعض الأمم الشرقية قد طوت من عمرها آلاف السنين، و كان نظام الكتابة قد مرّ بعدّة مراحل مختلفة. و من خلال هذا العرض الوجيز، نحاول معرفة تطوّر الفكر اللغوي عبر العصور و الاطّلاع على مدى تقدم الممارسات اللغوية عند بعض الأمم القديمة.

1 - 1 - المصريون القدامى :

لم يعتمد المفكرون القدامى بصفة عامة الملاحظة و التجربة في دراسة المظاهر اللغوية غير أن في القرن الخامس قبل الميلاد سرد لنا المؤرخ الإغريقي هيرودوث (Herodotos) قصة مثيرة للإعجاب مفادها أن الملك المصري بسامتيشوس (Psammetichos) حاول معرفة أقدم لغة على هذه الأرض. فما كان من أمره إلا أن قرر عزل صبيين عن المجتمع منذ ولادتهما إلى الوقت الذي يبدأن فيه الكلام. و كان افتراضه أن يؤدي عدم وجود أي مثال يحتذى به في النطق إلى استعمال أول لغة بشرية في العالم. ومع مرور الزمن، سُمع الطفلان وهما يرددان كلمة "بيكوس". وعلم الملك وأتباعه إذ ذاك أن هذه الكلمة تنتمي إلى اللغة الفريجية (Phrygian)*. ومن هنا استخلص الملك أن هذه اللغة هي اللغة الأولى التي عرفتها الإنسانية.

ويرجع المصريون القدامى نشأة الكتابة إلى الإله طوت (Thot). ويرى علماء اللسانيات التاريخية أن اللغة المصرية القديمة تنتمي إلى الشعبة الأفرو آسيوية، ويمتد تاريخها من ٤٠٠٠ ق.م إلى القرن السابع الميلادي. وعند الفتح الإسلامي اعتنق المصريون الإسلام بصدر رحب، وفضلوا اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، على لغتهم القديمة، فسرت في عروقهم مسرى الدم . وأدّى هذا إلى انكماش اللغة المصرية التي كانوا قد توارثوها أبا عن جد . و من

---

* الفريجية لغة قديمة كان يتكلم بها الناس في آسيا الصغرى.

المعلوم أن اللغة القبطية قد انحدرت من صلب اللغة المصرية القديمة، وهي اليوم لا تستعمل إلا في الطقوس الدينية التي يقوم بها بعض النصارى في الحبشة. و تتشكل الكتابة المصرية القديمة من خطوط هيروغليفية. و الخط الهيروغليفي لا يمثّل الحروف، ولا يعكس الأصوات المنطوقة، بل يستخدم الصور للتعبير عن الأفكار ومع هذا ، فقد مكّن – كما أكدت ذلك بعض الدراسات – من تغطيّة الأفكار الفرعونية في الحقوق، و الإدارة، و الفلك، و الاقتصاد والجغرافيا، و الرياضيات.

أما الدراسات اللغوية، فغالب الظن أنها كانت منعدمة تماما، وحتى الوثائق الضرورية تبدو غير متوفرة في هذا الميدان. وفي هذا الخصوص قال "مونان" (Mounin): إنه عند اطّلاعنا على الأثريات المصرية، فإننا لم نجد شيئا تحت عنوان مدرسة أو تعليم، أو عمّا كان المصريون يعرفون عن لغتهم، أو عمّا كانوا يدرسونه.[1] وهذا ما أكّده مارسل كوهن في قوله: إن وفرة الآداب المصرية المحفوظة لم تكشف لنا عن وجود مؤلفات نحوية، ولم نعثر إلى حد الآن إلا على نموذج واحد"[2] . وعلى الرغم من هذا القحط اللغوي، إلا أنه لا يمكننا أن ننكر فضل هؤلاء الفراعنة، بل ينبغي أن نعترف بصنيعهم. وهذا ما ذهب إليه "ميي" (Meillet) بالقول: " إن الرجال الذين ابتكروا الكتابة وطوّروها كانوا من كبار علماء اللغة، وهم الذين ابتدعوا اللسانيات."[3]

1-2 ـ السومريون و الأكاديون :

السومريون هم أبناء سومر الذين عمّروا جنوب أرض الرافدين قبل مجيء الوافدين الأكاديين إليها، و هم شعب عريق بحضارته الزراعية و كتابته المسماريّة. و يرى علي عبد الواحد وافي أن : "الشعب السومري، و هو شعب مجهول الأصل، و لكن من المقطوع به أنه غير سامي و لا آري و قد كان له بهذه البلاد حضارة زاهرة، و لغة راقية ذات آداب، و أسلوب

(1) George Mounin, Histoire de la linguistique des origines au XXe siècle. Presses Universitaires de France, 1967, p.39
(2) Ibid., 39.
(3) Ibid., 40.

خاص في الرسم ذي الزوايا (Ecriture cunéiforme) و عند العبريين باسم رسم الأوتاد."[1] والسومرية (Sumerian) لغتهم الآسيوية البائدة التي استعملت في العراق من 4000 ق.م حتى 2000 ق.م، و هي من أوائل اللغات في العالم التي تم تدوينها .[2]

و الخط المسماري عبارة عن صور أو رموز معنوية (Ideographs) تمثل أشياء و أفكارا لا مفردات خاصة بهذه الأشياء و الأفكار. و كما قال " ولفنسون " : " و ليس يجري الخط المسماري على نظام الخط الهيروغليفي الذي يعتمد على الصور، و لا على نهج الخط الكنعاني الذي يعتمد على الحروف بل له نظام خاص ليس بصوري خالص و ليس بحَرفي صرف ... ويستعمل الخط المسماري على نوعين من العلامات، يشتمل النوع الأول منهما على علامات تعبر عن معنى كلمات كاملة و كانت في بادئ أمرها صورا كالخطوط الهيروغليفية، و لكنها بعد استعمال القلم المسماري انقلب شكلها و صارت خطوطها لا علاقة بينها و بين الصورة الأصلية التي تعبّر عنها. و يسمى الافرنج هذا النوع أصوات."[3]

أما أدوات الكتابة التي استعملها السومريون فتتمثل في أقلام من الحديد أو الخشب أو عجين الطين. فيضغط الكاتب بقلمه على عجينة الطين ليرسم الخطوط أو الحروف التي يشاء ثم تحرق هذه العجينة لتصير آجرا. و لقد كُتب لهذا الخط أن يُعمر أمدا طويلا مما حمل "ولفنسون" على القول : " و قد انتشر الخط المسماري انتشارا عظيما بعد امتداد دولة بابل وأشور ، فكانت قبائل عيلم و الفرس و أرمينيا و فلسطين تستعمل هذا الخط .... و إن انتشار هذا الخط لم يكن له نظير في العصور القديمة، و لم يعرف لخط من الخطوط انتشار واسع كهذا إلا بعد انتشار الخط اللاتيني و العربي ."[4]

و الأكّاديون (Akkadians) شعب سامي هاجر أول مرة الى العراق حوالي 3600 ق.م وسمّوا بهذا الاسم نسبة إلى " أكَد " المدينة التي كانوا يسكنونها، و التي كانت تعرف عند

(1) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطبع . ص 21.
(2) حول السومريين ولغتهم انظر:
H.Schmökel, Somer et la civilization summerienne , Paris, 1964.
S.N. Kramer, The Sumerians , Chicago, 1970.
(3) أبو ذؤيب ولفنسون : تاريخ اللغات السامية، بيروت : دار القلم 1980 ص: 34 ـ 35.
(4) المرجع نفسه، ص .40.

السومريين أيضا بهذا الاسم، و التي صارت تعرف عند الساميين بإقليم " كلدة ". و الأكادية - كما يقول محمد علي الخولي - : "لغة سامية شرقية بائدة استعملت في العراق بين القرن الثامن و العشرين و القرن الأول قبل الميلاد. و هي من العائلة السامية الحامية ."[1] و قد نتج عن اختلاط الأكاديين بالسومريين ازدواجية لغوية (Bilingualism) دامت أكثر من 600 عام ولكن سرعان ما انتشرت اللغة الأكادية على حساب اللغة السومرية أدت الى اختفاء هذه الأخيرة تماما .و في هذا الخصوص يقول علي عبد الواحد وافي : " و قد تغلّب المهاجرون من الساميين على هذا الشعب [السومري] و أخضعوه لسطانهم، و أقاموا على أنقاض دولته دولة سامية كان لها شأن كبير في التاريخ ."[2] و بما أن الأكاديين قطنوا بابل، و اتخذوها عاصمة لهم، فقد أصبحوا ينسبون إليها، و اشتهروا باسم البابليين.

1 - 2 - 1 - الدراسة اللغوية :

ترجع نشأة اللغة و الكتابة حسب أسطورة أكادية إلى الرجل السمكة أوانس (Ounnes) الذي جاء إلى الأرض ليعلم الناس الفنون و العلوم و التقنيات. و تقول بعض الروايات : إن رسالة سارد انابال تنصُّ على أن نشأة الكتابة ترجع إلى ابن الإله مردوك. و فيما يتعلق بالدراسة اللغوية، فلئن كان دي لابورت (Delaporte) قد تحدث عن عدم وجود بحوث حقيقية عند السومريين و الأكاديين، فإن " مونان " (Mounin) قد تحدث عن نشأة دراسة فيلولوجية ترجع الى كون السومرية كانت لغة حيَّة من 4000 ق.م إلى 2000 ق.م. ثم أصبحت بعد هذه المرحلة لغة مقدسة للأكاديين. فنجم عن هذا الوضع بحث مستمر عن الوثائق العتيقة، دفع بالملوك الأشوريين من أمثال أشوربانيبال الى تشجيع الناس على البحث عن الوثائق القديمة وبخاصة تلك المتعلقة بالسحر، و يمكن الهدف من وراء هذا العمل في تطوير الممارسات السحرية و إثراء جميع مكتباتهم. [3]

---

(1) Muhammad Ali Al-Khuli: A Dictionary of Theoretical Linguistics,Librairie du Liban,1982.

(2) علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق ، ص . 21

(3) Georges Mounin, op. cit,p.52.

1 - 2 - 2 - الصناعة المعجمية :

منذ 2700 ق.م. التزم السومريون بتصنيف العلامات البسيطة التي تنوب عن المفردات الأحادية و بتعداد العلامات المسمارية المتعددة المعاني التي يدل فيها الرسم الواحد على عدة أشياء متقاربة منها الكلام، و الفم، و الصراخ، و الأنف، و الفعل الكلامي. و تشير كثير من الدراسات إلى أن علماء الآثار قد عثروا على فهارس لأسماء المهن و الأدوات و غيرها. وبالإضافة إلى ظهور معاجم أحادية اللغة، فهناك معاجم ثنائية سومريّة أكاديّة. و قد عثر العلماء في يوغاريت بمكتبة رباتو على معجم رُباعي اللغة (سومرية - أكاديّة - حوريتيّة - يوغاريتيّة). و لما اكتشف السومريّون وجود نوعين مختلفين للغتهم، شرعوا يؤلفون المعاجم قصد تدوين مفردات هذين الشكلين اللذين عُرفا بلَهجة « إيم - صال » (Eme-Sal) و لهجة «إيم - كو » (Eme-ku).[1] و على عكس الخط الهيروغليفي الذي يستخدم حشدا لا حصر له من الصور المتباينة الشكل، فإن الكتابة المسمارية كتابة صوتية، تقسِّم الكلمة إلى مقاطع وتعبِّر عن كل مقطع برمز خاص. أما الخط المسماري الذي دُوِّنت به اللغة الأكادية، فقد امتاز عن باقي الخطوط الأخرى و قتذاك لاعتماده ليس على الحروف فحسب بل على الحركات أيضا.

1 - 3 - الصينيون القدامى :

أنقسم علماء الصين بشأن نشأة اللغة، فمنهم من رأى أنها من صنع الطبيعة، و منهم من رأى أنها من قبيل الاصطلاح. أما عن العلاقة بين الدال و المدلول ، فقد قال الفيلسوف الصيني هسون - تسو (ت 238 ق.م) : " إن تسمية الأشياء لا تتم إلا بالموافقة، و بعد ذلك تصبح التسمية عادية و مناسبة، و إن الأسماء لا تحتوي على حقائق صوتية ملازمة لها ". ويُعرف نظام الكتابة الذي ظهر لأول مرّة بالصين حوالي 2850 ق.م باسم البا - كوا (Pa-Kwa) و يُعزى إلى الأمبراطور الأسطوري " فُوهي " (Fou - Hi) . و إذا كانت الكتابة الصينية - في شكلها الحالي - قد ظهرت حوالي 2500 ق.م، فإن الوثائق القديمة المحفوظة تعود إلى فترة ما بين 1400 و 1000 ق.م. و الكتابة الصينية في أساسها عبارة عن رموز فكرية (Ideograms) أي رموز كتابية تمثل أفكارا أو أشياء ، لا كلمات خاصة بهذه الأفكار أو تلك الأشياء.

---

(1) Ibid, pp.. 53 - 54.

و يُصنِّف علماء اللسانيات اللغة الصينية ضمن اللغات الفاصلة* (Isolating Languages) ويقولون: إنها تتصف بتنظيم مفرداتي و نحوي وفونولوجي فريد من نوعه، و هي ـ في الأصل ـ تتكون من مفردات أحادية المقطع، و لا تستعمل الزوائد، و لا تعرف تعاقب الصوائت كما هو شائع في معظم اللغات البشرية . و تتمثل القيمة المورفولوجية و التركيبية لهذه اللغة في كيفية ترتيب علاماتها ، و نظرا لوجود بعض اللهجات في اللغة الصينية الأولى، فقد يُنطَق الرمز الواحد بطريقة مختلفة من مقاطعة إلى أخرى، و المعروف أن اللغة الصينية لغة معقدة تعقيدا شديدا حيث إن لكل كلمة رمزا مختلفا يُحفظ على حدة، و تشير بعض الدراسات إلى أن عدد الرموز المتداولة في حياة الناس اليومية يفوق 8000 رمز في معظم الأحيان.

و لقد أدّت العزلة التي ضربتها الصين على نفسها إلى التقوقع على النفس و عدم الاستفادة من تجارب الآخرين في تطوير نظام كتابتها القديم، و لئن كانت هناك اتصالات تجارية بين الصين و الأمبراطورية الرومانية منذ زمن بعيد، فإنه لم يكن هناك أي تبادل علمي أو ثقافي بينهما . أما في العصر الحديث، فقد سجلت بعض الاتصالات العلمية بين الصين وأوروبا غير أنها جاءت متأخرة مع مجيء المعمرين و المبشرين إلى أراضي الشرق الأقصى. وظلت الصين ـ بكل عظمة و كبرياء ـ تحافظ على تراثها العريق خوفا من التحريف و الابتذال غير آبهة لما يحدث حولها من تطورات تستدعي الانتباه.

1 ـ 3 ـ 1 ـ الفونولوجيا :

لقد اهتم الصينيون بدراسة الفونولوجيا أو الصوتيات الوظيفية، و طوروا جوانب عديدة منها. و يعزو بعض الباحثين هذه التطورات إلى فضل علماء الهنود السباقين إلى هذا الميدان. و قد توصل الصينيون إلى أن الرمز الفكري كتلة صوتية تتطلب الوصف الدقيق، و اهتدوا إلى إمكانية تحليل هذه الكتلة على غرار تحليل المقاطع التي تكوّن الكلمات في مختلف اللغات ، ثم تزويدها ببعض النّبرات الصوتية التي تجعلها تتميز عن باقي الرموز الأخرى. و قد رأى "روبينز" (Robins) " أنه لم يكن هناك تمثيل قطعي (Segmental Representation) لمكونات

* اللغة الفاصلة تتكون كل مفردة فيها من مورفيم واحد ، ولا تقبل جذور كلماتها الزوائد.

المقطع (Syllable) في الكتابة الرمزية الصينية، و لكن منذ القرن الثالث الميلادي، بدأ النحاة يُحللون المقطع إلى مكونات استهلالية و ختاميّة، و يحتوي المكوّن الختامي على ما يُسمى بالنغم (tone) "[1].

1 ـ 3 ـ 2 ـ الدراسة النحوية :

تؤكد الوثائق القديمة على وجود بعض الدراسات التركيبية و المورفولوجية التي قام بها الصينيون الأوائل و التي لم ترق إلى المستوى الذي عرفته بعض الأمم الأخرى كالهند مثلا.. وقد حظيت الدراسات التركيبية على وجه الخصوص باعتناء كبير من قبل بعض الباحثين الصينيين، و يرجع هذا إلى كون هذه اللغة لا يستقيم تركيبها إلا بإتقان ترتيب علاماتها. وتتولد عن تغيير التراكيب جملة من التغيّرات المورفولوجية التي لابدّ من مراعاتها عقب كلّ تحوير جملي أو نصّي. و يعترف اللسانيون اليوم بفضل النحاة الصينيين الذين قاموا بتمييز كلمات المحتوى (Content Words) عن الكلمات الوظيفية (Function Words). و تدلّ الكلمات الأولى على أي شخص أو شيء أو صفة أو فعل. و تدل الكلمات الثانية على كلٍّ من حروف الجر و العطف و أدوات الجزم و النصب التي تؤدي وظائف نحوية بحتة.

1 ـ 3 ـ 3 ـ صناعة المعاجم :

من الأمور التي استقطبت اهتمام علماء الصين صناعة المعاجم (Lexicography). وبالفعل انتشرت المعاجم في هذه البلاد مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد كما تؤكد ذلك معظم المصادر. و حسب ما ذكره "مونان" "هناك معجم ضخم ظهر في القرن الأول قبل الميلاد مدونا 9000 علامة، و ألف معجم آخر في القرن السادس قبل الميلاد اشتمل على 24000 علامة،كما صُنّف معجم ثالث في القرن الثامن عشر الميلادي احتضن أكثر من 50000 علامة أما المعاجم التاريخية الكلاسيكية التي يرجع إليها العلماء فتربو عن 80000 علامة في كثير من الأحيان"[2].

(1) R.H. Robins , A Short History of Linguistics, Longman, 1976, p. 106.
(2) Georges Mounin, OP. Cit, p. 63.

1-4- الفينيقيون :

1 ـ 4 ـ 1 ـ أصل الفينيقيين :

الفينيقيون قوم من أبناء فينيقية، سكنوا بلاد الشام، و أقاموا حضارة عريقة امتدت من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي. و نظرا لاشتغالهم بالتجارة البحرية فقد أقاموا عددا من المحطات التجارية، و أسسوا مجموعة من المدن على سواحل البحر الأبيض المتوسط و آسيا الصغرى و خاصة في سوريا، و فلسطين، و لبنان، و مصر، وقبرص و تونس، و اسبانيا. و الفينيقية " لغة بائدة تنتمي إلى اللغات الكنعانية التي تمثل الفرع الشمالي للمجموعة السامية العربية ضمن العائلة السامية الحامية. و كانت مستخدمة على ساحل بلاد الشام ".(1)

1 ـ 4 ـ 2 ـ الكتابة الفينيقية :

و إذا كانت بعض الأمم السابقة قد ابتكرت الخطوط الهيروغليفية أو المسمارية أو الرمزية، فإن الفينيقيين هم أول من طور الكتابة الأبجدية في تلك الحقبة الزمنية الضاربة في أعماق التاريخ. غير أن بعض الباحثين يرون أن الفينيقيين قد تأثروا بدورهم بالأبجدية الأجريتية التي تنتمي إلى الفرع الكنعانيّ الشمالي، كما أثروا هم بأنفسهم بعد ذلك في اليونانيين، فأخذوا عنهم نظام الكتابة الأبجدية في القرن التاسع قبل الميلاد. و قد كشفت الحفريات عن وثائق موسومة بحروف فينيقية في أوغاريت، و رأس شمراء، و بيلوس، و صعيد مصر، وتونس و بعض الأماكن الأخرى تعود إلى 1500 ق.م. و حسب مونان (Mounin) فإن بعض الوثائق التي سبقت هذه الفترة قد ظهرت في كتابة من الطراز الصيني البدئي (Proto-Sinaïtique) بينما تجلت الوثائق التي تلتها في كتابة عربية جنوبية. و هذا ـ في رأيه ـ ما يؤكد صلة القرابة التي تربط هاتين اللغتين باللغة الفينيقية، و تحتوي هذه اللغات جميعا على عدد قليل من الحروف تتراوح ما بين اثنين و عشرين إلى خمسة و عشرين حرفا .(2) و هناك شكل آخر من أشكال الفينيقية كان مستعملا على السواحل التونسية في القرن التاسع الميلادي صار يُعرف بعد ذلك باللغة البونيّة.

(1) Muhamed Ali Al-Khuli, A Dictionary of Theoretical Linguistics, 1982.
(2) G.Mounin , op. cit; pp. 75 - 76.

وجدير بالذكر أن الكتابة الفينيقية كتابة متطورة بالقياس إلى أشكال الكتابة التي عرفتها اللغات السالفة الذكر. و قد أحدثت ثورة في طريقة الكتابة، و غيّرت المفاهيم القديمة البالية. فهي كتابة صوتية محضة تختلف اختلافا جذريًا عن الكتابة الفرعونية و الصينية و السومرية. و علاوة على هذا، فلا يمثل أي حرف من حروفها إلاّ صوتا واحدا. و الملاحظ هنا أن الفينيقيين قد اكتفوا باستعمال الصوامت دون الصوائت، وبدت لهم الكتابة على هذا المنوال أمرا بديهيًا لا يحتاج إلى تفصيل أكثر. و كان على القارئ أن يقوم بتزويد الحركات اللازمة وفق معاني الكلمة و سياق الجملة.

و الثابت لدى المؤرخين أن الكتابة الفينيقية كان لها أثر كبير على نشأة معظم أبجديات العالم، و قد تفرعت منها ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ جميع الأنظمة الألفبائية التي عرفتها مختلف الأمم حتى يومنا هذا . و كما يقول علي عبد الواحد وافي : فمن الفينيقية اشتق الرسم التدمري و النبطي . و من التدمري اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية و المنشورية. و من الخطين النبطي و السرياني اشتقت حروف الهجاء العربية. و من الفينيقية أيضا اشتق الخط الآرامي، و عن الخط الآرامي أخذت الحروف الهندية الباكتريانية ومنها اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن في كل لغات الهند و سيام و كامبودج و ماليزيا. و من الرسم الفينيقي اشتق كذلك الرسم السبئي أو اليمني الذي اشتقت منه كل الخطوط الحبشية السامية، و من الفينيقية كذلك اشتق الخط الإغريقي. و من الخط الإغريقي أخذت الحروف اللاتينية. و من الرسمين الإغريقي و اللاتيني تفرعت جميع أنوا ع الخطوط المستخدمة في مختلف اللغات الأوروبية في العصر الحديث .(1)

1-5- اليهود :

1 ـ 5 ـ 1 ـ نشأة اللغة:

اليهود شعب سامي و أهل ديانة سماوية. و اللغة ـ في رأيهم ـ توفيق و إلهام من الله سبحانه عز وجل، و أوّل من تعلّمها آدم عليه السلام. و أقدم مرجع عندهم في هذا ورد في الإصحاحين الثاني و الحادي عشر من سفر التكوين في نصوص العهد القديم. و يتحدث

(1) علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق ، ص. 32 ـ 33.

الإصحاح الثاني عن تسمية الحيوانات بهذه الطريقة : " و جبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البريّة، و كلّ طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، و كل ما دعا به آدم ذات نفس حيّة فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم و طيور السماء و جميع حيوانات البريّة." و في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين أيضا نلاحظ الحديث عن قصة برج بابل : " و كانت في كل الأرض لغة واحدة و كلام واحد ... " و في الأخير بدّد الله مجهودات أبناء نوح الذين حاولوا استعمال برج بابل للعروج إلى السماء، و بلبل ألسنتهم جميعا، فاختلطت عليهم اللغات، و أصبحت عمليّة التواصل بينهم أمرا مستحيلا .

و اللغة العبريّة لغة سامية تنتمي إلى العائلة السامية الحاميّة. و يمتد تاريخها من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي. و هي اللغة التي كتب بها اليهود العهد القديم، و استعملوها في حياتهم اليوميّة حتى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد .

و في الواقع لقد تخلّى اليهود عنها قبل هذه الفترة، و أصبحوا يتحدثون باللغة الآرامية. و أضحت اللغة العبريّة لغة الطقوس و المراسم الدينية ليس غير. و يُجمع المؤرخون على أن العهد القديم لم يدون بالخط العبري إلا في القرن الثاني الميلادي. و كان هذا الخط يتشكل أساسا من الصوامت دون الصوائت. و بدأت الصوائت تعرف سبيلها إليه منذ القرن الخامس الميلادي، و استغرقت هذه العمليّة زمنا طويلا.

1 ـ 6 ـ 2 ـ الدراسة اللغوية :

و على خلاف الشعوب الأخرى، فإن اليهود لم يعتنوا إطلاقا بالدراسات اللغوية في العصور الأولى، أما في العصور المتأخرة، فيشير بعض الباحثين إلى وجود ثلة من الكتب الدينية و انعدام المؤلفات اللغوية. و في الحقيقة، إنه لم تظهر مدارس تعنى باللغة العبريّة الكلاسيكية إلا بعد ما أصبحت هذه الأخيرة لغة ميّتة. و في هذا الشأن قال مونان (Mounin) " إننا لم نجد شيئا عند اليهود يخص التحليل اللغوي بمعناه الدقيق ."(1) و هذا ما أكّده روبنز (Robins) بقوله : " إن الدراسات العبريّة لم تبدأ في الزمن القديم، و لكن لحسن الحظ

(1) Georges Mounin, op. cit, p. 85.

فقد ظهرت بعض المبادرات الفرديّة في العصور الوسطى نتيجة الاحتكاك الثقافي و الحضاري بمسلمي الأندلس، حيث كانت الدراسات العربية نموذجا مثاليا يقتدي به علماء اليهود ."(1)

و مما لاشك فيه أن القواعد العبريّة لم تُقنن إلا في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي من قبل بعض اليهود القاطنين في أسبانيا. و قد اصطبغت هذه القواعد بصبغة عربية أصيلة ذلك لأن هؤلاء اليهود قد استعانوا في تأليفها بفلسفة نحاة العرب و منهجيتهم، و استعاروا مصطلحاتهم و مقولاتهم. و من النحاة اليهود الذين عاشوا في هذه الفترة القمحي و بعض أفراد عائلته، و كذلك ابن بارون الذي قام بدراسة مقارنة بين اللغة العربيّة و العبريّة، و اعتنى بصناعة المعاجم.

1 ـ 6 ـ الهنود :

بدأ النحاة الهنود يفكرون في المسائل اللغوية قبل نظرائهم الإغريق بحقبة زمنية طويلة. و مع هذا فقد اتسمت بعض أعمالهم بالدقة و الموضوعية، و توصلوا إلى نتائج تشبه إلى حد بعيد بعض نتائج اللسانيات الحديثة و بخاصة في مجال الصوتيّات.

1 ـ 6 ـ 1 ـ اللغة الهندية :

و يلاحظ الدارس للأدب الهندي القديم أنه كان يدور حول مواضيع ذات صبغة دينية أو ميتافيزيقية بحتة، و ذلك لما كان للهندوسية من أثر عميق في نفوس الهنود. و ماداموا يعتقدون أنهم أصحاب أول ديانة على الأرض، فهم يرون أن اللغة الهنديّة من صنع الإله إندرا (Indra) الذي أعطى لكلّ الأشياء و الحيوانات أسماءها. و يميز الباحثون اليوم بين مرحلتين مختلفتين للغة الهندية: السنسكريتية الفيدية (Vedic Sanskrit) و السنسكريتية الكلاسيكية (Classical Sanskrit)، و ذهبوا إلى أن اللغة الأولى لم تُدوّن إلا حوالي 800 ق.م، و أن لغة أقدم الكتب المقدسة كانت مستعملة قبل هذا التاريخ بستة قرون. و حسب "وتّرمان" (Waterman) فإن هذا الشكل القديم للسنسكريتية أصبح غير مفهوم مع مرور الزمن الشيء الذي خلق مشاكل عويصة للكهنة و الباحثين الهندوس الذين تيقنوا من أن فعالية المراسم الدينية لا تعتمد على النص الأصلي لكتب الفيدا (Veda) فحسب بل على النطق الصحيح أيضا.(2)

(1) R.H. Robins, op. cit, p. 97.
(2) John Waterman, Perspectives in Linguistics, Chicago, 1963, p.3.

1 ـ 6 ـ 2 ـ الدراسة اللغويّة :

لقد ظهرت الدراسات اللغوية عند الهنود إذن للمحافظة على النصوص المتمثلة في كتب الفيدا المقدسة و حماية اللغة السنسكريتية من التحريف. علمًا بأن هذه النصوص التي تناقلها الناس بطريقة شفويّة قد انحدرت من المرحلة الفيدية حوالي 1200 ق.م، ثم طرأت عليها عدّة تغيّرات عبر العصور المتتاليّة أدّت إلى بروز لهجات تختلف عن اللغة الأولى، دفع النحاة الهنود إلى دراسة اللغة بشكل عام و الأصوات بشكل خاص لتمكين أهل هذه العقيدة من الفهم والنطق الصحيحين للكتب المقدسة في الطقوس و الشعائر. و قد تفوقوا في هذا المجال تفوقا شديدا سواء من الناحية النظرية أو التعليميّة. و في هذا الشأن قال " ليُونز " (Lyons) : إن التصنيف الهندي للأصوات الكلامية كان تصنيفا مفصلا و دقيقا مبنيًا على الملاحظة والتجربة و لم يبلغ أحد ما بلغه هؤلاء سواء في أوروبا أو غيرها قبل أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بل إن كثيرا من الدراسات تؤكد أن أوروبا هي التي تأثرت بالبحوث الصوتية الهنديّة القديمة التي قام بترجمتها بعض الباحثين الغربيين.[1]

و يُخطيء كلّ من يظن أن الدراسات اللغوية عند الهنود كانت كلها تقليدية كما هو الحال بالنسبة للدراسات الإغريقية، بل إن البحث الموضوعي السليم يؤكد أن هذه الدراسات تتمتع اليوم بقيمة علمية كبيرة. و هنا ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن البحوث الهنديّة قد انتظمت في فروع مستقلة لكل منها أهداف و مناهج خاصة كاللسانيات العامة، و النحو الوصفي، و الفونتيك، و الفونولوجيا، و المورفولوجيا، و الدلالة. و قد تفوق العلماء الهنود خاصة في مجال الصوتيات (Phonetics) و الصرف (Morphology) .

إن كلمة " النحو " في اللغة العربية تقابلها كلمة < Vyākarana < في اللغة السنسكريتية التي تعني الفصل و التحليل.[2] و يجمع الباحثون على أن جلّ النحو الهندي تحليلي و وصفي في طبيعته. و يرمي إلى استنباط القواعد الفونولوجية و المورفولوجية للغة السنسكريتية القديمة التي كانت في طريق الزوال. و كان الهنود يولون عناية بالغة بالنحو لأنه الوسيلة

(1) John Lyons, Introduction to Theoretical Linguistics , London, 1968, p.20.
(2) John Waterman , op. cit, p.2.

الوحيدة التي تقوّم ألسنتهم و تحفظ كتبهم المقدسة من الانحراف. و لا يمكننا أن ندرك قيمة النحو عند هؤلاء إن لم نقرأ مقولتهم المأثورة التي أوردها أحمد مختار عمر؛ و مفادها: " إن الماء هو أقدس شيء على الأرض، و الكتب المقدسة أكثر قداسة من الماء ، و لكن النحو أكثر قداسة من الكتب المقدسة. "[1]

1 ـ 6 ـ 3 ـ النحو البانيني :

يرى الباحثون أن أشهر بحث في الدراسات اللغوية الهندية القديمة كان من إنجاز العلاّمة الهندي الشهير بانيني (Panini) الذي قام بتحليل كل مظاهر اللغة السنسكريتية وتقنينها. و يعدّ النحو الذي كتبه " بانيني " عملا تقنيًا عظيما لا يشبه الأنحاء التقليدية في شيء، بل يشبه إلى حد بعيد قواعد الحساب و قوانين الجبر. و قد علّق " روبينز " (Robins) على هذا العمل بقوله : " إنه جاء في الأخير تتويجا لخط طويل من العمل السابق الذي ليس لنا معرفة به، و لم يُعرف حتى الآن إذا كان مؤلفه قد كتبه أو وضعه شفويًا، كما لم يُعرف بعد التاريخ الحقيقي لظهوره، و يرجعه بعض الباحثين إلى ما بين 600 ق.م و 300 ق.م. "[2] و من الأهمية بمكان القول : بأن هذا النحو كان نموذجا لبقيّة لغات الهند، و كان له تأثير كبير على القواعد التالكابية (Talkappian) الأولى للغة التاميلية * و بعض اللغات الأخرى.

إن عمل بانيني عمل شديد التعقيد لا يستطيع أن يفهمه إلا من كان متضلعا ومتخصّصا في السنسكريتية، و لا يمكن أن يُشرح إلا بالاستعانة بشروح تابيعه، و يحتوي هذا العمل على 4000 قاعدة نحوية، أدرجت كل قاعدة في مكان مناسب، و لا يتسنى فهم أية قاعدة، إلا بفهم القواعد السابقة. أما البحوث التي صدرت بعد بانيني، فلم تكن إلا مجرد شروح وافية تعكس بدقة مبادئ هذا العلامة. و من أشهر هذه الشروح شرح << باتنجالي >> (Patanjali) الموسوم بـ " أعظم الشروح " و المعروف في اللغة الهندية بـ <<Mahaabhâsyia>>. و يتميز نحو بانيني بخصائص ثلاث، كان قد نادى بها من قبل، و اتخذها مقاييس موضوعية

(1) أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب ، بيروت ، دار الثقافة ، 1972، ص . 73
(2) R.H. Robins, op.cit , P. 137.
* التاميلية (Tamil) لغة مستعملة وسط جنوب الهند ، وتنتمي إلى العائلة الدرافيدية (Dravidian)

في دراسة كل ظاهرة لغوية. و قد تبنت اللسانيات الحديثة هذه المعايير العلمية، وعدّتها منطلقات أساسية و منهجية في كل دراسة لغوية. و هذه المعايير هي كالتالي :

الشمولية (Exhaustiveness) : أي الدراسة الشاملة لكل الجوانب المتعلقة باللغة.

الانسجام (Consistency) : أي عدم التناقض الكلي و المستمر في دراسة الظاهرة اللغوية.

الاقتصاد (Economy) : أي الاقتصاد في استخدام الكلمات، و الإيجاز في التعبير عن النتائج؛ و ذلك باستعمال أسلوب علمي محض، يسود فيه الاختصار، و تُستعمل فيه رموز الجبر، و يتفادى فيه الحشو و التكرار.

و مهما يكن من أمر، فإن الهند بلد زاخر بالدراسات اللغوية و النحوية، و تتحدث كثير من المصادر على وجود حوالي اثنتي عشرة مدرسة لغوية و أكثر من ألف عمل نحويّ مختلف. أما عن سبب نجاح الهنود في وصف الظواهر اللغوية فيرجعه " وترمان " (Waterman) إلى المنهج الموضوعي الذي اتبعوه، و إلى بنية اللغة الهندية في حد ذاتها، إذ تشبه الألفباء السنسكريتية الكتابة الصوتية، و تعكس النطق المرغوب فيه بطريقة دقيقة للغاية، و حتى القاموس السنسكريتي يتكون من جذور و ليس من مفردات كما هو الشأن بالنسبة للغات أخرى.[1]

و كما توجد بعض النقاط الإيجابية في النظرية اللغوية الهنديّة، فثمة بعض النقاط السلبية التي ينبغي ذكرها هنا . ففيما يتعلق بالتركيب، فنادرا ما نجد النحاة الهنود يتحدثون عنه أو يولونه قسطا من الأهمية. أما عن علم أصول الكلمات (Etymology) ، فعلى الرغم من المجهودات التي بذلت في هذا المجال، فإن هؤلاء الباحثين كما قال وترمان (Waterman) : " لم يأتوا بشيء ذي قيمة تذكر " [2] و بالرغم من أن كثيرا من الأعمال الأدبية النثرية قد خُصّصت لشرح أعمالهم الشعريّة، و بالرغم من أن الدراسة المفرداتية هي من خصائص هذا النوع من التفسير، فإن النتائج المتوصل إليها كانت غريبة في معظم الأحيان .

(1) John Waterman, op. cit. , p.2.
(2) Ibid., pp. 4 - 5.

و خلاصة القول : فإن هدف النحو السنسكريتي كان في جوهره هدفا تعليميًا تطبيقيًا غير أنه احتوى على مسلمات عامة و حقائق علمية مجردة و بخاصة في حقل الصوتيات. و في الحقيقة، فإن اكتشاف السنسكريتية من قبل بعض الباحثين الغربيين كان من أبرز العوامل التي ساعدت على تطور اللسانيات المقارنة، و إن النظرية النحوية التي وضعها بانيني كان لها أثر ملموس على لسانيات القرن العشرين.

1 ـ 7 ـ الإغريق :

في القرن السادس قبل الميلاد، بدأ الفكر الإغريقي يتبلور في جميع الميادين. و قد لعبت العبقرية الإغريقية دورا عظيما في بناء الحضارة الإنسانية الحديثة. و يرجع كثير من الباحثين هذه العبقرية الفذّة إلى درجة الوعي و حرية الفكر اللذين لم يسبق للعالم أن شهد مثلهما من قبل. و جدير بالذكر أن الحضارة الغربية التي نعرفها اليوم كانت قد بدأت على أيدي المفكرين الإغريق الذين كانوا روادا في الفكر الفلسفي و اللغوي و الاجتماعي و الأدبي و السياسي والأخلاقي .

1 ـ 7 ـ 1 ـ النحو عند الإغريق :

يكمن الهدف من وراء تعليم النحو عند النحاة الإغريق في تلقين المتعلم فنون الكلام والكتابة. و لقد عُرِف عن هؤلاء النحاة أنهم أولعوا بالنظر العقلي و المنطقي في اللغة و النحو، و هذا ما قاله عنهم ليونز (Lyons) : إنهم عدّوا النحو جزءا لا يتجزأ من الفلسفة، و بالتالي من البحث العام في طبيعة العالم الذي يحيط بهم، و النواميس الاجتماعية التي تتحكم فيهم.[1]

1 ـ 7 ـ 2 ـ الطبيعة و الاصطلاح :

من المسائل المثيرة للانتباه ذلك الجدال الذي دام عدّة قرون بين علماء الإغريق حول نشأة اللغة، و أدّى بهم إلى الانقسام إلى فريقين : الطبيعيّون (Naturalists) و الاصطلاحيون (Conventionists) . و يرى الفريق الأول و على رأسه أفلاطون أن اللغة من صنع الطبيعة، أي أنها " انحدرت من أصل تحكمه قوانين خالدة غير قابلة للتغيير ".[2]

(1) John Lyons, op . cit., p.4.
(2) Ibid. p. 4.

وأخذت بهذا الرأي مدرسة الشنوئيين و على رأسها قراطيس (Krates) ومدرسة الرواقيين و مؤسسها زينون (Zeno) حوالي 300 ق.م. أما الفريق الثاني الذي يتزعمه أرسطو فيؤكد على أن اللغة من قبيل الاصطلاح، أي أنّها وليدة العرف و التقليد. و التزم بهذا الرأي القياسيون و على رأسهم أرستراخوس (Aristrachos) و الأبيقريون و على رأسهم أبيقور (Epicure).

و أدى النقاش بين دعاة الطبيعة و الاصطلاح إلى الخوض في مسألة أخرى أسالت كثيرا من المداد، و تمثلت في البحث عن العلاقة بين أشكال الكلمات و معانيها. و على خلاف دعاة الاصطلاح، لقد أكد دعاة الطبيعة على التطابق الموجود بين كل دال و مدلول، و رأوا أن العوام من الناس لا يدركون سر هذه العلاقة البديهية، و ذلك على عكس الفلاسفة الذين يتمتعون بقدرات فكرية تمكنهم من تفسير كل الحقائق الكامنة. و من هذه النظرة الفلسفية انبثق علم أصول الكلمات، لأن البحث عن أصل الكلمة، و بالتالي عن معناها الحقيقي، يؤدي بالضرورة إلى اكتشاف حقائق الطبيعة و فهم ظواهر الكون حسب ما كانوا يعتقدون.

1 ـ 7 ـ 3 ـ القياس و الشذوذ :

إن الخلاف بين الطبيعيين و الاصطلاحيين قد تحوّل في القرن الثاني قبل الميلاد إلى جدال حول مدى انتظام اللغة. فمن تمسكوا بفكرة القياس في اللغة كانوا يُسمّون بالقياسيين (Analogists) و من ناهضوا هذه الفكرة، كانوا يدعون بالشذوذيين (Anomalists). و حسب ليونز (Lyons) فإن الجدال بين القياسيين و الشذوذيين لم يكن جدالا تافها ناتجا عن رفض كل طرف الاعتراف بوجود فعليّ للقياس و الشذوذ في اللغة، بل إن الجدال تمحور حول نسبة القياس في اللغة، و نسبة الشذوذ الظاهر الذي يمكن توضيحه من خلال التحليل و الوصف في إطار نماذج بديلة. (1) و لئن كان المتشبثون بالقياس قد حاولوا تصحيح كل الظواهر الشاذة التي تعترض سبيلهم عوض تغيير آرائهم الفلسفية حول طبيعة اللغة، فإن أصحاب الشذوذ كانوا يرون بأن اللغة، التي هي من صنع هذه الطبيعة، نادرا ما تكون قابلة للوصف في حدود القوالب القياسية. و عليه فينبغي أن تكون ثمة عناية بالغة بالاستعمال اللغوي مهما كانت طبيعته ولو شاذاً أو غير عقلاني. (2) و مع بدء اللسانيات الحديثة، فصل دي سوسير

(1) Ibid., p. 8.
(2) Ibid., p.7.

الأمر في هذه المسألة التي استمرت قرونا طويلة في العالم الغربي بجزمه القاطع بأن العلاقة بين الدال و المدلول علاقة اعتباطية . و قد سبق أن قال العلامة العربي عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) : " إن الكلمة المفردة في دلالتها على معناها ليست من إملاء العقل بل هي محض اتفاق، فلو أن واضع اللغة كان قد قال « ربض » مكان « ضرب » لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد . "(1)

1 ـ 7 ـ 4 ـ النحاة الإغريق :

قام عدد من علماء الإغريق بدراسة مظاهر النحو و الصرف في اللغة الإغريقية القديمة. و سنكتفي في هذا المجال بذكر أشهرهم و أهم أعمالهم في المسائل اللغويّة .

1 ـ 7 ـ 4 ـ 1 ـ بروتاغوراس (Protagoras) :

و هو من السوفسطائيين الإغريق الأوائل. بدأ التفكير في القضايا اللغوية في القرن الخامس قبل الميلاد. و قيل إنه أوّل من قام بتمييز الأجناس (Genres) الثلاثة في اللغة الإغريقية : المذكر و المؤنث و " الوسط "، و قسّم الجمل إلى أنواع حسب الوظائف الدلالية العامة للتراكيب النحوية الخاصة مثل الإثبات و الأمر و السؤال و التمني .

1 ـ 7 ـ 4 ـ 2 ـ أفلاطون (429 ـ 347 ق.م) :

يعدّ أفلاطون أوّل من تحدث بإسهاب عن النحو الإغريقي و قواعده بطريقة جديّة. فدرس ظاهرة الاقتراض و التداخل اللغوي، و بيّن وجود أصل أجنبي لعدد كبير من المفردات الإغريقية. و قسّم الجملة إلى اسمية و فعلية. و اكتفى بالتمييز بين الأسماء و الأفعال. و رأى بأن الأسماء هي العبارات التي تدلّ عمن يقوم بالحدث في الجملة، و أن الأفعال هي العبارات التي تدلّ على حدث أو صفة في الجملة. و بهذا يكون قد عدّ الأفعال و الصفات قسما واحدا. و في الحقيقة، فإن هذا التقسيم الأفلاطوني الثنائي مبني على تصور عقليّ منطقيّ محض يعكس بصدق مكونات القضية الفلسفيّة . و نظرا لاهتمام أفلاطون بتقصّي الحقائق و معرفة

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص. 40.

الطبيعة عن طريق معرفة الأشياء، فقد لجأ إلى منهج فريد في التعريف أطلق عليه " التعريف عن طريق التقسيم ". فعند قيامه بتعريف أي شيء، كان يتبع سلسلة من الخطوات تتمّ بتقسيم الشيء إلى فرعين، ثم يَختارُ فرعا واحدا منهما، و يقسّمه إلى فرعين آخرين، و يستمر في التقسيم على هذه الطريقة حتى يصل إلى تعريف موضوعي و دقيق للشيء الأول .[1]

و حسب أفلاطون فإن الكلمات ظهرت لتلبي حاجيات الإنسان الضرورية للتواصل واكتنفت معاني حتميّة قبليّة. و إذا كانت اللغة - في رأيه - لا يمكن أن تكون إلا منطقية وعقلانية، فإنه ليس بمقدورنا دائما أن نحدد العلاقة بين الأشياء الوهمية في عالم الحواس من جهة و حقائق الأفكار من جهة أخرى .[2] و على الرغم من الإلمام المعرفي الذي يتمتع به أفلاطون، غير أن محاولته لتوضيح هذه العلاقة أدّى به إلى إعطاء معلومات إتيمولوجيّة ساذجة لا يقبلها العقل بأي حال من الأحوال. و هنا انتقد وترمان (Waterman) أفلاطون نقدا لاذعا بقوله : إنني أشك إن كان أفلاطون يعني ويعي ما كان يكتبه عن تاريخ الكلمات ومعانيها إذ يظهر من حواره حول معنى كلمة « Aer » (الهواء) أنه أتى بصيغة الفعل <<Airei>> (أي يرفع إلى أعلى)، و استنتج من هذا أن الهواء سمي بهذا الاسم لأن بإمكانه أن يرفع الأشياء مثل الورق و الدخان من الأرض إلى السماء.[3] و لقد أكد علماء الإتيمولوجيا في العصر الحديث أن ما ذهب إليه أفلاطون في هذا السحت لا يمت بصلة إلى أدنى المقاييس العلميّة المتعارف عليها.

1 - 7 - 4 - 2 - أرسطو (384 - 322 ق.م) :

تتلمذ أرسطو على يد أفلاطون، و تفوق على باقي التلاميذ، فنال شهرة كبيرة لم ينافسه فيها أحد قط، و أصبح يعرف اليوم بأب القواعد الغربية. و قد خالف أستاذه في أمور كثيرة منها النظرة الفلسفية للكون، و أصل اللغة و طبيعتها. و على عكس أستاذه، فإنه لم يقم بدراسة أصول الكلمات و معانيها لأن قضية المعنى الأصلي بدت له غير مهمة على الإطـلاق

(1) A.B. Taylor, Plato: The Man and His Work, 1926, p.378.
(2) Waterman , op. cit, p.5.
(3) Ibid , 6.

و ذلك لاعتقاده بأن اللغة وليدة الاصطلاح و العرف و التقليد. و يرى أرسطو أن كل شيء في هذا العالم يتكون من شكل و مادة، و أن الشكل أهم من المادة. وطغت فكرته الفلسفية هذه على النحو، فأبعدته عن درس المعطيات اللغوية دراسة وصفية موضوعية. و قد تأثر بأعمال أستاذه، و قام بتطويرها. فإذا كان أفلاطون قد قسّم الكلام إلى اسم و فعل، فإن أرسطو قد أضاف إلى هذا التقسيم ما يُسمى بالرابطة (Syndesmoi) التي تشمل كل الكلمات التي تخرج عن نطاق الأسماء و الأفعال. و فيما يتعلق بمصطلح الجنس، فقد أتى بكلمة بديلة لما أتى به بروتاغوراس، و أطلق عليها اسم « المحايد » (Neither) أي الجنس الثالث، و أصبحت فيما بعد تعرف في اللغة اللاتينية بـ <<Neuter>> .

و اكتشف أرسطو أيضا صيغ الفعل المختلفة في اللغة الإغريقية، و أكّد على أنّ التغيرات المنتظمة في أشكال الفعل ترتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم زمن حدوثه، و تدل على الماضي أو الحاضر أو المستقبل. و فوق هذا لقد مزج أرسطو النحو بالمنطق، وظل هذا المزج يصبغ النحو التقليدي برمته إلى يومنا هذا. و من أثار هذا المزج أن أصبح للقوانين النحوية ما يقابلها من المصطلحات الفلسفية. و صار التقسيم المنطقي الى تصورات و تصديقات ما يناظره في التقسيم النحوي إلى مفردات و جمل. و أضحى للمقولات الأرسطية الشهيرة ما يقابلها في التقسيم النحوي إلى أقسام الكلام : فالجوهر يقابل الاسم، و الكيف يقابل الصفة و الكم يقابل العدد، و الإضافة تقابل أفعل التفضيل، و الأين يقابل الصفة، و الكم يقابل العدد و الإضافة تقابل أفعل التفضيل، و الأين يقابل المكان، و المتى يقابل الزمن ....الخ. و نظرا لاهتمامات أرسطو بالمنطق، فقد ركّز في دراساته على مبدئي التعريف و التعليل في حقل اللغة، و كانت غايته من التعريف معرفة ماهية الأشياء و تحديد معانيها. و كان هدفه من التعليل إقامة البراهين الموضوعية و العلل المؤثرة في كل الأشياء إذ لا تعرف الأشياء إلا بمعرفة العلل، و من هنا تبرز قيمة التعريف و التعليل عندا هذا العلاّمة.

1 ـ 7 ـ 4 ـ 3 ـ الرواقيون :

تعدّ المدرسة الرواقية أهم مدرسة فلسفية في أثينا بعد أرسطو و ذلك لعنايتها القصوى بالمسائل اللغوية و الفلسفية. و قد أسس هذه المدرسة المفكر العبقري زينون (Zeno) في سنه 308 ق.م. و حسب ليونز (Lyons) فإن سبب نجاحها يعود إلى أن أصحابها كانوا يعتقدون أن الأسلوب القويم يتمثل في الحياة بانسجام مع الطبيعة، و أن المعرفة تكمن في انسجام الأفكار مع الأشياء الطبيعية الموجودة في الطبيعة، و أن هذه الأفكار ما هي إلا صور في حدّ ذاتها.(1) و في هذه المرحلة بالذات استمر الجدال في شأن اللغة الإغريقية بين دعاة الطبيعة والاصطلاح، و أصحاب القياس و الشذوذ. و أكّد الرواقيون على عدم التطابق بين الكلمات والأشياء، و على وجود الظواهر العفويّة غير المنطقيّة في اللغة. و أدّى بهم هذا الموقف الى دراسة اللغة دراسة منهجية، و إخضاع التراكيب الدلالية إلى الملاحظة الموضوعية و استنباط المعاني من خلال السياقات المختلفة.

و عالج الرواقيون المسائل اللغوية حسب طبيعتها في فروع منفصلة و منتظمة كعلم النحو، و البلاغة، و الدلالة، و الأسلوبية، و الصوتيات، و الإتيمولوجيا، و أولوا أهمية كبيرة بثنائية الشكل و المعنى في كل دراسة لغويّة. و ميّزوا بين أربعة أقسام للكلام: الاسم، و الفعل و الحرف، و الرابط. و قسّموا الاسم إلى قسمين: اسم الجنس و اسم العلم ، و أدرجوا الصفة في قالب الأسماء، و طوّروا ظاهرة التصريف *(Inflection) ، وجاءوا لأول مرة بمصطلح الحالة الإعرابيّة *(Case) . كما أدركوا أن هناك عاملا آخر إلى جانب عامل الزمن يؤثر في تحديد شكل الأفعال الإغريقية كالأفعال التامة و غير التامة. و ميّزوا بين صيغ المعلوم و المجهول و الأفعال اللازمة و المتعديّة.(2) و حسب روبينز فإن الرواقيين ميّزوا بين ثلاثة مظاهر لكل حرف مكتوب : قيمته الصوتية مثل [a] ، و شكله المكتوب مثل α و الاسم الذي يُدعى به

(1) John Lyons, op . cit. , p. 11.

* التصريف هو إضافة الزوائد للكلمة لتدلّ على وظيفتها في الجملة وعلاقتها بسواها

* الحالة هي ما يلحق الاسم أو الضمير من تغيّر يدلّ على وظيفته النحوية في الجملة للتمييز بين الشكل الحقيقي للاسم أي حالة الرفع (Nominative) والحالات غير المباشرة (Oblique) وهي أية حالة للاسم غير حالة الرفع

(2) Ibid., p. 12.

مثل ألْفَا (Alpha) . و بالرغم من مجهوداتهم في الصوتيات، فيبقى عملهم و عمل الإغريق بشكل عام دون المستوى المرجو و بخاصّة و أن وصفهم للأصوات و تصنيفها كان يتم في عبارات سمعية انطباعية ليس لها ما يقابلها من مصطلحات دقيقة، و ليس في حدود النطق (Articulation) كما كان مستعملا بتفوق كبير عند كل من الهنود و العرب.(1) و قد أردف روبينز قائلا : إن اهتمام الرواقيين بالمسائل اللغوية، و نفاذ بصيرتهم في تحليل دلالة النطق المتعلق بصيغة الزمن في اللغة الإغريقية يرجع إلى حد كبير إلى كون زينون (Zeno) مؤسس هذه المدرسة كان يتقن لغتين: لغة سامية و هي لغته الأم و اللغة الإغريقية و هي لغة ثانية تعلمها في مرحلة متأخرة من حياته .(2)

1 ـ 7 ـ 4 ـ 4 ـ الأسكندريون :

امتدّ عهد الأسكندريين من 300 إلى 150 ق.م. و بلغت فيه الدراسات اللغوية الإغريقية أوجّها، و ابتكرت فيه الكتابة التي لا زالت مستعملة إلى يومنا هذا في اللغة الإغريقية القديمة. و مع بداية القرن الثالث قبل الميلاد أُسّست أكبر مدرسة في مدينة الأسكندرية التي كانت مستعمرة إغريقية، كما أُسّست مدرسة برجامون (Pergamon) في اسيا الصغرى من قبل الأسكندر (Alexander) . وظلت أعمال هاتين المدرستين تشعُّ على العالم ردحا طويلا من الزمن. و خلافا لعلماء الأسكندريّة الذين يرون أن الطبيعة تحكمها قوانين مطردة، فإن علماء برجامون يرون أن كل ما في الطبيعة من قبيل الصدفة، و لا تحكمه قوانين متّسقة.

و كان لهذا الاختلاف في النظرة الفلسفية الى العالم أثر مباشر في دراسة الظواهر اللغوية. و أدّى بالفريق الأول و على رأسهم ثراكس (Thrax) ـ الى التمسك بالقياس، و بالفريق الثاني ـ و على رأسهم قراطيس (Crates). الى التشبث بالشذوذ في اللغة و رفض القوانين المتسقة.

و في القرن الثاني قبل الميلاد، ألفّ العالم الأسكندري الشهير ثراكس كتابا في النحو الإغريقي بعنوان Téchné Grammatiké . و يُعدُّ هذا المؤلف أحسن عمل في العالم الغربي الى

(1) R.H. Robinz, op. cit. , p. 24.

(2) Ibid., 16.

يومنا هذا. و يتألف من خمس عشرة صفحة، و يقع في خمسة و عشرين جزءا(section) ويشتمل على حوالي أربعمائة سطر. و من أهم ما جاء في هذا الكتاب تقسيم الكلام الى ثمانية أقسام. هي كما يلي :[1]

الاسم	Onoma(Noun)	Antonymia (Pronoun)	الضمير
الفعل	Rhéma (Verb)	Prothesis (Preposition)	حرف الجر
اسم الفاعل و المفعول	Metoché (Participle)	Epirrhéma (Adverb)	الظرف
أداة تعريف أو تنكير	Arthron (Article)	Syndesmos (Conjunction)	الرابط

بدأ ثراكس كتابه هذا بعرض شامل عن الدراسات النحوية عند الأسكندريين، ثم أضاف قائلا: " إن النحو هو المعرفة العلمية للاستعمالات العامّة لكل من الشعراء والكتاب، و يشمل ستة أجزاء. أوّلا : القراءة الدقيقة (بصوت مرتفع) و علم العروض. ثانيا : شرح العبارات الأدبية في الأعمال الكلاسيكية. ثالثا : تزويد الأساليب و المواضيع المختلفة بالحواشي. رابعا : اكتشاف أصول الكلمات. خامسا : استنباط الأنظمة القياسية. سادسا : إدراك جودة الكتابة الأدبية."[2] و نستلهم من هذا التمهيد أن النحو في هذه المرحلة التاريخية كان يشمل كل الدراسات التي ذكرها ثراكس. أما النحو بمفهومه الضيق المتعارف عليه اليوم ، فيتمثل في النقطة الخامسة التي تنصُّ على استنباط الأنظمة القياسيّة. و قد قام ثراكس بتطوير القواعد النحوية و تصنيف مفردات اللغة الإغريقية حسب الحالة الإعرابيّة (Case)، و الجنس، و العدد، وصيغة الفعل، وصيغة الزمان، وصيغة المعلوم والمجهول.

و نظرا لتفشي ظاهرة تحريف المخطوطات الإغريقية العتيقة و من بينها الأشعار الهوميرية، فقد أخذ نحاة هذه المرحلة على عاتقهم مسؤولية الفصل بين المخطوطات الكلاسيكية الأصلية و المخطوطات المحرفة و ذلك بمقارنة المخطوطات المختلفة للعمل الأدبي

(1) Ibid. , pp 33 - 34.
(2) Ibid., p. 31.

الواحد. و بالإضافة الى هذا فقد اهتموا بوضع الشروح و التعاليق لمختلف النصوص الأدبية و البحوث النحوية و ذلك لأن لغة النصوص القديمة أصبحت غريبة عن جمهور القراء في المجتمع الأسكندري المعاصر. و كان علماء الأسكندرية يعتمدون على المبادئ القياسية لتصحيح النصوص القديمة و تنقيحها من كل الشوائب .

و من أشهر علماء الأسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد :

أريستراخوس (Aristrachus) و أبو لونيوس ديسكولوس (Apollonius,Dyscolus) وهيرود (Herodian) . أما الأول فيكفيه فخرا أن تتلمذ على يده النحوي الشهير ثراكس. و قد اعتنى بدراسة المسائل النحوية و تحقيق النصوص الهوميرية الكلاسيكية. أما الثاني فقد تخصص في قضايا التركيب و المورفولوجيا و دراسة اللهجات الإغريقية الأدبية، و اعتمد الجانب العقلي أكثر من سواه في تقنين الظواهر اللغوية و تفسيرها، ولازالت مؤلفاته محفوظة الى يومنا هذا. أما الثالث فهو ابن أبولونيوس الذي احتذى حذو أبيه، و أولع بالدراسات اللغوية، و اشتهر خاصة في مجالي النبر (Accentuation) و التنقيط (Punctuation) .

و خلاصة القول : لقد نظر نحاة الإغريق الى العالم بمنظار فلسفي ميتافيزيقي فاصطبغت قواعدهم بصيغة فلسفية عقلانية و اهتموا بوصف لغة أجدادهم، فأحسنوا الوصف. و ابتغوا قواعد عامة تحكم لغتهم، فأحكموا التقنين. و بهذا العمل كُتب لهذا النحو أن يستقطب اهتمام الأجيال التي لحقت منذ نشأته الى العصر الحديث. و اليوم ، و مع تطور اللسانيات الحديثة إلا أن هذا النحو التقليدي مازال يؤخذ به في التدريس، و لا يؤخذ ببعض المدارس اللسانية الحديثة. فالنحو الإغريقي الذي صُمّم خصّيصا للغة الإغريقية، طبّق تقريبا على كل لغات العالم، و أصبحت هذه اللغات تدرس من خلال قواعده. وحتى اللسانيات الحديثة مازالت تستعمل المصطلحات التي وردت في هذا النحو القديم. و في اعتقادنا فإن سر نجاح هذا النحو يعود إلى كونه أقرب إلى الطبيعة البشرية مما سواه، و لأنه بني على مبادئ فلسفية و منطقية ربطت الظواهر اللغوية بمغاور الفكر البشري. و هنا يكمن سر عدم قدرتنا على الاستغناء عن هذا الرصيد العالمي الثري الذي تمخض عن الحضارة الإغريقية العتيقة.

1 ـ 8 ـ الرومان:

1 ـ 8 ـ 1 ـ لمحة تاريخية:

كانت روما عاصمة للرومان منذ القرن الثامن قبل الميلاد. و في سنة 330م، اتّخذ القائد الروماني قسطنطين الأكبر مدينة بزنطة عاصمة شرقية لامبراطوريته. وأصبحت تدعى فيما بعد بالقسطنطينية نسبة إليه. و مع نهاية القرن الرابع الميلادي انقسمت الأمبراطورية بصفة رسمية إلى مملكة شرقية و أخرى غربية لكل منهما امبراطور خاص. و إن كانت روما تعدُّ مهدا للحضارة الغربية، فإن القسطنطينية تعدّ سهلا خصبا للحضارة الشرقية. وظلت القسطنطينية أكثر من ألف سنة عاصمة الامبراطورية البيزنطية إلى أن صارت عاصمة للخلافة العثمانية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح في سنة 1453م .

لقد قيل منذ القدم إن الإغريق يؤمنون بالفلسفة و المثالية. و إن الرومان يؤمنون بالواقعية و المنفعة المادية. و مع هذا، فقد انبهر الرومان بالتراث الإغريقي إلى درجة جعلتهم مقلدين أكثر منهم مخترعين. وتذكر بعض الروايات أن أول من أدخل الدراسات اللغوية إلى الرومان هو الرواقي الشهير قرّاطيس (Crates) الذي جاء إليها في بعثة سياسية في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. و ذات يوم، بينما كان يتجول في هذه المدينة، ويتمتع بمناظرها السياحية الخلابة، سقط من حيث لا يدري في فواهة مصرف المياه، فانكسر رجله على إثرها، و غدا المكوث للمعالجة هناك لزاما عليه. و في هذه الفترة، لم يدخر هذا الكسير جهدا لإلقاء دروس في اللغة و الفلسفة و إشفاء غليل القراء المتعطشين. ويرى بعض المؤرخين أن بلاد الرومان قد شهدت في هذه الفترة بالذات تدفق عدد كبير من العلماء الإغريق على اختلاف مذاهبهم. وبما أن قراطيس كان من الرواقيين، فلا عجب أن يكون قد حاول زرع ما كانُ يؤمن به في عقول مستمعيه.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، ظهرت حركة حثيثة حملت على عاتقها ترجمة كل الأعمال النحوية و الأدبية و الفلسفيةو الثقافية من اللغة الإغريقية إلى اللغة اللاتينية. و قد شجع حكّام الرومان كل من يقوم بترجمة أي مظهر من مظاهر التراث الإغريقي، و أغدقوا عليه العطاء.

كما لجئوا إلى إحياء الحضارة اليهودية المسيحية، وإرساء روح التسامح و حرية التعبير. وأصبحت المسيحية في القرن الرابع الميلادي دين الدولة الرومانية. وفيما يتعلق بالدراسات اللغوية، فقد استمرت الفلسفة في توجيه الأعمال النحوية، و استمر الخلاف حول نشأة اللغة بين الطبيعيين و الاصطلاحيين، كما اشتدّ الجدال بين دعاة القياس والشذوذ، مما دفع القيصر جوليوس إلى تأليف كتاب في النحو بعنوان القياس و إهدائه إلى شيشرون (Cicero) . و قد راجت أفكار متباينة تدل على مدى تأثير المدرسة الرواقية و المدرسة الأسكندرية على الباحثين الرومان . وفيما يلي، نحاول معرفة أشهر نحاة الرومان من خلال أعمالهم الرائدة.

1 ـ 8 ـ 2 ـ فارون Varro (116 ـ 27 ق.م.) :

لم يكن فارون أكبَر مبدع في النحو اللاتيني فحسب، بل أول مؤلف روماني في هذا المجال أيضا .وقد ألّف عملا ضخما بعنوان: اللغة اللاتينية De Lingua Latina بلغ ستة وعشرين جزءا ،لم يصلنا منها سوى ستة، وذلك من الجزء الخامس إلى الجزء العاشر. و تناول فارون في مؤلفه هذا كل القضايا النحوية، و قسّمها إلى ثلاثة مواضيع رئيسة: علم التركيب (Syntax)، وعلم الصرف (Morphlogy)، و علم أصول الكلمات (Etymology) . و أيا ما كان الأمر، فإن فارون كان ملما بكثير من ثقافات عصره، و متأثرا بالفكر الرواقي، و بخاصة فكر أستاذه ستيلون (Stilo) . فكان يلخص الأعمال الإغريقية تارة، و يضيف لها ما تجود به قريحته أحيانا أخرى. و قد تطرق إلى كل القضايا التي طرحها النحاة الإغريق حول نشأة اللغة ومسألة الطبيعة و الاصطلاح، و القياس و الشذوذ. و فيما يتعلق بالنقطة الأخيرة، فقد أتى بالأدلة المساندة و المضادة لهاتين الظاهرتين، و أعطى أمثلة من اللغة اللاتينية تبين جوانب القياس والشذوذ، و أكد على ضرورة الاعتراف بهذه الثنائية في اللغة و دورها في توليد المفردات والمعاني الجديدة .

ومن القضايا التي اعتنى بها فارون ظاهرة التوليد و الاشتقاق. و قال بأن اللغة تتكون من مجموعة متناهية من المفردات التي فرضت على الأشياء لتسهيل عملية التواصل، و تعمل بطريقة توليدية بوصفها مصدرا لأعداد هائلة من المفردات عن طريق إجراء تغيرات متتالية في

حروف الكلمات و معانيها، وقد اعتنى فارون أيضا بعلم الصرف. و كانت ملاحظاته دقيقة وتحاليله عميقة. فميّز بين الاشتقاق الآني و التغير الطبيعي في شكل المفردات، وبين التكوين الاشتقاقي و التصريفي (derivational and inflexional formation)، كما درس النظام الفعلي في اللغة اللاتينية: فكتب عن علامة الزمان، و صيغة الفعل، و حالة الفعل من حيث البدء والاستمرار، أو التمام و الانقطاع (Aspect)، و علاوة على هذا، فقد وضع نظاما رباعيا يتعلق بالتصريف، إذ قام بتصنيف الكلمات إلى أربع فصائل شكلية: الكلمات ذات الحالات (الأسماء و الصفات)، و الكلمات التي لها زمن (الأفعال)، و الكلمات التي لها حالات و أزمنة (أسماء الفاعل و المفعول)، و الكلمات التي لا تحمل زمنا و لا حالة (الظروف).[1] أمّا النتائج التي توصل إليها في الإتيمولوجيا فكانت مجرد تخمينات، إذ من البديهي أن التشابه في أشكال المفردات التي تحمل معاني متقاربة في اللاتينية و الإغريقية كان نتيجة للاقتراض التاريخي بين هاتين اللغتين في مراحل مختلفة من جهة و لانحدار بعضها الآخر من الأشكال الهندية الأوروبية من جهة أخرى. و لكن فارون لم يتميّز في هذا المضمار عن علماء الإغريق في ابتعاده عن الصواب، وعدّ كل هذه الكلمات الدخيلة اقتراضا مباشرا من اللغة الإغريقية.

1 ـ 8 ـ 3 ـ كونتيلين Quintilian (35م ـ 90م)

تتلمذ كونتيلين على يد النحوي الشهير باليمون (Palaemon)، و خلفه في الشهرة. و قد أنجز عدّة مؤلفات مسّت نواحي عديدة منها النحو، و الأدب، و التربية، و البلاغة. و عدّ النحو "دراسة تمهيدية للتذوق الكلي و الحقيقي للأدب في التربية اللبراليّة."[2] و قد ذهب "روبينز" إلى أن هذا التعريف للنحو سبق و أن ذكره ثراكس في كتابه الشهير : Techne[3] و قد كتب بإيجاز عن المسائل النحوية و اللغويّة، و المقولات المنطقية و الكلاميّة، و أقسام الكلام، و النظام الفعلي و الحالاتي في اللغة اللاتينية. أمّا في كتابه الموسوم بـ : Institutio Oratoria فقد تطرق بإسهاب شديد إلى فنون الكتابة، و سنن الكلام، و البلاغة بشكل عام.

---
(1) CF. Mounin, (1967 : 100) ; Robins , (1967: 55).
(2) R.H. Robins, op. cit., p. 53.
(3) Ibid.

1 ـ 8 ـ 4 ـ إليوس دوناطوس Aelius Donatus (القرن الرابع الميلادي):

عاش دوناطوس في بلاد الرومان، و اشتغل بالتدريس في العاصمة : روما في منتصف القرن الرابع الميلادي، و حدث أن تتلمذ على يده القديس جيروم (St.Jerome) الذي ترجم الكتاب المقدس ترجمة مثالية اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية. و قد اشتهر دوناطوس بكتابه الأكاديمي Ars Minor الذي لم ينقطع استعماله في المدارس حتى القرن السابع عشر الميلادي. و قال عنه وترمان (Waterman) : إنه أوّل كتاب تمّ طبعه في التاريخ بحروف مطبعية.[1] و قال عنه مونان (Mounin) : " إنه غذّى كل القواعد الأوروبية لعدّة قرون، و كُتب له أن يكون أوّل كتاب يُطبع في فرنسا، و ليس لمرّة واحدة، بل لعدّة مئات من الطبعات ."[2]

1 ـ 8 ـ 5 ـ مكروبيوس Macrobius (حوالي القرن الرابع الميلادي):

يُعدُّ مكروبيوس من النحاة اللاتين المتشبثين بفكر الإغريق و قواعدهم. و كان تركيزه ـ كغيره من علماء الرومان ـ على اللغة الكلاسيكية و ليس على لغة عصره. و قد أُثِر عنه أنّه قام بدراسة مقارنة لتبيان أوجه الشبه و الاختلاف بين الأفعال الإغريقية و اللاتينية، و لكنها كانت دراسة سطحية، قام من خلالها بموازاة أشكال الأفعال دون التعمّق في دراسة طبيعة النظام الفعلي و أبعاده المختلفة في كلتا اللغتين .

1 ـ 8 ـ 6 ـ بريسيان Priscian (512 م ـ 560 م):

مع انهيار الأبمراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي، أصبحت روما في وضعية مزريّة غير مشجعة للعلم و العلماء. فكان من الحكمة أن يهاجر الباحثون ذو الاختصاصات المختلفة الى القسطنطينية العاصمة الجديدة الواقعة على ضفاف البوسفور التي صارت تنعم بكل مظاهر التقدم و الرخاء و الاستقرار. هاجر هؤلاء العلماء إليها بحثا عن الظروف المواتية لإتمام رسالتهم العلميّة و تبليغها للأجيال اللاحقة. فكانت نعم الدار، إذ وجدوا فيها ما هاجروا إليه. و كان بريسيان على رأس هؤلاء المهاجرين. و يعدّه الباحثون اليوم أشهر ممثل لهذه المرحلة الأخيرة في البحث اللغوي اللاتيني التي أصبحت تعرف بالعصر الذهبي فيما بعد .

---
(1) Waterman , op. cit. , p.9.
(2) Mounin, op . cit. , p. 98.

و مكث بريستان في القسطنطينية ينشر العلم، و يُدرس قواعد النحو اللاتيني . و هناك أيضا، قام بتأليف إنجازه العظيم : المقولات النحويّة Institutiones Grammaticae الذي يتألف من عشرين كتابا . أي ما لا يقل عن ألف صفحة. و قد خصّص ثمانية عشر كتابا لأقسام الكلام، و صارت هذه الكتب تعرف بـ : Priscianus Maior ، و خصص كتابين اثنين لعلم التركيب (Syntax) أصبحا يُعرفان بـ : Priscianus Minor . و يبدو أن بريسيان قد تأثر بالأعمال النحوية لكلّ من ثراكس، و أبولونيوس، و هيرود و غيرهم. و كما تأثر بالفكر الإغريقي، فقد أثر بدوره في الفكر الروماني. و ظلّ مؤلفه مرجعا ثمينا و شاملا للغة اللاتينية إلى يومنا هذا .

و بصفة عامة، فإن كتب النحو في اللغة اللاتينية كانت تتبع الطريقة التي جاء بها ثراكس في تقسيم النحو الى ثلاثة أجزاء: إذ يُحدد الجزء الأول غرض النحو بأنه الفن الذي يُعنى بصحيح الكلام و فهم الشعراء . و يعالج الجزء الثاني أقسام الكلام و التغيّرات التي تخضع لها هذه الأقسام حسب الصيغة الزمنية، و الجنس، و العدد ، و الحالة الإعرابية .. إلخ. و يشمل الجزء الأخير مناقشات حول الأسلوب الجيّد و السيِّئ، و تحذيرات من الأخطاء الشائعة و العبارات المبتذلة، و نماذج من فنون البلاغة .[1]

و على عكس الدراسات النحويّة، فإن الدراسات الإتيمولوجية لم تتجاوز في الواقع المستوى الذي وصل إليه الإغريق، و يجمع الباحثون على أن أشهر إنجاز في هذا الحقل هو معجم أصول الكلمات للقديس إسيدور أوف سيفي (St.Isodore of Seville) (570م - 639م) بعنوان Origines sive etymologiae ، غير أن هذا المعجم تعوزه الدقة العلميّة كغيره من المعاجم الأخرى التي ظهرت في هذه المرحلة أو قبلها . و على غرار أفلاطون و غيره من علماء الإغريق فإن علماء الرومان أطلقوا العنان للخيال في بحثهم عن العلل التي تربط المعاني بالكلمات. فكانت هذه الجهود عبارة عن هذيان و مُجَرد اهتلاس.

و خلاصة القول : فإن النظرية اللغوية التي أتى بها علماء الإغريق نجدها هي هي في العهد الروماني و القرون الوسطى و حتى عصر النهضة باستثناء بعض الإضافات الطفيفة أو الشروح الوافية. و استمرت الدراسات على هذه الحال حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي مع بداية اللسانيات التاريخية و المقارنة.

(1) CF. J. Lyons, op. cit. , p.13.

الفصل الثاني

الدراسات اللغوية في القرون الوسطى

2 ـ 1 ـ لمحة تاريخية :

يطلق مصطلح القرون الوسطى في الحضارة الغربيّة على المرحلة التاريخية الأوروبيّة الممتدّة من 476م إلى حوالي 1500م؛ أي منذ انهيار الأمبراطورية الرومانية إلى بداية عصر النهضة الأوروبيّة. و تُعرف القرون الستة الأولى التي تلت انحلال الأمبراطورية الرومانية بالعصور المظلمة، و تبدأ من 476م إلى حوالي 1000م.

إن الشيء الذي يُميّز هذه المرحلة القروسطيّة هو ظهور المسيحيّة بوجه جديد و اتساع رقعتها و انتشار اللغة اللاتينية على حساب اللغة الإغريقية. و قد نتج عن ذيوع المسيحية اتساع رقعة البحوث اللغويّة لأن الشعوب المختلفة التي اعتنقت الديانة الجديدة قد شاركت في عمليّة التعليم و التأليف. و اقتداء بتعاليم المسيحية ـ قال وترمان (Waterman) ـ راح المبشرون ينشرون دعوتهم، و يترجمون الكتاب المقدس الى اللغات العامية التي تفتقد إلى أنظمة كتابيّة.[1] و بالفعل لقد تمّت الترجمات الكبرى للتوراة و الإنجيل خلال هذه الفترة: فتُرجم الكتاب المقدس إلى اللغة الأرمينية في القرن الخامس الميلادي، و اللغة القوطيّة في القرن الرابع الميلادي، و اللغة السلافية القديمة في القرن التاسع الميلادي .

و قد لعبت المسيحية دورا رئيسيا في المحافظة على استمرارية التربيّة و التعليم عبر الكنائس و الأديرة و المؤسسات الدينيّة التي كانت تنشط في هذا الاتجاه لتنصير كافة الناس على هذه المعمورة. و نظرا لتمسك الناس بالمسيحية و تعاليمها ظهر إلى حيِّز الوجود أدب لاتيني مسيحي يناهض الأدب الإغريقي الوثني. و كان هناك تشجيع على الإقبال على الأدب المسيحي و التخلّي عن الأدب الإغريقي. و قد تحدثت بعض الروايات عن ظهور ممارسات عدائية ضد اللغة الإغريقية و ضد الذين يُعلمونها أو يتعلمونها . ففي أثينا مثلا، قام يوستينين (Justinian) في عام 529م بإغلاق أبواب كلّ المدارس الفلسفية لأنها لا تتماشى ـ في رأيه ـ مع

(1) John Waterman , op. cit., p. 11.

الديانة المسيحية. أما خارج أثينا، فقد استمر تدريس الأدب و الفلسفة الإغريقية الكلاسيكية بشكل عام. أما اللغة اللاتينية فقد احتلت مكانا مرموقا في مجال العلم و الثقافة. و حسب ليونز (Lyons) فإن كلّ رقيّ شخصيّ - سواء كان دنيويًا أو إكليريكيًا - كان يعتمد اعتمادا كليًا على معرفة اللغة اللاتينية: اللغة العالميّة، لغة الطقوس الدينيّة، و لغة العلم و الثقافة والدبلوماسيّة. (1) و فيما يلي نحاول أن نلقي نظرة على علوم هذا العصر .

2 ـ 2 ـ علوم العصر :

إذا أردنا أن نعرف كلّ العلوم التي ظهرت في بداية القرون الوسطى، فما علينا إلا أن نرجع إلى التقسيم الشهير للعلوم الذي وضعه الحاكم و الباحث الروماني بطيوس (Boethius) في أواخر القرن الخامس الميلادي. لقد أكّد هذا العلاّمة على أن الفنون الحرّة (Liberal Arts) عددُها سبعة، و تنقسم إلى قسمين : القسم الأوّل يُسمّى بالثلاثيّة (Trivium)، و يضمّ النحو والبلاغة و المنطق. و القسم الثاني يسمّى بالرباعيّة (Quadrivium)، و يشمل الحساب و الهندسة و الموسيقى و الفلك. و كانت مجموعة العلوم الأولى تُدرّس خاصّة قبل البكالوريوس و مجموعة العلوم الثانية تُدرّس في الجامعات بين درجتي البكالوريوس و الماجستير .(2)

2 ـ 3 ـ الدراسات اللغوية الغربية :

اهتم الباحثون في هذه العصور بوضع الشروح و الحواشي للنصوص اللاتينية باللغات العاميّة المتناميّة. و قاموا بسرد الكلمات اللاتينية عامّة، و العسيرة منها خاصة و إيجاد ما يقابلها في هذه اللغات. و تفيد مساردُ الكلمات (Glossaries) الطالب في درسه، و المعلم في تدريسه، و القسيس في وعظه و تبشيره. و فوق هذا، فإنها تُعدُّ سجّلا ثريًا لتاريخ بعض اللهجات التي أصبحت فيما بعد لغات قائمة بذاتها .

و فيما يتعلق بالدراسات النحويّة، فقد التزم نحاة هذه المرحلة بتطبيق القواعد والنظريات التي توصل إليها علماء الإغريق. و ظلّ النحو محلّ اهتمام كلّ من الفلاسفة و النحاة و ذلك نظرا للعلاقة الوثيقة التي ربطت النحو بالفلسفة. و لئن كان النحو قد عُدّ فنًا حرًا و وسيلة

(1) John Lyons, op. cit. , p. 14.
(2) CF. J. Koch (ed), Artes Liberales , Leiden, 1956.

القراءة و الكتابة، فإنه أضحى تابعا لعلم اللاهوت و دراسة العقيدة المسيحية كغيره من الفنون الحرّة الأخرى . و بشكل عام، فإن علماء هذا العصر كانوا يرغبون في إنشاء نظرية معرفيّة واحدة تكتسب بمقتضاها كل العلوم و الفنون مبادئ فلسفية و دينية واحدة.

و إذا كانت المرحلة الأولى من العصور الوسطى قد اتّسمت بضعف فاحش لم يتمكن فيها الباحثون من البروز و التجديد، فإن المرحلة الثانية التي امتدت من حوالي 1100 م إلى نهاية المرحلة القروسطيّة هي التي شهدت تقدما ملحوظا في دراسة اللغة اللاتينية و تثبيت ما يسمى اليوم بالقواعد التقليدية. ففي سنة 1199م ألّف الأسكندر دي فيلاداي (Alexander de Villa Dei) كتابا مدرسيًا في النحو اللاتيني بعنوان : Doctrinale Puerorum في شكل متون شعريّة بلغت 2645 بيت، و ذلك لتسهيل قواعد اللغة اللاتينية على الطلاب. و نال هذا الكتاب إعجاب القراء و المدرسين، ففضلوه على سائر المؤلفات الأخرى حتى نهاية هذه المرحلة. و في القرن الثاني عشر الميلادي، ظهر كتاب قيّم بعنوان : « أوّل رسالة في النحو » لباحث إيسلندي لم تعرف هويته، فلُقب بالنّحوي الأول. و قد عالج في هذا الكتاب عدّة مسائل بينها نظام الكتابة و التركيب و الصوتيات. و في 1301م، ألّف دانتي (Dante) الإيطالي كتابا بعنوان De Vulgan eloquentia تناول فيه اللهجات الإيطالية آنذاك و العلاقات القائمة بينها. و قد عرض في هذا الكتاب مزايا هذه اللغات المنطوقة التي بلغ عددها أربع عشرة و قارنها باللغة اللاتينية المكتوبة. و في العصر الحديث، أُعجب مونان (Mounin) بهذا الإنجاز الضخم، و قال عنه : إنه مصدر الدراسة العلميّة للهجات الإيطالية في القرن الرابع عشر الميلادي .(1)

2 ـ 3 ـ 1 ـ السكولاستية :

مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي، بدأت جميع العلوم و الفنون تنتعش بما في ذلك علوم اللغة. و يرجع سبب انتعاش الدراسات النحويّة الى ظهور الفلسفة السكولاستية والقواعد الفلسفيّة. فالسكولاستيّة (Scholasticism) فلسفة لغوية أوروبية ظهرت في القرون الوسطى و استمرت حتى أوائل عصر النهضة، و قد بُنيت على المبادئ النصرانيّة و منطلقات

(1) G.Mounin, op . cit. , p. 115.

أرسطو الفكرية و مفهومه لما وراء الطبيعة. و كان هدفها الأسمى إخضاع الفلسفة و كل العلوم الأخرى بما فيها النحو للاهوت الكاثوليكي. و من أشهر مفكري السكولاستية القديس توما الاكويني (St Thomas Aquinas) الذي حاول إقامة صلة عقلانية وثيقة بين العقل و الدين لتدعيم العقيدة المسيحية. و يرى ليونز (Lyons) أن الفلاسفة السكولاستيين يشبهون الرواقيين في اهتماماتهم باللغة بعدّها أداة فعّالة تساعد على تحليل " بنية الحقيقة "، و بالمعنى بوصفه وسيلة ضرورية لمعرفة الأشياء حق معرفتها.[1]

2 ـ 3 ـ 2 ـ القواعد الفلسفية :

أما القواعد الفلسفية (Speculative Grammar) فتمثّل تطورا كبيرا في تاريخ اللسانيات . و قد اشتقّ مصطلح "Speculative "من الكلمة اللاتينية "Speculum" أي مرآة. و يدلّ على أن اللغة مرآة تعكس الحقيقة التي تختفي وراء ظواهر العالم الطبيعي. و قد ظهرت هذه القواعد في شكل بحوث حول أنماط المعنى تحت عنوان : De modis Significandi من قبل مجموعة من المفكرين خلال أعلى مرحلة من تطور الفلسفة السكولاستية و ذلك بين 1200م ـ 1350م وحسب روبينز (Robins) فإن هؤلاء النمطيّين يمثّلون الرأي النظري نفسه، و يحملون مفهوما واحدا لعلم اللغة و أهدافه و مكانته بين الدراسات الفكرية الأخرى، و إن القواعد الفلسفية ما هي إلا نتيجة عمليّة لدمج الوصف النحوي اللاتيني لكل من بريسيان (Priscian) و دوناطوس (Donatus) في نظام الفلسفة السكولاستية.[2]

و يرى النمطيّون أن الفيلسوف هو الذي يكتشف النحو بفحصه الدقيق لطبيعة الأشياء و جوهرها، و أن هناك نحوا عالميًا (Universal) ملازما لجميع اللغات الطبيعية لا يبنى على الشكل بل على قوانين العقل و المنطق. و هذا ما ذهب اليه روجربايكن (Roger Bacon) الذي ألّف كتابا في النحو الإغريقي و آخر في القواعد الفلسفية السكولاستية في أوائل القرن العشرين في قوله : " إن النحو في جوهره هو هو في جميع اللغات، و إن الاختلافات السطحيّة بينها ما هي إلا تغيّرات عرضيّة ".[3] و نظرا لمكانة المنطق في النحو عند هؤلاء

(1) John Lyons , op. cit. , p. 14.
(2) R.H. Robins, op. cit. , p. 74.
(3) Ibid.

النحاة، فإنهم شبّهوا الرجل الجاهل بالمنطق بالرجل المجنون في قولهم: " إن مثل المجنون في نظر الإنسان العاقل كمثل النحوي الجاهل بالمنطق في نظر المنطقي المحنك ".[1]

2 ـ 3 ـ 3 ـ الدراسات اللغوية العامة :

اهتم علماء القرون الوسطى على وجه الخصوص بالتفكير اللغوي اليوناني في حدود المنطق الذي هيمن على مختلف الدراسات. و قد استمر التفكير حول العلاقة بين اللغة والفكر، كما استمر الجدال بين دعاة الطبيعة و الاصطلاح، و القياس و الشذوذ، و اشتد الصراع بين الفلسفة الاسمانيّة (Nominalism) و الفلسفة الواقعيّة (Realism) . و في حين ترى الأولى أن المفاهيم المجردة و الكليّات ليس لها وجود حقيقي و إنما هي مجرد أسماء، فإن الثانية ترى أن المادة وجودا حقيقيا مستقلا عن إدراكنا العقلي لها. و بالنسبة للواقعيين الذين استمدوا أفكارهم من أفلاطون، فإن الكلمات تربطها علاقة متينة بالأفكار. و بالنسبة للاسمانيين الذين تأثروا بأرسطو، فإن الأفكار ليس لها وجود حقيقي إلا في عقول الناس، و إن الكلمات ليست أشياء، و إنما هي مجرد أسماء، و إن الأسماء لم تأت عن هذه الشاكلة إلا عن طريق الاصطلاح. و قد مثّل دانس سكوت (Duns Scot) الاتجاه الواقعي، و روسلين (Roscelin) وأبيلارد (Abelard) الاتجاه الاسماني .

و أحرز نحاة هذه المرحلة على بعض التقدم في الدراسات النحويّة لا لشيء إلا لأن النحو هو نحو اللغة اللاتينية، و كان لزاما على اللغة اللاتينية أن تنتشر لأنها لغة الديانة المسيحية. و يبدو جليًا أن هؤلاء النحاة كانوا متأثرين حتى النخاع بما جاء به بريسيان ودوناطوس، و قاموا بتطبيقه حرفيا على نصوص هذه الفترة . أما فيما يتعلق بالصوتيات، فإن النحاة و النمطيين لم يولوا أية عناية بها باعتبار اللغة اللاتينية لغة أجنبية لا يتعلمها الناس إلا بعد تعلم اللغة الأم. و قد ساعدت اللهجات المنبثقة من اللغة اللاتينية على عدم الاكتراث بالأمور الدقيقة في الصوتيات؛ إذ من الصعوبة بمكان الحفاظ على النطق الصحيح لهذه اللغة العالمية التي اقتحمت أبواب العديد من الأمم على اختلاف لغاتهم. أما فيما يخصّ الدراسات

(1) F. Palmer, Grammar, 1971, p. 55.

الإتيمولوجية، فقد ظهرت بعض الأعمال، إلا أنّها لم تكن مبنيّة على أسس عمليّة، فجاءت سخيفة منافية للعقل مثلها في ذلك مثل الأعمال الإغريقية السالفة الذكر. و قد أدّى البحث عن المعنى و بالتالي عن الحقيقة بالنمطيين الى التمييز بين الشكل (Form) و المادة (Matter) و بين الدال و المدلول. و للمنطيين تصور خاص عن الكلمة، و هذا ما وضّحه ليونز (Lyons) بقوله : " إن الكلمة عندهم لا تمثل مباشرة طبيعة الشيء الذي تعنيه، بل تمثل هذه الطبيعة على أنها موجودة في نمط معيّن بوصفه جوهرا أو حدثا أو صفة، و يكون للكلمة هذا العمل باتخاذها الشكل المناسب من أقسام الكلام. و من هنا، يعد النحو نظرية فلسفيّة لأقسام الكلام و أنماط دلالاتها ".[1]

و خلاصة القول:فإن الدراسات اللغوية في القرون الوسطى كانت تندرج في إطار نظرية فلسفية معرفيّة عامة، ثم سرعان ما بدأت تبتعد في آخر المطاف عن التأمل الكلاسيكي و تنكب على دراسة الآداب الجميلة (Belles lettres) و أساليبها متخذة مجرى مغايرا في رؤيته و مفهومه للدراسات النحوية. و هذا ما نستشفه من تصريح سيجر دي كورتري (Siger de Courtrai) في قوله : " إن النحو هو علم اللغة، و إن ميدان دراسته هو الجملة و تغيّراتها، و إن هدفه هو التعبير عن مفاهيم العقل في جمل محكمة البناء ".[2]

2 -4- الدراسات اللغوية العربية :

2-4-1- نشأة اللغة العربية :

تنتمي اللغة العربية الى الأسرة الساميّة التي تضم عددا من اللغات القديمة منها العبريّة و الآشوريّة و السريانيّة و الكنعانيّة و الآراميّة و الحبشية. و يتفق معظم اللسانيين على أن اللغات السامية قد ظهرت لأول مرّة في أرض بابل بالعراق، ثم انتشرت في شبه الجزيرة العربية و البقاع المجاورة لها. و مع مرور الزمن اختلفت هذه اللغات عن اللغة الأولى التي تفرعت عنها، وظلت اللغة العربيّة محافظة على أهم خصائص اللغة السامية الأولى لأنّها كانت تعيش معزولة عن العالم في شبه جزيرة العرب، و لا تستعملها إلا القبائل العربيّة في هذه

(1) John Lyons, op. cit. , p. 15.
(2) Courtrai in Robins, op. cit. , pp. 88-89.

المنطقة الصحراويّة . وكما هو معروف، فإن العالم الألماني شلوتسر Schlozer (1798) هو الذي جاء بمصطلح اللغات الساميّة، إذ حاول تسميّة هذه اللغات التي ظهرت في الشرق الأوسط باسم الأمم إلى أبناء سام و حام ويافث، و رأى أن أسماء هذه اللغات تنطبق على أسماء أولاد سام، فأطلق على هذه اللغات اسم اللغات الساميّة . و بالفعل لقد وردت أنساب نوح عليه السلام في التوراة كما يلي :"و هذه مواليد بني نوح : سام و حام و يافث، و ولد لهم بنون بعد الطوفان ... و سام أبو كل بني عابر أخو يافث الكبير ولد له أيضا بنون، بنو سام : عيلام، و آشور، و ارفكشاد، و لود، و آرام ... و ولد لعابر ابنان، اسم أحدهما فالج لأن في أيامه قسمت الأرض، و اسم أخيه يقطان. و يقطان ولد له الموبود، و شالف، و حضر موت، و يارح، و هدورام، و أوزال، و دقلة، و عوبال، و أبيمائيل، و سبا، و اوفير، و خويلة و يوباب. و كان هؤلاء بني يقطان، و كان مسكنهم من ميشا إلى ناحية سفار جبل المشرق. هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم و ألسنتهم ".[1]

و عن تطور اللغة العربية يقول عمر توفيق سفر آفا : " اللغة العربية التي عرفناها في الشعر الجاهلي و نثره و التي نعرفها اليوم في كتب الأدب و نصوصه مرّت بأطوار عديدة غابت مراحلها الأولى عنا. و لكن مؤرخي العربية اتفقوا على أن العرب عرفوا منذ أقدم عصورهم لغتيْن، الأولى : لغة الجنوب أو اللغة القحطانية، و الثانية : لغة الشمال أو اللغة العدنانيّة. و كان بين هاتين اللغتين فروق كبيرة، ثم تقاربتا تحت تأثير عوامل كثيرة كالحروب والتجارة و الأسواق الأدبية كسوق عكاظ قرب الطائف، وذي المجاز و مجنة قرب مكة فمن الطبيعي أن تتغلب اللغة العدنانية سيادتها على القحطانية و سائر اللغات و اللهجات العربية الأخرى، و أصبحت معروفة بأنها اللغة العربية الفصحى التي تجدها في القرآن و المعاجم اللغوية و شعر العرب و نثرهم ".[2]

و قد كان للبيئة العربيّة البدوية و الحياة العامة في العصر الجاهلي أثر كبير في اللغة والأدب. و في هذا الصدد يقول سفر آفا : " أدى انقسام العرب إلى قبائل متفرقة إلى تعدد اللهجات، و صارت كل قبيلة تطلق على المسمى الواحد اسما يختلف عن اسمه عند

(1) سفر التكوين الاصحاح العاشر
(2) عمر توفيق سفر آفا، الأدب العربي ونصوصه، الدار البيضاء، 1963، ص 16 ـ 17

الأخرى،كما أن كل قبيلة كانت تضع أسماء كثيرة للمسمى الواحد، ذلك لأن عدم تعدد البيئة البدوية وضيقها أدى بالعربي إلى أن يُعنى بكل ما حوله صغيرا كان أم كبيرا، و بكل دقائقه، ومن هنا كثرت المفردات و الجموع و تعددت الأضداد ".(1)

أما عن الدراسات اللغويّة العربيّة فقد بدأت تتطور بعد ظهور الإسلام في القرن الأول للهجرة الموافق للقرن السابع للميلاد، و بدأت تظهر معها بعض المسائل اللغوية التي ناقشها علماء اليونان و الرومان و غيرهم . فمنهم من قال بأنها وضعية اصطلاحيّة، وضعها العربي الأول لتيسير الاتصال و تلبية المطالب الاجتماعية، كما نجد ذلك عند ابن جني في كتابه «الخصائص» ، و منهم من قال بأنها توقيفية، أي أنها إلهام من الله تعالى إلى عبده الأوّل آدم عليه السلام، و حجتهم في ذلك قوله عزّ وجلّ : "و علّم آدم الأسماء كلّها. "

2 ـ 4 ـ 2 ـ النحو العربي :

ترجع نشأة النحو العربي حسب الروايات المتوارثة إلى خشية المسلمين على القرآن الكريم من مخاطر اللحن و التحريف. فلمّا سمع الخليفة الثاني عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بأن هناك أناسا يفاضلون بين القراءات ، سارع إلى جمع كلّ السوّر القرآنية في دار حفصة بنت عمر ، ثم قام بحرقها ، واستكتبهم مصحفا جمع به شمل المسلمين ، أصبح يعرف فيما بعد بمصحف عثمان ، إلاّ أن هذا المصحف كان يعوزه الشكل والتنقيط مما أدّى إلى انتشار اللحن بين أقوام من غير العرب قد دخلت في الإسلام. وكان على المسلمين أن يضعوا حلاً لهذه المعضلة للمحافظة على النص القرآني . وشاءت الأقدار أن يقوم أبو الأسود الدؤلي بهذه المهمة العظمى. فكانت هذه البِداية التي لا جدال حولها للنحو .(2) وفي كتاب «الفهرست» لابن النديم قال أبو الأسود " إذ رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فانقط النقطة نقطتين."(3) ومن هذه الحادثة يتضح لنا أن النحو العربي قد وضع لخدمة أغراض تطبيقية بحتة لتعليم اللغة العربية بوصفها الوسيلة الوحيدة لضبط النص القرآني وفهمه.

(1) المرجع نفسه، ص . 18.

(2) حسان تمام ، الأصول: دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، 1982، ص . 22 ـ 23

(3) ابن النديم، الفهرست ، تحقيق رضا تجدّد ، طهرن ـ مصر 1971، ص . 45.

2 ـ 4 ـ 3 ـ مفهوم النحو عند العرب:

النحو في اللغة الطريق والجهة والجانب . وعلم النحو علم إعراب كلام العرب. وسمّي هكذا لأن المتكلم ينحو به منهاج كلامهم أفراداً وتركيبا.(1) وقد عرّف ابن جنّي النحو بقوله: "والنحو هو انتحاء سمت كلام العرب ... ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة . فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذّ عنها بعضهم ردّه إليها".(2) هذا هو الهدف من النحو عند النحاة العرب ، وقد أكّده ابن السراج بقوله: " النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب . وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب،حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدؤون بهذه اللغة ".(3) وكان العرب يعظمون النحو والنحاة حتى ذهب بهم الأمر إلى تسمية كتاب سيبويه « الكتاب» أو وصفه بأنه قرآن النحو.

2 ـ 4 ـ 4 ـ النحاة العرب والمدارس النحوية:

ومن النحاة العرب الأوائل الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي ولد بالبصرة سنة 100 هـ وتوفي بها في سنة 175 هـ ، وعمره خمس وسبعون سنة . وكان الخليل قد عالج عدّة نظريات تتعلق بالنحو ، والصرف، والعروض ، والقياس ، والمعاجم ، والصوتيات . وقد قال عنه ابن النديم : إنه "كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ... و أوّل من استخرج العروض وخصّ به أشعار العرب."(4) وفيما يتعلق بكتاب العين للخليل فقد قال عنه ابن النديم أيضا : "حروفه على ما يخرج من الحلق و اللهوات فأولها : العين (وبه سمي)، الحاء ، والهاء الخاء، الغين، القاف ، الكاف ، الجيم ، الشين ، الصاد ، الضاد، السين، الزاي، الطاء ، الدال التاء، الظاء، الذّال، الثاء، الراء، اللام، النون، الفاء ، الباء، الميم ، الألف ، الياء ، الواو ."(5) ويحتوي كتاب العين على ثمانية وأربعين جزءا ، ويُعدّ أول معجم ذي قيمة كبيرة في اللغة العربية .

(1) أنظر . منجد الطلاب لـ: لويس معلوف اليسوعي ، بيروت : دار المشرق 1974

(2) عثمان ابن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية 1952 ـ 1957 ج1 ص 32.

(3) ابن السراج: أصول النحو ، تحقيق الدكتور عبد المحسن الفتلي ، بغداد 1974 ص . 37.

(4) ابن النديم : المصدر السابق، ص . 48.

(5) المصدر نفسه ، ص . 48.

لقد لعب الخليل دورا رئيسيا في بناء نظريّة عربية كاملة شملت كلّ مستويات اللغة من صوتيات ونحو ودلالة. وهذا ما جعل حسان تمام يقول : إن " دوره في بناء النظرية النحويّة يضعه في منزلة بين النحاة لم يبلغها أحد قبله، ولا أحد بعده ، حتى تلميذه سيبويه. فقد كان الفضل الأكبر لسيبويه أنه جمع واستوعب وسجل. فأما الخلق والابتكار فقد كانا من نصيب الخليل في الأغلب الأعم مما اشتمل عليه كتاب سيبويه . فجمع مادته كما قال هو للكسائي من بوادي الحجاز ونجد و تهامة ... ولم يقف من الانتفا ع بهذه المادّة عند إكمال النظرية النحويّة فقط، وإنما انتفع بها أيضا في حقل اللغة." (1)

ويجمع النحاة العرب على أن النحو العربي قد بلغ ذروته على يد سيبويه في آخر القرن الثاني للهجرة . وقد اعتمد سيبويه في دراسة الظواهر اللغوية طريقة تجمع بين الوصفية والمعيارية . فجمع في كتابه خمسين وألف بيت من الشواهد بالإضافة إلى عدد هائل من آيات القرآن الكريم. وقد لخص الرماني النحوي محتوى هذا الكتاب بقوله : إنّ فيه "كلّ ما يؤدي إلى سلامة اللغة في ألفاظها من حركة وبناء، وفي تراكيبها من تقديم وتأخير وذكر وحذف وفي معرفة حقائقها وأسلوب الكلام على سمتها، فكان في الكتاب نحو وصرف، وبلاغة و نصوص أدبية من قرآن وشعر ونثر ، وكان فيه قراءات وأصوات ولهجات ."(2) وكما ورد في كتاب الفهرست لابن النديم " كان المبرد إذا أراد إنسانا أن يقرأ عليه كتاب سيبويه، يقول له : هل ركبت البحر ؟ تعظيما له واستصعابا لما فيه . وكان المازني يقول : من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه ، فليستحي ."(3) ويعترف اللسانيون اليوم بفضل سيبويه والعلماء العرب الآخرين وبخاصة في ميدان الصوتيات . وحسب ما ذهب إليه روبينز (Robins) فإن سيبويه قد قام بوصف أصوات اللغة العربية وصفا دقيقا مستقلا ، غير أنّه لم يصل إلى المستوى الذي وصل إليه الهنود . فقد نجح سيبويه وغيره من النحاة العرب في عرض كلّ أعضاء الكلام وميكانيزمات التلفظ بطريقة منتظمة ، كما استطاعوا التعبير عن الفونيمات

(1) حسّان تمام ، المرجع السابق ، ص . 257
(2) مازن المبارك، الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه ، مطبعة جامعة دمشق ، 1963 ص . 110
(3) ابن النديم ، المصدر السابق ، ص . 57

القطعية (segmental phonemes) في اللغة العربية بمصطلحات دقيقة ... أما عن تأثير الهنود في الصوتيات العربية، فهذا أمر مشكوك فيه ، ولو أنّه قد اقترح من قبل بعض الباحثين، وتعدّ انجازات العرب في هذه الشعبة من اللسانيات أكثر تطورا من أعمال الإغريق والرومان.(1)

ومع انتشار الإسلام في العراق، أصبحت الكوفة والبصرة مركزين من مراكز المسلمين ثم أنشئت في هاتين المدينتين مدرستان نحويتان سميتا بمدرسة البصرة ومدرسة الكوفة . وكان بينهما خلاف في القضايا النحوية وتنافس شديد يشبه إلى حدّ بعيد الصراع الذي كان موجودا بين مدرسة الأسكندرية (Alexandria) ومدرسة برجامون (Pergamon) في المرحلة اليونانية وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد . وكان من أشهر الوافدين المسلمين على هاتين المدينتين أنس بن مالك الذي نزل بالبصرة وعبد الله بن مسعود الذي وفد على الكوفة . وقد اتّخذت البصرة اتجاها فكريًا فلسفيًا اعتمد فيه على العقل والقياس لمقارعة الحجّة بالحجّة ومناظرة كلّ من يحلو له النقاش من الأجناس المختلفة التي كانت تقطن هذه المدينة من عرب وعجم. وبهذا يشبه اتجاه مدرسة البصرة اتجاه مدرسة الأسكندرية . ويقول "روبينز " في هذا الصدد : " إن البصرة قد ركّزت على الانتظام الدقيق والطبيعة المنتظمة للغة كوسيلة للخطاب المنطقي ... وهنا من الممكن أن تكون أفكار أرسطو في القياس قد أثّرت على هذه المدرسة وأن تكون الفلسفة الإغريقية والعلم الإغريقي قد أثّرا على أساليب تعليم اللغة العربية".(2) وقد امتازت مدرسة البصرة بالتفوق على مدرسة الكوفة في المسائل النحوية حيث لقيت مصطلحاتها رواجا كبيرا في أوساط الدارسين والباحثين بالمقارنة إلى مدرسة الكوفة التي كانت مصطلحاتها غير دقيقة . وفي الحقيقة ، فإن مدرسة الكوفة كان يغلب عليها طابع النقل والوصف والأخذ بالأشياء كما وجدت . ومنهم من يرجع هذا الاتجاه إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الذي كان من حفاظ القرآن ورواه الحديث . وهذا مَا وَرَدَ بالضبط على لسان حسان تمام في قوله: " لعلّ هذا الارتباط بين ابن مسعود وبين النصوص هو الذي أثر في توجيه الثقافة الكوفية إلى النقل ."(3)

(1) Robins, op. cit. , p 98.
(2) Ibid. , p. 97.
(3) حسان تمام: المرجع السابق ، ص . 2

ومع مرور الزمن ظهرت مدارس نحوية أخرى مما أدّى إلى اتّساع هوّة الاختلاف في رؤية الظواهر اللغوية والحكم عليها. فكانت اختلافات في المسألة النحوية الواحدة ، وفي كيفية القياس والسماع ، وفي نوع اللغة التي يؤخذ بها في تقنين القواعد . وهذا ما أكّده أبو مُغلي سميح بقوله : "من الطبيعي أن ذلك التباين وتلك الاختلافات في الآراء النحوية وأحكامها مردها إلى نشوء الفرق والمذاهب البصرية، والكوفية ، ثم البغدادية ، والأندلسيّة ، والقاهرية ، كلّ فريق يستنبط أحكامه وقواعده من اللغة التي تحيط به ، وفضلا عن ذلك فقد كثر من خالف رأي فرقته البصرية أو الكوفية أو غيرها ."(1)

ويجمع النحاة العرب على أن هناك مؤلفات عديدة في علوم اللغة والنحو قد ضاعت من بين أيدي العرب ، ولم تصل إلينا إطلاقا . ويلاحظ القارئ « للكتاب » أن سيبويه قد ذكر بعض آراء النحاة الذين سبقوه منهم عبد الله بن اسحق الحضرمي (ت 117 هـ)، وعيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ)، ويونس بن حبيب (ت 183 هـ). أما النحويون الذين جاءوا بعد سيبويه فهم كثيرون كما تذكرهم كتب الطبقات منهم الأخفش سعيد بن مسعدة الذي كان له فضل كبير في تكوين عدد من التلاميذ منهم أبو عمر الجرمي (ت 220 هـ)، وأبو اسحق الزيادي (ب 249 هـ) الذي يُعدُّ أوّل من ألّف كتابا بعنوان: « شرح كتاب سيبويه»، وأبو عثمان المازني (ت 248 هـ) الذي وضع كتاب « التصريف»، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285 هـ) الذي ألّف كتبا كثيرة أهمها « المقتضب» . ومن تلاميذ المبرد أبو بكر بن السراج (ت 316 هـ)، وأبو اسحق الزجاج (ت 311 هـ)، وابن درستويه (ت 331 هـ) الذين يُعدّون من أكبر نحاة بغداد.

وهكذا بدأ عدد المهتمين بالدراسات اللغوية والنحوية يتزايد في القرون الموالية. ونحب في هذا المقام أن نذكر بعض الأسماء اللامعة الأخرى ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر: منهم الكسائي (ت 197هـ)، والفرّاء (ت 207 هـ) ، وثعلب (ت 291 هـ)، وابن جني (ت 391 هـ) وابن ولاّد (ت 332 هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ت 338 هـ) ، وأبو علي الفارسي (ت 377 هـ) ، والرماني (ت 385 هـ) ، وابن جني (ت 391 هـ).

(1) سميح أبو مغلي : في فقه اللغة العربية وقضايا العربية ، عمان: دار مجدلاوي، 1987، ص 122

ومن جهة أخرى، لقد شهد القرن الرابع الهجري ظهور مجموعة من الكتب النحوية التعليمية مثل كتاب« الجمل » للزجاجي (ت 337 هـ)، و « الموجز في النحو » لابن السراج (ت 316 هـ)، وكلّ من « الإيضاح» في النحو ، و « التكملة » في الصرف لأبي علي الفارسي (ت 377 هـ)، و « اللمع » لابن جني (ت 392 هـ). وبعد هذه المرحلة ، بدأت تبرز إلى حيّز الوجود المنظومات النحويّة . وكانت أشهرها ألفية ابن مالك (ت 672 هـ). وقد اهتم الدرسون بشرحها وبتعليق الحواشي على شروحها منذ ظهورها إلى يومنا هذا . ومن المحاولات الأخيرة لشرح الألفية ما قام به الدكتور صبيح التميمي في كتاب ظهر في 1410 هـ الموافق لـ 1990 م بعنوان « هداية السالك إلى ألفيّة ابن مالك ».(1) كما بدأت تظهر الموسوعات النحوية، وكانت أولها « المفصّل » للزمخشري (ت 538 هـ) التي شملت كلّ المسائل النحوية والتي قام ابن يعيش(ت643 هـ) بشرحها شرحا وافيا. ومن أشهر الموسوعات التي ظهرت في هذه الفترة « مغني اللبيب » التي قام بتأليفها ابن هشام (ت 762 هـ).

2 ـ 4 ـ 5 ـ النحو العربي والمنطق الأرسطي :

وما دمنا نتحدث عن الدراسات النحوية العربية ، فلا يسعنا إلاّ أن نذكر ما وجّه من نقد إلى النحو العربي لتأثره بالمنطق الأرسطي. وكما هو معلوم ، لقد تناول كثير من الباحثين هذه المسألة بالدراسة ، وانقسموا إلى مؤكد ومناف لوجود اتصال بين النحو العربي ومنطق أرسطو. وفي الحقيقة ، لقد أحيا العرب بعد الرومان التراث الإغريقي ، وقاموا بترجمته إلى اللغة العربية معتمدين على مصادره الأولى مبتعدين في ذلك عن الترجمات اللاتينية . ويرى اللساني الإنجليزي ليونز (Lyons) " أن النحو الذي وضعه ثراكس (Thrax) قد تُرجم إلى اللغة الأرمينية في القرن الخامس للميلاد و إلى اللغة السريانية بعد ذلك ، ثم أخذ النحاة العرب عن السريانيين . وقد كان العرب على اتصال مباشر بالدراسات الإغريقية والرومانية في أسبانيا . وتأثر الوصف النحوي القومي للغات الأرمينية والسريانية والعربية والعبريّة تأثرا شديدا بالمناهج الوصفية الإغريقية الرومانية قبل استقطاب هذه اللغات انتباه الباحثين

(1) صبيح التميمي : هداية السالك إلى ألفية ابن مالك ، الجزائر ـ قسنطينة دار البعث ، 1990.

الأوروبيين إليها في عصر النهضة ."(1) وفي هذا الصدد يؤكد روبينز (Robins) على أن نسبة كبيرة من الأعمال الفلسفية الإغريقية قد أدخلت مرة أخرى إلى أوروبا الغربية من خلال الترجمة العربية واليهودية أثناء الاحتلال العربي لأسبانيا . وقد عرف كثير من السكولاستيين الفلسفة الأرسطية عن طريق الترجمة العربية التي نهض بها علماء من أمثال الفارابي وابن سينا بدلا من معرفتها من أصلها الإغريقي."(2) إنّ هذه الشهادات المسجّلة بأقلام غربية تدلّ على الدور العظيم الذي لعبه علماء العرب خلال القرون الوسطى في ترجمة التراث الإغريقي من مناهله الأولى بدقة متناهية وأمانة منقطعة النظير . ولم يتوقفوا عند حدّ الترجمة، بل قاموا بتطوير آرائهم الخاصّة والإبداع في فروع علميّة عديدة .

ومهما يكن من أمر ، فيكاد يجمع النحاة والفلاسفة العرب على نقاوة النحو العربي وعروبته ، وعلى عدم وجود أي اتّصال بينه وبين المنطق الأرسطي في مرحلة النشأة واكتمال المنهج على يدي الخليل وسيبويه غير أنهم يقرون بوجود هذا المنطق بين أيدي النحاة العرب في القرن الثالث الهجري . وهذا ما ذهب إليه عبده الراجحي بقوله: "والثابت لدى المؤرخين أن ترجمة المنطق الأرسطي تمت على يد حنين بن إسحق (ت 264) وتلاميذه حين نقلوا (الأورجانون) كله من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية، أو من اليونانية إلى العربية مباشرة ."(3) ويحسن أن نشير هنا إلى اللساني روبينز (Robins) الذي قال: " إن مدى تأثير كتاب Techné لـ : ثراكس على النظرية النحوية العربية مختلف فيه على الرغم من أن هذا العمل قد ترجم إلى الأرمينية والسريانية في العهد المسيحي، ويمكن أن يكون قد دُرس من قبل العرب. " وقد أردف قائلا مشاطرا رأي فلايش (H.Fleisch) في هذا الخصوص : " إنّه لمن المؤكد بأن اللغويين العرب قد طوّروا نظرتهم الخاصة بهم فيما يتعلق بتنظيم لغتهم وتقنينها ولم يفرضوا، بطريقة أو بأخرى ، النماذج الإغريقية على اللغة العربية ، كما قام النحويون اللاتين بفرضها غصبا على لغتهم."(4)

(1) John Lyons, op. cit. , pp. 18 - 19.
(2) R.H. Robins, op. cit. , p. 75
(3) عبده الراجحي : النحو العربي والدّرس الحديث بحث في المنهج، بيروت : دار النهضة العربية ، 1979، ص : 63 ـ 64.
(4) R.H. Robins , op. cit. , pp. 97 - 98.

والذي يجب أن نشير إليه هنا هو أن وجود الجانب العقلي في النحو العربي لا ينبغي أن يرجعه الباحثون إلى تأثير النظرة الفلسفية العقلية الأرسطية عليه. فالنظر العقلي والتفكير المنطقي يتصف بهما كلّ إنسان عاقل راشد لأن الله تعالى فضّل بني آدم على سائر المخلوقات بالعقل . فالمنطق الأرسطي منطق صوري. أما المنطق الذي كان بحوزة علماء العرب فهو منطق طبيعي . ومع هذا فلا يمكننا أن نجزم قطعيًا عدم اتّصال كلّ النحاة العرب بالمنطق الأرسطي. فالمعتزلة ـ كما تقول بعض الروايات ـ كانوا قد وفّقوا بين المنطق الصوري والمنطق الطبيعي على الرغم من الاستنكار الذي لحقهم من قبل الجماعة الإسلامية سواء من العلماء أو العوام . ولئن كان الجانب العقلي قد طغى بعد هذه المرحلة على بعض النحاة مثل الفراء والزجاجي والزمخشري وغيرهم ، فإن هذا لا يعني أنهم تبنوا منطق أرسطو بحذافيره بل دارسوه وناقشوه ، ورفضوا الكثير من جوانبه ، وأخذوا ماهو مناسب لطبيعة لغتهم.

ومن جهة أخرى، فإن علماء الإسلام ـ كما تذكر الكثير من الروايات ـ قد اتّخذوا موقفا مناهضا للمنطق الأرسطي لأنه لا يتماشى وخصوصيات اللغة العربية . وفي هذا السبيل يقول محمد فتحي السنيطي: " أما عند مفكري الإسلام فقد كانت لهم وقفة عند منطق أرسطو، فلقي هجوما شديدا يستند إلى الحجة القائلة بأن منشأه اليوناني يجعله منطقا يونانيًا غير منفك عن اللغة اليونانية، مصطبغا بصبغتها ومتصفا بصفاتها ومتميّزا بمميّزاتها . ولما كانت هذه اللغة من حيث مقوماتها وخصائصها تختلف عن اللغة العربية، فليس من المستساغ تطبيق منطق وضع متمشيا مع لغة معينة على لغة الضاد. وأصحاب هذا الهجوم وفي مقدمتهم الإمام الشافعي وابن تيمية يدعون إلى أن يكون للغة منطقها المنسجم مع أصولها وخصائصها ."(1) ثم استطرد قائلا : "رغم هذا الهجوم على منطق أرسطو والدعوة إلى منطق يتمشى مع سمات اللغة العربية ، فقد كان الاتّجاه الغالب الانتفاع بالدراسات المنطقية في المسائل النحويّة. وليس ثمّة شك في أن المنطق كان من بين العوامل الأساسية التي أثرت في نشأة علم النحو العربي وتطوره. "(2)

(1) د. محمد فتحي السنيطي، أسس المنطق والمنهج العلمي ، بيروت: دار النهضة العربية ، 1970، ص 33.
(2) المرجع نفسه ص 34.

وكما يجمع مؤرخو العربية ، لقد ازدادت عناية علماء العرب بالمنطق والاستفادة به في الدراسات النحوية منذ القرن الثالث للهجري بعد أن نشطت حركة الترجمة وأصبحت الفلسفة اليونانية شائعة بين كلّ النحاة العرب. وقد أُثر عن أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي أنه كان في كل المسائل يمزج كلامه بالمنطق. وقد بلغ الحدّ بأبي حيان التوحيدي في «المقابسات» أن قال: " إن النحو منطق لغوي، والمنطق نحو عقلي" ثم أردف قائلا : " وبهذا تبيّن لك أن البحث عن المنطق قد يرمي بك إلى جانب النحو ، والبحث عن النحو يرمي بك إلى جانب المنطق . ولو أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحويًا، والنحوي منطقيًا ، خاصة والنحو نحو اللغة العربية ، والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها ."(1)

وخلاصة القول : فإن الدراسات النحوية العربية قد بلغت إلى مستوى علميّ رفيع ونضج فكري مستنير. لقد جمعت بين النقل والعقل والوصف والتحويل . وهناك مظاهر عديدة تناولها العرب بالدراسة المستفيضة، ولم يتطرق إليها علماء الغرب إلا في القرن العشرين، قد شملت هذه الدراسات ميادين عديدة منها المورفولوجيا ، والتركيب، والدلالة، والصوتيات وصناعة المعاجم . ولا يمكننا في كتاب من هذا النوع الذي يرمي إلى تقديم نظرة شاملة عن اللسانيات منذ النشأة إلى القرن العشرين أن نتحدث بإسهاب عن كل الإنجازات اللغوية التي توصل إليها الباحثون العرب ، بل إن كلّ ميدان من هذه الميادين يحتاج إلى عدّة مباحث ومؤلفات في ضوء اللسانيات الحديثة . وهذا لا يعني أن كلّ الدراسات اللغوية العربية لم يعترها أيّ ضعف أو خلل. وكما يقول الدكتور أحمد مختار عمر: " على الرغم مما شاب النحو العربي من شوائب ، وما وجه إليه من نقد ، فلا أحد يستطيع أن ينكر قيمة النحو العربي ومقدرة النحاة الفائقة التي تصل أحيانا إلى حد الإعجاز."(2)

وقد أورد لنا أحمد مختار عمر بعض الشهادات التي أدلى بها بعض الباحثين عن قيمة النحو العربي ، ارتأينا أن نذكرها هنا نظرا لأهميتها ومغزاها العميق(3) منها أن الأستاذ

(1) أبو حيان التوحيدي ، المقابسات ، القاهرة ، 1924، ص 137

(2) أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب : مع دراسة لقضية التأثير ، القاهرة : عالم الكتب ، 1982، ص 148

(3) المرجع نفسه، ص ، 148 ـ 149.

عباس حسن قال : " أيّنا لا تبهره تلك العناية المعجزة التي بذلها الأولون في جمع أصول اللغة ولمّ شتاتها، واستنباط أحكامها العامّة والفرعية وحياطتها بسياجٍ من اليقظة الواعية والحيطة الوافية. " بل إن ابن مضاء ـ برغم عدائه الشديد للنحاة ـ يقول : " وإني رأيت النحويين ... قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن ... فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي أموا". وقال أحد المستشرقين " إن علم النحو أثر من أثار العقل العربي، لما فيه من دقة في الملاحظة ونشاط في جمع ما تفرق ، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره ، ويحق للعرب أن يفخروا به " . وحمل يوهان فك على القول : " ولقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب ... بعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها ... حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد ."(1)

وبعد، فهذه نظرة موجزة عن أهم الدراسات النحوية في القرون الوسطى عند العلماء الأوروبيين والعرب . والملفت للانتباه أن كلّ نقطة من النقاط المذكورة آنفا تحتاج إلى الدرس المعمق والمزيد من التفصيل، ولكن نكتفي بهذا القدر لنتطرق في الفصل التالي إلى الدراسات اللغوية في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث .

(1) المرجع نفسه ، ص ، 148 ـ 140.

الفصل الثالث
الدراسات اللغوية في عصر النهضة
ومطلع العصر الحديث

إن مصطلح النهضة (Renaissance) مفهوم أوروبي محض، يعني لغويًا الانبعاث أو الولادة من جديد. ويدلُّ في الاصطلاح على تلك الفترة الانتقالية التي حدثت في أوروبا بين العصور الوسطى والعصر الحديث؛ أي منذ القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد.

والثابت لدى المؤرخين أن حركة النهضة قد انبعثت من إيطاليا مهد الحضارة الرومانية ثم انتشرت بسرعة كبيرة في باقي الدول الأوروبية . وتميزت هذه المرحلة بازدهار العلوم والفنون وظهور المفاهيم الكلاسيكية.

3 ـ 1 ـ الدراسات اللغوية :

يطلق الباحثون اليوم على الدراسات اللغوية التي انجزت في هذا العصر اسم لسانيات النهضة (Renaissance Linguistics). وقد شهدت هذه الفترة نشاطات فكرية كبيرة، واشتدت العناية باللغة وكلّ ما يتصل بها من قريب أو بعيد منها: إحياء اللهجات الأوروبية المتنامية واكتشاف لغات جديدة، وتقنين القواعد، وإصلاح أنظمة الكتابة والتهجئة، والاهتمام بالآداب بمختلف أشكالها. وقد عرف هذا العصر إقبالا منقطع النظير على دراسة اللغات الآرية والشرقية نظرا لما تحمله من تراث عريق، ولما تتمتع به من مكانة مرموقة في نظر المستشرقين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء هذا العصر قد تخلّوا عن الفلسفة السكولاستية (Scholasticism)، وتأثرو بالمفاهيم الكلاسيكية. وبلغ الأمر ببعض الباحثين إلى نبذ اللغة اللاتينية المستخدمة في المدارس والعودة إلى لغة الآداب الكلاسيكية مثل لغة شيشيرون (Cicero) وفيرجيل (Virgil) . ونظرا لإيمان هؤلاء الباحثين بالقيم الإنسانية والحضارية الرفيعة التي تميزت بها الآداب الإغريقية والرومانية، فقد انكبوا على جمع كلّ النصوص النموذجية ونشرها في دور الطباعة التي ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. وتؤكد كثير من الروايات على أن كُتّاب النهضة كانوا يتمتعون بالحقوق والحريات الكاملة ، وذلك عكس نظرائهم في القرون

الوسطى الذين حُرموا من دراسة الآداب والفنون والفلسفات الإغريقية التي عدُّوها وثنيّة المحتوى لانكية المقصد. وقد عرف هذا العصر اهتمامات متزايدة باللغات الأوروبية العامية والآداب القومية الناشئة ، وباللغتين العربية والعبرية على وجه الخصوص. ومما لا ريب فيه أن كتاب هذا العصر قد افتتنوا بأسلوب الأدباء القدامى وبفكرهم الرائد. فتأثروا بهم إلى حد النبوغ: فقلّد راسين (Racine) الفرنسي سوفوكليس، وقلّد دانتي (Dante) الإيطالي فيرجيل وقلّد ميلتون (Milton) الإنجليزي هوميروس.

3 ـ 2 ـ تقنين القواعد :

إذا كانت القواعد الفلسفية السكولاستية لم تلق إقبالا كبيرا في هذا العصر، فإن القواعد القروسطية مثل قواعد الاسكندر دي فيلديو (Alexander de Villedieu) قد ظلت رائجة بشكل ملفت للانتباه. وقد كان الغرض من وراء تأليف القواعد في هذه المرحلة هو تلقين المبادئ الأساسية الكتابة الصحيحة والكلام الفصيح . وبالفعل فقد ظهرت مؤلفات نحوية باللغة اللاتينية قام بكتابتها نحويون من مختلف البلدان الأوروبية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر

1 ـ إراسموس Erasmus (1466 ـ 1536) : كتب قواعد لاتينية في سنة 1513، و تأثر فيها تأثرًا شديدا بقواعد دوناطوس (Donatus).

2 ـ سكاليجر J.C. Scaliger (1540 ـ 1609). ألّف كتابا في القواعد اللاتينية بعنوان: De causis lingua latina

3 ـ بطرس راميPetrus Ramus : ولد هذا النحوي الشهير في عام 1515م، وألّف عدّة كتب في القواعد الإغريقية واللاتينية والفرنسية، وأتى بنظرية نحوية أطلق عليها: Scholae grammaticae

4 ـ سانكتيوس Sanctius :ألّف كتابا في القواعد اللاتينية بعنوان Minerva seu de causis lingua latinae . ونظرا لقيمته الأكاديمية، فقد لقي رواجا واسعا ـ وصار مقررا على الدارسين في المدارس الأوروبية.

5 ـ ليلي W. Lily : نحوي إنجليزي أولع باللغة اللاتينية فأتقنها، وألّف كتابا شاملا في قواعدها. وكان قد تأثّر إلى حدٍّ بعيد بالنحوي الروماني الشهير بريسيان (Prisian). ولقد نال هذا الكتاب إعجاب ملك بريطانيا هنري الثامن (Henry VIII)، فأمر باستعماله في جميع المدارس ابتداء من 1540 م.

وإذا كانت حركة وضع قواعد اللغات القومية العامية قد ظهرت في العصور الوسطى بشكل محتشم ، فإنها قد نشطت نشاطا لا نظير له في هذا العصر. وما يميّز هذه القواعد كلّها أنها غلب عليها الطابع الأرسطي المعياري ، وطغت عليها المقولات المنطقية والفلسفية، مثلها في ذلك مثل القواعد الإغريقية واللاتينية ، وتُشيرُ الأبحاث إلى ظهور قواعد عديدة في هذه المرحلة . فقد ظهرت القواعد الإيرلندية في القرن السابع الميلادي ، والإيسلندية في القرن الثاني عشر الميلادي، والبروفنسية (Provincial) في القرن الثالث عشر الميلادي ، والفرنسية في القرن الرابع عشر الميلادي ، وقواعد كلٍّ من الإيطالية والأسبانية والبرتغالية والسلافونية والبولونية والباسكية في القرن السادس عشر الميلادي . أمّا خارج أوروبا ، فقد ظهرت قواعد الفرس واليابان في القرن السابع عشر للميلاد ، وقواعد اللغات الوطنية المستعملة في المكسيك (نهواتل Nahuatl) والبيرو (كوشيَّة Quechua) والبرازيل (غواراني Guarani) في 1547 م و1560 م و 1639 م على التوالي.

وفي هذا العصر، انكب الباحثون على تأليف الكتب المدرسية في معظم اللغات الأجنبية نتيجة للتطور الحاصل في العلاقات الدولية . ومن أشهر هذه المؤلفات، مؤلف بارسيفال (Percyvall) في اللغة الإسبانية للطلاب الإنجليز، ومؤلف بالسغراف (John Palsgrave) الموسوم بـ : Eclarcissement de la langue françoyze (1530). وفي لندن ألّف دي سانيلين (C.L. de Sain-lien) في عام 1580 م كتابا بعنوان De promuntiatione linguae gallicae. وفي جنيف، وضع ثيودور دي باز (Theodore de Bèze) في سنة 1584م كتابا في اللغة الفرنسية بعنوان :

De Francicae linguae rectae pronunciatione tractatus.

كما ألّف باركلاي (A.Barclay) أيضا كتابا بالإنجليزية عن اللغة الفرنسية بعنوان :

The introductorie to writte and pronounce Frenche (1521). [1]

(1) Georges Mounin, op. cit., p. 121.

3 ـ 3 ـ مدارس بور روايال :

من أشهر المدارس النحوية التي ظهرت في عصر النهضة، وذاع صيتها كثيرا في فرنسا وخارجها مدارس « بور روايال » (Port Royal) . وقد أسّست هذه المدارس في 1637م، وحلّت في 1661م نتيجة الصراعات الدينية والسياسية في فرنسا آنذاك . وقد نشر أول عمل لأصحابها في سنة 1660م تحت عنوان : النحو العام والعقلي Grammaire générale et raisonnée، وأعيد نشره في عام 1830م . والشيء الذي يستدعي الانتباه أن هذا النحو قد تضمن أمثلة ونماذج من اللغة الإغريقية واللاتينية والعبرية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى وظل محل اهتمام النحاة الغربيين لأزيد من قرنين كاملين . ومن الواضح أن أساتذة هذه المدارس كانوا متأثرين بالمذهب العقلي (Rationalism) والفلسفة السكولاستية (Scholasticism).

وعلى أية حال، فإن استمرار الصراع الفلسفي على أشدّه بين المذهب العقلي والمذهب التجريبي من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر للميلاد قد أدّى إلى التباين في وجهات النظر حول منهج الدراسة اللغوية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المذهب العقلي كان سببا رئيسيا في ظهور القواعد العالمية (Grammaire universelle) الفلسفية في فرنسا ، كما هو الشأن بالنسبة إلى مدارس " بور روايال " . ويرى أصحاب المذهب العقلي أن العقل في ذاته مصدر كل معرفة ، وهو بهذا أسمى من الحواس ومستقل عنها . ومن هذا المنطلق، شرع النحويون العقلانيون يبحثون عن ماهو مشترك بين جميع اللغات بغض النظر عن الاختلافات التي تنشأ من البنية السطحية . وهكذا فإن الهدف من وراء النحو العام والعقلي ـ كما بيّن ذلك ليونز (Lyons) ـ " أن يثبت أن بنية اللغة من نتاج العقل وأن اللغات البشرية المختلفة ما هي إلا أنماط تشعبت من منطق عام ونظام عقلاني واحد ".[1] ومهما يكن من أمر ، فإن أصحاب هذا النحو كانوا يرون في العقل البشري قوة لا تضاهى، ويفضلون الفيلسوف الفرنسي ديكارت على الفيلسوف الإغريقي أرسطو. وفوق هذا وذاك ، فلا يزال المذهب العقلي

(1) John Lyons, op. cit. , p. 12.

مهيمنا على فكر النحويين وعلماء اللسانيات إلى يومنا هذا، ونلحظ هذا جليًا في مؤلفات همبولدت، ويسبرسن ، وتشومسكي، وفيلمور وغيرهم.

أما المذهب الثاني الذي أثّر في اتجاه الدراسة اللغوية، فهو المذهب التجريبي (Empiricism). وقد ظهر لأوّل مرة في بريطانيا كرد فعل على الأفكار السكولاستية التي سادت في القرون الوسطى من جهة ، ومحاكاة للنظرة العلمية الجديدة التي تمخضت عن أعمال كوبرنيك (Copernicus) وغاليلي (Galeleo) من جهة أخرى ، وإذا كان فرانسيس بايكن (Francis Bacon) قد أكّد على أهمية الملاحظة والاستقراء في إرساء دعائم العلوم المختلفة، فإن النحاة التجريبيين بدورهم تبنوا هذه المبادئ المنهجية ، وقاموا بدراسة كل لغة على حدة تبعا لطبيعة بنيتها ومميّزاتها الخاصة، ورفضوا بذلك الخوض في الحديث عن الكلّيات اللغوية (Linguistic universals) والفلسفة العقلية ، ولهذا المذهب كذلك دعاته في العصر الحديث ومنهم الوصفيون (Descriptivists)، وعلى رأسهم دي سوسير في أوروبا، وبلومفيلد في أمريكا.

3 - 4 - المجامع اللغوية :

أدّى الاهتمام الشديد باللغات الوطنية والروح القومية بمعظم سلطات الدول الأوروبية إلى تأسيس المعاجم اللغوية. ففي بريطانية مثلا، أُسس المَجمع الملكي عام 1662 م للمحافظة على اللغة الفصحى، وتشجيع البحث اللغوي، وضبط المصطلحات. وفي فرنسا ، أُسّست الأكاديمية الفرنسية سنة 1637م من قبل الكاردينال ريشليو (Cardinal Richelieu) لترسيخ مفردات اللغة الأدبية وقواعدها ، ومحاربة كلّ ما هو دخيل ومبتذل، والحيلولة دون انخفاض المستويات اللغوية والأدبية التي بلغتها اللغة الفرنسية في أعزّ أيامها كما يزعمون .

3 - 5 - اللغات العالمية :

من الأمور التي سادت كثيرا في هذا العصر المحاولات المتكررة لابتكار لغات عالمية (Universal Languages). ويتعلق الأمر بإنشاء لغة واحدة للبشرية جمعاء تتميز بتصنيف منطقي عام لكل المفاهيم والمقولات ، وتتألف من أبجدية اصطناعية، وعدد قليل من القواعد التركيبية

والصرفية المبسطة. ويقصد اللغويون من وراء ابتكار هذه اللغات العالمية إلى تقليص الجهد المبذول عن تعلّم لغات مختلفة، وتيسير التحصيل المعرفي وعملية التواصل، وتوسيع السياحة والتجارة، ومن ثمة خلق نظام عالمي جديد. ومن الأغراض المتوخاة أيضا توحيد الكنائس وتسهيل مهمة المبشرين ، وجمع شمل المسيحيين في مختلف أرجاء العالم. والغريب في الأمر أن مبتكري هذه اللغات قد أضفوا صفة " العالمية " عليها على الرغم من أن مكوناتها الصوتية والنحوية والدلالية لم تؤخذ إلا من بعض اللغات الأوروبية الشهيرة. ومن الباحثين الذين اهتموا بابتكار هذا النوع من اللغات : ديكارت (Descartes)، ومارسان (Mersenne) ولودويك (Lodwick) ، ودلغارنو (Dalgarno) ، وليبنيز (Leibniz). ومن أهم الأعمال التي قدمت في هذا الميدان ما ألّفه الأسقف الإنجليزي يوحنا ويلكينز (John Wilkins) بعنوان : مقال حول كتابة حقيقية ولغة فلسفية .

Essay towards a real character and a real philosophical language, london , 1668.

وقد وضّح المؤلف في هذا الكتاب الذي يحوي بين دفتيه 454 ورقة أسس المعرفة الإنسانية وقيَمها . كما تطرق إلى أهمية اللغة العالمية في حياة البشرية جمعاء، وفشل التجارب السابقة. أما اللغة التي ابتكرها، فوضع لها رموزا خاصة ، وأرسى لها نظاما جديدا من الأصوات العالمية لفك أقفالها ، وقنّن لها نحوا عالميا (Universal Grammar) لأحكام قواعدها .

ولقد عرفت أوروبا محاولات عديدة في ميدان ابتكار اللغات الاصطناعية من قبل بعض العارفين المتضلعين في علوم اللغة ، نذكر منها ما يلي :

Delormel: Projet d'une langue universelle présenté à la convention nationale (1795).

De Brosses: Traité de la formation méchanique des langues (1765).

Court de Gebelin: Origine du langue et de l'écriture (1775).

Herder: Ursprung der sprache (1770).

Condillac: Traité des sensations (1754).

Condillac: Traité des systèmes (1749).

والحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان أن أشهر لغة عالمية ظهرت في العصر الحديث هي لغة الأسبرانتو (Esperanto) التي تعني الأمل. لقد ألفها الباحث البولوني الدكتور لازاروس زامنهوف (Dr. Lazarus Zamenhof) في سنة 1887م ، وحرص حرصا شديدا على أن تكون

كل مفرداتها حديثة وقواعدها بسيطة. فوضع لها ست عشرة قاعدة نحوية ويضع قواعد اشتقاقية . وهذ جملة بسيطة من هذه اللغة :

<< La intéligenta persona lernas la interlinguon esperanto rapide Kaj facile .>>

وتعني بالعربية :<< يتعلم الشخص الذكي اللغة الدولية الأسبرانتو بسرعة وسهولة. >> والملاحظ أن الشخص الذي يعرف لغة رومانسية كالفرنسية ولغة أنجلوسكسونية كالإنجليزية يستطيع أن يفهم هذه الجملة من الوهلة الأولى . وللتأكد من هذا القول نقدم ترجمة لهذه الجملة مرّة بالإنجليزية ومرّة بالفرنسية على التوالي :

The intelligent person learns the international language Esperanto rapidly and easily.

La personne intélligente apprend la langue internationale Esperanto rapidement et facilement

واستمرت الأسبرانتو حتى القرن السادس من هذا القرن بعد ما شهدت رواجا واسعا خاصة في العالم الغربي لكونها لغة أوروبية في الأصل. وقد استُعملت هذه اللغة من قبل عدة ملايين من المثقفين ، ودُرِّست في بعض الجامعات والمدارس، وأُلِّفت بها العديد من الكتب والمجلات في مختلف الفروع. ولكن المعروف عن هذه اللغات الاصطناعية أنها لم تُعمّر طويلا ، بل تموت بعد موت مبتكريها مباشرة. وهذا يُعدُّ دليلا قاطعا على الإخفاق التّام لهذه اللغات العالميّة التي يمكن أن نذكر منها أيضا بوبال (Bopal)، وكوسموس (Kosmos)، ونوفيال (Novial) ، وبارلا (Parla) وسبوكيل (Spokil)، ويونيفارسالا (Universala)، وفولابوك (Volapük) وغيرها.

3 - 6 - علم أصول الكلمات :

لم يكن علم أصول الكلمات (Etymology) في هذا العصر بأحسن حال مما كان عليه في العصور الإغريقية والرومانية والقرون الوسطى. ولا يزال بعض العلماء يعتقدون أن اللغة العبرية هي أول لغة استعملها الناس في الكلام على ظهر المعمورة. وقد ذكر وترمان (Waterman) في كتابه بعض الأمور السخيفة والحجج الواهية التي تتعلق بنشأة اللغة : منها ملك سكوتلاندا جايمس الرابع James IV (1488 - 1513) قد قام بعزل صبيَّين صغيرين عن المجتمع حتى يبلغا سن الكلام. وفي زعمه أن اللغة التي سينطقان بها هي لغة البشرية الأولى . وقد توصل في تجربته هذه إلى أن

فإن الطفلين قد تكلما باللغة العبرية وفق الفطرة البشرية .[1]

ومن جهة أخرى، لقد نشر الفرنسي قيشار (E. Guichar) معجما في أصول الكلمات بعنوان: الانسجام الاتيمولوجي في اللغات (1606) [2]، وتناول فيه عددا كبيرا من اللغات منها: العبرية، والكلدانية، والسريانية، والإغريقية، واللاتينية، والفرنسية، والإيطالية والإسبانية والألمانية، والإنجليزية ... الخ. واستخلص من بحثه هذا أن اللغة الفرنسية هي اللغة الأصلية التي بدأت البشرية تتكلم بها . وفي هذه الحقبة بالذات ، راح السويدي أندريس كامك (Andreas Kemke) يؤكد في بحث "علمي" على بعض الخزعبلات مستعملا في ذلك بعض الأدلة الساذجة منها أن في جنّة عدن كان الرب يتكلم اللغة السويدية، وآدم اللغة الدانماركية والشيطان اللغة الفرنسية.

هكذا كان الحديث عن نشأة اللغة منذ أقدم العصور إلى عصر النهضة ، ولايَزال الأمر على هذه الحال إلى أن صرّحت جمعية اللسانيات بباريس في سنة 1866 م أنّها ترفض رفضا باتا كلّ مقالة حول نشأة اللغة رغبة منها في إبعاد المناقشات العقيمة وإرساء الروح العلمية الصحيحة.

3 - 7 - صناعة المعاجم :

إذا كان بعض الباحثين قد اهتموا بتطور معاني المفردات ودراسة أصولها ، فإن بعضهم الآخر قد اهتم بالبحث عن معاني الكلمات ومرادفاتها ، وتأليف المعاجم العامة والمتخصصة في جميع اللغات الأوروبية . وتختلف هذه المعاجم في مضمونها حسب مقاصد أصحابها : فمنها الوصفية والمعيارية والتاريخية والاشتقاقية والتعليمية. ومن العوامل التي ساعدت على انتشار هذه الصناعة المعجمية كثرة الحلّ والترحال، والتجوال والاكتشاف. وقد نتج عن هذا النشاط تراكم المعلومات ، وإحساس متزايد بضرورة تقنينها وتصنيفها . ويُعدّ هذا العصر بحق عصر القواميس المتعددة اللغات. وفيما يلي نذكر بعض الباحثين الذين أبدعوا في هذا الميدان :

(1) John Waternan, Persepectives in Linguistics. Chicago: The University of Chicago Press, 1963, p. 13.

(2) E.Guichar, Harmonie étymologique des langues, Paris, 1606, réed. 1610, 1618, 1619.

(1) أمبروزيو كلبينو (Ambrozio Kalpino): إيطالي شهير ألّف في عام 1502م معجما ضخما بعنوان: « القاموس »: Dictionarium، وقد تمّ طبعه ثماني عشرة مرة بين 1542م، 1592م.

(2) هيرونيموس مجيسر (Hieronymus Megiser): باحث ألماني شهير، ألّف في عام 1592 بفرانكفورت معجما بعنوان: « عيّنات من أربعين لغة ».

(3) غيوم بوستال (Guaillaume Postel): أراد هذا الباحث معرفة طبيعة اللغات البشرية من خلال دراسة وصفية ومقارنة لأبجديات اثنتي عشرة لغة طبيعية، فجاء عنوان عمله كمايلي

Linguarum XII characteribus differentium alphabetum introductio ac legendi methodus (Paris, 1538).

(4) جيروم مجيزر (Jerome Megizer): ألّف هذا العالم الفذ المعجم المتعدد اللغات Thesaurus Polyglottus. وقد أورد فيه عيّنات من أربعين لغة في طبعته الأولى في سنة 1592م وعيّنات من أربعمائة لغة في الطبعة الأخيرة في سنة 1603م.

(5) كونراد جسنر (Conrad Gessner): مؤلف المعجم الشهير التالي:

Mithridates, sive de differentis linguarum (Zurich, 1955).

(6) ب. س. بالاس (P.S. Pallas): رحالة ألماني، ولغوي شهير، وباحث في العلوم الطبيعية،عاش في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، وألّف عملا ضخما بعنوان: مقارنة معجمية للغات العالم. (1786).

(7) لورانزو هارفاس بانديرو (Lorenzo Hervas Panduro): اسباني يسوعي قام بمقارنة عيّنات مأخوذة من ثمانمائة لغة منتشرة عبر العالم.

(8) جوهان كريستوف أدلانغ (Johan christoph Adelung): قام هذا العالم بترجمة الصلاة الربانية إلى ما يزيد عن خمسمائة لغة. غير أن هذا العمل الجبّار لم يكتب له أن يرى النور إلا بعد وفاة مؤلفه، ولم ينشر دفعة واحدة بل على مراحل، وفي أربعة أجزاء وذلك من 1806م إلى 1817م.

3 ـ 8 ـ علم الأصوات:

لقد ظهرت في هذا العصر بعض الدراسات الخاصة بالأصوات نالت تقدير علماء اللسانيات في العصر الحديث. فالمبشرون الذين وضعوا أنظمة ألفبائية لبعض اللغات الشرقية والإفريقية كانوا قد أضفوا معلومات قيّمة تتعلق بصوتيات هذه اللغات. ومن الذين لمع نجمهم في هذا الميدان إراسموس (Erasmus) الذي ألّف كتابا في الصوتيات بعنوان:

De recta latini Graecique sermonis pronuntione, (Basle, 1528)

ويُعدُّ هذا العمل ذا قيمة علمية بالغة ليس في عصره فحسب بل في العصر الحديث أيضا، وقد تناول فيه مؤلفه قضايا النطق الصحيح في اللغتين الإغريقية واللاتينية.

ومن جهة أخرى، لقد أدّى الاهتمام المتزايد بعلم الإملاء إلى ظهور مؤلفات عديدة في مجال الصوتيات. وحسب روبينز (Robins) فإن البحث في المسائل الصوتية ببريطانيا قد تواصل من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر تحت عناوين مختلفة منها علم الإملاء وعلم اللفظ (Pronunciation). وعلى الرغم من ظهور مصطلح علم الأصوات (Phonetics) لأول مرّة في القرن التاسع عشر للميلاد، فإن بحوث علماء النهضة كانت تدور حول ما يسمّى اليوم بالفونتيك والفونولوجيا.[1]

وبما أن علم الأصوات يعدُّ من العلوم التي تتطلب دقّة علمية كبيرة، فإن التأليف في هذا المجال لم يلق إقبالا واسعا كما هو الشأن في بقية الفروع اللغوية الأخرى. وهذا ما ذهب إليه « مونان » بالقول: " كان كلّ الناس في القرن الثامن عشر يكتبون عن اللغة: الكتّاب ـ كبارا وصغارا ـ مثل روسو (Rousseau)، وديدرو (Diderot)، وشارل دي بروس (Charles de Brosses)، وكان الفلاسفة، وكل واحد فيلسوف، مثل كوندياك (Condillac) يكتبون عن القواعد وكان علماء الاقتصاد مثل أدم سميت (Adam Smith) يكتبون عن أصل اللغة، ورجال السياسة مثل تيرغو (Turgot) يكتبون عن نظريات الترجمة. أما المجال الذي لم يشهد إطلاقا هذا النوع من الانفجار المفاجئ فهو علم الأصوات. وهذا لا يعني أن هذا العصر كان خاليا

(1) R.H. Robins, Op. Cit., pp. 117-18.

من أيّ محاولة في هذا الميدان.»[1] ومن الباحثين الذين أسهموا في تطوير الدراسات الصوتية في عصر النهضة: هولدر (W.Holder) وهارت (J. Hart)، وهيوم (A. Hume)، وبولاكر (W. Bul-lakar)، وروبينسون (R.Robinson)، وبولتر (C.Bulter)، و وليس (J. Wallis). والملاحظ على هذه الدراسات أنّها كانت تُمثل جزءا لا يتجزأ من النحو بشكل عام.

3 ـ 9 ـ مطلع العصر الحديث :

قبيل القرن الثامن عشر الميلادي ، عرف العالم تطورا مدهشا في كميّة المعلومات المتعلقة بقضايا اللغة. ولئن ظلت مناهج البحث على الحالة التي كانت عليها في العصور السالفة لمدة طويلة، فإن بعض البوادر قد تجلّت في الأفق في أواخر القرن الثامن عشر إيذانا بعهد جديد ومنهج دراسي مغاير للمنهج القديم. والشيء الذي شجّع الباحثين على العناية الشديدة بدراسة اللغات وتحليلها هو ظهور حركة أدبية وفنيّة وفلسفية في ألمانيا على وجه الخصوص تدعى : الرومانسيّة (Romanticism).

وقد جاءت كرد فعل ضد الكلاسيكية (Classicism) والعقلانية (Rationalism) اللتين ظهرتا في العصور القديمة. ويرى دعاة هذه الحركة أن لكل عصر مختاراته الأدبية والفنية، ولا يحق لأي شخص أن يقيس جودة أيّ عمل أدبي أو فنّي بالمقاييس الكلاسيكية القديمة. وبما أن هذه الحركة قد نبتت كما تنبت الشجرة في بلاد الألمان ، فإنها حفّزت على غرس الروح القومية بيْن الألمانيين ، وربطت اللغة بالعنصر البشري، وأفرزت نوعا من الاعتزاز بالعنصر الآري . وقد أدّى الإحساس بالارتباط العميق باللغة بالألمانيين إلى الانشغال أكثر فأكثر بدراسة كلّ اللغات الجرمانية القديمة ، وتدعيم نصوصها بالمعاجم والحواشي لتنير الطريق للطلاب والباحثين وتثبت الانتماء العرقي والحضاري للشعب الجرماني .

إن جذور الدراسات اللسانية الموجودة اليوم تمتد إلى مطلع العصر الحديث. ومن بين المفكرين الأوروبيين الذين يمثلون بحق هذه الإرهاصات: ليبنيتز (Leibniz)، وفيكو (Vico)وهاردر (Herder)، وهمبولدت (Humboldt)، و وليم جونز (William Jones). ويحسن بنا

(1) George Mounin, Op. Cit. p. 145.

بنا أن نلقي نظرة موجزة عن كل واحد من هؤلاء الباحثين الذي أبوا إلاّ أن يسجّلو أنفسهم بحروف من ذهب.

3 ـ 9 ـ 1 ـ ليبنيتز Gottfried Wilhelm von Leibniz (1646 ـ 1716)

كان ليبنيتز من بين العلماء الذين كان لهم إلمام واسع بكلّ علوم عصرهم، ولكنه اعتنى على وجه الخصوص بالفلسفة والرياضيات وعلوم اللغة. وبالفعل لقد انشغل بدراسة اللغات لمعرفة تاريخها وعرى القرابة القائمة بينها. ولكي يتم له هذا ، طوّر منهجا علمياً يعتمد على التحليل الدقيق للغات لاستخراج السّمات والأشكال الجامعة بينها وتصنيفها حسب أنسابها. وقد انكبّ على دراسة عدّة لغات أوروبية وآسيوية وإفريقية، وتوصل إلى تصنيفها في مشجرات أسرية . ومن ناحية أخرى فقد كان من الأوائل الذين قاموا بتشجيع اللغات العامية على البروز والانتشار، وحثّ المواطنين على التعامل بها في جميع الميادين الاجتماعية والأدبية والعلمية وإيمانا منه بأهمية الدراسات الإتيمولوجية في اللسانيات التاريخية ، فقد ركّز على تأليف المعاجم والأطالس وكتابة القواعد النحوية لبعض لغات العالم ، ومن إسهاماته أيضا أنّه وضع كتابة عالمية جديدة مبنية أساسا على الأبجدية الرومانية ونظام النقحرة (Transliteration).

وكما ذكر " وترمان " (Waterman)، فإن ليبنيتز كانت له معارف عميقة مع أناس كثيرين في وطنه وخارجه. وقد تمكن من إقناع قيصرة روسيا كاثرين الثانية بتقديم العون المالي إلى اللساني " بالاس " (P.S Pallas) حتى يقوم بجمع عيّنات لغوية من مائتي لغة أو لهجة روسية ودراستها، كما حثّ القيصر بطرس الأعظم على تمكين الباحثين من دراسة كلّ اللغات الموجودة في أطراف الامبراطورية الروسيّة، وإخضاعها لأنظمة كتابية، وتزويدها بقواميس وقواعد تتلاءم وطبيعتها الخاصة.[1]

3 ـ 9 ـ 2 ـ غيامبتسته فيكو Giambattista vico (1668 ـ 1744):

ولد هذا المفكر الإيطالي في عام 1668 م بنابولي من والد اتّخذ من بيع الكتب مهنة له يقتات بها وعياله . وبفضل الدور الذي قام به أبوه في إسداء النصح له ، وتزويده بما يحتاجه

(1) John Waterman, Op. cit, p. 14.

من كتب ، فقد استطاع أن يزاول دراساته العليا ، ويصبح فيما بعد أستاذا للبلاغة في جامعة نابولي الإيطالية. والغريب في الأمر أن هذا المفكر لم ينل الشهرة اللائقة بمقامه إلاّ في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بفضل مؤلفه التالي :

Principi di una scienza nuova d'intorno alla comune natura delle nazioni (1725), (1744).

وتعود شهرة هذا المؤلف إلى النظرية الفريدة عن أصل اللغة التي جاءت فيه ، والتي أصبحت تعرف بنظرية المراحل اللغوية الثلاث:

أ ـ **اللغة الأولى** : كان للناس في أول الأمر لغة بدائية: إلهية أو أسطورية. أطلق عليها فيكو اللغة الهيروغليفية أو اللغة المقدسة. وكانت البشرية بكماء وتقوم بعملية التواصل عن طريق الإشارات أو الأشياء التي لها علاقات طبيعية بالأفكار التي تريد ترجمتها ، ولهذا سادت الخطوط الهيروغليفية بين الأمم البدائية.

ب ـ **اللغة الثانية** : هي لغة الأبطال ، وأطلق عليها فيكو اللغة البطولية أو الشعرية ، وقد كانت رمزية تعبّر عن الأسلحة والحياة العسكرية.

جـ ـ **اللغة الثالثة** : هي لغة العوام، ومن صنع الجماهير، وقد ذهب فيكو إلى القول بأن اللغة البطولية أو الشعرية هي من صنع الأبطال في حين أنّ اللغات العامية هي من صنع العوام.(1)

أما عن ظاهرة تعدّد اللغات بعدد الشعوب ، فيرجعها فيكو ـ كما فعل ذلك أرسطو من قبل ـ إلى تنوع المناخ والأزمنة والأهواء والتقاليد.(2)

3 ـ 9 ـ 3 ـ جوهن غوتفريد فون هاردر Johan Gottfried von Herder (1744 ـ 1803)

يعدّ "هارد" من علماء القرن الثامن عشر الميلادي الذين كان لهم دور كبير في إضفاء الطابع العلمي على الدراسات اللغوية.

وتذكر الروايات أن الأكاديمية البروسية وضعت سؤالا يتعلق بنشأة اللغة محاولة منها

(1) George Mounin, Op. Cit. , pp. 140 - 141.
(2) Ibid ., p.141.

إيجاد حلّ نهائي لهذه المسألة التي شغلت عقول المفكرين منذ أمد طويل . وقد وفّرت جائزة قيّمة لكلّ من يستطيع الإجابة عن هذا السؤال الذي ورد بهذه الصيغة: "كيف استطاع الإنسان أن يخترع اللغة ويطوّرها إلى هذه الدرجة من الكمال والإتقان ؟" ، وكان من حسن حظ "هاردر" أن أحسن الإجابة عن هذا السؤال في مقال كتبه بعنوان: « حول أصل اللغة » Über den ursprung der sprache، وقد نشر هذا المقال في عام 1772م ، ونال بذلك الجائزة الكبرى.

وقد قام "هاردر" في هذا البحث بهجوم شرس على أولئك الذين يقولون بأن اللغة إلهام من الله لتسهيل عملية التواصل بين عباده.

وبما أن اللغة غير منطقية وغير منتظمة ، فليس من المعقول ـ حسب هاردر ـ أن تكون من صنع الله، ومع هذا ، فهو لا يؤيد الرأي القائل بأن اللغة من صنع الإنسان ، بل يرجع تكوينها إلى دفع طبيعي مفاجئ كدفع الجنين الناضج الرّاغب في الازدياد. وعليه فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي له القدرة على التفكير اللغوي والتعبير عن المشاعر والأحاسيس ، وإذا كان "هاردر" قد تقبّل الفكرة القائلة بأن اللغة العبرية هي اللغة الأولى التي انحدرت منها كل اللغات ، فإنه يعتقد أن الدافع الكلامي بالذات من عند الله ، ولكن الإنسان قد حدّد بنفسه مصيره اللغوي منذ هذه اللحظة التاريخية ، وطوّر لغته الخاصة به لتلبية حاجياته الأساسية.(1) أما عن مسألة أسبقية اللغة أو التفكير، فرأى "هاردر" أنه مادام كلّ واحد منهما يعتمد على الآخر في وجوده فإن لهما بداية واحدة ، وإن البشرية قد تقدّمت في كليهما على حدّ سواء.

3 ـ 9 ـ 4 ـ فيلهلم فون همبولت Wilhelm von Humboldt (1767 ـ 1835)

هذا المفكر هو شقيق الجغرافي والإثنوغرافي أ. فون همبولت (A. Von Humboldt) ، وهو من بين علماء الألمان الذين ربطوا اللغة بالطابع القومي. وقد قيل عنه إنه كان يتقن مجموعة من اللغات الشرقية والغربية. وتعود شهرته إلى تأليف عدد من الكتب في علم اللغة كان أحسنها:

« اختلاف بنية اللغات البشرية » (1949) الذي يعدّ مقدمة مطوّلة عن وصف اللغة الكاوية القديمة (Kawi) لجافا، ولكن هذا الكتاب لم يكتب له أن يرى النور إلاّ بعد وفاة مؤلفه.

(1) John Waterman, Op. Cit . , p. 15.

إن ما يميز همبولت عن الباحثين الآخرين هو أنه لم يقتصر على دراسة ظاهرة لغوية معينة، بل حاول إقامة نظرية لغوية شاملة. إنه أدرك في هذا الزمن المبكر أن اللغة ملكة من عمل العقل ، وهي فوق هذا قوّة فعّالة (Energia)، وليست مجرد حاصل (Ergon)، إذ لولاها لما كان هناك أي نوع من التفكير. وهذه القدرة الخلاّقة هي التي تجعل أعمال الإنسان تتميز بالذكاء والإبداع، وذلك على عكس أعمال الحيوان التي تتّصف بالآلية، ولا تفوق مستوى تلبية الوظائف الغريزية.

وبالإضافة إلى هذا ، فقد توصل همبولت إلى إثبات شكلين مختلفين ومتكاملين للغة: شكل خارجي آلي يتمثل في الكلام وشكل داخلي عضوي (Organic) يتمثل في العمليات العقلية التحتيّة . وقد استفاد تشومسكي (Chomsky) في العصر الحديث من هذه الثنائية وجاء بما يسمّى بالبنية السطحية والبنية العميقة، وبالكفاءة (Competence) والأداء (Performance) وبمفهوم الجانب الخلاّق (Creativity).

ومن جهة أخرى ، فقد اتبع " همبولت " ما نادى به " هاردر" من قبل فيما يخصّ اختلاف اللغات حسب طبيعة تراكيبها وقواعدها . ولم يكتف بهذا ، بل راح يؤكد على أن لكل لغة بنيتها الخاصة المميّزة لها ، والتي تؤثر لا محالة على طرق تفكير أصحابها . وقد استفاد الأمريكيّان سابير (Sapir) و وورف (Whorf) من هذه النظرة في القرن العشرين ، و وضعا نظرية " النسبية اللغوية " (Linguistic relativity) التي تفيد بأن اللغة تمارس ضغطا كبيرا على عقول الناس ، وتقوم بتحديد وجهات نظرهم وطرائق تفكيرهم . ومن أعمال همبولت الرائدة أنّه بعد ما قام بدراسة مجموعة من اللغات الشرقية والعربية ، تمكن من إرساء تقسيم ثلاثي للغات حسب التركيب الشائع للمفردات : اللغات الفاصلة (Isolating)، واللغات اللاصقة (Agglutinative)، واللغات المتصرفة (Inflectional) ، ولا يزال هذا التقسيم ساري المفعول إلى يومنا هذا ، وغير مختلف فيه من الناحية العلمية.

3ـ9ـ5ـوليام جونز William Jones (1746 ـ 1794)

لم يكن هذا المستشرق الإنجليزي صاحب اختصاص في الدراسات اللغوية أو الأدبية وإنما كانت له شهادة في الحقوق مكّنته من اشتغال منصب قاض بالمحكمة البريطانية في كلكوتا بالهند منذ 1783م إلى يوم مماته. ولهذا الرجل فضل كبير على الدراسات الفيلولوجية لأنه هو الذي اكتشف لأول مرة في التاريخ، وبطريقة موضوعية، العلاقة القائمة بين اللغة الهندية القديمة (السنسكريتية) واللغة اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى. وعادة ما يؤرخ الباحثون بداية اللسانيات التاريخية والمقارنة من سنة 1786م ، وهي السنة التي أعلن فيها رسمياً وليام جونز للجمعية الملكية الأسيوية عن القرابة التاريخية الموجودة بين اللغات الهندية والأوروبية.

ومن الإنصاف ينبغي أن نشير إلى أن هناك عدداً من المفكرين الغربيين الذين سبقوا "جونز" إلى الإعلان عن وجود علاقات متينة بين السنسكريتية واللغات الأوروبية، ولكن هذه الملاحظات المنفردة لم تلق العناية اللائقة بها، لأنها لم تأت في أوانها. أما النجاح الباهر الذي أحرزه " جونز " فيرجع ـ دون شك ـ إلى أن تصريحه جاء في وقت قد ازداد فيه الاهتمام باللغات الشرقية والهندية نتيجة التكالب الاستعماري على الدول الضعيفة. ومن بين الباحثين الذين انتبهوا إلى وجود علاقات بين السنسكريتية واللغات الأوروبية الأخرى، ودوّنوا ملاحظاتهم في هذا الشأن ، نذكر على سبيل المثال الإيطالي " فيليبو ساسّتي " (Filippo Sassetti) الذي تحدث عن التشابه الكبير الموجود بين السنسكريتية والإيطالية، والفرنسي " كوردو" (Père Coeurdoux) الذي أعلن عن وجود علاقات بين الفرنسية والسنسكريتية ولغات أوروبية أخرى ، وكذلك الألماني "تشولز" (B. Schulze) الذي بيّن من خلال دراسة له ، وجود علاقات تربط لغته الألمانية باللغة السنسكريتية.

وبشكل عام ، فإن الدراسات اللغوية في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث قد اختلفت نوعاً ما من حيث المنهج والموضوع عن الدراسات اللغوية التي بدأت منذ القدم واستمرت حتى القرون الوسطى. فلم يعد اهتمام نحاة هذه المرحلة متوقفا على كتابة قواعد

اللغات الأوروبية المتنامية ، بل تعدّاه إلى دراسة بعض اللغات الشرقية والإفريقية ، و وصف الأصوات اللغوية وتحليلها، وابتكار لغات عالمية ، وإصلاح أنظمة الكتابة، وتصنيف معاجم متعددة اللغات وصل بعضها إلى احتواء أربعمائة لغة.

كلّ هذه الاهتمامات ميّزت هذه المرحلة أيّما تمييز ، ومهدت السبيل إلى ما يعرف باللسانيات التاريخية في القرن التاسع عشر للميلاد واللسانيات الآنية (Synchronic) في القرن العشرين

الفصل الرابع
اللسانيات التاريخية

تُعرف الدراسات اللغوية التي ظهرت في أوروبا أثناء القرن التاسع عشر الميلادي باللسانيات التاريخية (Historical linguistics) أو الفيلولوجيا (Philology). وتختلف هذه الدراسات من حيث المنهج والتصوّر عن الدراسات التقليدية التي دامت عدة قرون من العصور القديمة إلى عصر النهضة ومطلع العصر الحديث وعن اللسانيات الحديثة التي ظهرت في أوائل القرن العشرين . ولئن كانت بعض البحوث من هذا النوع قد برزت قبل هذا القرن بقليل كما أسلفنا الذكر من قبل ، فإنها كانت في كثير من الأحيان مبعثرة وغير منتظمة ، ولا تتوفر فيها المقاييس العلمية والمبادئ المنهجية.

4 ـ 1 ـ لسانيات تاريخية أم لسانيات مقارنة ؟

إن المتأمل في هذين المصطلحين يستطيع بكل سهولة أن يستخلص دلالتيهما . فاللسانيات التاريخية تدرس اللغة الواحدة من خلال تطوراتها عبر المراحل المختلفة منذ النشأة إلى الوقت الحاضر لمعرفة تاريخها منذ العصور الأولى وأسباب تغيّراتها الصوتية والمعجمية والنحوية والدلالية . وأطلق دي سوسير على هذا الضرب من الدراسة اسم اللسانيات التطوريّة (Linguistique diachronique) مستلهما هذا المصطلح من اللغة اللاتينية : إذ السابقة dia تعني "عبر" والجذر Cronas يعني الزمن ، وهكذا يكون المعنى الكامل دراسة اللغة عبر الزمن. و بهذه النظرة الاستعادية، فإن الدراسة التطورية تشبه إلى حد بعيد العلم الذي يسمّى بالجيولوجيا ، والذي يدرس مختلف طبقات الأرض المتكوّنة عبر التاريخ . وكان علماء اللغة في هذا القرن يعتقدون أن المنهج الصحيح والوحيد الذي يجب اتّباعه في دراسة الظواهر اللغوية هو ذلك الذي يقدمه المؤرخ معتمدا فيه على معطيات لغوية قديمة ومستعينا في تحريّاته بعلم النقوش (Epigraphy) وعلم الوثائق (Paleography).

كانت الدراسة التاريخية للغة فكرة غريبة وغير محبّذة على الإطلاق من قبل اللسانيين ولم يتقبلوها إلا في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد لأن التاريخ في نظرهم لا يدرس الأشياء

والظواهر اللغوية ، وإنما يدرس حياة الأمم السابقة من سُلالات حاكمة وشعوب ذاعنة فضلا عن الحروب والمؤامرات الساحقة. وبهذا القبول ، أخذت الدراسات اللغويّة منعرجا جديدا اختلفت فيه تماما عن الدراسات اللغوية التقليدية. وعلى خلاف الدراسات اللغوية الأخرى فإن اللسانيات التاريخية تتطلب من صاحبها جهدا كبيرا ومعرفة واسعة بعدد من اللغات الكلاسيكية والحديثة على حد سواء . فإذا كان المرء متخصصا في الأسرة الهندو أوروبية مثلا، وجب عليه معرفة السنسكريتية والإفريقية واللاتينية بالإضافة إلى معرفة اللغة الأم وجميع أعضاء الأسرة اللغويّة التي هي محل الدراسة. ومن النادر جدا أن نجد متخصصا في أسرتين أو أكثر نظرا لقدرة الإنسان المحدودة التي لا تمكنه من معرفة كل لغات العالم .

وفيما يخصُّ المنهج المُتبع في اللسانيات التاريخية ، فإن الباحث يقوم بجمع عيّنات لغوية من الأسرة الواحدة ، ويُسجل التطورات المتتالية للكلمة الواحدة عبر مختلف العصور، ثم يحاول جاهدا بناء الشكل الافتراضي الأول على أسس منهجية قام بتسطيرها أصحاب هذا العلم. وعن عمل الأخصائي في اللسانيات التاريخية يرى ماريو باي (Mario Pei) " أنّه يمكن مشابهته لعمل الشرطة السرية المتمثل في التقاط المفاتيح واستعمالها، وربط الجزئيات بعضها ببعض، وفي علم اللغة قد يظل السر غير مكتشف تماما، كما يحدث في تحقيقات الجرائم ولكن هناك قواعد لاستخدام الشواهد ، وهناك مناهج تتعلق بكيفية استعمال المفاتيح ".[1]

أما اللسانيات المقارنة (comparative linguistics) فكان يطلق عليها أيضا الفيلولوجيا المقارنة (Comparative philology) لأن العيّنات اللغوية كانت تُستخرج من الأشكال المنقوشة أو الوثائق المكتوبة . ويهدف هذا العلم إلى مقارنة لغتين أو أكثر على المستوى المفرداتي والنحوي والصوتي بغية الوصول إلى الأصول المشتركة وإعادة بناء اللغة الأولى في الأسرة الواحدة وتصنيف جميع اللغات كما تصنَّف الطيور والحيوانات. وتُعدُّ اللسانيات المقارنة علما تفسيريًا بالدرجة الأولى لأنها تبتغي تفسير الظواهر التي تكمن وراء أوجه الشبه والاختلاف في اللغات المدروسة. وفي هذا الخصوص تلعب الفرضيات دورا مهمًا في إجلاء الحقائق ، وكلما اكتشفت حقيقة جديدة ، طرأ تعديل على الفرضيات السابقة كما يحدث ذلك في باقي العلوم الأخرى .

(1) ماريو باي ، أسس علم اللغة، ترجمة د. أحمد مختار عمر ، القاهرة : علم الكتب ، 1987، ص 167

ومن الناحية العملية كثيرا ما يقترن اسم اللسانيات التاريخية باسم اللسانيات المقارنة لا لشيء إلاّ لأنهما يشتركان بطريقة منسجمة ومتكاملة في تحقيق هدف واحد: وهو إعادة البناء اللغوي الداخلي للغات ، وإعادة تركيب التاريخ اللغوي العالمي على أسس لغوية تاريخية.

والجدير بالذكر أن هناك بعض الاختلافات بين علماء اللسانيات فيما يخص استقلالية هذين العلمين: فمنهم من عدّهما فرعا واحدا، ومنهم من عدّهما مستقلين عن بعضهما بعض ومنهم من قال: إن أحدهما تابع للآخر. وفي هذا الصدد عدّ كوهنهايم (Kuhenheim) الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي مرحلة خاصة باللسانيات المقارنة والثلث الثاني مرحلة خاصة باللسانيات التاريخية . وقال ميي (Meillet): إن في الوقت نفسه الذي كان بوب (Bopp) يُحضِّر فيه النحو المقارن ، كان جاكوب غريم (Jacob Grimm) يؤلف في النحو التاريخي للغة الألمانية. وبعدها قلّد بعضهم الآخر هذا النموذج تقليدا شديدا ، وقام دياز (Diez) بتأليف النحو المقارن والتاريخي للغات الرومانسية في آن واحد.[1]

ويبدو من كتابات "ميي" أنه كان مترددا في شأن الفصل بينهما ، إذ يقول بالحرف الواحد : " إن وُجِد نحو مقارن ، أعني بذلك لسانيات تاريخية ... ".[2] وقد أردف توضيحا آخر لهذه المسألة بقوله : " على الرغم من أن النحو المقارن قد دُرِّس في فرنسا منذ خمسين عاما فيجب أن نقرّ أنه لا يوجد علم من هذا القبيل ، وإنما يوجد منهج مقارن ليس إلاّ. وما نسميه نحوا مقارنا خلافًا للأصول العامّة ماهو إلا شكل معين من اللسانيات التاريخية ، ثم إن الذي يقوم بتطبيق النحو المقارن على لغة ما، إنما يقوم بإرساء تاريخها مستعينا بالأضواء التي يوفرها المنهج المقارن ".[3]

أما ميلوسكي (Milewsky) فإنّه اتّخذ منحى مغايرا، وذهب إلى أن اللسانيات المقارنة تقارن أنظمة اللغات بعضها ببعض ثم تقوم بتصنيفها، وتنقسم بذاتها إلى فرعين : اللسانيات التاريخية التي تُعنى بالتصنيف التاريخي للغات حسب القرابة الواحدة واللسانيات التصنيفية (Typological linguistics) التي تصنف اللغات حسب التشابهات التركيبية.[4]

(1) Georges Mounin , Op. Cit. , p. 180

(2) Ibid. , p. 181.

(3) Ibid. , pp 181 - 182.

(4) Tadeusz Milewski, Introduction to the Study of Language, The Hague: Mouton, 1973. p. 23.

ومن جهة أخرى فقد عنون روبينز (Robins) أحد فصول كتابه « باللسانيات التاريخية والمقارنة في القرن التاسع عشر الميلادي »[1] ، كما أكّد سامبسون (Sampson) على أن اللسانيات التاريخية تُعرف أيضا باسم الفيلولوجيا.[2] وقد فصل الإنجليزي الشهير جون ليونز (John lyons) مؤخرا في هذا الأمر بقوله : " إن اللسانيات المقارنة كانت في مفهوم علماء القرن التاسع عشر تعني تماما اللسانيات التاريخية ".[3]

4 ـ 2 ـ بداية اللسانيات المقارنة:

اعتاد الباحثون التأريخ لبداية اللسانيات المقارنة بظهور مقطع من خطاب ألقاه السّير وليام جونز (William Jones) على مسامع أعضاء الجمعية الملكية الآسيوية في كلكوتا بالهند وذلك في اليوم الثاني من شهر فيفري 1786م ، ونظرا لأهمية النص، سنترجمه بحذافيره في هذا المقام :

" إن اللغة السنسكريتية ، مهما كان قدمها، فلها بنية رائعة ، فهي أحسن من الإغريقية وأغنى من اللاتينية ، وأشدّ تهذيبا وصقلا من كليهما . ولكن تربطها بالأخريين قرابة وثيقة للغاية سواء من حيث الأصول الفعلية أو الأشكال النحوية . ولا يمكن لهذه القرابة أبدا أن تكون من قبيل المصادفة. فالصلة متينة جدا إلى درجة أنه لا يمكن لأي فيلولوجي أن يفحص هذه اللغات الثلاث دون الاعتقاد بأنها انبثقت من أصل واحد قد لا يكون له أي وجود . وهناك سبب مماثل ، وإن كان غير قسري ، للاعتقاد بأن كلا من القوطية والسلتية على الرغم من امتزاجهما بلهجة مختلفة جداً، إلاّ أن لهما أصلا واحدا تشتركان فيه مع السنسكريتية . كما يمكن للفارسية القديمة أن تضاف إلى هذه العائلة أيضا ".[4]

ويحسن بنا أن ندرك هنا أن "جونز" لم يقم بوضع منهج البحث في اللسانيات التاريخية والمقارنة ، وإنما لقي اقتراحه هذا صدى عميقا في أوساط علماء اللسانيات من أمثال

(1) R.H. Robins, Op. Cit. , p. 164

(2) Geoffrey Sampson , Schools of Linguistics , London: Hutchinson and co, 1980, p. 13

(3) John Lyons, Language and Linguistics, Cambridge University Press, 1981, p. 58

(4) John Waterman, Op. Cit. , p. 16.

بوب (Bopp)، وراسك (Rask)، وغريم (Grimm)، وغيرهم كثير . وبهذا التصريح يكون "جونز" قد قام بتأصيل القرابة اللغوية ، والطراز البدئي الأول (Prototype)، والتغير المستمر للغات وإمكانية دراسة اللغة دراسة تاريخية بدءا من نشأتها إلى الزمن الذي وصلت إليه.

4 ـ 3 ـ أزمة اللسانيات التاريخية:

أدّى ظهور الروح العلمية بعدُها حركة ثورية جذرية في القرن التاسع عشر للميلاد إلى انقسام الدراسات إلى فرعين اثنين لا ثالث لهما: الفنون والعلوم . ونتيجة لهذا الانشقاق كان على علماء اللسانيات أن ينحازوا إلى هذه أو تلك ، ويتخذوا موقفا حازما لا غبار عليه للخروج من هذا المأزق . وبعد أخذٍ وردٍ، استقر الرأي على عدّ اللسانيات علما طبيعيا ، له ما للعلوم الأخرى وعليه ما عليها.

ومع هذا فإن المعضلة لم تحل بعد ، بل ترتب على هذا الاختيار مشكل اخر. فإذا كانت العلوم الطبيعية تدرس الأشياء ، فماذا تدرس اللسانيات ؟ وكانت الإجابة التي لم يختلف فيها اثنان عدُّ الظواهر اللغوية من كلام وكتابة أشياء مادية ملموسة أو كينونات (Entities) من نوع خاص يمكن ملاحظتها و وصفها بطريقة تجريبية.

وبما أن في كل عصر من العصور تبرز بعض العلوم النموذجية التي غالبا ما يقلدها الباحثون ، ويتخذونها نبراسا يحتذى به لدراسة الظواهر الأخرى دراسة علمية ، فإن القرن التاسع عشر الميلادي ـ كما يقول سامبسون (Sampson) ـ قد اشتهرت فيه الفيزياء الميكانيكية ونظرية التطور البيولوجية.[1] وبالفعل لقد افتتن بعض علماء اللسانيات في هذا القرن بالفيزياء الميكانيكية التي تنص على أن كل التغيرات الطبيعية والكائنات الحية من صنع القوى الفيزيائية وتأثيراتها. وعليه فإن كلّ الظواهر العامة ، بما فيها اللغة ، لا يمكن تفسيرها إلا من خلال النواميس الحتمية للقوة والحركة . وقد أخذ بعض علماء الفيلولوجيا فكرة وصف التغيرات الصوتية من هذا النموذج العلمي . ومن بين هؤلاء " جاكوب غريم " الذي اهتدى إلى قانون صوتي صار يدعى باسمه : قانون غريم (Grimm's law)؛ إذ قنّن فيه كيفية تغير حروف اللغة

(1) Geoffrey Sampson, Op. Cit. , p. 15.

الجرمانية الأولى عن اللغة الهندو أوروبية الأصلية في عصور ما قبل التاريخ وفق الجدول التالي :

اللغة الهندو أوروبية المشتركة (PIE)	اللغة الجرمانية المشتركة (PG)
الحروف المهجورة الانفجارية (K/t/P) صارت	مهموسة احتكاكية (X/O/F)
الحروف المهجورة الانفجارية (g/d/b) صارت	مهموسة انفجارية (K/t/p)
الحروف المجهورة الهائية (gh/dh/bh) صارت	مجهورة انفجارية (g/d/b)

وعلى غرار الجماعة الأولى ، افتتن جمع من اللسانيين بالنظرية البيولوجية للتطور التي جاء بها شارلز دروين (Charles Darwin) (1809 ـ 1882) في كتابه الشهير أصل الأنواع (On-gin of species , 1859) الذي لم ينته من تأليفه إلا بعد عشرين عاما من البحوث الميدانية والرحلات العلمية وقراءة مئات الكتب والمجلات في البيولوجيا والتاريخ الطبيعي .

وعلى الرغم من هذا الجهد الجبّار ، فإن جوانب عدةً من هذه النظرية كانت لا تتصف بالروح العلمية كما دلّت على ذلك البحوث الحديثة. ولكن لا يسعنا المجال هنا لنتحدث عنها بإسهاب . والأهم من ذلك هو أن بعد ظهور هذه النظرية مباشرة ، جاء أوغست شليشر (August Schleicher)، أحد الأخصائيين البارزين في العلوم البيولوجية واللسانية، بنظرية تماثلها تماما ، أطلق عليها اسم نظرية التطور اللغوي ، موضحا فيها النظرة التطورية الجديدة في الدراسات اللغوية، ومعتبرا اللغات كائنات حية طبيعية ، مثلها مثل جميع النباتات والحيوانات تنحدر من أصل واحد ، ثم تتفرع إلى فصائل متعددة . وفي هذا المضمار يرى شليشر " " أن اللغات والأسر اللغوية، ككل الأنواع والكائنات الأخرى، تعيش في صراع دائم من أجل البقاء ، وأن الأسرة الهندو أوروبية قد أحرزت على مكانة مهيمنة على اللغات ، كما أحرز الإنسان على المكانة العليا بين الحيوانات ".[1]

ويركز أصحاب هذه النظرية أيضا على عدّ اللغات أجسادا عضوية متطورة. وهذا ما نلاحظه عند فرانتز بوب (Franz Bopp) الذي يرى أنه " من الواجب عدّ اللغات أجسادا عضوية

(1) A. Schleicher (1863) in Geoffrey Sampson, Op. Cit. , pp. 18 - 19.

وفق قوانين ثابتة ، لأنها تحمل في كيانها مبدأ الحياة النابضة ، وتتطور وتموت بطريقة تدريجية ، وإذا ما أعوزها الانسجام والتلاحم فسوف تُبتر وتُنبذ ، وتصير صيَغها ومكوناتها الأساسية شيئا فشيئا أعضاء ثانوية نسبيا ".[1] وهذا ما ذهب إليه أوغست بوت (August Pott) كذلك في قوله: " إن اللغة في حالة دائمة من التغير طوال حياتها : فهي ككل شيء عضوي تمرُّ عبر مراحل متتالية: الحمل والبلوغ، والنمو السريع والبطيء، والقوّة والريعان ، ثم الضعف والانقراض التدريجي ".[2] وفي الحقيقة، فإن الفكرة البيولوجية للتطور مفادها أن الإنسان ، والشيمبانزي، والغوريلا انحدروا من أصل قرد منقرض ، بينما الهررة ، والأسود والنمور انحدرت من أصل سنّوري منقرض (Extinct proto-feline). والقرد الأول والسنّوري الأول وغيرهما من الكائنات انحدرت جميعا في الزمان الأولي من جدّ مشترك. وكذلك الشأن بالنسبة لنظرية التطور اللغوي: إذ أن اللغات تنتظم في أسر لغوية ، كما تنتظم الكائنات الحية فالأسبانية ، والفرنسية، والإيطالية انحدرت من اللغة اللاتينية ، في حين أن الألمانية، والإنجليزية والنرويجية انحدرت من اللغة الجرمانية الأولى. واللغة اللاتينية واللغة الجرمانية الأولى وبعض اللغات الأخرى انحدرت من لغة هندو أوروبية قديمة.

4 ـ 4 ـ مناهج اللسانيات التاريخية:

عند فحصنا للمناهج المستخدمة في اللسانيات التاريخية، لاحظنا أن جلّ اللسانيين اكتفوا بذكر منهجين فقط: المنهج المقارن ومنهج إعادة التركيب الداخلي. إلا أن هناك من اعتمد منهجا ثالثا عرف بالمنهج الفيلولوجي . ومن بين هؤلاء ميلوسكي (Milewsky) الذي قال : " إن اللسانيات التاريخية استعملت ثلاثة مناهج لإعادة بناء تطور اللغات : المنهج الفيلولوجي، ومنهج إعادة التركيب الداخلي ، والمنهج المقارن ".[3] وفيما يلي نحاول أن نسلّط الضوء على كلّ منهج من هذه المناهج الثلاثة :

(1) Franz Bopp (1827) in Geoffrey Sampson, Ibid . , p. 17.

(2) August Pott (1833) in Geoffrey Sampson, Ibid. , p. 17.

(3) حول المنهج المقارن أنظر:

(3) Tadeuzs Milewski, Op. Cit. , p. 102.

4 ـ 4 ـ 1 ـ المنهج المقارن [1] (The comparative method) :

يجمع الباحثون على أن المنهج المقارن هو الطريقة الناجعة التي تُمكّن الباحثين من الكشف عن القرابة بين اللغات ومعرفة نسبها الجيني بصورة دقيقة للغاية . وعلى الرغم من أن هذا المنهج قد استخدم منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد فإنه لم يكتمل نموّه ، ولم يبلغ ذروته إلا في المرحلة الكلاسيكية للسانيات التاريخية الممتدة من 1820م إلى 1870م . ويعنى هذا المنهج بانتقاء الوحدات اللغوية القديمة ومقارنتها بما يقابلها في اللغات التي يراد معرفة قرابتها من جهة ، ثم بتحديد درجة الصلة بينها ، واستخراج الصيغ الأكثر قدما بعدّها أصلا مشتركا لبقية الوحدات من جهة أخرى. وإذا ما وجد المقارن تماثلا جليًا بين هذه الصيغ ، فإنه لا محالة يتأكد من أنها قد انحدرت من لغة أم واحدة. وبما أن التماثل قد يكون في بعض الأحيان نتيجة الاقتراض ، فعلى الباحث أن يكون أكثر احترازا لكي لا يقع في الملابسات التي من شأنها أن تقرض دعائم هذا العلم.

يقوم عالم اللسانيات التاريخية إذن بمقارنة صيَغ لغتين أو أكثر لضبط العلاقات القائمة بينها ، ولا يتوقف عمله عند هذا الحد، بل يجتهد في تحري المعطيات اللغوية حتى يتسنّى له كتابة الصيغ الأولى التي تشعبت منها الصيغ المختلفة المتواجدة . وبهذا فإنه يحاول تركيب صيَغ افتراضية للغة لا وجود لها على أرض الواقع كاللغة الهندو أوروبية مثلا . وفي هذا الصدد يقول لاهمان (Lehmann) : إذا أردنا أن نعرف صيغة فعل الكينونة (To be) في الطراز البدئي الهندو أوروبي ، فيمكن أن نقارنها في بعض اللغات كالسنسكريتية asti، والليثوانية esti، والإغريقية ésti وبعد هذا يمكن التوصل إلى وضع الصيغة الأصلية التالية : ésti .[2] ومن الصعوبة بمكان أن يهتدي الباحث إلى الصيغة الأصلية إذا انطلق من مثال واحد . وعليه بالتالي أن يأخذ عدّة نماذج لتسهيل عملية المقارنة هذه . وإذا ما تأملنا الكلمات المستعملة للدلالة على العدد « ثمانية » في بعض اللغات الرومانسية كما جاء في كتاب لاهمان نلاحظ مايلي :

الفرنسية	الإيطالية	الأسبانية	البرتغالية
huit	otto	ocho	oito

(1) CF.Antoine Meillet, la méthode comparative en linguistique historique, Oslo, (1925)

(2) Winfred Lehman, Historical Linguistics: An Introduction, New York: Holt Rinehart and winston, Inc. , 1973, p 77.

وإذا كان يصعب علينا أن نَرُدّ هذه المفردات إلى أصل واحد، فإنه بجمع نماذج إضافية أخرى، يمكننا أن نقوم بهذه المهمة بطريقة أسهل . فلنحاول أن نسلط الضوء على كلّ من كلمة "حليب" و "واقع" من خلال ترجمتهما.

العربية	الفرنسية	الإيطالية	الأسبانية	البرتغالية
حليب	Lait	Latte	Leche	Leite
واقع	Fait	Fatto	Hecho	Feito

وبعد الملاحظة الدقيقة ، يمكننا أن نعيد بناء الأشكال الأولى لتلك الكلمات كالتالي *Okto ، و *Lakte ، و *Facto . ويمكننا التسليم بهذه الأشكال المبنية بواسطة المنهج المقارن عندما نرجع إلى ما يقابلها في اللغة اللاتينية : Okto « ثمانية » ، و Lactem « حليب » و Factum « واقع ».[1] ولتوضيح أوجه الشبه والاختلاف بين اللغة العربيّة وبعض اللغات الأوروبية الأخرى ، نقدّم الجدول التالي الذي يضم كل أيام الأسبوع.

العربية	الفرنسية	الإيطالية	الأسبانية	الأنجليزية	الالمانية
السبت	Samedi	Sabato	Sabado	Saturday	Samstag
الأحد	Dimanche	Dommenica	Domingo	Sunday	Sonntag
الإثنين	Lundi	Lunedi	Lunes	Monday	Montag
الثلاثاء	Mardi	Martedi	Martes	Tuesday	Dienstag
الأربعاء	Mercredi	Mercoledi	Miercoles	Wednesday	Mittwoch
الخميس	jeudi	Giovedi	Jueves	Thursday	Donnerstag
الجمعة	Vendredi	Venerdi	Viernes	Friday	Freitag

* في اللسانيات التاريخية توضع علامة نجمة قبل الصيغ المعاد تركيبها.

(1) Ibid. , pp 7 - 8.

ولعل ما يستخلصه القارئ من هذا الجدول أن هناك اختلافا كبيرا بين العربية واللغات الأوروبية الأخرى لكون الأولى لغة سامية واللغات الأخرى هندو أوروبية . ولكن هناك تقاربا أكبر بين الفرنسية والإيطالية والأسبانية لأنها انحدرت جميعا من الفرع الرومانسي ، كما يوجد تماثل أكثر بين الإنجليزية والألمانية لأنهما من أصل جرماني واحد.

إن دراسة العلاقات بين الحروف الإنجليزية (k t p g d b h O f) والحروف المطابقة لها في اللغات الهندو أوروبية الأخرى كان لها أثر عظيم على تطوير المنهج المقارن - وللتذكير فإن غريم (Jacob Grimm) قد وضّح بصورة جليّة في المرحلة الأولى من اللسانيات التاريخية جملة التبدلات المنتظمة بين هذه الحروف كمايلي:

الهندو أوروبية الأولى	السنسكريتية	الجرمانية
p t k	p t k	fk h/k
bh dh gh	bh dh gh	bdg
bdg	bdg	ptk

وأصبحت هذه القوانين المطردة تعرف فيما بعد بقانون غريم (Grimm's law) . ولئن كان المنهج المقارن قد استعمل كثيرا في التحليل الفونولوجي والمعجمي ، فإن التقدم الذي حدث مؤخرا في الدراسات التركيبية والدلالية قد مكّن من تطبيقه في التحليل التركيبي والدلالي على حد سواء.(1)

1 - 1 - 2 - منهج إعادة التركيب الداخلي (The method of internal reconstruction)

إذا كان المنهج المقارن يهدف إلى إعادة تركيب الطراز البدئي (Prototype) للصيغ اللغوية عن طريق المقارنة، فإن منهج إعادة التركيب الداخلي يهدف إلى إعادة البناء دون اللجوء إلى المقارنة ، إذ أنه يُستعمل عندما تتعذر المقارنة بسبب انعدام اللغات المدونة ، ويركز على العناصر المختلفة داخل اللغة الواحدة ، ويرمي إلى تمييز العناصر اللغوية العتيقة أو

(1) Ibid. , p. 89.

المهجورة من العناصر اللغوية الجديدة . ويرى ميلوسكي (Milewski) أن لهذا المنهج أشكالا مختلفة. ففي الشكل الأول نستخلص الاستنتاجات على أساس التغيّرات الفونولوجية. وفي الشكل الثاني الذي أطلق عليه ميلوسكي : منهج الصيغ الاستثنائية، تكون الاستنتاجات على أساس تطور النظام المورفولوجي. بمعنى أنّه إذا كانت لدينا صيغتان تحملان دلالة واحدة : صيغة منتظمة مطابقة للنمط المورفولوجي العادي العام ، وصيغة غير عادية واستثنائية ، فيجب عدّ هذه الأخيرة شكلا من بقايا نظام قديم أي الصيغة الأقدم. أمّا المنهج الآخر فيتناول الصيغ التي هي في طريق الانقراض ، ويؤكد على أنّه إذا ما وُجد مترادفان أحدهما في طريق الانقراض والآخر في طريق التطور ، فإن الصيغة الأولى هي الأقدم. ففي اللغة الإنجليزية مثلا ، عندنا صيغتان لضمير المخاطب المفرد : « أنت » thou و You ، والمعروف أن الصيغة الأولى أقدم من الثانية ، وهي في طريق الانقراض التام ، والصيغة الثانية جديدة ومليئة بالحيوية.(1)

وقد ذهب "جون ليونز" إلى أن منهج إعادة التركيب الداخلي (بالمقارنة إلى إعادة التركيب بوساطة المنهج المقارن) إنّما بُني على اقتناع عميق بأن الاطّراد واللاتناسق النسبيين اللذين بإمكاننا ملاحظتهما آنيًا يمكن تفسيرهما بالرجوع إلى التحويلات التي كانت تتسم من قبل بالانتظام والتوليد.(2) واستطرد قائلا : حتى وإن لم يكن لنا دليل بالمقارنة ، ولم يوجد أي تدوين للمراحل الأولى من تطور اللغة الإنجليزية ، فيمكن أن نستنتج أن الاطّراد النسبي الذي تتصف به الأفعال الإنجليزية مثل :

drive:drove:driven / ride:rode:ridden / sing:sang:sung / ring:rang:rung

يعود إلى آثار باقية من نظام تصريفي قديم مطّرد تماما.(3)

وبصفة عامة ، فإن منهج إعادة التركيب الداخلي منهج سليم قويم اعتمدته اللسانيات التاريخية كباقي المناهج الأخرى. والمؤكد أنه يعطي نتائج إيجابية للغاية ، إذ أن بعض الصيغ التي أعاد بناءها بعض العاملين في هذا الحقل والتي كانت مجرد فرضيات أصبحت حقائق علمية تؤكدها الاكتشافات والحفريات الحديثة.

(1) Tadeuzs Milewski , Op. Cit. , pp. 102 - 105.

(2) John Lyons, Op. Cit. p. 210.

(3) Ibid. , p. 210.

4 ـ 4 ـ 3 ـ المنهج الفيلولوجي (The philological method)

يتمثل هذا المنهج في مقارنة النصوص المكتوبة في اللغة الواحدة عبر مراحلها التاريخية المختلفة. وعادة ما يهتم اللساني هنا بمقارنة عناصر اللغة التي تقوم بأداء الوظيفة نفسها في اللغة القديمة والمتوسطة والحديثة مع تسجيل دقيق لتغيراتها التدريجية. وعلى سبيل المثال، فإن مقارنة تصريف الأسماء في النصوص البولونية في القرن الرابع عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي مكّنت من إرساء التطور العام للأشكال البولونية خلال القرون الستة الأخيرة.[1]

وخلاصة القول: فلولا ظهور هذه النماذج الثلاثة، لما قامت للسانيات التاريخية قائمة ولما شهدت هذا التطور المدهش . ولازالت هذه النماذج ، وبخاصة الأول والثاني منها مستعملة إلى يومنا هذا . ولا جرم إن هي لقيت قبولا واسعا من طرف علماء اللسانيات الحديثة لأنها في الواقع مناهج علمية لا تتنافى ومبادئ العلوم التجريبية.

4 ـ 5 ـ التغير اللغوي وأنواعه :

بما أن اللغة بطبيعتها تتطور وتتغير باستمرار بوصفها كائنا حيًا ، فإنها قد تنمو بطريقة سريعة ، وقد تتوقف عن النمو أحيانا ، أو تموت إطلاقا . وانطلاقا من هذه المعطيات أولى علماء اللسانيات التاريخية في ذلك العصر اهتماما كبيرا بأنواع التغير اللغوي ، ودرجاته وأسبابه ، و اتّجاهاته ، كما سنلاحظ فيما يلي:

4ـ5 ـ 1 ـ التغيّر الصوتي :

يميّز الباحثون بين التغيّرات الصوتية من جهة، و التغيّرات المعجميّة و النحويّة من جهة أخرى . و في القرن التاسع عشر للميلاد، تنبه النحويون الجدد (Neogrammarians) إلى اختلاف التغير الصوتي عن باقي أنواع التغير اللغوي. وفي هذا جانب كبير من الصحة على الرغم من أن اللغة نظام كلي شامل ، يُتمم الصوت فيه المعنى ، وتلعب فيه عوامل داخلية وخارجية دورا رئيسيا. وإذا كانت اللغات تتغير باستمرار ، فإن الناطق بلغة معينة لا يمكنه أن

(1) Tadeuzs Milewski, Op. Cit. , p. 102.

يلاحظ التطور الذي يمس لغته لأن التغير غالبا ما يحدث عبر حقب زمنية متباعدة. ومهما يكن من أمر ، فإن التغير الصوتي يُعدّ أكثر التغيرات تأثيرا في اللغة ، فالكلمة العربية الواحدة قد يختلف نطقها من بلد عربي إلى آخر. وهذا صحيح أيضا بالنسبة للغات ذات الانتشار الواسع. فالعوامل اللغوية، والاجتماعية، والزمانية، والمكانية لها أثرها البالغ في تحديد أوجه التغير. فنحن نؤمن بأن هناك لغات لاتينية مختلفة، ولكن إذا أردنا أن نقف على الحدود الفاصلة بين البروفنسالية، والإيطالية ، والفرنسية ، والأسبانية وغيرها ، فإننا لا نجد حدًا فاصلا بينها يشير إلى بداية لغة ونهاية أخرى، بل سوف ندرك أن القاطنين في هذه الحدود يتكلمون لغة واحدة وهذا ما يعرف في اللسانيات الجغرافية بالمتصل اللغوي (Linguistic continuum).

إن التغير الصوتي قد يكون كليًا أو جزئيًا ، ويتم التغير الكلي باستبدال حرف بحرف آخر، كاستبدال الحروف الهندو أوروبية (P t k) بالحروف الجرمانية (F Θ h) على التوالي ، ويحصل التغير الجزئي باستبدال النطق والحفاظ على الحرف ، وذلك كنطق القاف ألفا في بعض اللهجات العربية ، أو نطق اللام راءً في الفرنسية ، ككلمة «Colonel» التي تنطق «Coronel» ، أو نطق السين (S) زايا (Z) أو جيما (g) في الإنجليزية كما في هاتين الكلمتين «resign» و «Measure»...

وعن تغير الأصوات في لغة الضاد ، يقول عاطف مدكور: " في اللغة العربية أمثلة كثيرة للتغير في نطق بعض الأصوات مثل « القاف » التي وصفها القدماء بأنها مهجورة ولكننا اليوم ننطقها مهموسة ، ومثلها في ذلك « الطاء » التي تنطق في معظم اللهجات الحديثة صوتا مهموسا ، بينما يصفها القدماء بأنها مجهورة ، وصوت « الضاد » هو الآن صوت شديد عند أكثر أهل المدن ، وهي في أفواه العرب القدماء رخوة ".[1]

ومن ألوان التغير الصوتي مايلي:

4 ـ 5 ـ 1 ـ 1 ـ المماثلة (Assimilation)

تكمن المماثلة في تغيير صوت معين ليماثل صوتا آخر على مستوى المخرج أو الصفة لتيسير عملية النطق. وإذا كان الصوت المتغير مجاورا للصوت الآخر، فإن المماثلة تُسمّى : تجاورية (Juxtapositional). وإذا كان لا يجاوره مباشرة، فإن المماثلة تدعى متباعدة (Distant).

(1) عاطف مدكور : علم اللغة بين التراث والمعاصرة. القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1987، ص. 272

وقد تكون المماثلة قبلية (Progressive) حين يتغير الصوت ليماثل صوتا قبله مثل تغير /d/ إلى /t/ في «knocked» و «stopped» لتماثل ما قبلها في صفة الهمس. وقد تكون راجعة (regressive) حين يتغير صوت ليماثل صوتا بعده مثل «in + possible» التي صارت تكتب وتنطق «impossible» ، حيث تغيرت /n/ إلى /m/ لتماثل /p/ في صفة الشفتانيَّة (Bilabiality).

4ـ5ـ1ـ2ـ المخالفة (dissimilation):

تدل المخالفة أو المغايرة على تغير صوت كلامي مماثل ليخالف صوتا آخر مجاورا أو متباعدا في الكلمة نفسها بهدف التخفيف من الجهد العضلي الذي يتطلبه نطق بعض الحروف مجتمعة مثل «marbre» و «purpur» اللاتنيتين اللتين تغيرت /r/ الثانية فيهما إلى /L/ لمخالفة الصوت /r/ . وهكذا فإن هاتين الكلمتين أصبحتا تكتبان في الإنجليزية كما يلي: «marble» و «purple».

4ـ5ـ1ـ3ـ الاختزال الصوتي (haplology):

يتمثل في حذف صوت واحد من صوتين متماثلين أو من مقطع أو مقطعين متشابهين متتالين لتسهيل عملية النطق. والأمثلة كثيرة في اللغة الإنجليزية منها هذه الكلمات «Literary» و «colonel» و «subtle» التي تُنطق كمايلي /'Litri/ و /'K3nl/ و /S ʌ tl/ ، وكذلك الكلمة الإنجليزية القديمة «Engla-land» التي صارت تكتب اليوم «England». وفي بعض اللهجات الجزائرية تنطق عبارة «قلت لك» «قُتْلَك».

4ـ5ـ1ـ4ـ القلب المكاني (Methathesis):

يتمثل هذا النوع من التغير اللغوي في تغيير بعض مواقع الحروف في الكلمة الواحدة لتيسير النطق . ومثال ذلك هاتان الكلمتان في الإنجليزية القديمة «aks» و «prehaps» اللتان استبدلتا بـ ask و perhaps في الإنجليزية الحديثة . وقد تفطن النحاة العرب إلى ظاهرة القلب المكاني، فقال ابن فارس : "من سنن العرب القلب، وذلك يكون في الكلمة في مثل قولهم : جذب وجبذ وبكل ولبك بمعنى خلط ."(1)

(1) ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق د. مصطفى الشويمي ، بيروت 1963 ص. 329.

4ـ5ـ2ـ التغير المورفولوجي:

إن التغير في الشكل ظاهرة تعرفها جميع اللغات ، ففي الإنجليزية القديمة ، كان ضمير المخاطب «أنتَ» أو «أنتِ» يُكتب بهاته الصيغة «thou»، وصار يُكتب في الإنجليزية الحديثة بهذا الشكل «You». وكذلك ضمير الملكية كما في «ذلك» إذ كان يُعرف بـ «Thine» وتغيّر اليوم إلى «Yours» . ولئن كان هذا التغير الصرفي يُعدّ تغيّرا مطلقا ، فإن هناك نوعا آخر من التغير الجزئي ؛ فقد كانت هناك بعض الكلمات التي تنتهي بـ st ـ أو est ـ في كتابات شيكسبير مثل : amongst، و convertest، و growest، و mayst، وصارت تكتب اليوم كما يلي : among، و convert ، و grow، و may.

4ـ5ـ3ـ التغير التركيبي :

قلّما يمس التغيّر اللغوي الجانب التركيبي ، ومع هذا فلم تسلم اللغات من هذه الظاهرة. ففي اللغة الإنجليزية كانت هناك أفعال متعديّة وأصبحت لازمة . فالفعل «départ» كان يُستعمل في الصيغة المتعدية ، ولكن هذه الصيغة أصبحت اليوم غير مقبولة إطلاقا ، ولا تُستعمل إلاّ في النصوص الدينية القديمة. وفي اللغة العربية ، لم يطرأ على التركيب أي تغيّر يذكر إلا في العصر الحديث ، حيث ساعد الاحتكاك الثقافي على إقحام بعض التراكيب الغريبة عن طبيعة لغتنا من قبل بعض حاملي الشهادات العليا الأجنبية والمترجمين والصحافيين الذين أصبحوا يكتبون باللغة العربية أو يترجمون إليها . ويكتشف القارئ العربي المتضلع بكل سهولة الأساليب والتراكيب الدخيلة على لغته بمجرد قراءتها أو سماعها ، والأمثلة في هذا السمت لا تدخل في الحقيقة تحت الحصر.

4ـ5ـ4ـ التغير الدلالي:

يرى الباحثون أن دلالة المفردات هي أكثر جوانب اللغة عرضة للتغير : إذ أن عند ظهور المفردة للمرة الأولى تكون لها دلالة معيّنة ، ومع مرور الزمن قد تتغيّر دلالتها نسبيًا أو كليًا.

وفوق هذا وذاك ، فقد تُعمّر بعض الدلالات أجيالا وأجيالا ، وقد لا تعيش دلالات أخرى إلا وقتا قصيرا ، وتزول مباشرة بعد زوال الحاجة إليها . ومن غير الممكن أن تحتفظ المفردات

التي استعملت في الحضارات البدائية بدلالاتها في الحضارات المتمدنة الراقية ، بل إن هذه المفردات يكون مصيرها الزوال في غالب الأحيان . ويلاحظ المتأمل في بعض المعاجم أنّها تحتوي بين طيّاتها مفردات بدلالاتها المختلفة القديمة منها والحديثة . كما أن هناك معاجم إتيمولوجية تعنى بتتبّع أصول الألفاظ ، وتاريخها ، وتغيّراتها الصوتية والدلالية، ليس في اللغة الواحدة فحسب ، بل في الأسرة اللغوية الواحدة أيضا.

والمعروف لدى اللغويين أن الكلمة الواحدة تخضع في نشأتها وتطورها إلى عدة عوامل. فقد يتوسع معناها ، أو يضيق، أو يتغيّر تماما. ويعني التوسيع (Widening) تحويل الدلالة من معنى ضيّق إلى معنى واسع مثل « bribbe » التي كانت تدل على الطائر الصغير في الإنجليزية القديمة والتي تغيّرت صيغتها إلى « bird » في الإنجليزية الحديثة لتدل على كل طائر يطير بجناحيه.

والتضييق « narrowing » في الأصل ضد التوسيع ، ويعني: انحصار الدلالة أو انتقالها من المعنى الواسع إلى المعنى الضيّق: فالكلمة الإنجليزية القديمة « mete » كانت تدلّ على الطعام بشكل عام، ثم تغيّرت صيغتها ودلالتها ، فأصبحت تكتب « meat » وتدلُّ على اللحم بشكل خاص . وهناك ظاهرة أخرى تعرف بانتقال الدلالة (Shift of meaning) وتدلُّ على تغيُّر اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر مع الاحتفاظ بخاصيّة من خصائصه ، فكلمة « Convert » في قصيدة شيكسبير الحادية عشرة كانت تعني " يُخضع التغير " أمّا اليوم فتعني " يُولد التغيّر " أو " يهدي إلى دين أو مذهب " أو حتى " يختلس أو يغتصب " . وقد يتجه انتقال الدلالة نحو السمو (Elevation) أو الانحطاط (Degradation). ومن الأمثلة التي قدّمها عاطف مدكور عن هاتين الظاهرتين في اللغة العربية كلمة " رسول " التي تعني في أصلها اللغوي أي إنسان يبعث برسالة ، ثم ارتقت دلالتها بعد نزول الوحي على محمد (صلى الله عليه وسلم)، فأصبحت تعني النبي . وكذلك كلمة « حاجب » التي كانت لها دلالة سامية أثناء حكم العرب بالأندلس ، ثم انحطّت دلالتها في العصر الحديث.[1] أما الظاهرة الأخيرة

(1) عاطف مدكور ، المرجع السابق، ص . 291.

فتعرف باسم الانقراض (Extinction)، وتدلُّ على المعاني التي كانت شائعة في الماضي ، ثم بادت في العصور اللاحقة بسبب بعض العوامل ، وقد لا تنقرض الدلالة القديمة تماما ، وتبقى مستعملة في بعض السياقات المحدودة والطقوس الدينية.

4 ـ 6 ـ نظريات التغيّر اللغوي:

بما أن اللغة كائن متغيّر خاضع لنواميس التطور، فإن علماء اللسانيات التاريخية أولوا اهتماما كبيرا باتجاهات التغيّر وأسبابه . وبهذا ظهرت عدة نظريات تفسيرية نذكر منها ما يلي:

4 ـ 6 ـ 1 ـ نظرية البنية الداخلية للغة:

إن عالم اللسانيات الذي ينادي بتطبيق مفاهيم داروين (Darwin) على اللغة يؤمن مسبقا بأن التغيّر اللغوي تتحكم فيه قوانين ثابتة ، ويسير بانتظام في اتجاه خاص . كما يؤمن أيضا بأن هذا التغير يرجع مباشرة إلى مزايا اللغة التركيبية الداخلية . ورأى فريق من الباحثين أن التطور يتجه إلى اليُسر والبساطة : أي من الظواهر المتصرفة إلى الظواهر الفاصلة ، ويأتي على رأس هؤلاء راسك (Rask). ورأى فريق آخر أن التغيّر اللغوي ينطلق من الظواهر الفاصلة إلى الظواهر المتصرفة ، ويأتي على رأسهم شليشر (Schleicher) . ومن هنا ظهرت فكرة تقسيم اللغات إلى ثلاثة أقسام :

أ ـ اللغات العازلة (Isolating languages):

يشمل هذا الصنف اللغات التي تتكون كل كلمة فيها من مورفيم (Morpheme) واحد : أي جذر واحد غير متغيّر ، وغير قابل للتصريف . وهناك لغات عازلة بأتمّ معنى الكلمة ، ولغات غير عازلة تماما ، ولغات عازلة نسبيًا . ومن اللغات العازلة بدرجة عالية جداً الصينية والفيتنامية.

ب ـ اللغات اللاصقة (Agglutinative languages)

تحتوي كلمات هذه اللغات على جذور وزوائد ثابتة . ولا يمكن لهذه اللغات أن تؤدي وظيفتها على أكمل وجه إلا باستخدام الزوائد (affixes) من سوابق (prefixes)، ودواخل (infixes)، ولواحق (suffixes)، وإضافتها إلى الجذر لتغيير المعنى، ومن بين هذه اللغات التركية والمجرية.

جـ - اللغات المتصرفة (Inflecting languages):

تتسم هذه اللغات بانقسام مفرداتها إلى مورفيمات بطريقة اعتباطية غير ثابتة . وتحتوي الكلمة الواحدة على عدد من الوحدات الدلالية التي يصعب إلحاقها إلى الأجزاء المختلفة للمفردة ككل، ثم إن العلاقات النحوية بين مفردات الجملة الواحدة لا تظهرها إلا الحركات الإعرابية الخاصّة بالرفع والنصب والجرّ . ومن بين هذه اللغات : العربية ، والسنسكريتية والإغريقية القديمة.

4ـ6ـ2ـ نظرية الشهرة الاجتماعية:

يعتقد عدد كبير من اللسانيين أن هيمنة لغة معيّنة على حساب بعض اللغات الأخرى لا يعود إلى مزاياها الداخلية بل إلى شهرتها الاجتماعية. فقد تحرزْ اللغة على مكانة اجتماعية مرموقة، وتحظى بقبول حسن من قبل الأقوام الأخرى ، إذا ما بلغ أهلها مستوى عال من التقدم والتحضر. وكما هو معلوم لقد انتهى الصراع الذي استمرّ زمنا طويلا بين اللغة الويلزية (Welsh) واللغة الإنجليزية في بريطانيا بسيادة اللغة الإنجليزية نظرا للازدهار السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي عرفته انكلترا في ذلك العصر. وتشهد اللغة الإنجليزية اليوم انتشارا واسعا في مختلف دول العالم على حساب بعض اللغات الأخرى بسبب الدور الريادي والحضاري الذي تلعبه الولايات المتحدّة الأمريكية وليس المملكة البريطانية .

4ـ6ـ3ـ النظرية السيكولوجية :

أرجع بعض علماء اللسانيات التاريخية التغيّرات اللغوية إلى سيكولوجية أو نفسية الأفراد المتكلمين ، وليس إلى الطبيعة الداخلية التي تتمتع بها لغة عنصر بشري معيّن كما تؤكده النظرة الرومانسية المضلّلة التي ظهرت في ألمانيا . وهذا ما دعا إليه غريم (Grimm) وعزا كل التغيرات التي ألحقت باللغة الألمانية إلى قدرة العنصر الألماني الآري على الإبداع والتغيير . ومن جهة أخرى ، لقد رأى النحاة الجدد الذين سيطروا على الفكر اللغوي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد أن التغيّرات تكون دائما من جانب الأفراد المستعملين للغة. وهذا ما أكّده هارمان أوستوف (Herman Osthoff) وكارل بروغمان (Karl Brugmann) على

أن اللغة ليست كائنا بعيدا عن الناس ، ولا يمكنها أن تقود بنفسها حياتها الخاصّة ، بل ليس لها وجود حقيقي إلاّ داخل نفوس الأفراد ، وعليه فإن كل التغيرات التي تطرأ عليها لا تكون إلا من صنع الأفراد المتكلمين .[1]

4ـ6ـ4ـ نظرية الذوق :

اقتنع بعض الباحثين من أمثال هوغو سخوخارت (Hugo schuchardt) الذين اعتنوا بدراسة اللغات الرومانية بدلا من اللغات الجرمانية بأن التغيّرات الصوتية ينبغي ألاّ تفسر في حدود القوانين العلمية بل في حدود تغيّرات الذوق (taste) أو الموضة (fashion) في الكلام. وعلى الرغم من أن هذه النظرة تبدو أكثر عقلانية من النظرات الأخرى ، فإنها رُفِضت رفضا باتا من قبل الاتجاه السائد في اللسانيات التاريخية الألمانية والأمريكية ، وقد انتقدها هال (R.A. Hall) في 1946م ، وقال: إنها لا تستحق أيّ تقدير على الإطلاق.[2]

4ـ6ـ5ـ نظرية اللغات المتنحيّة (Substratum Theory):

يقول أصحاب هذه النظرية إن سبب التغيّر اللغوي يرجع إلى تنحي لغة و إخلاء السبيل إلى لغة قوية كي تحلّ محلّها. فحين تستعمل مجموعة من الناس لغة جديدة كلغة مستعمرهم مثلا ، فإنهم - بدون شك - ينقلون عادات نطقهم من لغتهم الأم إلى اللغة الجديدة المهيمنة. ولئن كانت هذه النظرة صحيحة نسبيًا ، فإن التغيّر اللغوي غالبا ما يمسُّ اللغة الواحدة ، ومثال ذلك التغيّر الكبير الذي طرأ على صوائت اللغة الإنجليزية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر للميلاد.

4ـ6ـ6ـ نظرية الأسرة اللغوية (Stammbaumtheorie)

جاء شليشر (Schleicher) بهذه النظرية لرسم عرى القرابة بين اللغة الأصلية الأولى ولغات الشعبة الهندو أوروبية ، وذهب إلى القول بأن اللغة الأولى البائدة قد انقسمت إلى فرعين ، ومع مرور الزمن حدثت تفرعات ثانوية أخرى داخل هذين الفرعين . ويرمي " شليشر " من وراء بناء شجرة النسب إلى الحصول على صورة تاريخية للتطور اللغوي منذ القدم إلى

(1) H.Osthoff and K. Brugmann , 1878, P. XII in G. Sampson , Op. Cit. , p. 27.
(2) Ibid. , p. 29.

الزمن الحاضر . ولكن ما هي العوامل التي دفعت " شليشر " إلى وضع هذه النظرية ؟ وفي هذا الصدد يقول روبينز (Robins): إن هذه النظرية تدين بالفضل إلى مناهج التصنيف النباتي ... وإلى إعادة بناء نسب المخطوطات التي قدّمها أستاذه ريتشل (Ritshel) ."[1] أما " مونان " فقد رأى " أن هذه النظرية تهدف إلى جعل التاريخ اللغوي يتناسق والنظرة البيولوجية التطورية التي نادى بها دروين ."[2] وبغض النظر عن هذه الاعتبارات ، فإن بناء شجرة النسب يُعدُّ محاولة شيّقة للغاية يتطلع إليها كلّ من يهتم بتاريخ اللغات وتاريخ البشرية بشكل عام . وإذا كانت شجرة النسب التي وضعها شليشر قد وجدت صدى واسعا في عصره، فإنها تلقت انتقادات موضوعية بعد ذلك ؛ إذ ألحق الباحثون تعديلات جذرية في شكل شجرة النسب وكذلك في أشكال إعادة البناء ، وفي البنية الفونولوجية للغة الأصلية المكوّنة التي تعرف في الألمانية بـ : " sprache ".

4 ـ 6 ـ 7 ـ نظرية الأمواج (Wellen theorie) :

جاء بهذه النظرية تلميذ شليشر الألماني جوهانس شميت (Johannes Schmidt)، ومفادها أن اللغات تنتشر على سطح الأرض كما تنتشر الدوائر المرتسمة على سطح الماء إثر سقوط حجر عليه.

وكما تبتعد الدوائر عن نقطة انطلاقها، وتتقاطع مع دوائر أخرى نتيجة سقوط أجسام أخرى ، فكذلك الشأن بالنسبة للغات حيث تتشعب شيئا فشيئا ، وتتسع الهوّة تدريجيا بين اللغة الأصلية واللغات المتفرعة. ومع هذا ، فقد يحدث اتصال أو أخذ وعطاء بين اللغات واللهجات . وحسب روبينز ، " فإن " شميت قام باستكمال، وليس باستبدال نظرية شجرة النسب بنظريته هذه ، إذ يرى بأن التغيّرات اللغوية بما فيها تغيرات الأصوات تنتشر في مكان معين من لهجة إلى لهجة ومن لغة إلى لغة ما دامت هناك اتصالات لغوية . وبهذا تكون هذه النظرية قد بنيت على مبادئ اللسانيات الجغرافية."[3]

(1) R.H. Robins , Op. Cit. , p. 178.

(2) Georges Mounin, La linguistique du XXe siècle , PUF, 1972, p. 200

(3) R.H. Robins Op. Cit. p. 179.

4 ـ 6 ـ 8 ـ نظرية تسهيل النطق:

يعتقد بعض الباحثين أن التغيّرات التي تطرأ على اللغة سببها ميل الأفراد إلى تسهيل عملية النطق وتيسير التواصل اللغوي. ومثال هذا ظاهرة الحذف (elision) أي حذف صوت أو مقطع من كلمة ما مثل لفظة « Colonel » التي تنطق في الإنجليزية /K3nl/، وعبارة « I shall » التي تختصر عادة في الكلام إلى « I'll» . كما يمكن كذلك استبدال أصوات بأصوات أخرى كلفظة « Lieutenant» التي تنطق في الإنجليزية / Leftenant/ . ويتمثل تسهيل النطق أيضا في استغناء اللغات الأوروبية الحديثة عن الحالات الإعرابية الموجودة في اللغة اللاتينية. ومن أنصار هذه النظرية دي سوسير ، ويسبرسن (Jespersen)، و ويتني (Whitney). وهناك أمثلة كثيرة تؤيد هذه النظرية حيث عادة ما ينزع الناس إلى توفير بعض الجهد أثناء عملية الكلام دون شعور واع منهم ، إذ يحصل التغير تدريجيا دون أي قصد مسبق. ويمكن للدارسين أن يلاحظوا أن كثيرا من الألفاظ العربية الفصيحة تنطق في بعض اللهجات العربية بطرق ميّسرة كالاستغناء عن الهمزة والتخلّي أحيانا عن بعض الحركات الإعرابية.

4 ـ 6 ـ 9 ـ النظرية الفيزيولوجية :

أرجع بعض اللغويين التغيّرات الصوتية إلى عوامل فيزيولوجية محضة : أي إلى تغيّر أعضاء النطق عند البشر عبر الأجيال المتعاقبة . ومن دعاة هذه النظرية : هارمان أستوف (Hermann osthoff) أحد العناصر البارزة في جماعة النحاة الجدد الذي قال : إن تغيّر الأعضاء الصوتية يؤدي لا محالة إلى تغيّر أصوات اللغة. وفي الحقيقة ، فإن العلوم البيولوجية في الوقت الحاضر قد بيّنت أن كيفية النطق قد تتغيّر ، ولكن أعضاء النطق لم يحدث أن مسّها أي تغيّر من قبل.

4 ـ 6 ـ 10 ـ النظرية الوراثية :

ارتأى فريق آخر من اللسانيين أن التغيّرات اللغوية هي عبارة عن خصائص شكلية تورث أبا عن جد كما تورثُ الخصائص البيولوجية والجينية عن الآباء والأجداد. وفي الواقع فإن وراثة الخصائص الجينية عند الكائنات الحية لا يمكن تشبيهها بوراثة اللغة. صحيح أن

الحيوانات ترث "لغتها" عن أسلافها بطريقة غريزية ، ولكن الإنسان لا يرث اللغة من والديه فحسب ، بل من مجتمعه الكبير كذلك . وهو فضلا عن تأثره بهذه اللغة ، فإنه يؤثر لا محالة فيها أيضا.

4 ـ 6 ـ 11 ـ النظرية الجغرافية :

رأت طائفة من اللسانيين أن العوامل الجغرافية تؤثر تأثيرا شديدا على تغيّر أصوات اللغة. وحسب دعاة هذه النظرية فإن سكان الجبال تختلف أصواتهم عن سكان السهول، إذ إن الفئة الأولى يغلب عليها طابع الشدّة والغلظة في كلامها ، في حين أن الفئة الثانية تمتاز أصواتها بالليونة والرخاوة. وهذا ما أكّده هنريخ ماير (Henrich Meyer) في قوله : إن التغيرات الصوتية مثل قانون غريم سببها التنفس القوي الناتج عن العيش في الهضاب والجبال ، وذلك لأن المناخ الجبلي النقي يساعد على نمو الرئتين واتساعهما . وقد أخذ كوليتز (H. Collitz) هذه الفكرة عن "ماير" ، ودعّم ما ذهب إليه بأمثلة من أنحاء مختلفة من العالم . ولكن هذا الزعم لم يحظ بتقدير علماء اللسانيات في القرن العشرين .

4 ـ 6 ـ 12 ـ النظرية التشومسكية :

خلافا لنظريات التغيّر اللغوي التي ظهرت في القرن التاسع عشر للميلاد ، فإن اللسانيين التشومسكيين عدّوا التغيّرات اللغوية وقائع اجتماعية لا طائل من دراستها. وقد عبّر عن هذا الموقف بول بوستال (Paul Postal) بقوله : " كما لا يوجد أي سبب مباشر من تزويد السيارات بزعانف تجميلية في عام، وخلعها في عام آخر، واتّخاذ الجاكيتات ثلاثة أزرار في عام وزرّين في عام آخر ، فإنه لا يوجد أي سبب من وراء تغيّر اللغات ". [1] وبهذا يكون "بوستال" قد أكّد أن التغيّرات اللغوية ليست قوانين طبيعية جديرة بالاعتبار ولكنها مجرد موضة لا أكثر ولا أقل.

وخلاصة القول: إن هناك عوامل كثيرة ومتداخلة تؤدي إلى تغيّر اللغات . صحيح أن بعض اللغات قد يكتب لها أن ترى النور ، وتنمو ، ثم تنقرض تماما مثلها في ذلك مثل جميع

(1) Paul Postal, Aspects of Phonological Theory , Harper and Row, 1968, p. 283.

الكائنات العضوية. وصحيح كذلك أن هناك لغات قد تشعبت إلى لهجات ، ثم أصبحت هذه اللهجات لغات قائمة بذاتها . كما أن هناك لغات مختلفة قد التقت عبر الزمن ، وصارت تكوّن لغة واحدة. كلُّ هذه التغيّرات لا يمكن أن يكون من ورائها سبب واحد بل أسباب متعددة زمانية ، ومكانية ، واجتماعية ، ونفسية ، وحضارية وغيرها . ومهما يكن من أمر ، فإذا كان اللغويون القدماء يرون أن تغيّر اللغة يؤدي لا محالة إلى فسادها ، وإذا كان التغيّر يُعدُّ تحريفًا عند علماء اليونان ، وتجديفا وتدنيسا عند علماء الهند ، فإن علماء اللسانيات في القرن التاسع عشر للميلاد قد تخلّوا عن هذه الآراء التي لا تستند إلى دليل عقلي ، وانكبّوا على دراسة التغيّرات في مظاهرها المادية ، مناهضين الأفكار التجريدية، ومطبقين قوانين التطور ليس على الدراسات اللسانية فحسب ، بل على جميع العلوم الإنسانية الأخرى.

4 ـ 7 ـ أعلام اللسانيات التاريخية:

بعد هذه الجولة السريعة في أحضان اللسانيات التاريخية ومعرفة أهدافها ومناهجها، لا يسعنا في هذا المقام إلاّ أن تسلط الضوء على أشهر الأعلام الذين كانوا وراء تحريك هذه الدراسات اللسانية والدفع بها قصد إرساء دعائمها بو صفها علما قائما بذاته.

4 ـ 7 ـ 1 ـ فردیرخ شليجل (Frederick von Schlegel):

درس فرديرخ شليجل اللغة السنسكريتية لأول مرة عندما كان في باريس في سنة 1803 على يد بعض اللسانيين الفرنسيين بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية. وحسب "مونان" فإن الألمان المبدعين في النحو المقارن كانوا يتوافدون على باريس لدراسة السنسكريتية لأن المستشرق سيلفستر دي ساسي " (Sylvestre de Sacy) " كان يُدرِّس هناك اللغات الشرقية ... وقد كوّن عددا كبيرا منهم، من أمثال شيزي (Chezy)، وكاترمار (Quatremere)، وريمسال (Rémusat)، وفوريال (Fauriel) .... [1]

وعند الدراسة، أُعجِب شليجل باللغة الهندية القديمة وببنيتها وبثقافة الهنود ومعارفهم، فبادر مباشرة بعد تخرجه إلى التأليف ، فأخرج كتابا شهيرا بعنوان : << اللغة والمعرفة عند الهنود >> Uber die Sprache und Weisheit der Indier, (1808)

(1) Georges Mounin , Op. Cit. , p. 167.

ويجمع الباحثون على أن شليجل هو أول من أتى بمصطلح " النحو المقارن " ويتضح هذا من مؤلفه الذي ينصُّ على ضرورة إرساء النحو المقارن لكونه يقدم حلولا جديدة حول فكرة الأسر اللغوية، وعلى أهمية المعجم المقارن والمبادئ التي يجب أن ينبني عليها هذا الشكل من النحو المقارن. وبعد دراسة معمقة لبعض اللغات، استخلص شليجل بأن التشابه بين اللاتينية ، والإغريقية، والألمانية ، والفارسية لا يكمن في العدد الكبير من الجذور المشتركة فحسب ، بل يمتد إلى البنية الباطنية لهذه اللغات وإلى عمق قواعدها. وبهذا الاكتشاف زاد اهتمامه باللغة السنسكريتية . " وكان إعجابه بها [كما قال محمود فهمي حجازي] على نحو إعجاب الرومانتكيين الألمان بكل شيء قديم وغريب . ورأى اللغات الأوروبية القديمة مثل الإغريقية واللاتينية من أصل سنسكريتي . وكان ... سعيدا كل السعادة باللغة السنسكريتية وكأنه قد توصل بها إلى طفولة البشرية وإلى اللغة القديمة النقية والأصلية. "[1]

وقد اهتم "شليجل بتصنيف اللغات، وسلك في هذا مسلكًا مغايرا لسابقيه. فتحدث عن التصنيف الجغرافي والتصنيف المقطعي (تصنيف اللغات الآسيوية إلى لغات أحادية المقطع وثنائية المقطع) فضلا عن التصنيف الذي تنعكس فيه الأطروحة القديمة والذي يُميِّز بين اللغات الصافية واللغات المختلطة. وميّز أيضا بين صنفين أساسيين من اللغات انطلاقا من البنية اللغوية الداخلية.

أ ـ اللغات المتصرفة: وتشمل كل اللغات الهندية الأوروبية . وفي رأيه فإن لغات هذه الشعبة تُعدُّ " لغات شريفة " لأنها وُلدت وتطورت بطريقة عضوية . وقد استثنى اللغات السامية لأن بنيتها التصريفية الخاصّة بالجذور ـ حسب زعمه ـ ليست قديمة العهد بل مستعارة في الأصل.

ب ـ اللغات غير المتصرفة : وهي لغات ناقصة تعوزها الحروف الأساسية ، وتفتقر إلى الجنس ، والعدد ، والنعت ، والحالة والمصدر ، ويمثل هذا الصنف اللغات الهندية الأمريكية. وقد ذهب إلى القول بأن هذه اللغات تأتي في الدرجة الدنيا ، ولكن اللسانيات الحديثة ترفض هذه الأحكام القيمية التي تؤصِّل فكرة اللغات البدائية واللغات المتقدمة ، لأن اللغة كما يقول أحد اللسانيين هي لهجة على رأسها راية ، ومن خلفها جيش يُعزِّزها.

(1) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية ، ص. 127

4 ـ 7 ـ 2 ـ راسموس راسك Rasmus Rask (1787 ـ 1832):

يُعدُّ " راسك " من جيل المقارنين الأوائل الذين ساهموا في وضع أسس لسانيات القرن التاسع عشر للميلاد. وقد قال فيه " بيدرسن" (Pedersen): " إنه كتب الجنين الأول في النحو المقارن " . ويعود فضله إلى تقديم أوّل عرض مفصّل في الدراسات المقارنة إلى أكاديمية العلوم الدانماركية في عام 1814 بعنوان : " بحث في أصل النرويجية القديمة أو الإيسلندية ".

وقد جاء هذا البحث إجابة عن سؤال في مسابقة علميّة نظّمتها أكاديمية العلوم الدانماركية حول هذا الموضوع: " البحث والاستشهاد بأمثلة ملائمة ، وبواسطة النقد التاريخي عن المصدر الحقيقي الذي انحدرت منه اللغة السكندينافية القديمة ، وإرساء طابعها العام وعلاقاتها باللغات الأخرى بدءًا من العصور القديمة ومرورا بالقرون الوسطى وانتهاءً باللهجات السكندينافية والجرمانية ، ثم تحديد المبادئ الأساسية التي يجب أن تُبنى عليها كل الاشتقاقات والمقارنات في هذه اللغات ".

ولاشك أن أهم نقطة في هذا البحث تتمثل في الإجابة عن الشطر الأخير من هذا السؤال الخاص بتحديد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها المقارنة المنهجية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن المبادئ الجديدة التي توصل إليها " راسك " قد كوّنت أرضية صلبة للسانيات التاريخية ومنهجا علميًا يقتدي به الباحثون. وعلاوة على هذا ، فقد تمكن الرجل من تحديد أهداف هذا العلم بدقة لم يسبق لها مثيل ، ونال بذلك الجائزة الكبرى عن استحقاق فريد ، غير أن هذا البحث لم يُطبع إلاّ في عام 1818م ، ولم يكتب لهذا العلاّمة أن يعيش سوى مدّة قصيرة ، بعدما بدت فيه نهكة المرض والضني والهزال.

لقد حرص "راسك" حرصا شديدا على ضرورة الفحص المنهجي للبنية النحوية للغات وعدم الاكتفاء بمقارنة المفردات لأن تراكيب اللغة نادرا ما تتغيّر ، بينما المفردات قد تتسرب من لغة إلى أخرى نتيجة الاحتكاك الثقافي ، وتؤدي إلى تماثل ظاهري سببه الاقتراض وليس القرابة. ومع هذا فإنه لم يتجاهل التطابق الصوتي بين الألفاظ ، وعدّه وسيلة أساسية لتحديد القرابة اللغوية بشرط أن تكون هناك رقابة صارمة على المنهج.

4 ـ 7 ـ 3 ـ **جاكوب غريم** Jacob Grimm (1785 ـ 1863):

يُعدُّ غريم أول باحث قام بكتابة بحث منهجي في النحو المقارن ، وقد ذكر في مؤلفه الشهير : «« النحو الجرماني »» أنه يجب وصف اللغة كما هي كائنة ، لا كما ينبغي أن تكون : أي كما هي مستعملة من قبل الناطقين بها ، وليس كما قنّنها النحاة. وعلى هذا فقد نصح الألمانيين بالتخلّي عن القواعد التي يتم تلقينها للتلاميذ في المدارس ، واستعمال اللغة التي يكتسبونها من أمهاتهم. وفي تمهيده المنقح من الطبعة الثانية قال : " إنّني أكنُّ عداء بغيضا لمفاهيم المنطق العام في النحو، فبالرغم من أنها خاضعة لدقة التعريف وتناسقه، فإنها تعيق الملاحظة التي تعدّ بالنسبة إليَّ روح العلوم الإنسانية ". وفي الجزء الأول من الطبعة الثانية (1882) من مؤلفه المذكور آنفا ، جمع "غريم" عيّنات متعدّدة من لغات مختلفة ، و بيّن اطّراد التطابقات الصوتية في اللغات الجرمانية وغير الجرمانية، وتوصّل بذلك إلى وضع مجموعة من القوانين أطلق عليها اللسانيون الذين جاءوا بعده مصطلح "قوانين غريم" (Grimm's Laws). وقد وضّح "غريم " أن اللغات الجرمانية قد طرأت على حروفها جملة من التغيّرات كما يبيّنه الجدول التالي :

القوطيّة	f	p	b	o	t	d	h	k	g
اللاتينية	p	b	f	t	d	t	c	g	h
الإغريقية	p	b	ph	t	d	th	k	g	kh
السنسكريتية	p	b	bh	t	d	dh	s'	d	h

لقد أكّد " غريم " على اطّراد التغير الصوتي في معظم الحالات ، ولكنه لم ينكر وجود حالات استثنائية لأن بعض الألفاظ قد لا يُصيبها التغيُّر ، وتحتفظ بشكلها القديم . ونظرا لأهمية الأصوات في اللسانيات المقارنة ، فإن " غريم" خصّ فصلا كاملا من 595 صفحة لعلم وظائف الأصوات (Phonology) بعنوان «« دراسة الحروف »» : Die lehre vonder Buchstaben

4 ـ 7 ـ 4 ـ **فرانتز بوب** Franz Bopp (1791م ـ 1867):

وُلد "بوب" في ماينز بألمانيا في عام 1791م ، وتلقى دروسه الأولى في هذه المدينة . وفي الواحد والعشرين من عمره ، انتقل إلى فرنسا ، ومكث بباريس من 1812م حتى 1816م، وتتلمذ في هذه الفترة على يد المستشرق "سلفستر دي ساسي " (Sylvestre de Sacy). ونظرا لما يتطلبه النحو المقارن من معرفة واسعة باللغات ، فإنه تعلّم عدة لغات منها السنسكريتية والفارسية ، والهندية ، والعربية ، والعبرية ، والجرمانية ، والإغريقية ، واللاتينية، والألبانية والسلافية ، والأرمينية ، واللثوانية. وفي باريس كتب رسالة في اللسانيات المقارنة جلبت له شهرة عالمية ، عنوانها : نظام التصريف في اللغة السنسكريتية ومقارنته بالأنظمة التصريفية في اللغات الإغريقية واللاتينية والفرنسية والجرمانية . وقد اتصف هذا البحث بدرجة علمية جيدة جعلت من "بوب " المؤسس الحقيقي للنحو المقارن. وفي هذا الشأن يقول "مونان ": " إن الشيء الذي جعل من بوب مؤسس اللسانيات ليس اكتشاف السنسكريتية ولا اكتشاف المقارنة وإنما استعمالهما لطرح المشاكل الجديدة الخاصة باللغة ثم الإقبال بعد ذلك على حلّها ".(1)

وفي سنة 1816م سافر " بوب " إلى لندن ، وأقام هناك حتى سنة 1820 م . وبعد ما رجع إلى ألمانيا ، كلّف بالتدريس في جامعة برلين ، وعُيّن أستاذا ذا كرسي في اللغة السنسكريتية . وفي سنة 1833م ، ظهر مؤلّفه الشهير: «« النحو المقارن للسنسكريتية والزندية والإغريقية واللاتينية واللثوانية والقوطية والجرمانية »» ، ولم يكتمل هذا النحو إلا في عام 1852م بعدما أضاف له "بوب" اللغة الكلتية والألبانية والسلافية القديمة.

وعلى غرار معاصريه ، فقد عدَّ "بوب" اللغة كائنا حيًا مانحًا تارةً لهذا المصطلح المعنى الذي نعطيه للبنية (Structure)، وتارة أخرى المعنى الذي يحمله في العلوم الطبيعية (2). وعلى عكس "راسك" و "غريم " اللذين اهتما بالتغير الصوتي ، فإنه اعتنى عناية شديدة بالمورفولوجيا ، ولم يحاولْ تحليل المفردات إلى مكوناتها الأساسية فحسب ، بل قام بعزْل

(1) Georges Mounin , Op. Cit. , p. 163.

(2) Ibid. , p. 176.

العناصر المتصرفة ، ثم إرجاعها إلى أشكالها ومعانيها الأصلية . ولئن كان يظن أن السنسكريتية هي اللغة الأصلية ، فإنه تخلّى عن هذه الفكرة فيما بعد ، ورأى أن الإغريقية واللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى قد انحدرت من السنسكريتية . وقد انطلق في البحث عن اللغة الأولى من خلال اللغة السنسكريتية لما لها من نظام تصريفي دقيق ولكونها أقدم من الإغريقية واللاتينية. وبهذا يكون هذا العلاّمة قد اشتغل بالبحث والتأليف في اللسانيات التاريخية والمقارنة لأكثر من نصف قرن دون كلل أو ملل.

4-7-5- أوغست شليشر August Schleicher (1821م - 1868م):

يجمع الباحثون اليوم على أن " شليشر " هو أشهر أعلام اللسانيات التاريخية بسبب مؤلفاته العديدة والقيّمة في هذا الحقل من الدراسات. فقد كان مُلمًّا إلماما كبيرا باللسانيات العامة والتاريخية وبالعلوم النحوية والصوتية فضلا عن إلمامه الواسع بالفلسفة وبخاصة الهيجيلية، وبالعلوم الطبيعية وبخاصة علم النبات . وبما أنّه كان متأثرا بكلٍّ من هيجل (Hegel) ودروين (Darwin) ، فقد توصل في المرحلة الأخيرة من عمره إلى الجمع بين النظرية الجدلية في التاريخ لهيجل ونظرية الانتقاء الطبيعي لدروين في بناء نظرية لغويّة متميّزة.

ومن أشهر مؤلفاته:

(أ) كُتيّب اللغة اللثوانية (1856 - 7)

Handbuch der litanischen sprache, Prague (1856 - 7)

(ب) الخلاصة الوافية في النحو المقارن للغات الهندية الجرمانية (1861)

Compendium der Wergleichenden Grammatik der Indergermanishen Ursprache, Weiman, (1861)

(جـ) اللغة الألمانية (1860) Die Deutsche sprache

(د) نظرية دروين ومُنظّر اللغة (1865)

Die Darwinische theorie und die Sprachwissenschaft, Weinmar, (1865)

لقد تمحورت أعمال "شليشر" حول اللسانيات التاريخية ، والمنهج المقارن ، ونظرية القرابة اللغوية ، وعلم الأصوات ، واللسانيات العامة والوصفية . وفي رأيه ، فإن اللغة مثل جميع الكائنات الحية تمرّ بمراحل مختلفة : الولادة ، والبلوغ ، والشيخوخة ، والموت ، وعندما يصل الجسم إلى طور معين من النمو ، فإن التجدد العضوي لا يمكن له أن يجاري الضعف والتطور ، وتكون النتيجة الضمور والاضمحلال . وقد استعان " شليشر " بنظرية " هيجل " ومصطلحاته التالية : الطريحة (thesis)، والنقيضة (Antithesis)، والجميعة (synthesis) في بناء نظريته الشهيرة في اللسانيات التاريخية . واستخلص أن اللغات الفاصلة التي تتسم ببساطة التركيب تُمثّل الطريحة ، واللغات اللاصقة التي تتصف بدرجة من التطور والاهتمام بالشكل تقوم بدور النقيضة ، واللغات التصريفية التي تتسم بالتعقيد ، و تجمع بين الشكل والمعنى تُمثّل الجميعة . وبهذا استنتج أن ظاهرة التصريف سمة من سمات اللغات المتطورة . وإذا كانت هذه الفرضية قد أثبتها "شليشر" في عصره بالرجوع إلى لغات عديدة ، فإن الواقع اللغوي في العصر الحديث بات يفند هذه النظرية ، إذ نلاحظ أن بعض اللغات الأوروبية كالفرنسية والإنجليزية والأسبانية قد تخلّت بنسبة كبيرة عن الظواهر التصريفية التي تعرفها اللغة اللاتينية وبعض اللغات القديمة الأخرى .

4-7-6- أوغست فيك August Fick (1833م - 1976):

قام هذا الباحث الألماني بجمع مفردات اللغة الهندو أوروبية البدائية وإخراجها في معجمه الشهير الموسوم بـ : معجم اللغات الهندو جرمانية المقارن، (1868).

Vergleichendes Wörterbuch der Indogermanischen Sprachen, (1868):

وعلى الرغم من أن بعض اللغويين مثل " ألوا والد " (Alois Walde) وجوليوس بوكورني (Julium Pokorny) قد قاموا بتأليف معاجم من هذا النوع ، فإنهم لم يصلوا إلى الدرجة التي وصل إليها "فيك" : فقد تمكن لأول مرة من تطبيق نظرية شجرة الأسرة اللغوية لـ " شليشر " على الألفاظ التي أوردها في معجمه السابق الذكر، وقسّم لغات العالم إلى مجموعتين : المجموعة الهندية الإيرانية والمجموعة الأوروبية ، ثم قسّم المجموعة الثانية إلى مجموعة اللغات

الأوروبية الجنوبية (كالإغريقية واللاتينية مثلا)، ومجموعة اللغات الأوروبية الشمالية (كالجرمانية والبلطية والسلافية)، وقسّم في الآخير المجموعة الأوروبية الشمالية إلى المجموعة الجرمانية والمجموعة البلطية السلافية.

أما في العصر الحديث ، فقد تخلّى اللسانيون عن نظريتي "شليشر" و "فيك" ، ورأوا أن القرابة الجينية بين اللغات لا يمكن أن تُعيَّن بالطريقة نفسها التي تُبنى بها شجرة الأسرة اللغوية .(1)

4ـ 7ـ 7ـ فردينان دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857 م ـ 1913 م)

خدم هذا اللساني السويسري اللسانيات التاريخية قبل أن يخدم اللسانيات الآنية الوصفية التي اشتهر بها . ومن أهم الدراسات التي قدمها في اللسانيات التاريخية وجلبت له شهرة عالمية ، نذكر هذين العملين:

(أ) « دراسة حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندو أوروبية »، (1878).

وقد وُجّه هذا البحث إلى إعادة بناء فونولوجيا اللغة الهندو أوروبية .

(ب) « حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية »، (1881).

وقد قدّم هذا البحث لنيل درجة الدكتوراه في جامعة "ليبسيغ". وترجع أهمية هذه الدراسات إلى أمرين أساسيين :

(أ) اعتماد المنهج البنيوي في البحث.

(ب) اتّباع مناهج البحث النظري المحض.

وإذا كانت الظروف الثقافية العامة بين 1870م ـ 1880م قد هيمنت فيها الأفكار الوضعية التجريبية هيمنة أضحى معها تفسير المظاهر المحيّرة في نظام صوائت اللغات الهندو أوروبية أمرا مستعصيًا لحوالي نصف قرن، فإن اكتشاف اللغة الحثيّة (Hittite) (2) مكّن الباحثين من التأكد من صحة ما توصل إليه هذا العالم السويسري في بحوثه عدة سنوات

(1) John Watermann, Op. Cit. , 39.

(2) الحثية لغة هندوأوروبية بائدة ، كانت مستعملة في آسيا الصغرى بين القرن التاسع عشر والقرن الرابع عشر قبل الميلاد

خلت من قبل ، ونكتفي بالكلام عن دي سوسير في هذا المقام ، لأننا سنتحدث عنه بإسهاب فيما بعد ، حيث نوليه فصلا خاصا يليق بمقامه.

4ـ 7ـ 8ـ كارل فارنر (Karl Verner):

في عام 1875م نشر اللساني الدانماركي "كارل فارنر" مقالا علميًا بعنوان : "شذوذ التغيّر الصوتي الأوّل". "Eine Ausnahme der ersten lawtverschiebung"

ويفسّر هذا الاكتشاف الهام بعض الشواذ المخالفة لقانون "غريم" ، ويؤكد على أن التغيّر الصوتي لم يحدث بمحض الصدفة ، وإنما يحصل تدريجيا وفق قوانين مطردة . وقد أطلق الباحثون على هذا القانون الجديد : قانون فارنر (Verner's law)، وينصُّ هذا القانون على أن الأصوات الاحتكاكية المهموسة التي تقع بين صائتين تصير مجهورة إلا إذا كانت مسبوقة بنبر (Stress) في الكلمة ، وذلك مثل وجود صوت انفجاري مجهور في اللغات الجرمانية بدل صوت احتكاكي مهموس في قانون "غريم" ، أي كوجود [d] بدلا من [Θ]. وقد استطاع "فارنر" أن يُبين بعض التطابق في الأصوات ، حيث إن الصوت [d] في القوطية يطابق الصوت [t] ، وذلك مثل « Fadar » في القوطية التي صارت « Pater» في اللاتينية.

ومن مقولات "فارنر" الشهيرة "لا استثناء دون قاعدة" . وقد ورد في مقاله المذكور آنفا أن الباحثين قد تيقنوا من ضرورة إيجاد قوانين لتفسير الشذوذ ، غير أن المشكل يكمن في إيجاد هذه القوانين . وبكلمة فإن قانون "فارنر" قد بُني على الملاحظة الدقيقة والمعطيات اللغوية التاريخية ، وكانت له نتائج إيجابية منها إعادة بناء اللغة الهندو أوروبية على أسس منهجية ، والتأكد من أن التغيّرات الصوتية ليست عشوائية وإنما منتظمة ، ولا يمكن اكتشافها إلا باتّباع مناهج علمية، وتطبيقها على جميع العَينات اللغوية.

4ـ 7ـ 9ـ النحاة الشبان (Junggrammatiker):

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، برزت مجموعة من الباحثين الألمان لقبهم بعض المتهكمين بهم باسم النحاة الشبان ، وصاروا يعرفون أيضا باسم النحاة المحدثين (Neogrammarians) أو مدرسة ليبزيغ (Leipzig School)، ومن أقطاب هذه الحركة

"بروغمان " (Brugman)، و أوسثوف (Osthoff)، ولسكين (Leskien) ودلبروك (Delbrück) في الدراسات الهندو أوروبية ، وبروكلمان (Brockelmann) ونولدكه (Noldeke) في الدراسات السامية. وقد ورد جوهر نظرية النحاة الشبان في مقال علمي كتبه اثنان من كبار دعاة هذه الحركة : " أوسثوف " و " بروغمان " ، وينصُّ على أن كل التغيّرات الصوتية - بوصفها عمليّات ميكانيكية - تحدث في اللغة الواحدة طبق قوانين لا تقبل الاستثناء ، إذ يتطور الصوت نفسه في المحيط نفسه بالطريقة نفسها.(1)

فقد كان " بروغمان " أستاذا في ليبزيغ منذ 1882م ، وقام بتأليف عدة كتب منها « حول وضعية اللسانيات الحالية » (1885)

Zun Heutingen stand der sprach wissenschaft (1885)

ثم أخرج بالاشتراك مع " دلبروك " كتابا بعنوان « موجز النحو المقارن في اللغات الهندو أوروبية » Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Indogermanischen sprachen: . .

أمّا " لسكين " فقد كان أستاذا محاضرا منذ 1870م ، وتخصّص في اللغات البلطية السلافية، ويَعرفُه الباحثون بمقولته الشهيرة: " لا استثناء للقوانين الصوتية ".

وبوجه عام ، لقد تأثّر النحاة المحدثون بمنهج العلوم الطبيعية، وتشبثوا بمبدأ الاطراد التام ، وعدم شذوذية القوانين الصوتية . وفي حالة وجود بعض الاستثناءات ، فإنهم يحاولون إيجاد قوانين استثنائية تناسبها . فإن لم يتوصلوا إلى اكتشاف هذه القوانين ، فإنهم يجدون تفسيرا لها في ظل القياس أو الافتراض . وقبل كل شيء ، فالشذوذ - في رأي هؤلاء - سببه الجهل بتطور اللغات ومعرفة تاريخها . وعليه فإنه يتحتم على الباحثين تقبّل القوانين الصوتية إلى أن تتقدم العلوم، وتتمكن من تفسير كلّ أنواع الشذوذ. وفي الواقع ، لقد غلا النحاة المحدثون في هذا الأمر غلوًّ شديدا، وهذا ما ذهب إليه النمساوي " سكوخرت " (Schuchardt) في القرن التاسع عشر للميلاد ؛ إذ بيّن صعوبة تفسير كل التغيّرات الصوتية بتطبيق القوانين

(1) R.H. Robins, Op. Cit. , p. 182.

الصوتية العمياء . وقد اتّضح لدى جلّ الباحثين أن نظرية اطّراد القوانين الصوتية فرضية لا يقبلها العقل السليم لأن الأصوات تتغير في كثير من الأحيان بطريقة عشوائية

وإذا كان أصحاب مدرسة ليبزيغ قد عُرفوا باطّراد القوانين الصوتية ، فإنهم تميّزوا كذلك بتشديدهم على بعض القضايا الأساسية . أولا ، لقد رفض هؤلاء نظرية التطور اللغوي التي نادى بها شليشر وغيره ، وعدّوا اللسانيات علما تاريخيا قائما بذاته.

ثانيا، لقد استخدموا المبادئ والمفاهيم السيكولوجية في تفسير الظواهر اللغوية واستغنوا بذلك عن المنطق الذي ميّز الدراسات النحوية التقليدية والعلاقات القائمة بين اللغة والفكر . ثالثا، لقد تخلّوا عن النظرة الرومانتيكية التي ظهرت في ألمانيا والتي كانت تنادي بالحفاظ على اللغة الأولى الفصيحة، وأقبلوا على دراسة اللهجات الأوروبية لأنها تمثل آخر مرحلة من حياة الهندو أوروبية . رابعا، لقد استعانوا في دراسة اللغة بالقياس والتوليد والافتراض، وعلم الأصوات وعلم اللهجات. وما يؤخذ على هؤلاء النحاة حسب واترمان (Waterman) أنهم اهتموا بالسمات المنعزلة للغة مما أدّى بهم إلى التركيز على الشكل دون الوظيفة ، وهذا ما جعل اللسانيات عندهم عملية وصفية عقيمة. وقد بلغ بهم الأمر إلى تجريد اللغة من الصفات الإنسانية وإلى تجاهل قدرة الإنسان على التحكم في الكلام ، وكأنّ اللغة لها نوع من الوجود المستقل عن البشر ، ولا تتحكم فيها إلا القوى الميكانيكية.(1)

4 - 7 - 10 - هارمن بول (Herman Paul)

قام هذا الباحث بإعطاء نفسا جديدا للسانيات التاريخية بعد " أوغست شليشر ". ففي سنة 1880 م ، ظهرت أول طبعة لمؤلفه « مبادئ تاريخ اللغة » Prinzipien der sprachgeschichte ، وتلته طبعة خامسة في سنة 1920م ، ويُعدّ هذا الكتاب الذي تناول فيه صاحبه الفكر اللغوي الكتاب المقدّس الذي يقتدي به النحاة الجدد.

(1) John Waterman, Op. Cit. , p. 54 - 55.

4ـ 7ـ 11ـ انطوان ميّي Antoine Meillet (1866 ـ 1936):

اهتم هذا اللساني الفرنسي الخبير بدراسة اللغات الهندو أوروبية، وكوّن جيلا من اللسانيين العظماء من أمثال " إميل بنفينيست " (Emile Benviniste) و "مارسال كوهن (Marcel Cohen)، ومن أشهر مؤلفاته : « مقدمة في الدراسة المقارنة للغات الهندو أوروبية »

Introduction à l'étude comparative des langues indo-européennes, (paris , 1937):

وكذلك : « المنهج المقارن في اللسانيات التاريخية » La méthode comparative en linguistique historique (paris : champion, 1925)

4ـ 7ـ 12ـ موريس سواديش Morris Swadesh (1909 ـ 1967):

من أشهر علماء القرن العشرين الأمريكي " موريس سواديش " الذي تخصّص في اللسانيات والأنثروبولوجيا، وابتكر في أواخر الأربعينيات أعظم تقنية في اللسانيات التاريخية تدعى " قياس عمر اللغة " (Glottochronology) أو " علم الإحصاء المفرداتي " (Lexicostatistics) . وإذا كان المصطلحُ الأول يُعدُّ مرادفا للمصطلح الثاني في رأي بعض الباحثين ـ كما يقول " كريستل " (Crystal) ـ فإن قياس عمر اللغة هو اسم الدراسة ، وعلم الإحصاء المفرداتي هو اسم التقنية التي تستعملها هذه الدراسة [1]. لقد استلهم " سواديش " هذا المنهج من الكيمياء التي بيّنتْ تجاربها أن تحديد نسبة النشاط الإشعاعي الكامنة في بعض المركبات الكربونية يمكننا من قياس عمر المواد العضوية . وذلك كما هو الشأن في استعمال تناقص النشاط الإشعاعي في قياس عمر الأرض.

ويهدف هذا المنهج إلى تحديد عمر اللغة ، وتاريخ انفصالها عن اللغة الأصلية ، ومعرفة تغيّرها عبر العصور ، وذلك عن طريق إحصاء المفردات في لغتين أو أكثر ، ومعرفة مدى التشابه بينهما ، ثم ضبط نسبة فقدان المفردات في كلّ واحدة منهما . لقد طبّق " سواديش " منهجه في بادئ الأمر على اللغات المعروف تاريخها، كاللغات الرومانسية التي انحدرت من اللغة اللاتينية ، فوضع أولا قائمة تحتوي على مائتي مفردة أساسية ، ثم قلّصها في الأخير

(1) David Crystal, The cambridge Encyclopedia of Language , Cambridge Cambridge University Press, 1987, p. 331.

ليصل إلى مائة مفردة فقط ، وقام بمقارنة هذه المفردات في لغات متقاربة ، وخلص إلى أن نسبة فقدان المفردات ثابتة حيث تحتفظ اللغة بنسبة 81 ٪ من المفردات الأساسية بعد الألف سنة الأولى من الانفصال عن الأصل المشترك، وستحتفظ بـ 81 ٪ من نسبة 81 ٪ الأولى بعد الألف سنة التالية ، والثابت لدى الباحثين أنه كلما زاد عدد المفردات المتشابهة بين لغتين، تقلص زمن الانفصال بينهما . وخلاصة القول: فإن هذه التقنية مفيدة للغاية ، ولكنها لم تتمكن من تقديم حسابات دقيقة . ومع هذا فلا زالت هناك محاولات لتطويرها لتمكين الدراسين من معرفة درجة القرابة بين اللغات وتحديد عمرها الزمني.

وهكذا فإن الدراسات التاريخية والمقارنة لم تتوقف في القرن التاسع عشر للميلاد ، بل استمرت حتى القرن العشرين . وهناك زمرة من اللسانيين اشتهرت بدراساتها الوصفية ولكنها عملت من قبل على تطوير اللسانيات التاريخية ، ومن أقطابها أدوارد سابير الذي انكب على دراسة لغات المجتمعات الأرومية الأمريكية الهندية . وليونارد بلومفيلد الذي عُني بالدراسات المقارنة ، وأعاد بناء اللغة الألغونكوية (Algonquian) حسب منهج علمي دقيق.

4ـ 8 ـ التصنيف النوعي للغات:

يُبنى التصنيف النوعي (Typological classification) على السمات الشكلية التي تُميّز اللغات المختلفة : أي على أوجه الشبه الموجودة بين الغرافيمات ، والأصوات، والمفردات والصرف ، والتركيب. ونحاول فيمايلي أن نسلط الضوء على بعض أنواع هذا التصنيف.

4ـ 8ـ 1ـ التصنيف النوعي في القرن التاسع عشر الميلادي:

منذ بداية اللسانيات التاريخية كانت هناك محاولات لتصنيف اللغات حسب نوعيتها الذاتية عوض القرابة النسبية . لقد قدّم أوغست شليجل تصنيفا نوعيًا نال اهتمام الباحثين في ذلك العصر ولازال معترفا به إلى يومنا هذا. ومفاده أن اللغات تنقسم إلى ثلاثة أصناف: عازلة (Isolating) ، ولاصقة (agglutinative)، وتصريفية (Inflectional). وقد سبق أن فصّلنا الذكر عن هذه الأصناف في حديثنا عن " شليجل " صاحب هذه النظرية.

4 ـ 8 ـ 2 ـ التصنيف النوعي المبني على السمات السطحية:

جاء بأحسن تصنيف لهذا النوع اللساني التاريخي " فينك " (F.N. Finck) الذي يرى أن الفعل الكلامي يتكون من عمليتين أساسيتين :

(أ) **التحليل**: أي تحليل موقف حقيقي إلى مكوناته.

(ب) **التركيب**: أي بناء الموقف في كلّ متكامل باستعمال بعض المفردات. ولنفرض أن الفكرة السائدة في موقف معين هي: « رجل يقترب »، حيث إنها تُحلَّل إلى مكونين : فاعل وحدث . وفيما يخص التركيب ، فإن الصيني يُعبِّر عن هذا الموقف باستعمال كلمة لكل مكون « t'a » (هو) و « Lai » (جاء)، والتركي يستعمل كلمة واحدة « geliyor »، والإنجليزي يستعمل ثلاث كلمات : « He is coming » ، وقد خلص " فينك " إلى أن اللغات ثمانية أصناف: (1)

عازلة الجذر	(root - isolating)	الصينية .
عازلة الساق*	(stem - isolating)	السّاموانية.
مصرِفة الجذر	(root - inflected)	العربية.
مصرفة الساق	(stem - inflected)	الإغريقية.
مصرفة جمعية	(group - inflected)	الجورجية.
سابقية	(juxtaposing)	السوبية.
لاصقة	(agglutinative)	التركية.
اندماجية	(incorporating)	الأسكيمو .

4 ـ 8 ـ 3 ـ التصنيف النوعي المبني على العناصر الفونولوجية الباطنية وترتيباتها:

تشتمل العناصر المستعملة في هذا النوع من التصنيف على الصوامت والصوائت، وسنسلط الضوء على الكتلة الأخيرة كما هي مرتبة حسب مخرجها وكيفية نطقها.

النظام الصائتي الثلاثي : ويمثل هذا النظام الصوائت القصيرة في اللغة العربية :

(1) F.N. Finck in Winfred Lehmann, Historical Linguistics : An Introduction, Holt , Rinehart and Winston, Inc. , 1973, p. 48.

* الساق (Stem) مورفيم أو مجموعة من المورفيمات تقبل زائدة مثل Impossible التي تقبل ity ـ فتصير impossibility

I U

a

النظام الصائتي الرباعي : وتمثله اللغة التونكاوية (Tonkawa):

i o

e a

النظام الصائتي الخُماسي: وتمثله الصوائت القصيرة في اللاتينية القديمة:

i u

e o

a

النظام الصائتي السباعي: وتمثله الصوائت القصيرة في الإيطالية المعاصرة :

i u

e o

a

النظام الصائتي الثماني وذلك كما في اللغة التركية:

i ü ı u

e ö a o

النظام الصائتي التساعي : كما في اللغة الإنجليزية :

i ɪ u

e ə ʊ

æ a ɔ

4 ـ 8 ـ 4 ـ التصنيف النوعي على أساس السمات المميّزة :

المعروف لدى الباحثين أن اللغات لا تعرف الثبات، وتطرأ على أصواتها بعض التغيّرات فاللغات الرومانسية انحدرت من اللاتينية ، كما انحدرت هذه الأخيرة من اللغة الهندو أوروبية الأولى، ولا يمكن لهذه التغيّرات أن توصف بدقة بوساطة نظام مبني على السمات المميّزة (distinctive features). وفي هذا الشأن قدّم " تشومسكي " و" هال " (Chomsky and Halle) جملة من السمات المميّزة الكلية (Universal) ضمّت مايلي : خلفي (Back) ، عال (High) صامتي (consonantal)، رنان (Reasonant)، صائتي (vocalic) ، مجهور (Voiced) امتدادي (continuant)، متوتر (Tense)، مدوّر (round)، إكليلي (Coronal)، أمامي (Anterior) متخفض (Low) ، خشن (Strident) ، أنفي (Nasal).(1)

4 ـ 8 ـ 5 ـ التصنيف النوعي على أساس الخصائص التركيبية:

قام بعض الباحثين بتصنيف اللغات حسب تراكيبها ؛ أي حسب ترتيب عناصر الجملة (WordOrder). ومن الأعمال الأولى المتعلقة بالتصنيف النوعي كتا ب : اللغة Language لسابير (Sapir)، وبخاصة الفصل السادس منه " أنواع التراكيب اللغوية "(2) الذي تناول كل التراكيب المختلفة ، وصنفها تصنيفا موضوعيًا دقيقا . ويرى اللسانيون أن أنماط التراكيب الأساسية في كافة اللغات لا تتعدى الثلاثة :

النمط الأوّل : الفاعل (المبتدأ) + الفعل + المفعول به (SVO).

النمط الثاني: الفاعل (المبتدأ) + المفعول به + الفعل (SOV)

النمط الثالث: الفعل + الفاعل + المفعول به (VSO)

(1) Chomsky and Halle, The sound Pattern of English, New York:Harper and Row, 1968

(2) Edward Sapir, Language, New York, 1921.

ويرى غرينبرغ (Greenberg) أن النمط الثالث هو التركيب السائد في معظم اللغات، وأن الأنماط الأخرى قد تستعمل لتفي بمتطلبات بعض الأغراض كالتوكيد مثلا .(1) وبشكل عام فإن التصنيف النوعي له فوائد كثيرة ، وقد زوّد اللسانيات التاريخية بتقنيات جديدة مكّنت من معرفة تاريخ اللغات ، وتفسير مظاهر التغيّر اللغوي ، وإرساء أسس القرابة وفق مقاييس أقلّ ما يقال عنها إنها قابلة للتحقق منها .

4 ـ 9 ـ التصنيف النسبي للغات:

ظهر منهج التصنيف النسبي (genealogical classification) للغات في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد. ويتمثل في تصنيف اللغات إلى عائلات لغوية على أسس القرابة الجينية ثم تقسيم العائلة الواحدة إلى مجموعات ، والمجموعة الواحدة إلى فروع ، والفرع الواحد إلى لغات ، واللغة الواحدة إلى لهجات . وبهذا تكون اللغات التي تندرج تحت عائلة واحدة قد انحدرت من لغة أصلية في زمن معيّن. ومن الصعوبة بمكان تصنيف كلّ اللغات تصنيفا تاريخيًا دقيقا لأن مجموع لغات العالم يفوق 5000 لغة ، ومنهم من يقول يفوق 10000 لغة. ومن المستحيل أن تكون كلّ هذه اللغات قد دُرست دراسة عميقة ، وطُبق عليها المنهج المقارن لإعادة بنائها . وفيما يلي نحاول أن نصنف اللغات إلى عائلات متحرّين الحقائق ومعتمدين في ذلك على أحدث المراجع.(2)

4 ـ 9 ـ 1 ـ العائلة الهندو أوروبية:

أطلق الباحثون هذا المصطلح على اللغات المنتشرة في أوروبا وجنوب آسيا والموجودة الآن ـ نتيجة الاستعمار الغربي ـ في معظم أنحاء العالم . والراجح لدى المؤرخين أن اللغة الهندو أوروبية الأولى (Proto Indo-European) قد استعملت منذ حوالي 3000 ق. م. وبما أن العائلة الجرمانية تمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الغرب، فقد أطلق بعض الباحثين الألمان عليها اسم العائلة الهندية الجرمانية ، كما أطلق بعضهم الآخر عليها اسم : العائلة الآرية .

(1) J.H Greenberg (ed), Universals of Language, Canbridge,Mass.: MIT,1996

(2) CF.Gleason (1955),Langacker (1968), Lehmann 1973, Milewsky (1973), Gystal (1987)

وقد ظهرت خلافات فيما يخص هذه التسمية نظرا لما تحمله من خلفيات سياسية. وتضم العائلة الهندية الأوروبية أكثر من عشر مجموعات مختلفة كما نلاحظ ذلك في الصفحات التالية



4 - 9 - 1 - 1 - المجموعة الهندية الإيرانية:

كان يطلق على هذه المجموعة اسم اللغات الآرية أو الهندية الآرية . وقد استعملت في الهند وإيران منذ حوالي 3000 سنة، وتنقسم إلى فرعين : الفرع الهندي والفرع الإيراني. وتُدعى أقدم نصوص الفرع الهندي : رغفيدا (Rigveda) ، وتتمثل في مجموعة من الأناشيد أطول من الإلياذة والأوديسة معا ، ويغلب عليها الطابع الكوزمولوجي التأملي. أما النصوص الأخرى فتدعى : الفيدا (Vedas)، وهي عبارة عن أناشيد مقدسة تناقلتها الأجيال بصورة شفهية. ولما أضحت لغة الفيدا عتيقة مهجورة ، هيّأ لها علماء الدين قواعد نحويّة وبعض الشروح المفصّلة لمساعدة القساوسة على تفسير الأناشيد وضبط النطق الخاص بها ، وباتت لغة هذه الشروح تعرف بالسنسكريتية ، ويعود تاريخها إلى ما قبل 1000 سنة ق . م ولكنها لا زالت مستعملة إلى يومنا هذا من قبل بعض الأدباء والبرَهْميين. وإلى جانب السنسكريتية التي كانت تُعدُّ لغة الثقافة و الفصاحة، ظهرت بعض اللغات الثانوية الأخرى عرفت باسم اللغات البراكريتية (Prakrits). ومن الهندية الوسطى ، انحدرت اللغة البالية (Pali) التي كتبت بها المبادئ والنصوص البوذية قبل ظهور المسيح (عليه السلام) بمدة قصيرة

وفي أواخر المرحلة الهندية الوسطى قبل 1000 سنة ق . م . برزت بعض اللغات الأخرى عرفت باسم : أبابهراماس (Apabhramas)، وتعني اللغات المتفرعة . ومن هذه الأخيرة ، تطورت اللهجات الهندية الحديثة ، ومنها اللغة الهندية الأكثر استعمالا واللغة المحليّة للجمهويّة الهندية. وتعرف هذه الأخيرة بالهندوستانية في الهند وبالأرديّة في باكستان ، ويكمن الاختلاف بينهما في استعمال المفرادات العلمية والأدبية ؛ إذ تشتق الهندية مفرداتها من السنسكريتية والأرديّة من العربية والفارسية . وفي الواقع ، هناك عدد كبير من اللغات الهندية الحديثة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: البنغالية ، والمارثية ، والبنجابية ، والغوجراتية ، والسنهاليّة والأسامية ، والنيبالية . وتوجد في الهند اليوم أكثر من 3600 لغة.

أما عن الفرع الإيراني ، فقد سادت الإيرانية القديمة قبل 3000 ق. م . ، وتفرعت إلى اثنتين : الفارسية القديمة التي استعملت من 600 ق . م . حتى 300 ق. م . ، والأفستية (Avestan) التي كتبت بها النصوص المقدّسة الزرادشتية . أما الإيرانية الوسطى فقد استعملت من 300 ق . م حتى 900م ، وأنجبت عدة لغات منها البهلويّة (Pehlavi) أو الفارسية الوسطى التي كانت لغة الأمبراطورية الفارسية منذ حوالي 300 م إلى 900م ، والبالوتشية (Baluchi) المستعملة في غرب باكستان ، والفارسية في إيران ، والكردية في شرق تركيا و شمال العراق وغرب إيران ، والباشتو (Pashtu) أو الأفغانية في أجزاء عديدة من أفغانستان وبعض المناطق المجاورة لباكستان ، والأوستية (Ossetic) في شمال القوقاز.

4 - 9 - 1 - 2 - المجموعة الأرمينية:

تتألف هذه المجموعة من لغة واحدة وعدة لهجات ، ولا يزيد عدد المتكلمين بها عن ثمانية ملايين نسمة أغلبهم من أرمينيا وتركيا وبعض الجمهوريات الروسية المجاورة ، والبقية من بعض مناطق الشرق الأوسط وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية نتيجة هجرة السكان الأصليين . ولم يحصل الباحثون على النصوص الأرمينية إلا في القرن الخامس الميلادي . وقد حافظت الأرمينية القديمة على شكلها حتى القرن التاسع عشر للميلاد ، ولازالت حروفها الثمانية والثلاثون التي ابتكرها القديس مسروب (St. Mesrop) مستعملة إلى يومنا هذا.

4ـ 9ـ 1ـ 3ـ المجموعة الألبانية:

تشكل اللغة الألبانية مجموعة واحدة من العائلة الهندية الأوروبية ، ويعود تدوينها إلى القرن الرابع عشر للميلاد حيث تمّت أوّل ترجمة لإنجيل " متّى " . وهناك خمسة ملايين من الناس يتكلمون هذه اللغة في ألبانيا وأجزاء من يوغسلافيا ، واليونان ، وإيطاليا . وللألبانية لهجتان : الغاق (Gheg) في الشمال والتوسك (Tosk) في الجنوب ، وقد تفرعت عنهما عدة لهجات أخرى . أما اللغة الوطنية في ألبانيا فقد اعتمدت اللهجة التوسكية منذ الحرب العالمية الثانية ، وتبنت الحروف الرومانية منذ 1909م.

4ـ 9ـ 1ـ 4ـ المجموعة البلطيقية:

إن اللغتين المهمتين في المجموعة البلطيقية (Baltic) هما اللثوانية (Lithuanian) واللتفية (Latvian)، ولكلتيهما عدة لهجات . و ترجع نصوصهما المكتوبة إلى القرن الرابع عشر للميلاد.

4ـ 9ـ 1ـ 5ـ المجموعة السلافية:

يحتل المتكلمون باللغات السلافية جزءا كبيرا من أوروبا الشرقية والاتّحاد السوفياتي سابقا . ويستعمل حوالي نصف هؤلاء السكان اللغة الروسية التي هي في الأصل اللغة المتمركزة في موسكو ، ولكنها انتشرت عبر آسيا الشمالية ، وحلّت محلّ كثير من اللغات المحلية وعلاوة على هذا ، فإنّها تعدُّ اللغة الثانية في كلّ جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا ، وهذا ما جعل بعض الباحثين يعدّها اللغة الثانية في العالم بعد اللغة الإنجليزية . وتعود أقدم الوثائق السلافية إلى مجيء المسيحية ، إذ بعد 850م ، قام المبشران سيريل (Cyril) ومثوديوس (Methodius) بنقل المسيحية إلى الناطقين باللغة السلافية ، وترجما الكتاب المقدس إلى لغتهم. وتعرف لغة الترجمة بالسلافية الكنسية القديمة أو البلغارية القديمة. وقد تبنتها الكنيسة الروسية ، وعدّتها لغة رسميّة . وهذا ما مكّنها من احتلال مكانة راقية في شرق أوروبا كمكانة اللاتينية في الكنيسة الرومانية.

وتنقسم اللغات السلافية إلى ثلاثة فروع: الفرع الشرقي ، ويشمل لغات الاتحاد السوفياتي سابقا ، ويضم الروسية ، والبيلوروسية ، والأكرانية ، والفرع الغربي ، ويشمل لغات كلٌ من تشيكوسلوفاكيا ، وبولندا ، وغرب ألمانيا ، ويضم التشيكية ، والسلوفاكية والبولونية. والفرع الجنوبي ، ويشمل اللغات الموجودة في يوغسلافيا وبلغاريا وبعض أجزاء اليونان ، ويضم البلغارية ، والسربوكرواتية ، والسلوفينية ، والمقدونية.

4ـ 9ـ 1ـ 6ـ المجموعة الإغريقية:

تتألف المجموعة الإغريقية أو الهيلينية من الإغريقية القديمة والإغريقية الحديثة . وتعود الأولى إلى أكثر من 3000 سنة ، وتوجد اللهجات الإغريقية الحديثة في اليونان وتركيا وقبرص. ونظرا للهيمنة الثقافية والاقتصادية لأثينا ، فإن لهجتها الأتيكية (Attic) أصبحت مستخدمة في كل المناطق التي تتكلم الإغريقية . وهذه هي اللهجة التي نشرها الأسكندر الأعظم عبر أمبراطوريته وكتب بها العهد الجديد.

4ـ 9ـ 1ـ 7ـ المجموعة الإيطالية:

دخلت اللغات الإيطالية إلي إيطاليا في هجرات متعاقبة خلال الألف الثانية قبل الميلاد. وأهم هذه اللغات : الأسكية (Oscan)، والأمبرية (Umbrian)، والفالسكية (Faliscan)، والفينيسية (Venetic)، واللاتينية . وتعدُّ اللاتينية اللغة الأساسية في هذه العائلة ، وتعود نقوشها إلى القرن السادس قبل الميلاد ، ووثائقها الأدبية إلى القرن الثالث قبل الميلاد . وخلال حكم الأمبراطورية الرومانية ، كانت اللاتينية الكلاسيكية هي لغة الكتابة ، واللاتينية العامية هي لغة الحديث والتعامل بين الناس . وقد انحدرت اللغات الرومانسية الحالية من اللاتينية العاميّة بعد زمن طويل من سقوط الأمبراطورية الرومانية الغربيّة. فظهرت الفرنسية في القرن التاسع الميلادي ، والإيطالية والأسبانية في القرن العاشر الميلادي ، والبروفانسية والبرتغالية في القرن الحادي عشر الميلادي ، والرومانية في القرن السادس عشر الميلادي . وإلى جانب هذه اللغات هناك لغات ثانوية أخرى منها الكتلانية (Catalan)، والسردينية (Sardinian)، والدلماتية (Dalmatian)، والرايتية (Rhaetian). وفي القرن العشرين ، انتشرت أغلبية اللغات الرومانسية في كل بلدان العالم نتيجة الاجتياح الاستعماري الغربي . ويستعمل اليوم هذه اللغات أكثر من خمسمائة مليون شخص .

4 ـ 9 ـ 1 ـ 8 ـ المجموعة الكلتية:

كان الكلتيون يقطنون وسط أوروبا حوالي 1000 ق. م . ، ونظرا لقوتهم الاقتصادية والعسكرية ، فقد توسعوا في كلّ من أسبانيا ، وشمال إيطاليا ، وبريطانيا ، وإيرلندا ، وبلاد الغال ، و وصلوا حتى آسيا الصغرى . وتنقسم المجموعة الكلتية إلى فرعين : يُدعى الفرع الأول " الكلتية كاف " (Q - Celtic) لأن لغات هذا الفرع احتفظت بالصوت |Kw-| الهندو أوروبي الأصل ، والذي كان يكتب |q| في أول الأمر ، ثم أصبح يكتب |C| مع مرور الزمن كما في << ceathair >> التي تدل على العدد << أربعة >> في اللغة الغيلية . ويُدعى الفرع الثاني "الكلتية باء" (P- Celtic) لأن الصوت |Kw-| الهندو أوروبي الأصل تطوّر إلى الصوت |P| كما في كلمة «Pedwar» أي << أربعة >> في اللغة الويلزية.

ومن اللغات الكلتية الموجودة اليوم لغة البروتون (Breton) في الشمال الغربي لفرنسا واللغة الويلزية والإيرلندية والمانكسية (Manx) في بريطانيا.

4 ـ 9 ـ 1 ـ 9 ـ المجموعة الجرمانية :

تعود أول مخطوطات المجموعة الجرمانية (Germanic) إلى 350م ، حيث تمّت ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغة القوطية . وتتمركز اللغات الجرمانية أو التوتونية (Teutonic) في وسط أوروبا وغربها وشمالها الغربي . وتنقسم إلى ثلاثة فروع :

(1) اللغات الجرمانية الشرقية : وقد انقرضت كلها ، ولم تبق إلا اللغة القوطية في شكل مخطوطات فقط. (2) اللغات الجرمانية الغربية : وتشمل الإنجليزية ، والجرمانية والفريزية ، واليديّة ، والهولندية ، والإفريقانية .(3) اللغات الجرمانية الشمالية: وتشمل الإيسلندية، والنرويجية، والسويدية ، والدانمركية.

4 ـ 9 ـ 1 ـ 10 ـ المجموعة التخارية :

تعدُّ التّخارية (Tocharian) لغة بائدة ، وقد كانت مستعملة في الجزء الشمالي من تركستان الصينية منذ سنة 1000 م . وقد اكتشف الباحثون في أواخر القرن التاسع على الميلادي هذه اللغة في شكل وثائق دينية بوذية وتجارية ترجع إلى القرن السابع للميلاد وللتخارية لهجتان : لهجة شرقية في منطقة تورفان تدعى : التخارية أ، ولهجة غربية في منطقة كوشا ، تدعى التخارية ب .

4 ـ 9 ـ 1 ـ 11 ـ المجموعة الأناضولية:

تتمثّل المجموعة الأناضولية (Anatolian) في مجموعة من اللغات البائدة التي استخدمت حوالي 200 ق . م في المناطق المعروفة اليوم بتركيا وسوريا . وتعدُّ الحثّية (Hittite) أكبر لغة في هذه المجموعة . وفي 1905م كشفت الحفريات قرب القرية التركية بوغازكوي عن أرشيف الامبراطورية الحثّية الذي هو عبارة عن ألواح بخطوط مسمارية . وحسب المؤرخين فإن هذه الحضارة ازدهرت من 1700 ق . م حتى 1200 ق . م . وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الحثّية لغة شقيقة للهندو أوروبية وليست بنتها كما بدا ذلك لبعضهم من قبل . ومن هذا المنطلق ارتأوا إعادة تصنيف العائلة الهندو أوروبية ، وأصبحوا يطلقون عليها اسم : الهندية الحثّية ، وتظم المجموعة الأناضولية لغات أخرى منها: الليسية (Lycian)، واللوية (Luwian) والبالايية (Palaic)، والليديّة (Lydian).

4 ـ 9 ـ 2 ـ العائلة الإفريقية الآسيوية:

صُنّفت هذه العائلة على أساس جغرافي محض ، وتشتمل على عدد من اللغات المستعملة في شمال وشرق إفريقيا وجنوب غرب آسيا. وكانت هذه العائلة تُدعى : الحامية السامية (Hemito-Semitic)، ولكن غرينبرغ (Greenberg) وسّعها بعد ذلك وأطلق عليها : العائلة الإفرو أسيوية [1] ، وتظم خمس مجموعات : السامية ، والمصرية ، والبربرية ، والكوشيتية والتشادية.

4 ـ 9 ـ 2 ـ 1 ـ المجموعة السامية:

وتظمُّ لغات قديمة جدا كاللغات الأكاديّة (الآشورية والبابليّة)، واللغات الكنعانية (العبرية والفينيقية)، والآرامية القديمة (لغة عيسى عليه السلام والتي انحدرت منها السريانية) ، والعربية الشمالية ، والعربية الجنوبية ، واللغات الحبشية (منها الأمهرية والتغرينية) [2]

---

(1) CF. J.H Greenberb, Languages of Africa, Indiana University.

(2) لتاريخ اللغات السامية أنظر

(2) E. Renan, Histoire générale des langues sémitiques, Paris, 1855.

4 ـ 9 ـ 2 ـ 2 ـ المجموعة المصرية:

وتضمّ اللغة المصرية القديمة التي يرجع تاريخها إلى 4000 ق. م وتفرّعت منها اللغة القبطيّة في القرن الثاني للميلاد . وهي اليوم مستخدمة بوصفها لغة الطقوس الدينية بين المسيحيين القبطيين في مصر.

4 ـ 9 ـ 2 ـ 3 ـ المجموعة البربرية:

هذه المجموعة مستعملة اليوم في شمال إفريقيا وخاصة في الجزائر والمغرب، وتضم عدة لغات منها القبائلية، والريفية ، والشلحية، والتوارغية، والزناغية، والتاماشكية.

4 ـ 9 ـ 2 ـ 4 ـ المجموعة الكوشيتية:

وتضم حوالي ثلاثين لغة مستخدمة في إثيوبيا ، وكينيا، والصومال ، أشهرها: الأورومو والكالا ، والصومالية.

4 ـ 9 ـ 2 ـ 5 ـ المجموعة التشادية:

وتحتوي على أكثر من مائة لغة تنتشر من شمال غانا حتّى جمهورية إفريقيا الوسطى والهاوسا (Hausa) هي أهم لغة في هذه المجموعة ، وهي مستخدمة من قبل خمسة وعشرين مليون نسمة بوصفها اللغة الأم.

4 ـ 9 ـ 3 ـ العائلة النيجيرية الكونغولية (Niger - congo):

هذه هي أكبر عائلة في إفريقيا ، إذ تضمّ حوالي ألف لغة وعدّة آلاف من اللهجات متمركزة جنوب خط الإستواء بإفريقيا. وتنقسم إلى ست مجموعات :

4 ـ 9 ـ 3 ـ 1 ـ المجموعة البنوية الكونغولية (Benue-congo):

وتشتمل على حوالي سبعمائة لغة منتشرة وسط إفريقيا وجنوبها . وتنتمي أكثر من خمسمائة لغة من هذه المجموعة إلى فرع البانتو (Bantu) ، وعلى رأسها اللغة السواحلية المستخدمة في افريقيا الوسطى بوصفها لغة تجارية . وتأتي بعدها لغات أخرى منها الزولو والخوصة ، والسوتو ، والنيانْجا.

4 ـ 9 ـ 3 ـ 2 ـ المجموعة الأداماوية الشرقية (Adamawa-Eastern):

تضم حوالي تسعين لغة مستخدمة في أقصى الجزء الشمالي من إفريقيا الوسطى أهمها لغة السانغو (Sango)، ولغة الغْبايا (Gbaya).

4 ـ 9 ـ 3 ـ 3 ـ مجموعة كوا (Kwa):

وتشمل أكثر من ثمانمائة لغة مستعملة في غرب إفريقيا منها يوروبا ، وإيغبو ، وآكان وإيوْ ، وإيجو.

4 ـ 9 ـ 3 ـ 4 ـ المجموعة الفولطية (Voltaic):

تحتوي هذه المجموعة على أكثر من سبعين لغة متمركزة في منطقة واسعة حول نهر فولطا العليا.

4 ـ 9 ـ 3 ـ 5 ـ المجموعة الأطلسية الغربية: (West Atlantic):

تشتمل على ما يربو عن أربعين لغة تمتد على الساحل من ليبيريا إلى السنغال ، وأهم لغة في هذه المجموعة هي اللغة الفولانية التي يتكلمها حوالي خمسة عشر مليون نسمة.

4 ـ 9 ـ 3 ـ 6 ـ المجموعة الماندية (Mandic):

تضم هذه المجموعة ما يزيد عن عشرين لغة مستخدمة في غرب إفريقيا الوسطى، ومن أهم لغاتها : بامبارا ، ومالينكا ، وماند، وديولا.

4 ـ 9 ـ 4 ـ العائلة الشارية النيلية (Chari-Nile):

تتمركز هذه العائلة التي تضم أكثر من مائة لغة في المناطق العليا لكلّ من نهر النيل ونهر الشاري. وتنقسم إلى فرع شرقي وفرع غربي . ويشمل الأول عدة لغات أهمها: النانديه والبارية ، ويشمل الثاني لغات اللُّو (Luo) ، والدينكا ، والأكولي ، واللانغو . ولكن القرابة بين هذين الفرعين لازالت غير مؤكدة . وتوجد لغات أخرى في هذه المنطقة لا يزيد عدد مستعمليها عن الألف من بينها اللانو، والمانغبيتو ، واللوغبارا ، والمادي، والغمباي . واللغة النوبية (Nubian) المستعملة في مصر والسودان من قبل مليون نسمة هي اللغة الوحيدة في هذه

المجموعة التي لها تاريخ طويل ومخطوطاتها مدونة بأبجدية قبطية مغيّرة ترجع إلى القرن الثامن الميلادي . أما اللغات الأخرى التي تنتمي إلى هذه العائلة فقد صُنّفت في مجموعات صغيرة منها : الصحراوية، والمابية، والكومية.

4ـ9ـ5ـ العائلة الخويزية (Khoisan):

تعدُّ الخويزية من أصغر العائلات اللغوية في إفريقيا ، وتضم حوالي خمسين لغة مستخدمة كلها في الجزء الجنوبي من القارة الإفريقية . وأشهر لغاتها لا يربو عدد ناطقيها الألفين ومنها الكوابية والساندّوية . وتوجد بهذه المنطقة عائلات أخرى صغيرة للغاية منها: عائلة السونغاي (Songhai) والعائلة الصحراوية الوسطى اللتان تحدهما من الشمال العائلة الأفرو اسيوية ومن الجنوب العائلة النيجيرية الكونغولية.

4ـ9ـ6ـ العائلات اللغوية الآسيوية الأخرى:

4ـ9ـ6ـ 1ـ العائلة الملايية البولينيزية (Malayo-Polynesian):

تمتد هذه العائلة من جزر المحيط الهادي إلى غرب مدغشقر، ومن طايوان وهاواي إلى زلندا الجديدة ، وتُعدُّ أكثر العائلات انتشارا بعد العائلة الهندوأوروبية، وتقول بعض المصادر إن لغات هذه العائلة تبلغ السبعمائة ، وتنقسم إلى مجموعتين : المجموعة الملايية في شبه جزيرة ملقا، ومدغشقر ، وجزر الهند الشرقية ، وجاوا ، وسومطرا ، وفرموزا، ومن أهم لغاتها: الملايية ، والمالورية ، والجاوية ، والتغالونية ، والإيكوكانوية ، والبيسايانية . والمجموعة البولينيزية التي تنتشر في معظم جزر المحيط الهادي، وتنقسم إلى ثلاثة فروع: الميكرونيزية والبولينيزية والميلانيزية. ومن أهم لغاتها: الفيجية ، والسيامية ، والماوورية ، والهاوايية ، والتاهيتية.

4ـ9ـ6ـ 2ـ العائلة الدرافيدية (Dravidian):

تضم هذه العائلة أكثر من عشرين لغة، وتنتشر في سيلان وجنوب الهند ، وتمتد حتى أماكن أخرى من العالم كغرب إفريقيا وشرقها نتيجة هجرة بعض الأهالي إلى هذه المناطق. وأقدم لغة في هذه العائلة : التاميلية (Tamil)، وترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وهي أقرب إلى اللغة الأصلية الدرافيدية القديمة . وبالموازاة مع شقيقاتها، فإن التاميلية تحتل أكبر

مساحة جغرافية ، إذ تستخدم في سريلنكا ، وماليزيا ، وأندونيسيا ، والفيتنام ، وبعض جزر المحيط الهندي ، وجنوب المحيط الهادي ، وغرب إفريقيا وشرقها . ومن اللغات الأخرى التي تنتمي إلى هذه الأسرة : الكنريّة ، والتولوغويّة، والكوروخيّة، والتولويّة ، والبراهويّة، والمالْطوية.

4ـ9ـ6ـ 3ـ العائلة القوقازية (Caucasian):

تضم المنطقة الصغيرة الممتدة بين البحر الأسود وبحر قزوين والمحيطة بجبال القوقاز ما يقارب الأربعين لغة . وتنقسم إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأبخازية الأديجية في شمالي غربي المنطقة ، والمجموعة الناخورية الداجستانية في شمالي غربي المنطقة ، والمجموعة الناخورية الداجستانية في شمالي شرقي المنطقة ، والمجموعة الإيبيرية أو الكارتفيلية في الجنوب . والحاصل أن مجموع الناطقين بكل اللغات التي تنتمي إلى هذه العائلة لا يزيد عددهم عن الثمانية ملايين ، ويعيش معظمهم في جورجيا . ومن أهم لغات المجموعة الأولى: القباردية ، والأديغية ، والأبخازية : والمجموعة الثانية : الأفارية ، واللزعية ، واللكية : والمجموعة الثالثة : الشاشانية ، والإينغوسيّة ، والباتسيّة.

4ـ9ـ6ـ 4ـ العائلة الألطية (Altaic):

تغطي هذه العائلة التي استمدت اسمها من جبال الألطاي رقعة واسعة تمتد من شبه جزيرة البلقان إلى شمال شرق أسيا، وتشمل أربعين لغة موزّعة في ثلاث مجموعات. المجموعة التركية . وعلى رأسها اللغة التركية المستخدمة من قبل خمسين مليون نسمة في تركيا وبعض المناطق المجاورة لها . وكذلك الأذرابيجانية، والتركمانية، والأزبكية، والتاتارية، والكازاخية والقرغيزية، والألطية، والبشكيرية. والمجموعة المنغولية : وعلى رأسها اللغة المنغولية أو الخالكا المستخدمة من قبل ستة ملايين نسمة وكذلك البورياتية، والسانتيه ، والداغورية، والكالموكية. والمجموعة المناشوتونغوسية: وتستعمل خاصّة في شرق منغوليا وشرق الصين، وتشمل عددا قليلا من اللهجات منها : الأفنكيّة، أو التونغوسيّة، واللاموتية ، والمانشورية.

4ـ 9ـ 6ـ 5ـ العائلة الأورالية (Uralic):

تتمركز هذه العائلة في منطقة جبال الأورال بالاتحاد السوفياتي سابقا ، ويصنّفها بعض اللسانيين ضمن العائلة الأورالية الألطية . ويكاد يجمع الباحثون على أن علاقات القرابة بين اللغات الآسيوية ـ بشكل عام ـ غير مبنيّة على أسس علمية ، وهذا ما أدّى إلى ظهور كثير من الآراء المتباينة. والراجح أن هذه العائلة تنقسم إلى مجموعتين : الفنلندية الأغريّة (Finno-Ugric) والساموييدية (Samoyedic). وتنتشر المجموعة الأولى في جزء من أوروبا الوسطى وفي المناطق الشمالية حيث تلتقي أوروبا وآسيا ، وتنقسم بدورها إلى فرعين . الفرع الفنلندي والفرع الأغري . ويوجد الفرع الأول في فنلندا ، وفي المنطقة الواقعة بين شمالي النرويج والبحر الأبيض ، ومن أهم لغاته : الفنلندية المستخدمة في فنلندا والسويد وروسيا ، والأستونية المستعملة في استونيا وبعض الجمهوريات الروسية المجاورة ، واللابية المستخدمة في روسيا والدول الأسكندنافية . أما اللغة الرئيسية في الفرع الأغري فهي الهنغارية : اللغة الوطنية في هنغاريا . وتوجد هناك كذلك لغات أخرى غير مستخدمة كثيرا منها: الخانتية والمانسية . وفيما يخصُّ المجموعة الثانية ، فتمثلها اللغة الساموييدية المستعملة من قبل الشعب الساموييدي الذي يقطن في سيبيريا والذي لا يزيد عدده عن خمسين ألف نسمة . وتضم هذه المجموعة لغات أخرى مثل : اليوراكية والسلكوبية . وقد ألحق بعض الباحثين بالمجموعة الافتراضية الأورالية الألطية لغتين منعزلتين وهما: الكورية واليابانية ؛ ولكن يبدو أن علاقة القرابة هاهنا ضعيفة للغاية وتحتاج إلى الدراسة المعمقة.

4ـ 9ـ 6ـ 6ـ العائلة الصينية التّبتية (Sino-Tibetan):

تشمل هذه العائلة مختلف اللغات الموجودة في الصين ، والتّبت ، وبورما ، وبعض المناطق المجاورة ، وتدعى أيضا : العائلة الهندية الصينية . ومن الباحثين من رأى أن اللغات التبتية البورمية تكوّن عائلة مستقلة بذاتها ، وأن الصينية والتائيّة أو السيامية من عائلة واحدة تدعى : الصينية التايلندية . ومنهم من نفى تماما وجود أية علاقة بين اللغات الصينية والتايلندية . وذهب إلى أن التائيّة لغة تايلندا ، واللاوسيّة لغة لاووس ، والشانية المنطوقة بكثرة في بورما تنتمي أصلا إلى العائلة الكاديّة ، وأن التشابه بين الصينية وهذه اللغات يرجع أساسا إلى ظاهرة الاقتراض من اللغة الصينية المهيمنة في هذه المنطقة.

والراجح لدى الباحثين أن العائلة الصينية التّبتيّة تنقسم إلى فرعين : اللغات التبتية البورمية واللغات الصينية. ويضم الفرع الأول: التبتية اللغة المستعملة في التّبت ، وبعض المناطق المجاورة ، وكذلك البورمية لغة الأغلبية الساحقة في بورما . ويشمل هذا الفرع أيضا لغات أخرى مثل : الغارو ، والبادو ، والناغا، والكوكي شين . أما الفرع الثاني فيضم كل اللهجات الصينية . وقد عثر علماء الآثار على الصينية القديمة في نقوش على العظام والبرونز ترجع إلى الألف الثاني ق . م . ، ثم في وثائق أدبيّة كتبها بعض الحكماء من أمثال كونفوشيوس (Confucius) ولاوتزو (Lao-tzu). وتعدُّ المندرين (Mandarin) اللغة الصينية الرئيسية المستخدمة في حوالي أربعة أخماس الصين ، محتلة تقريبا كل الشمال الصيني، وقد كانت لغة البلاط والطبقة الحاكمة في عهد الأمبراطورية الصينية . وفي جنوب شرق الصين يوجد عدد من اللغات أهمها : الوُو (Wu)، وعلى طول الساحل الغربي تنتشر لهجات الفوكيان التي أخذت أسماءها من أسماء المدن المستعملة فيها منها : الأمُوي (Amoy) والفوشو (Foochow). وهناك منطقة شاسعة بالداخل تستعمل فيها لغة الهاكا. أما في الجنوب ، فهناك أقاليم مترامية الأطراف تتواجد بها لهجات عديدة ، تُعرف باسم : الكانتون (Cantonese).

4ـ 9ـ 7ـ لغات العالم الجديد :

تنتمي اللغات الرئيسية في القارة الأمريكية إلى العائلة الهندية الأوروبية ، ومن بين هذه اللغات الإنجليزية ، والأسبانية ، والبرتغالية ، والفرنسية ، والإيطالية ، والألمانية التي دخلت كلها العالم الجديد مع المهاجرين الأوروبيين. وفيما يلي نحول أن نسلط الضوء على اللغات الأمريكية الأصلية.

ففي أمريكا الجنوبية توجد عدة لغات منها :(أ) الغوارانية (Guarany): لغة معظم الناس في البراغواي، ولغة فئة كبيرة في جنوب غرب البرازيل.(ب) الكويشية (Quechua): اللغة القديمة لأمبراطورية الإينكا، والتي لازالت مستعملة من قبل عدة ملايين في البيرو وبوليفيا والإكوادور.(جـ) الأيمرية (Aymara): لغة كثير من الهنود في بوليفيا وجنوب البيرو.

(د) التوبي غوارانية (Tupi-Guarani): اللغة المشتركة لبعض الهنود في البرازيل الأمازوني.

وفي أمريكا الوسطى ، توجد عدة عائلات منها: العائلة المايّية (Mayan) التي تنتشر في

شبه جزيرة يوكاتا المكسيكية ، وغواتيمالا ، والهندوراس ، والسلفادور . وتوجد بجنوب هذه المناطق العائلة الشيبهيّة (Chibchan) وبعض العائلات الأخرى . أما في الشمال والغرب ، فهناك لغات عديدة يُعتقد أنها تربطها علاقة وطيدة يطلق عليها اسم : الأوتومانغويّة (Otomanguian) منها : الميكستاك، والزابوتاك ، والتريك، والزوك، والكويش، والمام ، والبوكاتاك، والكاكشي .

وعلى خلاف اللغات الأرومية في أمريكا الوسطى والجنوبية ، فإن اللغات الأرومية في أمريكا الشمالية قد حظيت باهتمام فائق من قبل علماء اللسانيات التاريخية ، تمت دراستها وتصنيفها وفق مناهج علمية . ويتمركز في هذه المنطقة عدد كبير من العائلات اللغوية ، فعلى طول السواحل القطبية الشمالية والأصقاع المجاورة لها من لبرادور وغرينلند حتى ألاسكا توجد عائلة إسكيمو ـ ألوت (Eskimo-Aleut). وفي الجزر الألوتية يُنطق بألوت ، وفي ألاسكا بـ إينوبيك ، ومن ألاسكا إلى غرينلند بـ : يوبيك ، ويطلق على هاتين الأخيرتين اسم الإسكيمو.

أما جنوب هذه اللغات ، فتوجد العائلة الأتاباسكية (Athabaskan) والعائلة الألغونكوية (Algonquian). تنتشر الأولى في ألاسكا وشمال غرب كندا ، وتضم عدة لغات منها : شيبيوي وسارسي، وكارير ، وحتى لغتا الأباش (Apache) ونافاهو المستخدمتان في تكساس ونيومكسيكو تنتميان إلى هاته العائلة . وتتمركز لغات العائلة الثانية وسط كندا وشرقها، وتمتد من الساحل الشرقي لكارولينا شمالا حتى لبرادور جنوبا . والملاحظ أن عددا كبيرا من أسماء هذه المناطق من أصل ألغونكويني مثل كلمة « ميسيسيبي (Mississipi) » حيث إن Missi تعني " واسع " و Sipi تعني " الماء ". ومن لغات هذه العائلة: بلاكفوت، كْري، وإيلينوي، وفوكس وسوك ، وشايان . وهناك عائلات أخرى تمتد من السهول الكبرى حتى أقصى الغرب منها : عائلة سيو (Siou) التي تشمل لغات كثيرة مثل كْراو ، وماند ، وأوماها ، وميسوري . وعائلة أوتو ـ أزتاك (Uto-Aztec) التي تحتل رقعة واسعة من غرب الولايات المتحدة وشمال غرب المكسيك . وفي أقصى الجنوب توجد لغة أزتاك ، وشمال المكسيك توجد لغات كورا ، وياكي وهوبي ، وكومانش وغيرها .

وعلى ساحل المحيط الهادئ تتمركز العائلة الهوكية (Hokan) التي تشمل عددا من لغات كاليفورنيا . وهناك أيضا عائلات صغيرة مثل كاروك ، ويانا ، ويومو ، وتشوماش ، وشاستا .
أما العائلة الكاليفورنية البنوشية التي تحتل جزءا كبيرا من وسط كاليفورنيا وشمالها فتضم لغات عديدة منها : وينتو ، وكوستانو ، وياتُوين . وفي شمال غرب المحيط الهادئ من نهر كولومبيا إلى جنوب ألاسكا توجد عدة لغات تنتمي إلى العائلة الموسيّة ، وتتميز بفونولوجيا معقدة وتتوزع على ثلاثة فروع.

(أ) الفرع الساليشي: الذي يضمّ بيلا ، وكاولا ، وكاليسبال ، وشيهاليا .

(ب) الفرع الواكاشي : ويشمل بيلابيلا، وكواكيوتل .

(جـ) الفرع الشيماكوي : ويضم شيماكو وكويلوت .

وفي المناطق الجنوبية الشرقية من الولايات المتحدة توجد عائلات أخرى أكبرها الناتشزية الموسكوجية (Natchez-Muskogean) التي تشمل لغات ناتشز ، وشكوكتو ، وكريك وآلابكاما . أما في جبال هذه المنطقة فتتمركز لغة الشيروكي التي لازالت إحدى أهم اللغات الهندية الأمريكية في الولايات المتحدة.

4 ـ 9 ـ 8 ـ تصنيف اللغات الهندية الأمريكية:

اعتنى كثير من اللسانيين والأنثروبولوجيين بتصنيف اللغات الهندية الأمريكية في ضوء مناهج اللسانيات التاريخية . ففي 1891 م ، قام "باول" (J.W. Powel) بتصنيف هذه اللغات في أربع وخمسين عائلة على أساس التشابه اللفظي. وفي 1929م ، جاء " سابير " بتصنيف مغاير على أساس التشابه التركيبي الواسع ، وقلّص الأربع والخمسين عائلة التي اقترحها "باول" إلى ست كتل لغويّة : إسكيمو ـ ألوت ، ونا ـ ديني ، والألغونكوية ـ واكاشيّة، والهوكية ـ السيووية، والبنوشية ، والأزتاكية ـ التانويّة . أما في سنة 1985م ، فقدّم اللساني الأمريكي " غرينبرغ " (Joseph Greenberg) بحثا جديدا صنّف فيه كل لغات العالم الجديد في ثلاث عائلات رئيسية : إسكيمو ـ ألوت ، ونا ـ ديني ، وأمريكو ـ هندية . وعزا العائلة الأولى إلى العائلة الأورو ـ أسيوية الكبرى والعائلتين الأخريين إلى كلٍّ من الهندو أوروبية، والألطية ، واليابانية والكورية وغيرها .

الخلاصة :

مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ظهرت نتائج اللسانيات التاريخية في شكل بحوث تُعنى بتصنيف اللغات وتقنين التغيرات الصوتية. وقد اتّضح للدارسين أن هذه التغيّرات لا تتحكم فيها أسباب مضبوطة، ولا تسير وفق اتجاه معيّن، وحتى النظرية البيولوجية للتطور التي اتخذها اللسانيون آنذاك نموذجا يقتدون به قد حلّت بها نكبة عصيبة أقعدتها عن الاستمرار ممّا أدّى بهم إلى الاقتناع بأن منهجهم يسير في طريق مسدود، ولابدّ من التخلي نهائيا عن فكرة معادلة اللسانيات بالبيولوجيا. وفي بداية القرن العشرين بدأ اللسانيون يعزفون شيئا فشيئا عن هذا اللون من اللسانيات، إذ رأوا إذا كان هناك حقًّا منهج قويم لدراسة اللغة فلا يمكن أبدا أن يكون المنهج التاريخي. وهكذا تسرّب هاجس التغيير إلى قلوب اللغويين وكان أول من أحدث القطيعة السويسري فردينان دي سوسير الذي طفق يحاضر في فرع جديد من اللسانيات يُعنى بداسة اللغة دراسة وصفية أطلق عليه اللسانيات الآنية (Synchronic ligu-istics)

وفوق هذا وذاك ، لقد عارض بعض اللسانيين البدء باللسانيات التاريخية قبل اللسانيات الآنية . وكان من بين هؤلاء المعارضين أندري مارتيني (André Martinet) الذي قال : " من الطبيعي أن نبدأ دراسة أداة ما كاللغة مثلا بدءا من وظيفتها قبل البحث عن سبب وكيفية تغيّرها عبر الزمن . " (1) ومن جهة أخرى ، فقد هاجم " يسبرسن " (Jespersen) اللسانيات التاريخية لأنها انطلقت من اللغة السنسكريتية كما قال : " بالنسبة لعلم اللغة الحقيقي ، فإن البدء بالسنسكريتية كان بدءا من الطرف السيء مثله في ذلك مثل الشروع في دراسة علم الحيوان انطلاقا من علم الإحاثة. * "(2)

وعلى الرغم من الانتقادات الموّجهة إلى اللسانيات التاريخية فلا زال بعض الباحثين يولونها أهمية كبيرة، ويسعون إلى تطويرها منافسين في ذلك علماء الفروع اللسانية الأخرى وبالفعل فإن الدراسات التاريخية لم تنقطع بتاتا ، بل ترسخت دعائمها ، واتسعت آفاقها من

(1) André Martinet, Eléments de linguistique générale, Paris: A. Colin, 1960, p. 34.
(2) Otto Jespersen, Language, its Nature , Development and Origin, Allen and Unwin, 1922: 66
* علم الإحاثة (Paleontology) : علم يدرس أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية و النباتية

بحيث ففي أوروبا ، ظهر عدد كبير من الباحثين ممن حملوا على عاتقهم هذه المهمّة بكل حب وشغف ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : برينو (Brunot) ، وروهلز (Rohlz)، وميي (Meillet)، وبورسيي (Bourciez)، وبوكورني (Pokorny)، وبنفينيست (Benviniste)، وفي أمريكا أيضا ، انشغل كثير من اللغويين باللسانيات التاريخية ، أبدعوا فيها بمؤلفات قيّمة ومن بين هؤلاء : سابير ، وبلومفيلد ، وسواداش، وباك (Buck) و " كانت " (Kent)، وكونواي (Konway) وواتموغ (Whatmough). وبالإضافة إلى هذا الاهتمام، فقد أقبل فريق من اللسانيين وعلى رأسهم مارتيني بربط المنهج الوصفي بالمنهج التاريخي .(1) وبهذا التزاوج العقلاني تكون اللسانيات التاريخية قد اتّخذت منعرجا جديدا يَعِدُ بمستقبل زاهر للعلوم اللسانية .

(1) CF. André Martinet, Economie des changements phonétiques, Bern, Francke (1955)

الفصل الخامس

فردنان دي سوسير

إن التغير في الاتجاه الذي حدث في بداية القرن العشرين هو تحوّل من اللسانيات التاريخية التي تهدف إلى معرفة تاريخ اللغات، والكشف عن العلاقات الموجودة بينها ، وإعادة بناء اللغات الأولى المنقرضة إلى ما أصبح يُعرف اليوم باللسانيات الآنية (Synchronic Linguistics) التي تُعنى بوصف اللغات وتحليلها كما هي موجودة في نقطة معيّنة من الزمن وبالخصوص في الزمن الحاضر. وكان أوّل من نظّر لهذا المنهج الجديد السويسري فردنان دي سوسير.

5 . 1 . حياته :

ولد فردنان دي سوسير (Mongin Ferdinand de saussure) في جنيف بسويسرا في 17 نوفمبر 1857م . وقد انحدر من عائلة فرنسية بروستانتية هاجرت من لوزان خلال الحروب الدينية الفرنسية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي إلى سويسرا . وشاءت الأقدار أن يولد هذا الرجل بعد عام واحد من مولد سيجموند فرويد (Sigmund Freud) مؤسس علم النفس الحديث ، وقبل عام واحد من مولد إميل دوركايم (Emile Durkheim) مؤسس علم الاجتماع الحديث . فكان لهذا الثلاثي شأن كبير في توجيه مسار العلوم الإنسانية ، وإحداث ثورة كوبرنيكية على المفاهيم القديمة والمناهج الكلاسيكية.

وبعدما تلقّى التعليم الأولي في جنيف ، انتقل دي سوسير إلى برلين وليبزيغ لمزاولة دراساته . ومكث هناك من 1876م - إلى 1878م يدرس اللسانيات التاريخية والمقارنة . وعلى الرغم من أنه تتلمذ على يدي بعض النحاة الجدد كأوستوف (Osthoff) ولَسْكِين (Leskien) فإنه خالفهم في تصورهم العام، ورفض نظرتهم الضيّقة للسانيات . ومن بين 1880م إلى 1891م أقام بباريس ، وتولّى خلال هذه المرحلة منصب مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا . وفي الوقت نفسه كان يحاضر هناك لجموع الطلبة في اللسانيات التاريخية والمقارنة . وفي 1891م ، رجع إلى مسقط رأسه ، واستقر هناك يدرّس في جامعة جنيف إلى أن وافته المنيّة سنة 1913م عن عمر يناهز الستة والخمسين عاما نتيجة سرطان أصابه في حلقه.

وهكذا قضى دي سوسير جلّ حياته في دراسة اللسانيات التاريخية وتدريسها، ولم يدرّس اللسانيات الآنية والتنظير اللساني العام اللذيْن اشتهر بهما بعد موته إلا في السنوات الأخيرة من حياته. وبدون منازع ، يُعدُّ هذا المفكر السويسري اليوم أبَ اللسانيات الحديثة ومؤسس المنهج الآني، وأوّل مُنظر في كلّ من البنيوية (Structuralism) والسيمياء (Semiology).

5-2 - مؤلفاته :

في الواحد والعشرين من عمره ، نشر دي سوسير مؤلفه الأول الذي جلب له شهرة عالية عندما كان طالبا في ألمانيا بعنوان: دراسة حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندية الأوروبية: Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes, (leipzig 1878).

ويُعدُّ هذا العمل من المعالم اللسانية التاريخية التي ساعدت على إعادة بناء اللغة الهندية الأوروبية الأولى . ويتمثّل مؤلفه الثاني في الأطروحة التي قدّمها لنيل شهادة الدكتوراه حول حالة الجر المطلق في السنسكريتية :. Le génétif absolu en sanskrit, (Genève, 1881).

وقد كتب دي سوسير مجموعة من المقالات حول اللغة جُمعت كلها بعد موته بعنوان :
Recueil des publications scientifiques de Ferdinand de Saussure, (Genève,Sonor édit ; 1922)

أما مؤلفه الشهير، فقد صدر بعد موته بثلاث سنوات : أي سنة 1916م بعنوان : محاضرات في اللسانيات العامة : Cours de Linguistique Générale. ولم يكن هذا الكتاب ليرى النور لو لم يقم شارل بالي (Charles Bally) وألبار سيشيهاي (Albert Sechehaye) الصديقان الحميمان لدى سوسير بجمع محاضراته التي كان يلقيها على طلبته في جامعة جنيف بين 1906 م 1911م ، ثم تصنيفها وتبويبها ونشرها في الشكل الذي نعرفه اليوم.

5 - 3 - أزمة اللسانيات في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي :

كانت اللسانيات التاريخية تعدُّ اللغات كائنات حيّة شأنها في ذلك شأن الأجناس البيولوجية ، ولكن سرعان ما تخلّى علماء اللغة عن هذه النظرة مع نهاية القرن التاسع عشر وتركوا اللسانيات في مأزق حقيقي ومتاهة لا مثيل لها . فإذا كانت اللغات ليست أجناسا حيّة

فهي في نظر دي سوسير مجرد " أشياء " قابلة للدرس وخاضعة لمحك التجربة . ولكن إذا كانت اللغات " أشياء " فإنها - بدون شك - ليست كالأشياء الطبيعية الأخرى التي يمكن أن نلمسها ونراها كالأقلام والمحافظ والكراريس . فلا يمكننا أن نرى اللغات ، ولكن بإمكاننا أن نرى بعض أشكال تدوينها كالنقحرة (Transliteration) والاختزال والكتابة العاديّة . فالنموذج البيولوجي عدّ العلاقة بين اللغة العربية وكلام الفرد على سبيل المثال وكأنّها علاقة بين صنف معيّن كالسمك مثلا وجنس معيّن كسمك الشبوط، أو السلمون، أو التنّ، أو السلفيش، أو القد كما ركّز على دراسة القرابة التي تربط هذه الأنواع المختلفة من الأسماك ومعرفة الجد الأول لها . أمّا النموذج الذي جاء به دي سوسير، فقد عدّ الظواهر اللغويّة أشياء ذات طابع خاص من النوع الذي أطلق عليه معاصره إميل دوركايم اسم " الوقائع الاجتماعية " (Social facts).(1)

إن الوقائع الاجتماعية تختلف نوعيا عن الظواهر التي تدرسها العلوم الطبيعية وعن الظواهر التي يدرسها علم النفس ، ومع هذا فإنها ظواهر حقيقية تؤثر على حياة الأفراد والجماعات . وحسب دوركايم ، فهي أفكار في الذاكرة الجماعية لأيّ مجتمع، ويمكن توضيحها بهذا المثال : لقد اعتاد الرجال ارتداء ملابس خاصة بهم تختلف عن ملابس النساء ، ومهما كانت الظروف ، فإن الرجال يرفضون رفضا باتا ارتداء ملابس النساء والخروج إلى أداء عملهم أو إلى التجوّل في الأماكن العامة ، ولكنهم قد لا يجدون حرجا في ارتداء هذه الملابس والمكوث في البيت . فهذا الضغط ليس من افتراء شخص بعينه ، ولكنه من صنع نظام خاص من القيّم التي يمليها الضمير الجماعي (Collective Consciousness) على الأفراد ، وما عليهم إلاّ الرضوخ والامتثال له . فالوقائع الاجتماعية إذن هي نوع من الظواهر الاجتماعية من قبيل العادات والطقوس والقوانين والمعاهدات والسلوكات التي تمارس ضغطا حقيقيا على الأفراد وترغمهم على الانصياع لقوانين المجتمع وقيّمه . وهكذا فإن عدّ اللغات " أشياء " أو " وقائع اجتماعية " قد مكّن دي سوسير من دراسة اللغة دراسة وصفيّة بطريقة موضوعية . وحسب

(1) CF.Emile Durkheim, The Rules of Sociological Method.Eng lish ed.,Collier - Macmillan,1966.

ما ذهب إليه " مونان " (Mounin) فإن فكر دي سوسير متأثر إلى حد بعيد بعلم الاجتما ع كما أرسى دوركايم ، وبعلم النفس الجمعي (Psychologie collective) كما وضعه " طارد " (Tarde). وقد أثبت "مولينو " (Jean Molino) أحد الباحثين الشباب أن مذهب دي سوسير متشبع - أكثر مما نتخيّله - بالاقتصاد السياسي الكلاسيكي للسويسري " دي والراس " (De Walras) .(1)

5 - 4 - أسس الفكر اللغوي عند دي سوسير:

مما لاشك فيه أن كتاب دي سوسير : *محاضرات في اللسانيات العامّة* قد بلغ قيمة علمية كبيرة لا تضاهيها أية قيمة أخرى في اللسانيات الحديثة قبل هذا العصر . فقد ساعد على تحديد مجرى لسانيات القرن العشرين ، والابتعاد بها كليّا عن مناهج اللسانيات التاريخية.

ومن الأمور التي اشتهر بها دي سوسير استخدامه لظاهرة ملفتة للانتباه تمثّلت فيما يسمّى بالثنائيات (Dichotomies). ومن الممكن جداً أن يكون هذا الرجل قد تأثر بالنظرية الكلاسيكية القائلة بأن ثمة وجهين مختلفين لكل شيء في هذا الكون كلاهما يكمل الآخر . وقد أوردت هذه الفكرة من قبل عند أرسطو وديكارت ، واستعملها دي سوسير من جديد في شكل دعائم مزدوجة أو تفرعات ثنائية . وبالإضافة إلى هذا ، فقد أكّد على أهمية دراسة الكلام بدل النصوص المكتوبة ، وعلى تحليل النظام الباطني للغة بدلا من المقارنات المعجمية والنحوية ، وعلى وضع اللغة في وسطها الاجتماعي بدلا من النظر إليها بوصفها جملة من السمات الفيزيائية . وبشكل عام ، فقد تطرق دي سوسير إلى عدة مسائل نظرية لا يمكن للدارس المبتدئ الاستغناء عنها أبدا ، ونودّ فيما يلي أن نسلط الضوء على أهمها.

5 . 5 - اللسانيات:

يرى دي سوسير أن اللسانيات فرع من السيمياء (Semiology)؛ أي علم العلامات العام أي يدرس الأنظمة المختلفة للأعراف التي بدورها تُمكّن الأعمال البشرية من أن يكون لها [illegible] ونصير في عداد العلامات. وبهذا يمكن للسانيات أن تكون نموذجا حيّا للسيمياء حسب

(1) Georges Mounin, La linguistique du XXe siècle, PUF, 1972,p.50.

دي سوسير ـ لأن طبيعة العلامات الاعتباطية والعرفية في اللغة واضحة للغاية ولا يعتريها أي غموض."(1) وبعد مناقشة المبادئ العامة التي ترتكز عليها اللسانيات، و بيان الخطوط العريضة التي ينبغي اتباعها في دراسة اللغات ، توصل دي سوسير إلى تحديد موضوع اللسانيات في خاتمة محاضراته قائلا : " إن موضوع اللسانيات الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها ."(2)

5 ـ 6 ـ مادة اللسانيات ومهمتها:

بعدما قدّم دي سوسير لمحة عن تاريخ اللسانيات في الفصل الأول، تطرق في الفصل الثاني إلى الحديث عن مادة اللسانيات ، ومهمتها ، وعلاقتها بالعلوم الأخرى . وفيما يتعلق بالنقطة الأولى قال : " إن مادة اللسانيات تشمل كل مظاهر اللسان البشري سواء أتعلق الأمر بالشعوب البدائية أم الحضارية ، أو بالعصور القديمة أو بعصور الانحطاط ."(3) وفيما يخصُّ مهمة اللسانيات ، فقد لخصها دي سوسير في ثلاث نقاط :(4)

أ ـ تقديم وصف لجميع اللغات وتاريخها ، بالإضافة إلى سرد تاريخ الأسر اللغوية وإعادة بناء اللغة الأم لكلّ منها كلما أمكن ذلك .

ب ـ تحديد القوى الكامنة المؤثرة بطريقة مستمرة وشاملة في كافة اللغات، واستخلاص القوانين العامة التي تتحكم في كل الظواهر التاريخية الخاصة.

جـ ـ تحديد نفسها والتعريف بنفسها .

أمّا عن علاقات اللسانيات بالعلوم الأخرى ، فيرى أنها تربطها روابط قويّة ببعض العلوم كالإثنوغرافيا ، وما قبل التاريخ ، والأنثروبولوجيا ، والفيلولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعي ، لأن كلّ هذه العلوم تعتمد اعتمادا كبيرا على اللغة ، وتستفيد كثيرا من اللسانيات.

(1) De Saussure, Course in General Linguistics (1916), Wade Baskins translation, 1974, p.XIV
(2) Ibid., p.232.
(3) Ibid., p.6.
(4) Ibid., p.6.

5 ـ 7 ـ اللسان واللغة والكلام:

يرى دي سوسير أن الظاهرة اللغوية تتمثّل في ثلاثة مصطلحات أساسية : " اللسان " (La langage) و " اللغة " (La langue) و " الكلام " (La parole). وقد اكتسبت هذه المصطلحات صبغة عالمية في اللسانيات الحديثة ، واستعملت كما هي دون ترجمة خاصة في اللغات الأوروبية . ويدل " اللسان " على النظام العام للغة ، ويضمّ كلّ ما يتعلق بكلام البشر ، وهو ببساطة لسان أي قوم من الأقوام ، ويتكون من ظاهرتين مختلفتين : " اللغة " و " الكلام ".

وفي هذا الصدد يقول دي سوسير : " لا ينبغي الخلط بين " اللغة " و " اللسان " ، فما اللغة إلا جزء محدد منه ، بل عنصر أساسي ، وهي في الوقت نفسه نتاج اجتماعي لملكة اللسان ، ومجموعة من التواضعات الضرورية التي تبناها الجسم الاجتماعي لتمكين الأفراد من ممارسة هذه الملكة. وإذا نظرنا إلى اللسان ككل ، فإننا نجده متعدد الجوانب ومتغاير الخواص. ولأنه يمتد في غير اتساق إلى أصعدة مختلفة في آن واحد ـ منها الفيزيائية والفيزيولوجية والسيكولوجية ـ فإنه ينتمي في الوقت نفسه إلى الفرد وإلى المجتمع. ولأنه ليس بإمكاننا اكتشاف وحدته ، فلا نستطيع إذن تصنيفه في أيّة فئة من الوقائع البشرية ."(1)

و " اللغة " في نظر دي سوسير واقعة اجتماعية، وخصوصياتها ليست مجردة بل متواجدة بالفعل في عقول الناس . وبعبارة أخرى ، فهي مجموع كلّي متكامل كامن ليس في فرد واحد ، بل في عقول جميع الأفراد الناطقين بلسان معيّن . ونلاحظ أن دي سوسير يشبه اللغة بالقاموس الذي يمثّل في الأصل الذاكرة الجماعية لما يحتويه من علامات لا يطيق الفرد الواحد أن يختزنها في دماغه وذلك بقوله : " إن اللغة توجد على شكل مجموعة من البصمات المستودعة في دماغ كل عضو من أعضاء الجماعة على شكل معجم تقريبا ، حيث تكون النسخ المماثلة موزعة بين جميع الأفراد ... وهي لا تتأثر بإرادة المودعين ، ويمكن صياغة نمط وجودها بهذا الشكل: 1 + 1 + 1 + 1 ... = I (نموذج جمعي) ."(2)

(1) Ibid., p.9.
(2) Ibid., p.19.

إن " اللغة " إذن كنز اجتماعي من الوحدات والقوانين يمثّل نظاما عاما لا يمكن للفرد أن يحيد عنه . فإذا طلبنا من أيّ إنسان متعلم أن يُصَرِّف الفعل « كتب » مع جميع الضمائر في الماضي أو المضارع ، فإنه يحاول جاهدا أن يتّبع قواعد التصريف المتعارف عليها دون إلحاق أي تغيير بالنظام العام . لذا فإن موضوع اللسانيات هو " اللغة " بكل جوانبها النحوية والصوتية والمعجمية المرتسمة في عقول جميع الناس : أي كل ما يعرف الناس عن لغتهم وليس ما يتفوهون به . ومهما يكن من أمر ، فإن التأثر الشديد بالنظرية الاجتماعية لدوركايم قد أدّى بدي سوسير إلى المبالغة في الطابع " الفو - شخصي " أو الاجتماعي للغة . خاصة إذا ما علمنا أنه يعترف بأن التغيرات التي تطرأ على " اللغة " تنطلق من التغيّرات التي يحدثها الأفراد في " الكلام ".

أما " الكلام " ، فإنه فعل كلامي ملموس ، ونشاط شخصي مراقب ، يمكن ملاحظته من خلال كلام الأفراد أو كتاباتهم ، وهو مطابق لمفهوم " الأداء " (Performance) الذي وضعه تشومسكي . وقد عرّفه دي سوسير بقوله : " إنه مجموع ما يقوله الأفراد ويشمل :

(أ) أنساقا فردية خاضعة لإرادة المتكلمين، و (ب) أفعالا فونولوجية إرادية أيضا وضرورية لتنفيذ هذه الأنساق . إنه ليس وسيلة جمعية، وتكون مظاهره فردية ووجيزة للغاية، ولا توجد فيه إلا مجموع الأفعال الخاصة، كما في الصيغة التالية :(1 + 1 + 1 + 1 ....)"[1]

ومن الناحية العلمية، يمكننا أن نصل إلى " لغة " جماعة ما عندما نأخذ بعين الاعتبار عددا كبيرا من مظاهر كلام الأفراد . وعليه فإن الكلام لا يكتسي أهمية كبيرة بالنسبة للساني لأن موضوع اللسانيات هو " اللغة " في مجموعها الكلي ، ولكن دراسة " الكلام " تفيد كثيرا في بعض الحالات كالحُبسة،[2] وتحليل الأسلوب ، والأمراض العقلية والنفسية . وبما أن اللغة - في نظر دي سوسير - نظام من العلامات بدلا من نظام من الجمل ، فهذا يدلُّ على أن

(1) Ibid.,p.19.

(أ) الحُبسة (aphasia) هي فقد القدرة على الكلام بسبب أذى يُصيب الدماغ

التركيب (syntax) قضية خاصّة بالكلام وليس باللغة. وقد انتقد سامبسون (Sampson) هذا الموقف بقوله: إن النحو مسألة اصطلاح وتواضع ، وما على الأفراد إلاّ اتقان التراكيب النحوية للتمكن من صياغة أنواع الجمل المختلفة . ثم أردف قائلا : مادام دي سوسير يرى أن اللغة نظام من العلامات ، فإن وصف اللهجات الفردية (Idiolects) يُعدُّ - بالنسبة إليه - شيئًا معقولا ولكن لا يوجد في الواقع فرد متضلع يتقن مجموع العلاقات الدلالية التي تحدد معاني المفردات التي يستعملها . وقد أدّت هذه النظرة السوسيرية بالمدارس اللسانية الأوروبية إلى تجاهل أو عدم التركيز ليس على التركيب فحسب بل على العلاقات الأفقية الترابطية أيضا.[1]

وهكذا فإن التمييز بين " اللغة " و " الكلام " له أهمية كبيرة في اللسانيات وفي الفرع المعرفية الأخرى . وعلى كلِّ علم من هذه العلوم أن يتناول بالبحث والدراسة الوجهة التي تتماشى والمبادئ العامة التي بُني عليها.

5 - 8 - اللسانيات الآنية والزمانية:

كانت اللسانيات السائدة في القرن التاسع عشر هي اللسانيات التاريخية ، ولم يكن هناك تمييز واضح بين الدراسة الآنية والدراسة الزمانية كما ذهب إلى ذلك دي سوسير في محاضراته . فاللسانيات الآنية (Linguistique synchronique) تدرس أية لغة من اللغات على حدة دراسة وصفية في حالة معيّنة (Etat de langue) أي في نقطة زمنية معيّنة، ولا تقتصر في الواقع على دراسة اللغات الحديثة أو المعاصرة ، بل يمكنها أيضا أن تدرس اللغات الميّتة بشرط أن تتوفر كل المعطيات اللغوية التي تنبني عليها الدراسة العلمية الوصفية . أما اللسانيات الزمانية (Linguistique Diachronique) فتتناول بالدراسة التغيّرات والتطورات المختلفة التي طرأت على لغة ما عبر فترة من الزمن أو خلال حقب متتابعة في الزمن الماضي . وبدون شك ، فإن كلا المنهجين مهم في الدراسة اللغوية ، وينبغي فقط عدم الخلط بينهما عند البحث إذ لكل منهما مبادؤه الخاصّة : فالمنهج الآني منهج استقرائي ساكن ، والمنهج الزماني منهج حركي تطوري . والمؤكد أن دي سوسير لم يرفض البتّة اللسانيات الزمانية ، ولم يعدّها شيئا

(1) Geoffrey sampson,op.cit.,p.55.

ثانويًا أو غير ضروري ، ولكنه ألحّ فقط على الفصل بينهما ، كي لا تتحض النظرة التطورية الوصف الآني ، وكي تثبت كلّ واقعة في مجالها الخاص.

وحسب دي سوسير ، فاللسانيات الآنية تعنى بالعلاقات النفسية والمنطقية التي تربط مفردات متواجدة معا وتشكل نظاما في العقل الجماعي للمتكلمين . وعلى العكس تماما فاللسانيات الزمانية تدرس العلاقات التي تربط المفردات المتعاقبة التي لا يدركها العقل الجماعي والتي يحلّ بعضُها محل البعض الآخر دون تشكيل أي نظام يذكر.[1] ولتوضيح الفرق بينهما بشكل أفضل ، استعان دي سوسير بمثال دراسة نبات ما . فالدراسة الآنية مثلها مثل الشريحة المقطوعة قطعا عرضيًا ، حيث نلاحظ على سطح المقطع رسما معقدا لا يمثّل إلا منظورا للألياف الطولانية . والدراسة الزمانية يمثّلها المقطع الطولاني الذي يُظهر لنا الألياف نفسها التي تشكل النبات ، ولكن قد تتفرع هذه الألياف مرّة وتختفي مرّة أخرى . أما الدراسة العرضية فتبيّن العلاقات القائمة بين الألياف وترتيبها الخاص على مستوى معيّن. وفي الواقع ، إن الشريحة العرضية هي التي تمكننا من المعرفة الدقيقة للبنية النباتية في مرحلة خاصّة من النمو ، وذلك بمقارنة مختلف الأجزاء وعلاقة بعضها ببعض. وهكذا يجب أن تكون الدراسة الآنية حيث يكون التركيز على تناسق الأجزاء وترابطها.[2] ومن جهة أخرى فقد وضّح دي سوسير العلاقة بين اللسانيات الآنية والزمانية باستعمال لعبة الشطرنج كمثال حيّ ، حيث إن ما يهمّنا في هذه اللعبة ليس نشأتها أو تاريخها كانتقالها من إيران إلى دول أخرى ، وليس كل التحركات السابقة للبيادق منذ بداية اللعبة لأنّها لا تغيّر شيئا من الأمر الواقع ، بل ما يهمّنا فعلا هو تموضع البيادق في اللحظة الحالية وعلاقاتها ببعضها بعض حيث ترتبط قيمة البيدق بموقعه على الرقعة ، وكذلك الحال بالنسبة للغة ، إذ تستمد كلّ مفردة قيمتها من خلال مقابلتها مع باقي المفردات الأخرى.[3]

وعلى الرغم من هذا التشابه ، فقد أكّد دي سوسير على نقطة واحدة تكون فيها المقارنة ضعيفة ، فلاعب الشطرنج يعتزم إحداث النقلة، لكن بيادق اللغة تنتقل أو تتغيّر بطريقة

(1) De Saussure:op.cit.,pp.99-100.

(2) Ibid., pp. 87-88.

(3) Ibid ., p.88.

عفوية ، وعليه فلكي تشبه لعبة الشطرنج حركيّة اللغة ينبغي أن نفترض لاعبا غير واع وغير آلي.[1] ونستخلص من كلامه أن اللغة لا تتحكم فيها قوانين ثابتة ، بل إن هناك قوة عمياء تتحكم بالوقائع اللغويّة في أي اتجاه لتولد نظاما مغايرا من العلامات. ويبدو أن التغيّر اللغوي لا يتم دائما بطريقة عفويّة ، بل يسير أحيانا في اتجاه معيّن حسب قوانين ثابتة و إن كانت هناك بعض الاستثناءات . وفي هذا الخصوص ، يقول سامبسون (Sampson): يجب أن ننظر إلى هذا الشطرنج وهي تمارس من طرف لاعبيْن ، أحدهما يُحرّك بيادقه بطريقة عمياء ، والآخر يراقبه بدقّة راصدا التحركات العشوائية.[2]

3.9. العلامة اللغوية.

اللغة - في نظر دي سوسير - عبارة عن " مستودع من العلامات " ، والعلامة وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معيّن ، وتضم جانبين أساسيين هما : الدال (Signifiant) والمدلول (Signifié) . فالدال هو " الصورة السمعية " التي تدلّ على شيء ما أو تعني شيئا ما ، والمدلول هو " التصوّر " أو الشيء المعني. ويرى دي سوسير " أن العلامة اللغوية لا تربط شيئا باسم بل تصورا بصورة سمعية . وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي أي هو شيء فيزيائي صرف ، بل هي البصمة النفسية للصوت ، أو ذلك الانطباع الذي تتركه على حواسنا ".[3] وهكذا فإن فكرة العلامة عنده تختلف اختلافا جذريا عن المفهوم القديم الذي يزاوج بين الاسم والمسمّى أو الكلمة والشيء ، وإن غرض اللسانيات هو دراسة هذه العلامة التي يمكن ملاحظتها كملاحظة الأشياء الأخرى ، والتي يغلب عليها الطابع الباطني ، وتتصف بالتغيّر والثبات في آن واحد.

(1) Ibid.,p.89

(2) Geoffrey Sampson, op.cit.,p.42.

(3) De Saussure, op.cit.,66.

5ـ9ـ1ـ اعتباطية العلامة:

بما أن الرابط بين الدال والمدلول اعتباطي ، فقد عدّ دي سوسير العلامة اللغوية اعتباطية (arbitraire). ودليله في هذا أن فكرة " أخْت " (Soeur) لا ترتبط بأية علاقة داخلية مع تعاقب هذه الأصوات : أ ـ خ ـ ت التي تقوم مقام الدال بالنسبة إليها ، وحجته عن إمكانية تمثيل هذه الفكرة بأيّ تعاقب آخر يستمدها من الاختلافات القائمة بين اللغات ومن وجود لغات مختلفة أيضا . فالمدلول " boeuf" (ثور) له دال وهو b - ö - f في جانب من الحدود ، و o - k - s (Ochs) في الجانب الآخر.[1] وعليه فإن صفة الاعتباطية لا يجب أن توحي بأن الدال من اختيار الفرد ، إذ ليس للفرد القدرة على تغيير أيّ علامة بأيّ طريقة كانت بعد ثبوتها في المجموعة اللغوية . فالعلامة اعتباطية لكونها ليس لديها في الواقع أيّة صلة طبيعية بالمدلول.

5ـ9ـ2ـ ثبوت العلامة وتغيّرها:

أ ـ الثبوت : إن وصف العلامة اللغوية بالتغيّر والثبوت في آن واحد من قبل دي سوسير قد يبدو أمرا متناقضا ، ولكنه بمقابلة هذين النقيضين ، أراد أن يؤكد على أن اللغة تتغيّر على الرغم من عدم مقدرة النّاطقين بها على تغييرها . وعادة ما تميل العلامات إلى الثبوت ، لأن ثمة قوى تعمل على منع التغيّر اللغوي ، وتقاوم التبدّل الاعتباطي. ومن بين هذه القوى كما يقول " وترمان " : الثروة المفرداتية الكبيرة ، والبنية اللغوية المعقّدة ، والجمود الذي يُميز اللغة ، بالإضافة إلى كون اللغة ملك الجميع ، وأن جذورها ضاربة في أعماق التاريخ ونحن ورثناها عن الأجداد ، وما علينا إلا تقبّلها.[2] إن اللغة إذن نتاج قوى تاريخية، وهذه القوى نفسها هي التي تقاوم كل تغيّر اعتباطي ، وهكذا يكون التغيّر اللغوي السريع والمفاجئ أمرا مستبعدا . وهذا راجع حسب دي سوسير إلى أن تغيّرات اللغة لا ترتبط بتعاقب الأجيال وأن الجهود التي يتطلبها تعلم اللغة الأم تؤدي إلى استحالة وقوع تغيير عام ، وأن الأفراد لا يشعرون إلى حدّ بعيد بقوانين اللغة ، وإن كانوا لا يشعرون بها ، فكيف يكون بإمكانهم أن

(1) Ibid., p.67- 68.
(2) Waterman: op.cit.,p.63.

يغيّروها ؟ ولئن كانوا يشعرون بهذه القوانين ، فنحن على يقين بأن شعورهم هذا نادرا ما يؤدي بهم إلى النقد لأن الناس عادة ما يكونون مغتبطين باللغة التي يرثونها.[1]

(ب) التغيّر: تتغيّر اللغة بصورة تدريجية عبرالزمن ، ويمسُّ هذا التغيّر خاصة أشكال المفردات ومعانيها . ويقصد دي سوسير بالتغيّر تلك " التغيّرات الصوتية التي تصيب الدال ، أو تلك التغيّرات في المعنى التي تصيب تصور المدلول ... ومهما تكن قوى التغيّر ... فإنها تؤدي دائما إلى تبدّل العلاقة بين الدال والمدلول ".[2] ومن أراد أن يتأكد من هذه الظاهرة فما عليه إلا الرجوع إلى المؤلفات التي تبحث في تاريخ المفردات وأصولها . ويبدو ـ كما قال دي سوسير ـ أن اللغة عاجزة جذريا عن الدفاع عن نفسها ضد القوى التي تُغيّر من حين لآخر العلاقة بين الدال والمدلول ، وأنّ هذه لإحدى عواقب الطبيعة الاعتباطية للعلامة . أمّا عن أسباب التغيّر فهناك عدّة نظريات كما بيّنا ذلك في الفصل السابق لمن أراد الاطّلاع.

5-10ـ القيمة اللغوية:

إن اللغة في نظر دي سوسير لا يمكن أن تكون إلاّ نظاما من القيم المجردة. وتكمن قيمة الكلمة في خاصيّتها التي تُمكنها من تمثيل فكرة معيّنة . وقد جاء هذا اللساني بمفهوم القيمة (La valeur) من الاقتصاد ، حيث ذهب إلى أن قطعة خمسة فرنكات لا يتم تحديدها إلا بمعرفة (1) أنّه يمكن تبديلها بكميّة محدّدة من شيء آخر كالخبز مثلا.(2) أو مقارنتها بقيمة مماثلة لها في النظام ذاته كقطعة فرنك واحدة أو بقطع نقود من نظام آخر كدولار واحد مثلا . وبهذه الطريقة يمكن تبديل كلمة بشيء مغاير كفكرة ما أو تشبيهها بشيء من طبيعة واحدة ككلمة أخرى مثلا . إن قيمة الكلمة ليست ثابتة مادام يمكن تبديلها بتصور معيّن أي بدلالة أو بأخرى . ولا يتحدد مضمون الكلمة تماما إلا بتواجد كينونات أخرى خارج عنها . ولكونها جزءا من نظام ، فإنها لا تتمتع بدلالة فحسب بل بقيمة خاصّة أيضا.[3] والملاحظ أن ثمّة تمييزا بين تسمية التصور والقيمة التي يتمتع بها هذا الاسم (أو تلك الدلالة) في اللغة حيث

(1) de Saussure :op.cit.,p.72.
(2) Ibid., p.22.
(3) Ibid .,p .115.

تربط التسمية تصورا واحدا بصورة سمعية فريدة ، وتتحد قيمة التسمية بعلاقتها ضمن كافة مفردات اللغة.

وقد ضرب دي سوسير أمثلة لتوضيح مفهوم القيمة ومنها أن كلمة « mouton » (خروف) في الفرنسية الحديثة تقابلها من حيث الدلالة الكلمة الإنجليزية « sheep » ، ولكن ليس لها القيمة نفسها نظرا لأسباب عديدة خاصة لأن الإنجليزية تستعمل كلمة « mutton » وليس « sheep » عند الحديث عن قطعة لحم مهيأة للأكل على المائدة . إن الاختلاف في القيمة بين « sheep » و « mutton » يعود إلى أن الكلمة الأولى لها عبارة أخرى تقف إزاءها ، في حين أن الكلمة الفرنسية ليست لها أية عبارة أخرى من هذا القبيل . إن كلّ ما يقال عن الكلمات ينطبق على الكينونات النحويّة أيضا . فقيمة الجمع في الفرنسية لا تساوي قيمته في العربية والسنسكريتية على الرغم من أن الدلالة متشابهة بين هذه اللغات. فالفرنسية تعدُّ هذه الكلمات (العينان والأذنان واليدان والرجلان) جمعا ، بينما تعدُّ العربية والسنسكريتية هذه الكلمات مثنى : حيث إن الجمع بالنسبة لهاتين اللغتين ما كان عدده ثلاثة أو ما فوق . ومن جهة أخرى فإن الفرنسية تستعمل عبارة « louer une maison » للدلالة على معنيين مختلفين : أجّر واستأجر منزلا كما هو الشأن في اللغة العربية . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الإعراب يزوّدنا بأمثلة مدهشة للغاية ، فظاهرة التمييز بين أزمنة الأفعال المختلفة أمر غريب في بعض اللغات، ومثال ذلك اللغة العبرية التي لا تعرف التمييز الجوهري بين الماضي والحاضر والمستقبل.

5 - 11 - العلاقات التركيبية والترابطية:

أ - العلاقات التركيبية (Syntagmatic relations):

يتمثّل هذا النوع في العلاقات الأفقية بين الوحدات اللغوية ضمن السلسلة الكلامية الواحدة ، كالعلاقة بين أصوات الكلمة الواحدة وكلمات الجملة الواحدة . وتضفي كلّ وحدة معنى إضافيا على الكلّ ، وتكون في حالة تقابليّة مع بقية الوحدات اللغوية الأخرى ، ولا تكتسب قيمتها إلا بتقابلها مع الوحدات التي تسبقها أو تليها أو معهما جميعا ، وتُسمّى هذه الأنساق الخطيّة تراكيب . ففي هذه الجملة « صار الطقس باردا » ، هناك علاقة تركيبية من

ثلاث وحدات وهي : صار + الطقس + باردا . أما على مستوى المفردات ، فتتمثّل هذه العلاقة في إدماج بعض الصوامت في أنساق تركيبية حسب القوانين الفونولوجية المتعارف عليها في تكوين مفردات اللغة كهذه المجموعة من الصوامت : لـ + سـ + ا + نـ + يـ + ا + ت التي تعني مجتمعة : « لسانيات » . وفي الخطاب كما يقول دي سوسير : " تكتسب الكلمات علاقات مبنية على صفة اللغة الخطيّة بسبب ترابطها فيما بينها ممّا يستثني إمكانية لفظ عنصرين في آن واحد . "[1]

ب - العلاقات الترابطية (Paradigmatic relations):

يطلق هذا المصطلح على العلاقات الاستبدالية بين الوحدات اللغوية التي يمكن أن تحلّ محلّ بعضها بعض في سياق واحد . وبعبارة أخرى فإنها تعكس علاقات موجودة بين علامة في جملة ما وعلامة أخرى غير موجودة في الجملة أصلا بل موجودة في أذهاننا طبعا . وقد أطلق دي سوسير لأوّل مرّة في تاريخ اللسانيات عبارة " الترابطيّة " (Associative) على هذه العلاقة[2]. وتتّضح لنا العلاقات الترابطية من خلال الجدول التالي، حيث يمكن أن تُعوّض كلمة " أصبح " بـ : صار ، وكان ، وأضحى ... وكلمة " مناخ " بـ : الأمن ، والبحر ، والطقل .. وكلمة " صحوا " بـ: رطبا ، ومنعدما ... وهكذا دواليك.

أصبح الجو صحوا .
صار المناخ رطبا .
كان الأمن منعدما .

أما على مستوى المفردات ، فيكون تحديد كل صوتم (phoneme) بمقابلته بالصواتم الأخرى التي يمكن أن تحلّ محله في سياقات مختلفة لتكوين الكلمات : وذلك كاستبدال الحرف الاستهلالي ببعض الحروف، والإبقاء على الحرف الثاني والثالث كما في هذه المفردات : نام، قام، رام، هام، دام، أو استبدال الحرف الثاني من الكلمة بحرف آخر مع الإبقاء على الحرف الاستهلالي والختامي كما في هذه الكلمات : عجن، عفن، عان ... إلخ. وهناك علاقات

(1) Ibid., pp.115 - 116.
(2) Ibid., p. 123.

ترابطية أخرى جاء بها دي سوسير كما في قوله: تكتسب الكلمات التي يجمعها شيء مشترك علاقات من نوع آخر، حيث تترابط في الذاكرة مُشكلة مجموعات تُميِّزها علاقات مختلفة. فكلمة enseignement «(تعليم) تستدعي لا شعوريًا إلى الذهن مجموعة من الكلمات الأخرى enseigner» (علّم) و «renseigner» (أعلم) ... إلخ، أو armement (تسليح)و << changement >> تغيير ... إلخ ، أو «education» (تربية) و apprentissage (اكتساب) ... إلخ وهكذا فإن كلّ هذه الكلمات تربطها علاقة معيّنة من جانب أو من آخر [1] وبعبارة أخرى، فإن هذه الكلمات enseigner، enseignons و enseignement يجمعها عنصر مشترك وهو الجذر . وقد ترد الكلمات في سلسلة مختلفة مبنية على عنصر مشترك آخر كاللاحقة « ment » مثل armement, changement; amendement, enseignement. كما يمكن أن ينبثق: الترابط عن تشابه المدلولات مثل enseignement, instruction, éducation, apprentissage (أي تعليم ، تثقيف، اكتساب ، تربية). وكما قال دي سوسير : " إن العلاقة التركيبية حضورية (in praesentia) وتقوم على عبارتين أو أكثر في سلسلة موجودة بالفعل . وبالمقابلة، فإن العلاقة الترابطية ، تجمع بين عبارات غيابية (in absentia) في سلسلة كامنة في الذاكرة ." [2]

5-12 - السيمياء والمؤسسات الاجتماعية:

السيمياء (Semiology) علم يدرس حياة كل العلامات المستخدمة في المجتمع كاللغة والعادات والطقوس ... إلخ ، ويُبيِّن مكوناتها وقوانين تنظيمها . ومع هذا ، فإنها فرع من علم النفس الاجتماعي ومن ثمة من علم النفس العام . وما اللسانيات - حسب دي سوسير - إلا جزء من السيمياء . ومن الممكن تطبيق القوانين التي تكتشفها السيمياء على اللسانيات . وبهذا تتقيّد هذه الأخيرة بدقة بمجال محدّد في مجموعة القواعد الأنثروبولوجية ، وهناك فرق بين السيمياء والمؤسسات الاجتماعية : فالأولى عبارة عن جملة من المؤسسات الاجتماعية والأنظمة العلاماتية ، ونتاج الملكة العامة للتواصل . وقد أكّد دي سوسير على ما لهذه المؤسسات الاجتماعية من سمات تجمعها ، وعلى ما للأنظمة العلاماتية من خصائص تُميِّزها . وعلى هذا

(1) Ibid., p.123.
(2) Ibid., p.123.

... مهمة عالم النفس أن يُحدِّد بدقة مكانة السيمياء ، ومهمة اللساني أن يبيّن ما الذي يجعل ... اللغة نظاما خاصا من خلال كتلة من المعطيات الأنثروبولوجية .[1]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن دي سوسير كان مولعا بنظرة فلسفية إلى الأشياء مما ... يقبل على إقامة عدة ثنائيات ، كان من شأنها أن تُغيِّر مجرى اللسانيات في هذا القرن ... السبيل إلى تطبيق المنهج العلمي في دراسة اللغات البشرية . وبالإضافة إلى الثنائيات ... فصّلنا فيها الأمر من قبل ، فهناك ثنائيات أخرى لم نذكرها لأنه لا يمكننا أن نتطرق إلى ... في كتاب من مثل هذا الحجم . ومن بين هذه الثنائيات السيمياء واللسان ، والشكل ... ، والرمز والعلامة ، ولسانيات اللغة ولسانيات الكلام، واللسانيات السكونية واللسانيات ... ومما لا ريب فيه أن هذه الثنائيات تساعد على فهم طبيعة اللغة ، وأنظمة العلامات ... أعماق العقل البشري التي تفوق آفاق تصوراتنا .

وعلى الرغم من مكانة دي سوسير الشهيرة وعلمه الغزير، غير أن هناك بعض النقائص ... في حديثه عن بعض الميادين كالفونولوجيا والتركيب والدلالة . ونودّ في هذا المقام ... إلى هذه الأمور لتنبيه الدارسين. ففي مناقشاته للمبادئ العامة، واللسانيات الآنية ... إلى التمييز بدقة بين الفونتيك والفونولوجيا: أي دراسة أصوات الكلام بصفتها حوادث ... من جهة ، ودراسة " الصور السمعية " الوظيفية في اللغة من جهة أخرى . وعند ... على تأكيد الطبيعة الفرقية البحتة للدال في النظام ، وعلى عدّ الصوت ظاهرة فيزيائية ... إلى النظام اللغوي بل تنتمي إلى الكلام ، فإنه كان بصدد إرساء دعائم العلم الذي ... فيما بعد بالفونولوجيا ، ولكنه لم يأت بمصطلح للدراسة التي تتناول وحدات الدال ... ، وجاءت تعقيباته في أماكن عديدة من الكتاب مُضلّلة للقارئ المتعوّد على المصطلحات ... . أما في ملحقه للمقدمة الذي ورد تحت عنوان : " مبادئ الفونولوجيا " ، فقد تناول ... أساسا ما يطلق عليه اليوم بالفونتيك ، وكذلك ما أطلق عليه اسم " الفونتيك " قد اشتمل ... من الفونتيك التاريخية والفونولوجيا التاريخية .[2]

(1) Ibid., p.16.
(2) Jonathan Culler's Introduction to de Saussure, p.xxii.

وفي مجال التركيب (Syntax) ذهب دي سوسير إلى أن الجمل الملفوظة لا ... إطلاقا ، ولهذا ينبغي عدّها كينونات من نتاج الإرادة الفردية ، وليس كينونات من ال... اللغوي العام . وبهذا يكون قد أخفق في التمييز بين الجمل بوصفها أشكالا نحوية من جهة، والملفوظات (utterances) التي من خلالها تتحقق الجمل في الكلام من جهة أخرى ... المسألة ليست بهذه البساطة ، فهو يرى أن كلا من العبارات الاصطلاحية (Idioms) ومجموعة المفردات المبنية وفق أنماط قياسية ماهي إلا جزء من النظام ، ولكنه يبدو مترددا في ... النمط القياسي . وفي الحقيقة ، فإن قدرة أي متعلم على التمييز بين الجمل المكونة طبق قواعد لغته والجمل المنحرفة ، وقدرته كذلك على تكوين جمل مطابقة لقواعد لغته لدليل واضح على أن الجملة كينونة من النظام اللغوي. ولكن دي سوسير نسب الجملة إلى " الكلام " لأنه عدّ قواعد عصره ملخصات ناقصة لمعطيات تجريبية غالبا ما تعوزها المعرفة التقنية الخاصة بكيفية ... مجموعة محدودة من القواعد التي تولد عددا غير محدود من الجمل . وهكذا فإن استبعاد الجملة كوحدة لغوية لا يزال يُعدُّ فشلا ذريعا إلى يومنا هذا .(1)

أما في مجال الدلالة ، فإن التمييز السوسيري بين القيمة الشكلية والفرقية للمدلول في النظام اللغوي من ناحية ، ودلالته الإيجابية في الاستعمال اللغوي الفعلي من ناحية أخرى قد عرقل تطور علم الدلالة . وقد اتّضح أن محاولات وصف " المدلول " في حدود " السمات العلاقية " التي أبدت نجاحا واسعا في وصف صواتم " الدال " قد أخفقت على نحو استثنائي. وكان بإمكان علم الدلالة أن يتقدم بسرعة لو لم ينْادِ دي سوسير بأولويّة القيمة على الدلالة أو المعنى . وينبغي إذن أن تجعل الدلالة المثالية من الفعل الكلامي (speech act) قاعدة أساسية لها، وتأخذ في الحسبان جانب " الكلام " (La parole). ومع هذا ، يجدرُ بنا ألاّ نطرح اللوم كلّه على هذا اللساني لفشله في هذا المجال لأنه اعترف على الأقل بأهمية علم الدلالة بطريقة أوضح بكثير من طرق الذين خلفوه مباشرة . وعلاوة على هذا ، فإن مشكلة دراسة الدلالة لا زالت عالقة إلى اليوم .(2)

ومهما يكن من أمر ، فإن دي سوسير يُعدُّ بحق أبًا للسانيات الحديثة . لقد كان أول من أثبت ميدانيا بأن اللغة نظام قائم بذاته ، وشبكة واسعة من العلامات والتراكيب ، حيث ...

(1) Ibid., p.xxiii.
(2) Ibid., p.xxiv.

... مكوناتُها قيمتها إلاّ من خلال علاقاتها بالكلّ. كما كان أوّل من تخلّى عن اللسانيات التاريخية بعد ما عرف أبعادها ومراميها، ونظّر وألّف فيها ليستبدلها في الأخير باللسانيات الآنية التي تدرس اللغة دراسة وصفية موضوعية في نقطة زمنية معيّنة . ويُعدُّ مؤلفه الموسوم " محاضرات في *اللسانيات العامة* " مقدمة ثريّة زاخرة بالأسس المنهجية في اللسانيات العامة. ففيه تناول تاريخ اللسانيات ، ومادتها ، ومهمتها، وعلاقتها ببعض العلوم ، وتحدث بإسهاب عن المبادئ العامة والثنائيات الأساسية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في كلّ دراسة لغوية ثم مالبث أن فصّل الكلام في اللسانيات الآنية والزمانية والجغرافية والعامّة والدراسات الصوتية بشكل عام . وكان لتمييزه بين العلاقات التركيبية (syntagmatic) والترابطية (associative) أثر كبير على كثير من النظريات اللغوية . وكان تأثيره أقوى في أوروبا أكثر منه في أمريكا . وهذا يمكن أن يكون سببا في اختلاف اللسانيات الأمريكية عن اللسانيات الأوروبية : إذ عنيت الأولى بالعلاقات التركيبية أكثر من العلاقات الترابطية ، و عنيت الثانية بالعلاقات الترابطيّة أكثر من العلاقات التركيبية.

وعلى الرغم من تأثر دي سوسير بعلم الاجتماع ، وعلم النفس العام ، والاقتصاد السياسي ، فقد جعل من اللسانيات علما مستقلا بذاته يدرس اللغة دراسة وصفية بحتة تختلف تماما عن كل الدراسات السالفة. ومن هذا المنطلق كانت اخر جملة في كتابه : " إن موضوع اللسانيات الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها. "(1)

(1) De Saussure, op. cit., p.232.

الفصل السادس

مدرسة براغ

أسس العالم التشيكي: فيلام ماثيزيوس (Vilem Mathesius) وبعض معاونيه نادي براغ اللساني (Prague Circle) سنة 1926م. وأصبح هذا النادي يُعرف فيما بعد بمدرسة براغ ، أو المدرسة الوظيفية ، أو المدرسة الفونيمية . وقد بلغت هذه المدرسة ذروتها في الثلاثينيات ومازال نفوذها مستمرا إلى يومنا هذا . وعلى خلاف المدارس الأخرى ، فإنها تضمّ عددا كبيرا من الباحثين المتخصّصين في اللغات السلافية من تشيكوسلوفاكيا وخارجها . ومن أقطابها: ترويتسكوي ، وياكبسون ، وبوهلر ، وكارسفسكي وغيرهم . ومما لا مرية فيه أن مؤلف دي سوسير « *محاضرات في اللسانيات العامة* » كان له أثر كبير على بزوغ هذا النادي اللساني ، الذي شرع فيما بعد يعقد ندوات منتظمة ، ويتوجها ببحوث في اللسانيات الوظيفية على وجه الخصوص . وما اللسانيات الوظيفية : إلا فرع من فروع البنيوية ، بيْد أنها ترى أن البنية النحويّة والدلالية والفونولوجية للغات تُحدَّدُ بالوظائف المختلفة التي تقوم بها في المجتمع.

6 - 1 - منهج الدراسة في هذه المدرسة:

يتميز هذا المنهج بدراسة نظام اللغة الكلّي بمستوياته المختلفة النحوية ، والصرفية والصوتية ، والدلاليّة دراسة وظيفية محضة. وهذا ما جعله يختلف عن باقي المناهج اللسانية الأخرى . وسوف تتضح لنا مناهج التحليل بصورة جليّة ، عندما نتحدث فيما بعد عن أكبر أقطاب هذه المدرسة . وبشكل عام ، فقد شملت نشاطات هذه المدرسة المجالات التالية الصوتيات الوظيفية الآنية، والصوتيات الوظيفية التاريخية ، والتحليل الوظيفي والعروضي وتصنيف التضاد الفونولوجي ، والأسلوبية اللسانية الوظيفية ، ودراسة الوظيفة الجمالية للغة ودورها في الأدب والمجتمع والفنون. وإذا كان " دي سوسير " قد ذهب إلى القول : بأن اللغة نظام من العلامات ، فإن مدرسة براغ ترى أن " اللغة نظام من الوظائف، وكلّ وظيفة نظام من العلامات ".[1] وقد وضّح سامبسون (Sampson) نظرة أصحاب هذه المدرسة إلى اللغة بقوله " إن اللغة عبارة عن محرك ، وعلى اللسانيين أن يدركوا ما هي الأعمال التي تقوم بها المكونات

(1) Philip Davis, Modern Theories of Language,New Jersey: Prentice-Hall, Inc, 1973,p.219.

لهذا المحرك ، وكيف أن طبيعة المكوّن الواحد تُحدِّد طبيعة المكوّنات الأخرى ... ولم يكتف أصحاب هذه النظرية بالوصف ، بل تعدوه إلى التفسير ، مجيبين عن سؤالين رئيسيين : (1) لِمَ تتشابه اللغات ؟ و (2) ولماذا جاءت على هذه الشاكلة ؟ "[1]

6 - 2 - الصوتيات الوظيفية:

أطلق مؤسسو مدرسة براغ على منهجهم الخاص بالدراسة الصوتية اسم الصوتيات الوظيفية (Phonology) . ويتولى هذا الفرع من اللسانيات الحديثة دراسة المعنى الوظيفي للنمط الصوتي ، ضمن نظام اللغة الشامل ، واستخراج كلّ الفونيمات وضبط خصائصها ، وتحديد طرق توزيع " ألوفوناتها " . ويُطلق على هذا النوع من الدراسة في أمريكا اسم "Phonemics" . وتجدر الإشارة ها هنا أن لا يخلط الدارسون بين الصوتيات (Phonetics) والصوتيات الوظيفية (Phonology) . فالصوتيات : فرع من اللسانيات قوامه دراسة الأصوات الكلامية من حيث إنتاجها وتمثيلها وتوزيعها . وتنقسم إلى ثلاثة فروع رئيسية: الصوتيات النطقية (articulatory phonetics) وتُعنى بوصف الجهاز الصوتي ومخارج الأصوات أي بالمتكلم ، والصوتيات السمعية (auditory phonetics) وتُعنى بعملية تلقّي الأصوات و إدراكها أي بالمستمع ، والصوتيات الفيزيائية (acoustic phonetics) وتدرس الجانب الفيزيائي الصرف المتمثل في انتشار الموجات الصوتية من فم المتكلم إلى أذن المستمع عبر ذبذبات صوتية معيّنة . وبالإضافة إلى هذه الفروع الثلاثة هناك فروع أخرى لا تحتاج إلى تفصيل في هذا المقام منها: الصوتيات التجريبية، والتاريخية والآلية ، والمعيارية ، والزمنية ، والتعاملية.

أما الصوتم (phoneme) الذي هو محور دراسة الصوتيات الوظيفية ، فإنه وحدة فونولوجية مجردة ، لأن ما يُنطق به فعلا خلال الكلام هو " اللوين " الصوتي أو المتغيّر الصوتي (allophone) . واللوين الصوتي صوتٌ كلامي حقيقي يتوزع بطريقة تكامليّة ، أو يتغيّر بشكل حر. ومثال التوزيع التكاملي أن [P] الهائية في الإنجليزية تأتي عادة في أول الكلمات مثل « pen » وأن [P] غير الهائية تأتي بعد / S / مثل « spin » . وأما التغيّر الحر فعندما

(1) Geoffrey Sampson, op. cit., p. 104.

تأتي [P] في آخر الكلمة ، حيث من الممكن أن تكون هائية أو محبوسة كما في كلمة up. فالصوتم أو الفونيم إذن ، هو أصغر وحدة صوتية تعين صاحب اللغة على التفريق بين المعاني وهو نوعان : فونيم قطعي (segmental) ويشمل كل الصوامت والصوائت، وفونيم " فوقطعي (suprasegmental) ويتمثّل في كلّ من الفاصل (juncture)، والنغم (pitch)، والنّبرة (stress) وطول الصوت (word-length). وقد أولت مدرسة براغ هذه المتصورات عناية فائقة ، وطوّرت بعض المفاهيم الأخرى التي ساعدت على تحليل اللغة بطريقة دقيقة للغاية.

ومن المصطلحات المتداولة في هذه المدرسة مصطلح الفرق الوظيفي . وهو فرق بين صوتين ينجم عنه اختلاف في الدلالة ، وذلك كالفرق بين / P / و / b / في اللغة الأوروبية مثلا. أما الفرق غير الوظيفي ، فيتمثّل في الفرق مثلا بين [ب] و [پ] و [ق] و [ڨ] في بعض اللهجات العربية كقولك : باريس وپاريس أو قال و ڨال . فالاختلافات الصوتية التي لا تؤدي إلى اختلافات دلالية ، هي اختلافات غير فونيمية. والشيء الذي يعين على التمييز بين الفونيمات هو في الواقع ليس الصوت بالذات ، بل وظيفة الصوت التي تعطينا معنى مغايرا.

وبالنسبة لهذه المدرسة ، فإن الأصوات الكلامية تنتمي إلى " الكلام " (parole)، وإن الفونيمات تنتمي إلى " اللغة " (langue) وذلك بالمفهوم الذي جاء به " دي سوسير ". وفي الحقيقة ، فإن تحليل الأصوات الكلامية إلى سمات نطقية مكوّنة لم يكن أمرا جديدا، ولكن تحليل الوحدات الفونيمية إلى سلسلة من التضادات الخاصّة بين بعض السمات المميّزة يعدّ تقدّما حقيقيا في النظرية الفونولوجية والمنهج الوصفي بوجه عام.[1] وهكذا قام روّاد هذه المدرسة بتصنيف الأنظمة الفونولوجية بطرق مختلفة ، حسب السمات المميّزة للفونيمات. ففي اللغة الإنجليزية ، تُمثّل هذه الفونيمات /p/ و /b/ ، / t / و / d/ ، / K / و / g/ تضادا (opposition) بين الصوت المهموس والصوت المجهور على مستوى مخارج الأصوات . وبفضل أعمال مدرسة براغ في هذا الميدان ، أصبح الفونيم أحد المقومات الأساسية للنظرية اللسانية عامة وللوصف العلمي والتحليل المنهجي لمختلف الظواهر اللغوية خاصة.

وبينما كانت معظم جهود مرسة براغ منكبّة على دراسة الفونيم وتطوير النظرية الفونولوجية ، فإن بعض أعضائها قاموا بعدد لا يستهان به من الإسهامات القيّمة في مجالات

(1) R.H.Robins ,op.cit., p.205.

أخرى من اللسانيات كالأسلوب والأسلوبية ، والدراسات التركيبية والصرفية ، والدراسات ... كمقارنة اللغة التشيكية ببعض اللغات السلافية الأخرى . وأخيرا ، وبغض النظر عن الفونولوجيا التي كانت دراسة متداولة بين المدارس اللسانية الأخرى ، فإن الدراسة الوظيفية ... بها مدرسة براغ أكثر من كل المدارس الأخرى .

وفيما يلي نحاول أن نتعرف على التيارات الفكرية المختلفة لهذه المدرسة من خلال ... الضوء على أشهر أعلامها وأهم إسهاماتهم في العلوم اللغوية.

6 ـ 3 ـ فيلام متيزيوس Vilêm Mathesius (1882م ـ 1945م):

واحد من ألمع العلماء ليس في اللسانيات فحسب ، بل في اللغة والأدب الإنجليزي ... وقد أسّس بمعيّة معاونيه نادي براغ اللساني ، ثم شغل منصب أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة كارولاين الأمريكية . وفي سنة 1911م ، نشر " متيزيوس " نداءه الأول لمنهج جديد غير تاريخي لدراسة اللغة بعنوان " حول كمونية الظواهر اللغوية ": On the potentiality of the phenomena of language. ومن أهم الأبحاث التي قام بها ، استعمال الدراسة الوظيفية للتمييز بين النحو والأسلوبية . ومن إسهاماته التي نالت شهرة كبيرة في اللسانيات ، تمييزه بين مفهومي " الموضوع " و " الخبر "، وتطويره لمنظور الجملة الوظيفي.

6 ـ 3 ـ 1 ـ الموضوع والخبر:

يرى " متيزيوس " أن الجملة تنقسم إلى قسمين : " الموضوع " (Theme): ويدل على ما يعرفه السامع لأنه غالبا ما يذكر في الجمل السابقة ، و " الخبر " (Rheme): ويدلّ على حقيقة جديدة تتعلق بالموضوع المذكور . وبعبارة أخرى ، فالموضوع هو الاسم الذي تخبر عنه الجملة ، أو الكلمة التي هي محور الكلام في جملة ما ، والخبر هو كل ما يقال عن موضوع الكلام . وعادة ما يسبق " الموضوع " " الخبر " إلاّ إذا كان الغرض التوكيد على بعض أجزاء الجملة . ويتطابق التقسيم إلى " موضوع " و " خبر " في كثير من الأحيان مع التقسيم النحوي إلى مبتدأ وخبر . وقد يقول قائل : « ضرب زيدٌ عمرا. » لأنه كان يتحدث عن زيد ويريد أن يخبرنا عما فعله بعد ذلك، أو لأن السامع يعرف أن زيدا قد ضرب شخصا ما، ويريد

أن يخبره عمّا وقع عليه الفعل . ويمكن كذلك أن يكون السّامعُ يعلم أن عمرا قد ضُرب، ويريد أن يعلمه من الضارب . وفي اللغة الإنجليزية ، نقول مثلا : " جورج قتل جاك. " و " جاك قتل جورج . " مستعملين أسلوبين مختلفين لتشخيص الفاعل والمفعول ، حسب موقعهما قبل أو بعد الفاعل . أما في اللغات الإعرابية كالعربية ، فيمكن أن يكون الترتيب المفرداتي حرا، ولكننا نستعمل حركات إعرابية للدلالة على الفاعل والمفعول .

وتكمن الفائدة من وراء هذا التحليل البراغماتي في تسهيل إدراك البنية العميقة للجملة وبلورة أبعادها الدلالية ، وشرح الاختلافات البنيوية بين مختلف اللغات كنسبة الجمل المبنية للمجهول في الإنجليزية بالمقارنة إلى لغات أخرى ، أو كوجود تراكيب خاصّة في لغة معيّنة وندرتها أو انعدامها في لغة أخرى . ولا يفوتنا هنا أن نُذكّر بأن فكرة تقسيم الجمل إلى "موضوع " و " خبر " كانت كذلك موجودة في اللسانيات الأمريكية . وقد استعمل الوصفيون الأمريكيون مصطلحين مختلفين للدلالة على المفهومين اللذين استعملهما " مثيزيوس، وهما: Topic و Comment

6 ـ 3 ـ 2 ـ منظور الجملة الوظيفي :

قام "مثيزيوس" بتطوير منظور الجملة الوظيفي (Functional Sentence perspective) وتطبيقه على لغته التشيكية وكذلك على اللغة الإنجليزية وبعض اللغات الأوروبية الشهيرة الأخرى . ويمكننا القول بإيجاز بأن الشكل العام لمنظور الجملة الوظيفي في جميع اللغات هو الترتيب المفرداتي . وقد عرّف كريستل (Crystal) منظور الجملة الوظيفي في موسوعته سنة 1987م "بأنه منهج استعملته مدرسة براغ لتحليل الجمل حسب مضمونها الإخباري، ولازال مستعملا حتى الآن في تشيكوسلوفاكيا ودول أوروبية أخرى ، وتكون لكل عنصر أساسي في الجملة مساهمة دلالية حسب دوره الديناميكي الذي يلعبه في عمليّة الاتصال".[1] وعرّف أيضا بولينغر (Bolinger) هذا المفهوم بقوله : " إنه دراسة لكيفية تقديم المعلومات في الجملة، ودراسة المحتوى الدلالي النسبي للموضوع والخبر وأقسامهما ".[2]

---

(1) David Crystal, The Cambridge Encyclopedia of Language, CUP, 1987, P.408.
(2) Dwight Bolinger, Aspects of Language, New York: Harcourt Brace Jovanovich, Inc. 1975, p.516.

وفيما يخصُّ ترتيب مُكونات الجُملة، فإن " الموضوع " يرد أولا ، ثم يليه " الخبر " ثانيا . أما إذا أردنا التوكيد على " الخبر " ، فنقوم بعملية التقديم والتأخير ، وبالنسبة للغات التي فإن لترتيب المفردات فيها وظيفة نحوية للتمييز بين الفاعل والمفعول به ، فإن الترتيب المفرداتي الذي يتطلبه منظور الجملة الوظيفي ، يكون باستعمال أساليب تعبيرية نحويّة مختلفة. كصيغة المعلوم وصيغة المجهول في الفرنسية والإنجليزية . وعليه فإن صيغة المعلوم في هذه الجملة التي ترجمناها ، وحافظنا فيها على نمط التركيب الإنجليزي : " الأستاذ مثيزيوس كتب هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي ." تختلف عن صيغة المجهول في الجملة نفسها : " هذا الكتاب هو منظور الجملة الوظيفي كُتب من قبل الأستاذ ماثيزيوس." وحسب المنظور الوظيفي للجملة ، فإن في صيغة المعلوم « الأستاذ مثيزيوس » هو الموضوع ، و " هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي" هو الخبر ، بينما في صيغة المجهول فإن " هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي " هو الموضوع ، و « الأستاذ مثيزيوس » هو الخبر .[1]

6 ـ 4 ـ نيكولاي تروبتسوي (1890م ـ 1938م):

6 ـ 4 ـ 1 ـ حياته ونشاطاته:

يعدُّ الأمير نيكولاي تروبتسكوي (Prince Nicolai Trubetzkoy) من أبرز أقطاب مدرسة براغ . لقد انحدر من عائلة روسية عتيقة من طبقة النبلاء . وتلقى التشجيع الكامل من أبيه الذي كان أستاذا ثم عميدا بجامعة موسكو . وقد تشبّع منذ نعومة أظافره بالمبادئ الليبرالية والحريات العقلية والسياسية . وانكبَّ على دراسة الإثنوغرافيا والفيلولوجيا الفنلندية الأغريّة والقوقازية وهو لا يتجاوز الثالثة عشر من عمره . وفي الرابعة عشر ، أصبح يَحضُر باستمرار لكلّ الجلسات الدراسية التي كانت تنظمها الجمعية الإثنوغرافية لموسكو. وعندما بلغ الخامسة عشر ، نشر مقالين علميين لأول مرة . وفي السابعة عشر ، انغمس في دراسة اللغات الباليوسيبيرية، وسرعان ما انقطع عن هذا العمل لتحضير امتحان البكالوريا، وقد عُني أيضا ببعض العلوم الأخرى كالإثنولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وفلسفة التاريخ ، والتاريخ العام

---

(1) Archibald Hill, Linguistics, Voice of America Forum Lectures, 1969,p.264.

الحضارات . وفي عام 1908م، التحق بجامعة موسكو ليزاول دراسته الجامعية في اللسانيات الهندو أوروبية . وفي عام 1913م بدأ يُحضّر أطروحته حول مستقبل اللغة الهندو أوروبية وبعد مناقشتها مباشرة سنة 1916م ، أصبح أستاذا بجامعة موسكو . وهكذا ازداد ولعه وانشغاله بالبحث والتنقيب . وجاءت الحرب العالمية الأولى بكل أهوالها، واضطرّ الأمير إلى الفرار إلى كيسلوفودسك ثم إلى روستوف حيث درّس بجامعة هذه الأخيرة . وشاء القدر أن تسقط هذه المدينة سنة 1919م ، وتحتّم الأمر على الأمير أن يهرع بنفسه إلى القسطنطينية هربًا من الموت الذي بات يتخطّفه . أما الفترة ما بين 1920 و 1922، فقد قضاها بصوفيا أين أوكل إليه كرسي اللسانيات الهندو أوروبية ، وقام بنشر كتاب قيّم عن نظرية الحضارات باللغة الروسيّة . وبعد هذه المرحلة ، انتقل إلى فيّنا، حيث عيّن في كرسي الفيلولوجيا السلافية. وفي هذا الوقت بالذات ، أصبح عضوا بارزا في نادي براغ اللساني الذي كان آنذاك تحت رئاسة "مثيزيوس" . ومكث الأمير في فيّنا حتى وافته المنية سنة 1938م نتيجة مرض قلبي تسبّب فيه البوليس السرّي النازي : الغستابو (Gestapo).

6 ـ 4 ـ 2 ـ تروبتسكوي والفونولوجيا:

برع تروبتسكوي في ميدان الصوتيات الوظيفية أو الفونولوجيا ، وكانت له فيها إسهامات قيّمة ، منها مؤلفه الشهير : *مبادئ الفونولوجيا* (1939)، الذي فرغ من تأليفه في الأسابيع الأخيرة من حياته ، والذي يحتوي على مبادئ الفونولوجيا ، ومناهج تحليل السمات القطعية والفوقطعية ، ودراسات حول الفونولوجيا الإحصائية ، والفونولوجيا التاريخية . لقد أطلق تروبتسكوي على البحث الذي يدرس العلاقات القائمة بين الفونولجيا والنحو والصرف اسم المورفو ـ فونولوجيا . واعتنى بتطوير مفهوم الفونيم الذي سبق وأن تطرّق إليه بعض الباحثين ، منهم بودوان (Baudoin)، وسويت (Sweet)، وجونز (Jones)، ويسبرسن (Jespersen) ولكنه أضفى عليه صبغة علمية وعمليّة في آن واحد . وقد عرّفه في عدة مواضع من الكتاب بقوله : "إن الفونيم هو أولا وقبل كلّ شيء مفهوم وظيفي."[1] وهو كذلك "الوحدة الفونولوجية التي لا تقبل التجزئ إلى وحدات فونولوجية أخرى أصغر منها في لغة معيّنة."[2]

(1) Nicolai Trubetzkoy, Principles of Phonology, University of California Press, English ed. 1969, p.43.
(2) Ibid ., p. 37

وفي دراسته للأنماط الصوتية ، ميّز تروبتسكوي بين مظهرين أساسيين للدراسة الفونولوجية : دراسة دور الأصوات الكلامية في أداء الوظيفة التمثيلية للغة أوّلا، ودورها في الوظيفة التعبيرية والوظيفة الندائية ثانيا . وأطلق على الحقل الأوّل : اسم الفونولوجيا، وهو المصطلح الذي يتطابق بالضبط مع المصطلح الأمركي الحالي : علم الفونيمات (Phonemics). وأطلق على الحقل الثاني : اسم الأسلوبية الصوتية (Phonostylistics) : أي دراسة الوظيفة التعبيرية للأصوات الكلامية . وبالإضافة إلى هذا ، فقد توصل تروبتسكوي إلى وضع نظام [illegible] الغاية : وهو التصنيف الفونولوجي (phonological typology) الذي يُمَكِّنُ الباحثين من معرفة نوع النظام الصوتي لأي لغة من لغات العالم. وبوجه عام، "فإن الفونولوجيا التروبتسكوية مثلها مثل الفونولوجيا الوصفية الأمريكية، تولي الفونيم دورا رئيسيًا، ولكن تروبتسكوي "وأعضاء مدرسة براغ كانوا مهتمين بالعلاقات الاستبدالية (paradigmatic) بين الفونيمات : أي بطبيعة التقابل بين الفونيمات في نقطة معيّنة من التركيب الفونولوجي بدلا من العلاقات الركنيّة (syntagmatic) التي تحدد كيفية تنظيم الفونيمات في وحدات اللغة ."[1]

6 ـ 4 ـ 3 ـ التضاد الفونولوجي (Phonological opposition):

إن الشيء الملفت للانتباه الذي أولاه "تروبتسكوي" عناية كبيرة ، هو دراسته لمختلف أنواع التضاد الفونولوجي ، وذلك لأن الفرق الذي يساعد على تعريف الفونيم تعريفا علميًا ، لأنه يدخل في تضاد أو تقابل فونولوجي واحد على الأقل. ويُعرِّف "تروبتسكوي" التضاد بقوله : "إنه كل تضاد فونولوجي بين صوتين مختلفين ، يمكن أن يُميِّز بين معان فكرية في لغة معيّنة."[2] وقد عهد إلى إظهار مميّزات الفونيم بمقابلته في سياقات صوتية مختلفة كما نرى فيما يلي :

(1) Geoffrey Sampson, op. cit ., pp. 107 - 108.
(2) Nicolai Trubetzkoy, op. cit ., p. 36.

(1) **التضاد السالب** (Privative opposition):

من اللسانيين العرب من أطلق على هذا التضاد : التقابل الحرماني. ويوجد في هذا التضاد تماثل كبير بين فونيمين، ولكن أحدهما يتضمن سمة صوتية غير موجودة في الطرف الآخر. ومثال ذلك / س / و / ز / ، / ت / و / د / ، / ث / و / ذ / ، حيث إن الصوت الأول من كلّ زوج صوت مجهور والصوت الثاني صوت مهموس .

(2) **التضاد التدريجي** (Gradual opposition) :

تختلف الأطراف المتضادة في هذا السياق لكونها تشتمل على درجات متفاوتة لخاصية معيّنة من الميل ، كدرجة انفتاح أعضاء النطق عند التفوّه ببعض الصوائت . ومثال ذلك صوائت العربية / ا / ، / و / ، / ي / وصوائت كثير من اللغات الأوروبية مثل / æ / ، / e /، / i /.

(3) **التضاد التكافئي** (Equipollent opposition):

يكون لكل طرف في هذا التضاد سمة مميّزة لا توجد في الأطراف الصوتية الأخرى وذلك كالتضاد بين / P / - / t / - / k / ، وكذلك بين الزوجين / م / - / ع / و / ب / - / غ /

(4) **التضاد الثنائي** (Bilateral opposition):

تشترك بعض الأزواج الصوتية في أكبر عدد ممكن من الخصائص، بالمقارنة مع الأزواج الأخرى. وذلك مثل التضاد الموجود بين / ك / - / خ /، حيث يشتركان في السمات التالية : + فمي، + طبقي ، + مهموس. فكلّما ازداد عدد السمات الجامعة ، كانت العلاقة أكثر متانة بينهما.

(5) **التضاد المتعدد الجوانب** (Multilateral opposition):

يُمثّل هذا التضاد علاقة هشّة بين الفونيمات. فالزوجان / و / - / ي / أو / a / - / i / يتماثلان مثلا لا لشيء إلاّ لأنهما من صنف الصوائت . ويتماثل / ب / - /ع/ أو/ ح / - / ش/ لأنهما من الصوامت.

(6) **التضاد التناسب** (Proportional opposition) :

يكون التضاد متناسبا إذا كانت السمة المميّزة نفسها توجد أيضا في الأزواج الفونيمية الأخرى . فالجَهْورِيّةُ (Sonority) سمة مميّزة ليس بين /P/ - /b/ فحسب ، بل بين /t/ - /d/ و /k/ و /g/ كذلك .

(7) **التضاد الممكن تحييده** (Neutralizable opposition):

يحدث هذا التضاد عندما يتغاير صوتان في بعض المواقع الكلامية ، وليس في كل المواقع الأخرى . ففي اللغة الألمانية ، يصير التضاد بين /t/ - /d/ محايدا إذا ما وقع هذان الفونيمان في أواخر الكلمات ، حيث إن الفونيم /t/ هو الذي يُنطق به ، ويُطلق عليه بالتالي : الفونيم الأم أو الفونيم الكلي (archiphoneme). ويتضمن هذا الفونيم الأم مجموعة السمات المشتركة المميّزة بين الفونيمين المتضادين.

6 - 5 - رومن ياكبسون (Roman Jakobson):

6ـ5ـ1 ـ حياته ونشاطاته:

وُلد هذا العالم الروسي بموسكو سنة 1896م ، وزاول دراساته هناك بمعهد اللغات الشرقية ثم بالجامعة المركزية ، حيث تخصّص في اللسانيات المقارنة والفيلولوجيا السلافية. وعند اندلاع الحرب العالمية كان " ياكبسون " قد بلغ من عمره ثماني عشر سنة ، وأسس مع بعض الباحثين « نادي موسكو اللساني » الذي عقد أول جلسة له في مارس سنة 1915م، وكان من مهام هذا النادي البحث في مجالات الشعر، والتنظيم ، وعلم الجمال، والعروض. وأسهم فيه " ياكبسون " بوضع بعض النظريات الأدبيّة الحديثة. .

ثم غادر " ياكبسون " روسيا عام 1920م ، بعدما نشب نزاع فكري بينه وبين بعض أعضاء المدرسة الشكلانية التي كان واحدا من أتباعها واستقرّ في تشيكوسلوفاكيا ليُدَرّس بجامعة برنو (Brno) طوال إقامته هناك . وشاءت الصدفة أن يكون أيضا واحدا من المؤسسين لنادي براغ اللساني، وناقش رسالة الدكتوراه بجامعة براغ سنة 1930م، وشغل نائب رئيس نادي براغ عام 1938م.

وفي عام 1939م، أدّى الغزو النازي لتشيكوسلوفاكيا بياكبسون إلى الهجرة إلى البلدان الأسكندنافية بسبب انتمائه العرقي إلى بني إسرائيل، ودرّس بجامعات كوبنهاغن وأوسلو و أوبسال . ونتيجة للتهديدات النازية ضد هذه البلدان ، رحل إلى الولايات المتحدة سنة 1941، ودرّس بالمدرسة الحرّة للدراسات العليا التي أسست بنيويورك كمواطن للباحثين اللاجئين من أوروبا ما بين 1943 و 1946م . وهنا - كذلك - كان لياكبسون فضل كبير في تأسيس نادي نيويورك اللساني . واستمر في التدريس بجامعة كولومبيا بين 1943 و 1949، ثم انتقل بعدها إلى جامعة هارفرد ، ودرّس هناك اللغة والأدب السلافيين من سنة 1949 حتى سنة 1957م . وبعد هذه الفترة ، التحق بمعهد ماساتشوست التكنولوجي ، حيث قام بتدريس اللسانيات العامة واللسانيات السلافية.

6 ـ 5 ـ 2 ـ مؤلفاته:

ألّف ياكبسون ما يربو عن 370 كتابا ومقالة وما يربو عن مائة عمل شملت العديد من النصوص والمقدمات والأشعار المختلفة. ويوجد عدد كبير من مؤلفاته في المجلدات التسعة الأولى من أعمال نادي براغ اللساني. ومن أهم مؤلفاته:

1 ـ ملاحظات حول *التطور الفونولوجي للروسية بالمقارنة مع اللغات السلافية الأخرى* (أعمال نادي براغ اللساني ، II، 1929، 118 صفحة.)

2 ـ *لغة الأطفال ، الحُبسة ، والقوانين الفونولوجية العامة*، (أوبسال 1941)، (الترجمة الإنجليزية عام 1968 بلاهاي: موطون، 83 صفحة.)

3 ـ مقدمة في *تحليل الكلام* : أخرجه بالاشتراك مع " هال " (Halle) و فانت (Fant) عام 1952، (طبعة معهد ماساتشوست التكنولوجي، 64 صفحة.)

4 ـ *مبادئ اللغة* ، ظهر عام 1956 بالاشتراك مع "هال " (لاهاي: موطون ، 87 صفحة.)

5 ـ محاولات في *اللسانيات العامّة* (باريس : طبعة مينوي ، 1963) وهو آخر وأهمّ مصنّف للمؤلف ، ويضمّ إحدى عشرة مقالة ألّفت بعد 1950م عند إقامته بأمريكا.

ومن مقالاته الشهيرة في الفونولوجيا:

1 ـ "مبادئ الفونولوجيا التاريخية "محرّرة بالألمانية (أعمال نادي براغ اللساني، IV، 1931)

2 ـ "حول نظرية الأصول الفونولوجية المشتركة بين اللغات" (أعمال المؤتمر الدولي الرابع للسانيات ، كوبنهاغن 1938.)

3 ـ " التطور الفونولوجي في لغة الأطفال والتناسق المتطابق في جميع اللغات ".(المؤتمر الدولي السابع للسانيات ، بروكسل، 1939.)

6 ـ 5 ـ 3 ـ نشاطاته العلميّة:

إن نشاطات ياكبسون العلمية متنوعة للغاية، وتعكس اهتمامات مدرسة براغ بوجه عام. وقد نقل هذه النشاطات والأفكار إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، مُوليًا اهتماما كبيرا بمفهوم الوظيفية (functionalism)، ومعتنيًا كثيرا بأعمال " مثيزيوس " ، و " تروبتسكوي " و فاشاك " (Vachek)، و " ترنكا " (Trnka). وقد تأثّر العديد من اللسانيين الأمريكيين بياكبسون ، فأنشأوا جمعية خاصةً : أطلقوا عليها نادي نيويورك اللساني ، وذلك على غرار نادي براغ اللساني ، واتخذ بعضُهم المقاربة الوظيفية مذهبًا لهم ، ووجدوا فيها مجالا خصبا مثمرا للتنظير والتأليف . أما ياكبسون فقد أبدع في عدّة مجالات منها : الفونولوجيا ، والأنثروبولوجيا والأسلوبية ، وعلم النفس اللغوي ، وعلم الدلالة ، ونظرية الإعلام ، ونظرية الأدب، وعروض الأشعار الروسيّة والتشيكية ، والتطور اللغوي عند الأطفال والمعاقين ، وكذلك الفلكلور.

وفي حقل اللسانيات ، اشتهر " ياكبسون " بنظريته الفونولوجية التي تنصُّ على وجود نظام سيكولوجي كلّي (Universal) منتظم وبسيط تشترك فيه جميع اللغات البشرية ، و تؤكد على أن الاختلافات الموجودة بين مختلف الأصوات الكلامية ، ما هي إلا عبارة عن اختلافات سطحيّة لنظام تحتي ثابت . ومن هذا المنطلق ، هاجم ياكبسون دي سوسير وفرانتز بوعز على النسبيّة الفونولوجية التي ذهبا إليها ، وبيّن في كتابه «« مقدمة في تحليل الكلام »» أن ثمة

نظاما فونولوجيا كليًّا يتضمن اثنتي عشرة سمة مميِّزة تتصف بها كل اللغات الإنسانية ، ومن بين هذه السمات : صائت / صامت ، مجهور / مهموس ، زفيري / شهيقي، أنفي / شفوي، غليظ / حاد ، رخو / شديد ، مزيد/ غير مزيد، مكثف / منفلش ... إلخ. وعلى خلاف اللسانيين الآخرين ، فإن ياكبسون انكب على تحليل الفونيمات إلى سماتها المُكوِّنة لها ، عوض النظر في كيفية توسيعها ضمن الوحدات المفرداتية المختلفة . كما عُني بالتحليل السمعي (acoustic analysis) بالدرجة الأولى مستعملا آلات خاصّة لتحليل الأصوات على شكل موجات صوتية وتوصل بهذه الطريقة إلى اكتشاف مجموعة من العناصر الصوتية الكليّة.

وقد كان " ياكبسون " رائدا في توضيح مبادئ الفونولوجيا التاريخية والمضي قدما في تطويرها ، وذلك على عكس " دي سوسير " الذي كان يركز أكثر على الدراسة الآنية للغة وقد بيّن " ياكبسون " هذه المبادئ العلمية في مقاله : " مبادئ الفونولوجيا التاريخية " (1931) كما سبق وأن ألحّ في كتابه : « ملاحظات حول التطور الفونولوجي » (1929) على أن الطابع الوظيفي للغة يجب أن يشمل ليس الحالة الآنية للغة فحسب ، بل الحالة التاريخية أيضا وذلك من خلال دراسة التطور اللغوي عبر العصور ، أو دراسة حالة معيّنة للغة في وقت ما سواء أتعلق الأمر بوصف تطور هذه الحالات ، أم بإعادة بناء اللغة الأم ، والعدول عن وضع حواجز بين المناهج الآنية والزمانية كما فعلت ذلك مدرسة جنيف من قبل .

6 ـ 5 ـ 4 ـ نظرية وظائف اللغة:

من أهم ما جاء به " ياكبسون " ، نظرية وظائف اللغة الست ، التي استلهمها من نظرية الاتّصال (Communicative Theory) التي ظهرت لأول مرّة سنة 1948م . ومفادها أن عملية الاتصال تتطلب ستة عناصر أساسية : المرسِل (emitter) والمتلقي (receptor) وقناة الاتصال (communicative channel) والرسالة (message) ، وشفرة الاتصال (code)، والمرجع (referent) . واستخلص من كلّ هذا أن اللغة تقوم بست وظائف مختلفة : فإذا كان الاتصال يهدف إلى توضيح موقف المرسِل نفسه إزاء الرسالة اللغوية فهذه وظيفة تعبيرية(expressive function). وإذا كان الهدف من الاتصال التأثير على المتلقي ، فهذه تُعرف بوظيفة النزوع (conative function). أما إذا تعلق الأمر بالنظر في صلاحية القناة أو بِنيّة المتلقي في إقامة

الاتصال أو تقوية الصلات الاجتماعية ، وذلك كعبارات التحية، والترحيب، والمجاملة ، وتبادل الأخبار، أو كقولنا " آلو " للإجابة على الهاتف ، ولفت انتباه المرسِل، فنكون بصدد وظيفة انتباهية أو وظيفة إقامة الاتصال (phatic function). وإذا كان الغرض من الرسالة تطوير شكلها الفني ، فهذه تُعدُّ وظيفة إنشائية (poetic function). أما إذا كان الهدف من الرسالة توضيح شفرة الاتصال أو شرح بعض المفردات ، فهذه وظيفة واصفة للغة (metalinguistic). وأخيرا إذا كان الاتصال يستهدف المرجع بالذات ، فنكون بصدد الحديث عن الوظيفة المرجعية (referential function). وقد كان لهذه النظرية تأثير عميق على علماء اللسانيات وبعض الفروع العلمية الأخرى لأنها أقيمت على مبادئ علمية دقيقة لوصف كافة استعمالات اللغة وضبطها وتحليلها بطريقة موضوعية.

6 ـ 5 ـ 5 ـ علم النفس اللغوي :

كان " ياكبسون " من الروّاد في دراسة علم النفس اللغوي بوجه عام ، ونمو الطفل اللغوي بشكل خاص ، وساعده في هذا تخصصه في اللسانيات والصوتيات الوظيفية. وقام بتطبيق نتائج ما توصل إليه في هذين المجالين على طريقة اكتساب اللغة الأم ، وتعليل العوامل الخارجية المؤثرة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في عملية الاكتساب . واستنتج من خلال أبحاثه ، أن ثمة نظاما داخليا عاما يكتسب كلُّ الأطفال لغتهم الأم وفق قوانينه الكلية (universal laws).(1)

وهكذا عُني " ياكبسون " بدراسة الحُبسة والأمراض اللغوية الأخرى، وعلاقتها باكتساب اللغة عند الطفل . وإذا كان بعض الباحثين قد كتبوا عن الحُبسة[مثل Ombredane (1951) Goldstein(1951)، Schenk (1953)]، وأكّدوا على أهمية اللسانيات في فهم الدراسات المتعلقة بهذا الأذى ، فإن " ياكبسون " هو الذي ألحّ على وجوب دراسة الحُبسة من زوايا متعددة، لا من قبل لسانيين فحسب بل من قبل أخصائيين في الأمراض العقلية ، والعصبية، والنفسية.(2) وما نشهده اليوم ، أن ثمّة عدّة نماذج لسانية تمّ تطبيقها في دراسة الاضطرابات اللغوية كالنموذج التصنيفي ، والتوزيعي ، والتوليدي التحويلي، وقواعد الحالات (Case Grammar).

(1) R.O. Jakobson and M.Halle, Fundamentals of Language (Janua Linguarum, 1) mouton, 1956, p. 378.
(2) ibid.

وتناول ياكبسون بالدراسة المستفيضة ظاهرة الحُبسة في مقاله المطوّل : "مظاهر للكلام و نوعان من الحُبسة "الذي ورد في كتابه: مبادئ اللغة ، وتوصل إلى أن هناك نوعين من الاضطرابات اللغوية : الناتجة عن تدهور قدرة اختيار الوحدات اللغوية من النظام ككل، وتعدّ هذه اضطرابات استبدالية(Paradigmatic disorders)، والاضطرابات الناتجة عن تدهور قدرة ترتيب هذه الوحدات في جمل مفيدة ، وتُعدُّ هذه اضطرابات ركنيّة (syntagmatic disorders).

6ـ5ـ6ـ الأسلوبية والإنشائية :

من اهتمامات ياكبسون كذلك الأسلوبية (Stylistics) والإنشائية (Poetics) ، وهي اهتمامات صاحبته منذ نعومة أظافره، حيث إن أكثر من ثلاثة أرباع من أعماله قبل 1939 تمحورت حول الشعر والأدب . وكان للثقافة الروسية ، أو بالأحرى الشكلانية الروسية ، أثر كبير على اتجاهاته في الآداب واللسانيات ، فهي بمثابة الوسط الفلسفي والأدبي الأول الذي استلهم منه جلّ أفكاره . والشكلانية (Formalism) تَعني التمسك الشديد بالأشكال الخارجية للفنون والآداب ، وتُعنى بتحليل الأشكال في النماذج الأدبية بالدرجة الأولى ، وذلك من الأشكال البسيطة كالتكرار الصوتي إلى الأشكال الأكثر تعقيدا كالأنواع الأدبية . ويركز الشكلانيون على الأسلوب والجوانب الفنية ، ويستغنون عن المحتوى الدلالي النفسي أو الفلسفي . وقد كتب ياكبسون كثيرا من الأمور العلمية حول المنهج البنيوي في الأدب ومنهجية تحليل النصوص . ومن أحسن مؤلفاته في هذا المجال : " اللسانيات والإنشائية " في مصنفه محاولات في اللسانيات العامة (1963، ص 209 ـ 248)، و كتاب : شعر القواعد وقواعد الشعر (1967)، وكذلك كتاب : *دراسات ملحميّة سلافية* (1966).

6 ـ 6 ـ وليم ليبوف (William labov) :

ترى مدرسة براغ أن اللغة تتوفر على عدد من الأساليب الكلامية والأدبية المتنوعة التي تناسب الطبقات الاجتماعية المختلفة، وتستعمل في سياقات موقفية معينة . وقد تأثّر اللساني

الأمريكي " ليبوف " بهذه الفكرة، وطوّرها في شكل نظرية لسانية محكمة كما جاء في كتابه : التطبُّق الاجتماعي للإنجليزية في مدينة نيويورك .[1] وأكّد في نظريته هذه على الأساليب الكلامية المختلفة ، وكلّ ما يتعلق بدرجة الرسمية (formality) واللارسمية (informality) في الخطاب ، وبعمر المتكلم، وثقافته، ومحيطه، وطبقته الاجتماعية التي ينتمي إليها . واكتشف من خلال أبحاثه أن الفرد يغيّر لهجته وأسلوبه بانتظام حسب درجة الرسمية واللارسميّة للخطاب ثم خلص إلى أنه لا يمكن أن نُصنِّف سكان نيويورك في صنفين : صنف يلفظ حرف /r/ الذي يرد مباشرة قبل الصوامت كما في « Farm » و « Farther » ، وصنف آخر لا يلفظه إطلاقا . والصواب في رأيه أن هذه الظاهرة موجودة على مستوى كل الطبقات الاجتماعية ولكن بدرجات متفاوتة . فأغلبية الطبقة الوسطى من أهل نيويورك بإمكانها اتّباع كلتا الطريقتين في الكلام ، بيْد أن التفوّه بهذا الحرف يزداد بصورة جليّة في المجالات غير الرسميّة . أما في المجالات الرسميّة ، فإن الطبقة الوسطى الدنيا تستعمل هذا الحرف أكثر بكثير مما تستعمله الطبقة الوسطى العليا.

وبالمناسبة يجب أن نُذكِّر هاهنا أن دي سوسير قد ركّز على الجانب الآني والاجتماعي للغة ، وتجاهل تماما الجانب التاريخي لأن المتكلم ـ في رأيه ـ لا يعيش إلاّ حاضره اللغوي وهذا غير صحيح من الوجهة العلمية والعملية . أما أتباع مدرسة براغ، ومن بينهم " ليبوف " فقد اعتنوا اعتناء كبيرا بالامتداد الاجتماعي للغة ، وجمعوا أيضا بين الدراسة الآنية والزمانية بغية التفسير الحسن للظواهر اللغوية والإحاطة بجميع جوانبها.

6ـ 7ـ أندري مارتيني (André Martinet):

وُلد "مارتيني" سنة 1908م بمقاطعة السافوا بفرنسا . وبعدما أتّم دراساته العليا اشتغل بالتدريس في بعض ثانويات باريس . وفي الوقت نفسه ، انكبّ على دراسة اللغة الإنجليزية، ونال فيها شهادة التبريز . وكان من حسن حظه أن تابع دروس بعض مشاهير

(1) William Labov, The Social Stratification of English in New York City, Center for Applied Linguistics, (Washington D.C.), 1968.

اللسانيات من أمثال موسي (Mossé)، وفندريس (Vendryes)، وميي (Meillet)، نال شهادة الدكتوراه في دراسة اللغات الجرمانية سنة 1937م ، وأصبح مديرا للدراسات الفونولوجية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في عام 1938م ، وفي الحرب العالمية الثانية ، ألقي عليه القبض وأودع السجن ، فاغتنم الفرصة هناك ، وألّف كتابا قيّما بعنوان : « نطق الفرنسية المعاصرة » معتمدا في ذلك على أربعمائة راوية.

من 1932 إلى 1938 كانت له اتصالات مكثّفة مع علماء نادي براغ اللساني وبخاصة مع " تروبتسكوي " ، كما شارك في أعمال هذا النادي التي كانت تنشر بانتظام . وفي هذه الحقبة بالذات ، كان يتابع عن كثب تطور نظرية الرياضيات اللغوية (Glossematics) بفضل الإقامات المتكررة بالدانمارك وأواصر الصداقة التي كانت تربطه باللساني " يلمسلف (Hyelmslev). من 1946 م حتى 1955م استقر بالولايات المتحدة ، وشاهد تطور اللسانيات الأمريكية على يدي " سابير" و " بلومفيلد" . وفي عام 1946م ، عيّن مديرا للمجلة العلمية اللسانية " الكلمة " (Word)، واستمر في منصبه هذا حتى عام 1960م . وفي 1947م، حمّل مسؤولية إدارة معهد اللسانيات بجامعة كولومبيا بنيويورك ، كما عيّن مديرا للجمعية العالمية للغة المساعدة (International Auxiliary Language Association) التي كانت ترمي إلى إنشاء لغة عالمية جديدة . ويعدُّ " مارتيني " اليوم من أشهر اللسانيين المعاصرين.

6 ـ 7 ـ 1 ـ مؤلفاته:

ألّف "مارتيني" ما يربو عن مائتين وسبعين مؤلفا يتعلق العديد منها باللسانيات العامة واللسانيات الوصفية، والفونولوجيا الوظيفية، والفونولوجيا التاريخية. ومن أشهر هذه المؤلفات:

1 ـ *التصنيف الصامتي ذو الأصل التعبيري في اللغات الجرمانية* La gémination consonantique d'origine expressive dans les langues germaniques (Copenhague, 1937) وهذا هو عنوان الأطروحة التي نال بها شهادة الدكتوراه.

2 ـ نطق *الفرنسية المعاصرة* La prononciation du français contemporain (Droz,1945, réédité en 1971)

3 ـ *الفونولوجيا كنوع من الصوتيات الوظيفية*: Phonology as Functional Phonetics (London: OUP), 1949.

4 ـ *وظيفية اللغة* A functional View of language (Oxford, Clarendon , 1962)

5 ـ *اقتصاد التغيّرات الصوتية* Economie des changements phonétiques (Berne , Francke édition , 1955)

6 ـ *مبادئ اللسانيات العامة* Eléments de linguistique générale (A. Colin, 1960)

6 ـ 7 ـ 2 ـ نظرية مارتيني الفونولوجية :

إذا كانت مدرسة براغ قامت بفصل الصوتيات الوظيفية (Phonology) عن الصوتيات (Phonetics)، ونسبت الأولى إلى العلوم ، والثانية إلى الدراسات الإنسانية ، فإن مارتيني قام بمساهمة فعالة في إزالة هذا الفصل ، وعدّ الفونولوجيا نوعا من الفونتيك الوظيفية (functional phonetics).[1] ولم يمنعه تأثيره بهذه المدرسة أن يكون من المنظرين السبّاقين في ميدان الصوتيات الوظيفية الزمانية (diachronic phonology) . ويهدف مارتيني من وراء نظريته هذه إلى تفسير تطور اللغة ، باستعمال مصطلحات بسيطة لا غموض فيها مثل : اللغة (langue)، والجملة (Phrase)، والفونيم ، والسمة المميّزة (trait pertinent) ، واللفظم (monème): أي الوحدة الصرفية التي تقابل المورفيم في بعض النظريات الحديثة الأخرى .

أما غرضه من التحليل الفونولوجي ، فيكمن في تشخيص العناصر الصوتية وتصنيفها حسب وظيفتها في اللغة . وعلى هذا الأساس، ميّز بين ثلاث وظائف أساسية: (أ) الوظيفة التمييزية (distinctive) أو المضادة التي تُمكّن السامع من معرفة أن لفظة معيّنة عوض لفظة أخرى قد نطق بها المتكلم ، (ب) الوظيفة الفاصلة (demarcative) التي تمكّن السامع من تحليل القول إلى وحدات متتابعة، (جـ) الوظيفية التعبيرية (expressive) التي تُعلِم السامع عن الحالة العقلية أو الفكرية للمتكلم .[2]

(1) CF.A.Martinet, Phonology as Functional Phonetics, London: OUP, 1949.
(2) André Martinet, Elements de linguistique générale. Paris: Colin, 1960, p.53.

ونظرا لاهتمامات مارتيني بالدراسات الزمانية ونظرية التغيّر الصوتي، فقد [illegible] النظرية العلاجية للتغيّر الصوتي إلى نظرية لسانية متطورة . وعزا التغيّرات الصوتية إلى عوامل داخلية لا تخرج عن إطار اللغة ، لأنه يعتقد أن اللغات عبارة عن أنظمة سيميائية [illegible] تُنظم نفسها بنفسها ، وتتحكم فيها المبادئ التي تُلبي متطلبات الجهد الأدنى والوضوح [illegible] أثناء عملية التواصل. وهنا يوضّح " سامبسون " هذه الفكرة أكثر بقوله :" إن النظرة [illegible] للتغيّر الصوتي تُذكرنا حقيقة بمذهب علماء الاقتصاد المتعلق باليد الخفيّة ([illegible] hand) حيث إن القوى المتنافسة في اقتصاد ما ، تميل (في غياب تدخل الدولة) تجاه توازن [illegible] وإن المفهوم الأساسي في دراسة التغيّر الصوتي عند مارتيني هو مفهوم المردود الوظيفي (functional yield) للتضاد الفونولوجي ".[1]

ويدعى المردود الوظيفي أيضا العبء الوظيفي (functional load) ويدل على [illegible] التمييزية بين عدد الثنائيات الصغرى ، التي تُمثّل تقابل فونيمين في لغة ما . فالمردود الوظيفي لكل من / س / و / ن / هو عدد الثنائيات الصغرى التي تتقابل فيها / س / و / ن / [illegible] نحو « سما » و « نما » . والتضاد الفونولوجي في اللغة الإنجليزية بين / θ / و / [illegible] هو تضاد ذو عبء وظيفي منخفض لأن هناك عددا قليلا من الثنائيات الصغرى من [illegible] «bath» و «Bathe» ، في حين أن مردود/ f/ و / v / هو مردود مرتفع لأن ثمة عددا [illegible] من الثنائيات الصغرى مثل «foal» و «vole» حيث يكون الخلط بينهما ممكنا جدا ، ولا [illegible] المردود الوظيفي من حالة إلى أخرى فحسب ، بل من لغة إلى أخرى أيضا . فمردود [illegible] و/b/ مردود منعدم في اللغة العربية ، أما في اللغة الإنجليزية ، فيعدّ مردودا مرتفعا [illegible] لمردود بعض التضادات الفونولوجية الأخرى كـ : /a/ و /S/ مثلا.

وبشكل عام ، فإن الفونولوجيا التاريخية لا تهتمّ بالتغيّر الصوتي ، إلاّ لما يُحدثه [illegible] تعديلات في بنية اللغة لأن في هذه الحالة فقط ، يمكن أن نقول بأن تغيّرا ما كان [illegible] وظيفيا" فهذه الأنواع الوظيفية الهادفة للتغيّر الصوتي بالمقارنة مع تلك التغيرات التي لا [illegible] إلى تعديلات منتظمة تدعى تحويلات فونولوجية ".[2]

(1) Geoffrey Sampson, op.cit., p. 114.
(2) John Waterman, op.cit., p.73.

[illegible]-3- الاقتصاد اللغوي:

[illegible] مصطلح " الاقتصاد اللغوي" (L'économie linguistique) في مؤلّف مارتيني : [illegible] التغيّرات الصوتية الذي يعدُّ أعظم عمل له في الفونولوجيا الزمانية . ولإزاحة ما قد [illegible] هذه الكلمة من غموض ، نرجع مباشرة إلى هذا المرجع، لنتبيّن مغزاه الحقيقي . فيقول [illegible] :" لا يمكن أن نحصر معنى " الاقتصاد " في معنى التقتير (parcimonie) كما [illegible] باسي (Passy) حين قابل كلمة " الاقتصاد " بكلمة " التبذير "(emphase)، بل إن [illegible] " يشمل كل شيء : تقليص كلّ تمييز غير مفيد ، وإظهار تمييزات جديدة ، والإبقاء [illegible] الوضع الراهن (statu quo). فالاقتصاد اللغوي هو التآلف بين كلّ القوى المتواجدة ".[1] [illegible] أن الإنسان يعيش في صراع قائم بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي . فالعالم [illegible] في تطور مستمر ، ويتطلب ابتكار مفردات جديدة ، والطبيعة الإنسانية الداخلية ميّالة [illegible] الخمول والجمود ، واستعمال النزر القليل من المفردات الوجودة حولها . وبالإضافة إلى [illegible] فإن ثمة صراعا بين حاجيات التواصل التي تؤدي إلى تطوير اللغة من جهة ، وخمول [illegible] ، ونزوعها إلى الاقتصاد في الجهد الذي تتطلبه عمليّة التلفظ أو التذكر من جهة [illegible].[2]

الملاحظة:

إن مدرسة براغ هي إحدى المدارس التي هيمنت على اللسانيات ردحا طويلا من الزمن [illegible] لا يزال تأثيرها ساريًا إلى يومنا هذا . وقد ركز أصحابها على الطابع الوظيفي للغة [illegible] من الناحية النحوية أو الدلالية أو الصوتية ، وذاع صيتهم خاصة في ميدان [illegible]ولوجيا. وعلى الرغم من أن هذه الحركة هي حركة بنيوية في حدّ ذاتها ، إلا أنها اختلفت [illegible] البنيوية ، لأنها لم تقتصر على الوصف العلمي ، بل تعدته إلى التحليل الوظيفي والتفسير [illegible]، وأثبتت أن المناهج الفونولوجية صالحة للدراسات الآنية والزمانية على حد سواء .

(1) André Martinet, Economie des changements phonétiques,(Berne, Francke édition), [illegible] p.97.
(2) Ibid.

ومهما يكن من أمر، فإن ثمة تقاربا طبيعياً بين اللسانيات الوظيفية وعلم الاجتماع اللغوي ، إذْ يركز أصحاب هذين الفرعين على الجانب الاجتماعي التواصلي للغة، وهذا أمر مقبول جداً . ولكن هل صحيح ـ كما يقول الوظيفيون ـ أن بنية اللغة تحدّدها مختلف الوظائف العلاماتية (semiotic functions) كالوظيفة التعبيرية والمرجعية والواصفة وغيرها ؟ وإذا كان هذا صحيحا ، فإن البنية اللغوية تكون غير اعتباطية . ومادامت هناك لغات مختلفة ، تؤدي الوظائف العلامتية نفسها ، فالمتوقع أن تكون هذه اللغات متشابهة من حيث البنية ، إن لم نقل متشابهة تماما .

ومن المعلوم . فإن دي سوسير وبعض اللسانيين قد غالوا كثيرا في اعتباطية العلامة والتراكيب النحوية ، وتجاهلوا بالفعل الجانب الوظيفي للغة ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الوظيفيين ، فقد وضعوا تفسيرات وظيفية لظواهر لغوية اعتباطية كالتركيب مثلا ، وهذا كان خطأ . أما الثابت لدى جمهور الوظيفيين، فإن الوظيفة تُحَدِّدُ جزئيا ، وليس كليًا ، البنية اللغوية، وهذا هو عين الصواب .

الفصل السابع

مدرسة كوبنهاغن

من أشهر المدارس اللسانية التي ظهرت في أوروبا في مطلع القرن العشرين مدرسة كوبنهاغن. ولئن كان بعض الباحثين ينظرون إلى هذا العمل في ميدان اللسانيات على أنّه لا يشكّل مدرسة بأتمّ معنى الكلمة ، بل مجرد نظرية لسانية تعرف باسم : الغلوسيماتيك (Glossematics)، فإن بعضهم الآخر يَعدُّها مدرسة كوبنهاغية أو مدرسة دانماركية لأن مؤسسيها الأوائل دانماركيون ، ولأنه من الصعوبة بمكان ، أن نجد من اللسانيين الدانماركيين من لم يتأثر بها ، ومن لم يطبق بعض مبادئها .

ولسوف يجد القارئ في هذه النظرية أمورا مدهشة للغاية ، لأن أصحابها حاولوا أن يحدثوا ثورة عارمة على الأساليب القديمة لدراسة اللغة. وبالفعل، لقد أضفى هؤلاء الباحثون على دراساتهم اللغوية صبغة علميّة ، وكسوها بمصطلحات غريبة، وصاغوا عناصر اللغة في رموز جبرية ، وتراكيبها في معادلات رياضية . وقد أحدث هذا الأمر ردود أفعال عنيفة من قبل اللسانيين على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والفلسفية .

7 ـ 1 ـ لويس يلمسليف (Louis Hjelmslev):

يرجع الفضل في تأسيس مدرسة كوبنهاغن إلى اللساني الدانماركي لويس يلمسليف (1965.1899)، صاحب النظرية البنيوية التحليليّة الشهيرة : الرياضيات اللغوية (Glossematics). ولقد كان لوالده الذي شغل منصب أستاذ الرياضيات ، وتقلّد رئاسة جامعة كوبنهاغن ، أثر عظيم على نبوغه في مجال اللسانيات.

التحق يلمسليف بجامعة كوبنهاغن سنة 1916م ، وما إن فرغ من دراسته الجامعية حتى غادر وطنه طلبا للعلم والمعرفة في بعض بلدان العالم . فدرس بلثوانيا في عام 1921م وبراغ في عام 1923م ، ثم سافر بعد ذلك إلى باريس ، وأقام هناك عامين كاملين من 1926 إلى 1927 م . واتصل خلال هذه الفترة بميي (Meillet) وفندريس (Vendryes)، وتابع محاضراتهما في اللسانيات، كما تعرّف خاصة على أفكار دي سوسير ومناهجه التي ساعدته على إرساء دعائم نظريته العالمية الجديدة: الغلوسيماتيك .

ومما لاشك فيه ، أن الرجل قد تأثّر كثيرا بالمنطق الرياضي ، والمنهج العلمي السائد آنذاك ، ولا سيّما المنطق النمساوي لكارناب (Carnap). وهذا ما نلحظه في الأسس العقلانية التي بنيت عليها نظريته . و قد تُوّج عمله بمناقشة رسالة دكتوراه بعنوان " دراسات بلطيقية في عام 1932م . وبعد هذه الجهود التي بذلها في العلم والتحصيل المعرفي ، شغل منصب أستاذ اللسانيات في جامعة كوبنهاغن، وظلّ يحاضر هناك حتى خلف بيدرسن (Pedersen) سنة 1937 في كرسي اللسانيات المقارنة.

7 ـ 2 ـ نشأة نظرية الغلوسيماتيك:

في عام 1933م ، اشترك كلّ من يلمسليف وأولدل (Han Jorgen Uldall) في بلورة بحث علمي متخذين موقفا مغايرا من مدرسة براغ . وفي عام 1935م ، اقترح هذان الباحثان تسمية النظرية الجديدة التي كانا بصدد تقديمها في المؤتمر الدولي الثاني للعلوم الصوتية بعلم الفونيمات (Phonematics) بوصفها نظرية متميّزة عن نظرية براغ الفونولوجية. وأثناء المؤتمر الدولي الثالث للسانيات، الذي انعقد بكوبنهاغن سنة 1936، كانت رغبة التمايز عن علماء مدرسة براغ قد تجسدت بخلق مصطلح : الغلوسيماتيك. وبالفعل، فقد تمّ توزيع نص قصير على المؤتمرين بعنوان : "مختصر المخطط التمهيدي للغلوسيماتيك". وفي عام 1938م أسّس يلمسليف وفيغو بروندال Viggo Brondal مجلة Acta linguistica ملحقة بعنوان فرعي "مجلة دولية للسانيات البنيوية ". وكان هذا العمل ـ بطبيعة الحال ـ أول فعل رسميّ لنشأة البنيويّة بوصفها اتجاها جديدا في أوروبا . ومنذ عام 1944 م ، بدأت أعمال الحلقة اللسانية لكوبنهاغن تتوالى على منوال أعمال الحلقة اللسانية لمدرسة براغ .[1]

وعلى الرغم من أن يلمسليف قد أصدر مؤلفات عديدة ، فإن مدرسة كوبنهاغن، أو بالأحرى ، نظرية الغلوسيماتيك ، قد أخذت شكلها الحالي من مؤلفاته الثلاثة التالية:

أ ـ مبادئ النحو العام ، كوبنهاغن 1928 (HFM. 16/1)

ب ـ "محاولة في نظرية المورفيمات"، كوبنهاغن 1936 (PICL. 4. 39 - 42)

جـ ـ مقدمة في نظرية اللغة ، كوبنهاغن 1943.

و إن مؤلفه الشهير هو «مقدمة في نظرية اللغة» ، ولا يربو هذا العمل عن 112 "

(1) Georges Mounin, op.cit., 1972, p.127

صفحة. وقد جاء عنوانه باللغة الدانماركية على هذا النحو: Omkring Sprogteoriens Grundlaeggelse ولم يترجم إلى الإنجليزية ليكون في متناول أكبر فئة من القراء إلاّ سنة 1953م تحت عنوان : Prolegomena to a Theory of Language.

وكان لهذه النظرية تأثير كبير على بعض اللسانيين منهم : إليفيشر جورغنسن (Elifisher Jorgensen) الذي خلف يلمسليف في كرسيه ، وكذلك أندري مارتيني ، وهولت (Holt)، وديديريتشسن (Diderichsen) ، وهانسن (H.S. Hanssen). ومن الذين تأثّروا أيضا بهذه النظرية، وأسهموا بمؤلفات في غاية الأهميّة : كنيد توجبي (Knud Togeby) صاحب كتاب: *البنية المحايثة للغة الفرنسية* (1951).(1951) , Structure immanente de la langue Française

وبعد الحرب العالمية الثانية ، أصبحت هذه النظرية اللسانية معروفة كثيرا خارج الدانمارك . ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال ، قام عدد من اللسانيين بمساهمات قيّمة مبنية على النقد البنّاء لهذه النظرية . ومن بين هؤلاء : رولن والز (Rullon Wels) ، وبول كارفين (Paul Carvin)، وإينارهوغن (Einar Haugen)، وسيدني لامب (Sydney lamb) حتى أضحت الغلوسيماتيك موضوع مناقشات موسّعة على مستويات مختلفة . وقد أعلن " لامب" أن اللسانيات الطبقية (Stratificational linguistics) التي طوّرها هو بنفسه ، ماهي إلاّ عمل مُكمِّل ومُمدِّد لنظرية يلمسليف.

7 ـ 3 ـ فحوى نظرية الغلوسيماتيك:

جاءت هذه النظرية لتتخلى عن الدراسات اللغوية المتأثرة بالفلسفة ، والأنثروبولوجيا واللسانيات المقارنة ، وتقيم لسانيات علميّة مبنية على أسس رياضية ومنطقية وكليّة (Universal)، تعنى بوصف الظواهر اللغوية ، وتحليلها ، وتفسيرها بطريقة موضوعية. وتتميّز هذه النظرية عن باقي النظريات اللسانية الأخرى بدرجة لا مثيل لها من التجريد النظري وخاصة في مجال التعريف والتنظيم والتصنيف . وكما يقول عنها " يلمسليف " : " إنها تهدف إلى إرساء منهج إجرائي ، يُمكّن من فهم كلّ النصوص من خلال الوصف المنسجم والشامل. إنها ليست نظرية بالمعنى العادي لنظام من الفرضيات ، بل نظام من المقدمات المنطقية

الشكليّة، والتعريفات والنظريات المحكمة التي تُمَكِّن من إحصاء كلّ إمكانات التأليف بين عناصر النص الثابتة."[1]

والشيء الغريب الذي نلحظه في هذه النظرية هو الميل الشديد تجاه صياغة مفردات جديدة ، واستعمال عبارات عتيقة بمعان جديدة فمصطلح " غلوسيماتيك "Glossematics" اشتق من الكلمة الإغريقية "glossa" التي تعني اللغة . وتهتمّ الغلوسيماتيك بدراسة الغلوسيمات (glossemes)؛ أي الوحدات النحوية الصغرى التي لا تقبل التجزئة وتنقسم بدورها إلى قسمين : وحدات التعبير ، وتدعى " سوانم " (cenemes)، ووحدات المحتوى ، وتدعى " مضامين (pleremes).[2] وقد اشتق مصطلح "ceneme" من الإغريقية "kenos" بمعنى " فارغ " ومصطلح "plereme" من الإغريقية أيضا "pléros" بمعني "مليء". وهكذا فإن الوحدات ذات المحتوى كمورفيمات (morphemes) مدرسة براغ ، أو " لفاظم " (monèmes) مدرسة جنيف أصبحت تدعى " مضامين " أو مكونات دلالية (pleremes)، وعلاوة على هذا ، فمصطلح "phonematics" الذي ظهر في عام 1935 استُبدِل بمصطلح "cenematics" في عام 1936. كما نلاحظ مصطلح " تعالقات" (Correlations) للدلالة على العلاقات الاستبدالية ، ومصطلح "علاقات" (relations) للدلالة على العلاقات الركنية الأفقية ، ومصطلح " وظيفة " (function) للدلالة على كلّ علاقة أفقية بين أي مفردتين . ويختلف مفهوم " الوظيفة " في هذا السمت عن كل المفاهيم التي اقترنت بهذه الكلمة، سواء في النحو التقليدي ، أو الرياضيات ، أو اللسانيات الحديثة . ويدلّ على كلّ علاقة غير مادية ومجردة وشكلية . ومن المصطلحات التي استعملها يلمسليف أيضا : مستوى التعبير (expression plane) ومستوى المضمون (content plane) والنظام (system)، والنص (text) . والتحليل (analysis)، والمتغيّر (variant)، والتحفيز (catalysis) والنمط (schema)، و " الموظف " (functive). وقد استبدل يلمسليف ثنائية اللغة والكلام لدى سوسير بثنائية أخرى أطلق عليها النمط (schema) والنص (text)، أو الاستعمال (usage).

وحسب يلمسليف ، "هناك خمس سمات أساسية تدخل في البنية الأساسية لكل جملة : (1) تتألف اللغة من مضمون وتعبير ، (2) تتألف اللغة من تتابع (Succession) أي نص ونظام

(1) Cf. E.Fudge : " Phonology and Phonetics ", in Thomas A. Sebeok ed., Current Trends in Linguistics, V.9. Mouton, 1972.pp.283 - 84.
(2) Ibid ., p.280.

(3) يتصل المضمون بالتعبير اتصالا وثيقا خلال عملية التواصل ، (4) ثمة علاقات محددة ضمن التتابع والنظام ، (5) لا يوجد تطابق تام بين المضمون والتعبير ، ولكن العلامات نفسها قابلة التجزئ إلى مكونات ثانويّة ".[1] وجدير بالذكر ، أن أهمّ شيء في هذه النظرية ليس تلك الأصوات والحروف والمعاني في حدّ ذاتها ، ولكن علاقاتها المتبادلة ضمن سلاسل الكلام ونماذج النحو . فهذه العلاقات هي التي تصنع نظام اللغة الداخلي، وتجعلها تتميّز عن باقي اللغات الأخرى . أما الأصوات والحروف والمعاني لوحدها ، فليست لها أيّة علاقة بالنظام.[2] ومما لاشك فيه ، أن هذه النظرية قد عُنيت بالمصطلحات اللسانية ، وتناولتها بكلّ دقة وبراعة ويلاحظ القارئ لمقدمة يلمسليف أن هناك ثبتا لمائة وثمانية مصطلحات في آخر كتابه لتوضيح المفاهيم التي استعملها في تنظيره . ومع هذا فقد ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن هذه النظرية قد اكتسبت شهرة سيئة بسبب مصطلحاتها الوعرة والمنفرة.

7 ـ 4 ـ نظام اللغة:

يرى يلمسليف أن نظريته ماهي إلا امتداد طبيعي لنظرية دي سوسير ، وبلورتها في قالب علميّ ، وقد عدّ نفسه المتمم الحقيقي لأفكار هذا العلاّمة الذي أصبح يعرف بأب اللسانيات . وبالفعل فقد نادى يلمسليف بما نادى به دي سوسير من قبل : وهو أن اللغة شكل وليست مادة ، وأن المادة ليس لها معنى في ذاتها ، ويمكن أن تكون صوتية أو مكتوبة أو إشاراتية بالنسبة للدوال (signifiers)، أما بالنسبة للمدلولات (signifieds)، فقد ذهب أبعد من دي سوسير ، وأعلن أن القيّم (values) المجردة للعبارات هي وحدها التي لها وجود . وبهذا فإن اللغة نظام من القيّم ، وإن مفتاح تحليل هذا الشكل هو اللسانيات المحايثة (Immanent Linguistics) المتكاملة في ذاتها والمبنية على منهج استنباطي موضوعي . وفي هذا الخصوص يقول مونان (Mounin) : " إن المبدأ السوسيري الأولي والأساسي ـ الذي يؤكد على تمييز العلوم اللسانية عن باقي الدراسات اللغوية ، ويَعدُّ اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات ـ قد أصبح يُسمّى في اصطلاح " يلمسليف " بمبدأ " المحايثة "

(1) Ibid ., p . 51.
(2) Ibid .

(l'immanence)؛ أي نقيض " التسامي " (transcendance).[1]

وفضلاً عن هذا ، فقد استبدل " يلمسليف " ثنائية الدال والمدلول بثنائية مستوى التعبير (expression plane) ومستوى المحتوى (content plane)، وأكّد أن اللغة تتكوّن من هذين المستويين اللذين تجمعهما علاقة تدعى العلامة اللغوية (linguistic sign)، وكلّ مستوى يخضع بدوره إلى ثنائية أخرى ، هي ثنائية الشكل والمادة ، وتنتج عن هذه التعالقات أربع طبقات منطقية :

أ ـ مادة المحتوى (الأفكار).

ب ـ شكل المحتوى (البنية التركيبية والمعجمية).

ج ـ شكل التعبير (الفونولوجيا).

د ـ مادة التعبير (الفونتيك)[2].

وإذا كان المحتوى والتعبير يتمتعان بقيمة واحدة ، فإن كلاًّ منهما يفترض مسبقا وجود الآخر، ويرتبط ارتباطا شديدا بالوظيفة العلاميّة (semiotic function) . ومن ناحية أخرى ، فإن المادة تفترض مسبقا وجود الشكل ، والعكس غير صحيح . وعلى هذا الأساس، تكون مادة التعبير عبارة عن أصوات خام ، و يكون شكل التعبير عبارة عن قوالب تركيبية مختلفة للمادة كالفونيمات والمورفيمات وغيرها. وفي حديث لروبينز (Robins) عن هذه الثنائية ، يشير إلى أن مستوى التعبير يتكوّن من الأصوات اللغوية أو الفونولوجيا ، ومستوى المحتوى يتكوّن من الأفكار والدلالة والنحو ، ويكون مستقلا عن المقاييس غير اللغوية. ولابدّ أن يكون تحليل التعبير مستقلا عن المقاييس الفونتيكية غير اللغوية، وأن يحلّل المستويان إلى مكونات نهائية. فكلمة "فرس" مثلا ، تُحلّل إلى / ف / ، / ر / ، / س / على مستوى التعبير ، وإلى "خيل" ، "أنثى" ، "مفردة" على مستوى المحتوى . ولذا فلا وجود ثمة لأية صلة بين الأصوات أو الحروف

---

(1) Georges Mounin, op . cit., 1972, p.130.
(2) Cf. E.Fudge , op.cit., p. 279.

ومفرداتها والعناصر الأولية للمحتوى .[1] ولا يستطيع الباحث أن يعرف أن صوتين مختلفين هما مادة لعنصرين مختلفين من عناصر التعبير في لغة معيّنة ، إلا إذا وجد أن الاختلاف بينهما يمكن أن يؤدي إلى اختلاف بين معنيين . وذلك كالاختلاف بين الأصوات الاستهلالية في الزوجين : سلام وكلام، وكبير وخبير.

7 ـ 5 . المبادئ العامة للغلوسيماتيك:

يُعدُّ عمل يلمسليف أول محاولة لتأسيس نظرية لسانية علمية وصفية ، وفق مقدمات منطقية بديهيّة ، ومبادئ معرفية تفسيرية . ومن هذه المبادئ:

أ ـ مبدأ التجريبية (Empirical Principle):

انفرد " يلمسليف " بإعطاء مبدأ التجريبية معنى مختلفا تماما عن جميع المعاني المعهودة. فهو يرى أنه يعتمد على الملاحظة والاختبار ، ويجمع بين ثلاثة معايير : اللاتناقض (non - contradiction)، والشمولية (exhaustivity) ، والتبسيط (simplicity). وتُكوّن هذه المعايير القاعدة الأساسية لكل التراكيب المنطقية. ولا تتوفر شروط الدراسة العلمية الموضوعية ـ في رأيه ـ إلا باحترام هذا المبدأ . أما من حيث أهمية هذه المعايير ، فيأتي معيارُ اللاتناقض في المرتبة الأولى ، ومعيار الوصف الشامل في المرتبة الثانية ، ومعيَار التبسيط في آخر المقام.[2]

وإذا ما خلصت النظرية اللسانية إلى بناء عدة مناهج إجرائية توفر كلّها الوصف الشامل لأيّ نوع من النصوص ، فلا بدّ من اختيار المنهج الذي يفضي إلى أبسط وصف ممكن . أما إذا ما أتاحت لنا المناهج المختلفة أوصافا بسيطة على حد سواء ، فينبغي أن نختار المنهج الذي يؤدي بنا إلى النتيجة من خلال أبسط الإجراءات الممكنة [3].

ب ـ مبدأ الإحكام والملاءمة:

عزا " يلمسليف " إلى نظريته الغلوسيماتية خاصيتين أساسيتين : الإحكام

---

(1) R.H.Robins, op.cit., p.201.
(2) Louis Hjelmslev, Prolegomena to a Theory of Language,Madison: The University of Wisconsin Press, 1961, p.11.
(3) Ibid ., p. 18.

(arbitrariness) والملاءمة (appropriateness). فالمصطلح الأول ورد في محاضرات دي سوسير بمعنى الاعتباطية، وفي مقدمة " يلمسليف " بمعنى الإحكام . فلكي تكون النظرية ناجعة من الناحية المنطقية - في نظر يلمسليف - لابدّ أن تخضع لمعيار الإحكام أو الاتّساق التام؛ أي أن تكون النتائج الطبيعية لأي قضية تابعة لمقدماتها المنطقية . وقد تكون النظرية على درجة منطقية عالية ، ولكنها عديمة الجدوى من الناحية العلميّة. ذلك أنه بإمكان أيّ عالم من علماء الرياضيات أن يبني جبرا ، أو حسابا متماسكا، وشاملا ، وبسيطا ، ومحكما ، ولكنه عديم الجدوى، لأنه غير قابل للتطبيق على العلاقات التي تفرزها المعطيات التجريبية. وكذلك الشأن بالنسبة للنظرية اللسانيةّ . فإذا لم تكن منطقية ، فلا يمكن تطبيقها على مدونات لغوية أخرى ، وتقييمها بطريقة موضوعية . ومن جهة أخرى ، فلكي تكون النظرية ناجعة، لابد أن تكون " ملائمة (appropriate)، وتكون النظرية ملائمة - برأي يلمسليف - عندما تلبي مقدماتها شروط التطبيق على عدد كبير من المعطيات التجريبية .[1]

7 - 6 - منهج الدراسة:

يرمي المنهج الغلوسيماتي إلى دراسة علميّة على منوال العلوم الدقيقة .[2] وبعبارة أخرى ، إنه يهدف إلى أن يكون موضوع اللسانيات علما بحتا وفق تصورات حلقة فيينا (Vienna Circle): أي الفلسفة الوضعية المنطقية التي طوّرها أوغست كونت ، والتي لا تدرس إلا الظواهر اليقينية مبتعدة عن كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة . ونريد هنا أن نورد بإيجاز الخطوط العريضة لهذا المنهج كما جاءت في كتاب أنغيهور (Ungeheuer).[3]

1 - النزعة المضادة للميتافيزيقا: تنصُّ على أن الجمل الميتافيزيقية ليست خاطئة بل خالية من المعنى ، وأن تشبيه تركيب هذه الجمل الميتافيزيقية بتركيب الجمل غير الميتافيزيقية ما هو إلا أحبولة دلالية (semantic snare).

2 - المبدأ التجريبي : كان معنى الجملة يُحدَّدُ بطريقة تجريبية تحقيقية في بادئ الأمر وقد أدّى هذا إلى تناقضات عديدة جعلت الوضعيين المنطقيين يتبنون الموقف الضعيف القائل

(1) Ibid., p.8.
(2) Uldall (1957) in Fudge, op.cit., p. 277.
(3) Ungeheuer (1960) in Fudge, p. 277.

وإن العلم ينبغي أن يشمل كلّ الوقائع التجريبية الممكنة بوساطة الاستدلال المنطقي انطلاقا من أقل عدد ممكن من المسلمات.

3 - التركيز على الوصف التركيبي: يتناول وصف المضمون أشياء كثيرة غير قابلة للملاحظة أو الإبلاغ بطريقة غير مباشرة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى إدراك الألوان . وفي هذه الحالة، يكون وصف العلاقات بين الظواهر أكثر ملاءمة ، وذلك كمقارنة إدراك الألوان عند شخصين مختلفين.

4 - تحويل اللغة العلمية إلى علم الجبر (Algebra): ينبغي أن يُقصى استعمال كل أنواع التراكيب الخاصّة بالجمل الميتافيزيقية من الخطاب العلمي، كما ينبغي أن تُحدّ العبارات من غموض أو تناقض.

وقد أورد يلمسليف خطوات المنهج الغلوسيماتي في مقدمته، مؤكدا على أن اللساني يستهدف اكتشاف بعض خصائص الأشياء التي اتّفق على تسميّتها باللغات بغية استنباط كليات لغوية (Linguistic universals)، وحدّها بالتدقيق . وبعد انتقاء الظواهر التي يمكن تطبيق النظرية عليها ، يضع لكلّ الأشياء المفترضة في التعريف حسابا عاما (general calculus) يتنبأ من خلاله بكلّ الحالات الممكن تصوّرها . ويوفر هذا الحساب المستنبط من التعريف المتطلبات اللازمة لوصف النصوص وبنيتها. ولا يمكن إثبات النظرية اللغوية أو دحضها بمجرد الرجوع إلى هذه النصوص ، بل بتحكيم معايير أساسية تقيّم مدى شمولية الحساب وانسجامه مع نفسه.[1]

وإذا كان منهج اللسانيات يتوخى وصف البنية اللغوية ، وتحليل وحداتها اللغوية الشكلية ، فإن هذه اللسانيات المحايثة في جوهرها تكون عبارة عن نظام تحليلي مستقل عن الظواهر غير اللغويّة ، ومتحرر عن كلّ المعطيات الفيزيائية والفيزيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية .[2] وهكذا ، فعند تطبيق هذا المنهج على كتلة ماديّة كالخطاب البشري مثلا ، فإنه يفرز لنا نصّا معيّنا . ويرجع فضل وجود هذا النص إلى الإجراءات العملية التي ولّدته وفق

(1) Louis Hjelmslev, op.cit., p.10.
(2) Ibid., p.2.

قوانينها، وليس إلى كونه له وجود سابق كخطاب غير متميّز. فالنص (text)، بالنسبة ليلمسليف عبارة عن جملة من الاستنتاجات المنفصلة عن المحتوى (أي الخطاب أو الحديث) والمجسّدة في قضايا خاضعة لمتطلبات المنطق الصوري.[1]

فالنص إذن هو موضوع الدراسة في هذه النظرية . ويمكن أن يكون في شكل كلام أو كتابة أو نقش. وإذا كان يتكون من سلسلة أصوات كلاميّة عبر حقبة زمنية في لغة معيّنة ، فإنّه يعدُّ نصًّا مقيّدا . أمّا إذا كان يتكوّن من كلّ الأصوات الكلامية في لغة معيّنة ، فإنّه يعدُّ نصًّا غير مقيّد. وإننا لنلاحظ من مقدمة " يلمسليف " أنه استعمل مصطلح " النص " كمرادف للمعطيات اللغوية (data) أحيانا ، وللدلالة على بعض حروف الجر أحيانا أخرى مثل : في، على إلى ... إلخ . وعلى غرار نظرية دي سوسير ، فإن نظرية " يلمسليف " خلصت إلى وصف وتحديد الأشياء التي نريد أن نسمّيها لغات ، والأشياء التي لا نريد تسميتها بهذا الاسم.[2]

وجدير بالذكر أن هذه النظرية استعملت بعض القواعد التقليدية لصياغة إجراءاتها وحدّ تعريفاتها وقوانينها . فالتمييز بين الحرف الصائت والصامت مثلا يأتي على هذا المنوال يمكن للصائت أن يوجد وحده في مقطع، في حين لا يمكن للصامت أن يوجد في مقطع دون وجود صائت معه . وكذلك الشأن بالنسبة للصفات ، فالقاعدة تنصُّ على أن الصفة تتبع الموصوف في الجنس والعدد والحالة ... إلخ . وبالإضافة إلى هذا، فهناك تعريفات خاصّة بأصوات الكلام، وحروف الكتابة، والتصريف، والإعراب، والعامل، وبنية الجمل والجُمَيْلات (clauses). ومن الصيَغ التي تتكرر في هذه النظرية عند الوصف والتعريف الصيغة التالية " إذا كانت س موجودة في شيء ، لابدّ أن تكون ع موجودة أيضا " ومثال ذلك : " إذا وُجد صامت في مقطع معيّن ، وجب أن يوجد معه صائت. "

إن هذه النظرية لا تبدأ بتعريف الصوائت على أنها بعض الأنماط من الأصوات ، والصوامت على أنها أنماط أخرى من الأصوات ، وتُبيِّن بعد ذلك كيفية توزيع هذه الأصوات في مقاطع لغة معيّنة ، بل إنها تقوم بإحصاء مختلف العلاقات الممكنة بين أجزاء المقطع الواحد. وعلى الدارسين لكل اللغات الإنسانية أن يكتشفوا إذا ما كانت لهذه اللغات صوائت وصوامت حسب التعريفات السابقة. وحسب ويتفيلد (Whitfield) ، فإن دراسة اللغة بهذه

(1) John Waterman, op.cit., p. 85.
(2) Louis Hjelmslev : op.cit ., p.12.

الطريقة تفضي إلى إرساء قواعد محايثة ، لا تعتمد في أساسها على أيّ علم آخر ، كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والفيزياء، وغيرها من العلوم الأخرى ، بل تُعدُّ كلّ هذه العلوم أنواعا خاصّة من اللغات. وإذا كانت هذه النظرة صحيحة ، فإن العلوم الأخرى هي التي تحتاج إلى اللسانيات بوصفها قاعدة أساسية.[1]

وحسب " يلمسليف " ، هناك منهج واحد لتحليل العبارات المكتوبة والمنطوقة ، لأن أهم شيء في اللغة هو بنيتها الشكلية التي تتمثل في الشبكة الواسعة من العلاقات التي تربط جميع عناصرها دون استثناء ، وليس المادة الخاصة التي تتكون منها هذه العناصر . وفيما يخصُّ اتجاه التحليل ، فإن المنهج الغلوسيماتي يبدأ دائما بالوحدات الكبرى ، ثم الصغرى فالأصغر منها إلخ . فيتناول النص الشامل سواء أكان مكتوبا أم منطوقا، ثم يقوم بتحليله تدريجيا إلى فصول ، وفقرات، وجمل ، ومفردات ، وغلوسيمات ، وحروف أو أصوات.

وجليٌّ من مبادئ هذه النظرية ، أن هدفها الأسمى هو إرساء قواعد كليّة (universal grammar)، يستنبط من خلالها الباحثون قواعد خاصّة بكل اللغات في آن واحد . وقد اعتمدت في مسعاها هذا على إجراءات علميّة لصياغة فرضيات موضوعية وقوانين تجريبية . وعلى الرغم من كلّ هذا ، فإن هذه النظرية الغلوسيماتية ، في بحثها الحثيث عن لسانيات محايثة، قد أفضى بها الأمر في آخر المطاف ، إلى أنه لا توجد أيّ لسانيات محايثة على الإطلاق ، وأن العلم المستقل المنشود قد تحوّل إلى علم الرموز المحايث (immanent semiology) ، وأضحت اللسانيات العلم الوحيد الذي يدرس اللغة ، ويحدُّ نفسه بنفسه، ولم تعد مجرد كتلة مهلهلة من الملاحظات السوسيولوجية، والسيكولوجية ، والفيزيولوجية ، والفيزيائية حول الكلام البشري. وفوق كل هذا ، فقد أصبحت اللسانيات علما يقوم بدور رئيسي تنظيمي بين مختلف الفروع العلميّة.[2]

(1) Francis Whitfield, " Glossematics " in Archibald Hill (ed) Linguistics, Voice of America Forum Lectures, 1969, p. 287.
(2) Ibid ., p. 291.

وتجدر الإشارة في هذا الخصوص إلى أنه كما توجد هناك كثير من نقاط القوة في هذه النظرية ، فهناك بعض نقاط الضعف التي لابدّ من تنبيه الدارسين إليها . ويكاد يجمع اللسانيون على أن عدم الإقبال الواسع على هذه النظرية يرجع إلى الحشد الكبير من المصطلحات الغريبة والمنفرة وإلى مجموعة القوانين الرياضية والجبريّة التي استعملت لشكلنة التحليل الوصفي ، وإضفاء صبغة الدقة والعلميّة على كل الدراسات اللغوية . وقد أكّد أنغيهور (Ungeheur) على أن إقحام الجبر في الدراسات اللسانية يعدُّ أضعف نقطة في هذه النظرية.(1)

ويرى بعض الباحثين اليوم أن اللسانيات يمكنها أن تستفيد من العلوم الدقيقة بطريقة مدروسة ومعقولة ، ولكن الرموز الجبريّة والقوانين الرياضية التي استعملتها النظرية الغلوسيماتيّة، ليست غير ملائمة للدراسة اللغوية فحسب ، بل إنها أساءت إليها أكثر مما أفادتها . ففي مقال أخير ليلمسليف بعنوان: " تنضيد اللغة "Language stratification" وردت عدة رموز ليست لها في رأي كثر من علماء اللسانيات أية قيمة علميّة أو عمليّة ، منها ما يلي

$y^o g^o$ (V)R : الصيغة التي تدلُّ على المحور الركني أو الأفقي.

$y^o g^o$ (V)R: الصيغة التي تدلُّ على المحور الاستبدالي أو الرأسي.

$y^o g^o$(V)R :I: تدلُّ على مصطلح النص (text)

$y^o g^o$ (V) : تدلُّ على مصطلح النظام (System).

وفي الختام ، يمكن أن نقول بإنصاف : إن النظرية الغلوسيماتية قد جمعت بين مبادئ النحو التقليدي ومظاهر النظريّة اللسانية الحديثة ، وبين مسلمات المنطق الصوري والأسس المعرفيّة العامة . وعلاوة على هذا ، فقد تميّزت عن باقي النظريات الأخرى باستخدام الجبر والرياضيات بصورة فيها نوع من المبالغة ، وهي اليوم عبارة عن فرضيّات ومبادئ تستدعي المزيد من الاهتمام والتطبيق . وعلى الرغم من جوانب الضعف التي علقت بها ، فإنها لا تزال

(1) Ungeheur (1960) in Fudge : op.cit., p.279.

تتمتع بمكانة عاليّة ، وتحظى بتقدير الباحثين . وما ظهور اللسانيات الرياضية (Mathematical Lingu[illegible]) في هذه الفترة الأخيرة إلاّ دليل واضح على مكانة الرياضيات في الدراسات اللسانية الحديثة.

أجل ، لقد كان " يلمسليف " اللساني الأول الذي اعتنى اعتناء كبيرا بإحداث ثورة على الأساليب الأدبية القديمة التي اعتاد النحويون على استعمالها في تقنين قواعد اللغة ، وحاول عصرنة الدراسات اللغويّة باستخدام مناهج علمية رياضية . وحسبه هذه الالتفاتة الذكية من [illegible] التي أصبحت نبراسا يقتدي به الباحثون في مختلف الفروع اللسانية.

الفصل الثامن
مدرسة لندن

يعود تاريخ الدراسات اللغوية في بريطانيا إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، إذ صب الباحثون كلّ اهتمامهم آنذاك على ميكانيزمات الوصف اللغوي الدقيق قصد انتقاء لغة رسمية فصيحة من بين اللهجات المستعملة في مختلف أرجاء الجزيرة. ولظروف سياسية واقتصادية محضة، تمّ اختيار الإنجليزية ، لغة إنكلترا (England)، بوصفها لغة رسمية للمملكة البريطانية على حساب اللغة الويلزية (Welsh) والأسكتلندية (Scottish) وغيرهما . وما إن حلّ القرن السادس عشر للميلاد ، حتى ازدهرت بعض الدراسات اللغوية: كعلم اللفظ (Orthoepy) الذي يعنى بضبط النطق الصحيح للحروف والكلمات والجمل ، وإصلاح التهجئة (Spelling) الذي يهدف إلى تحسين طريقة الكتابة لتتطابق الفونيمات مع الغرافيمات ، والاختزال (Stenography) وصناعة المعاجم ، وعلم اللهجات (Dialectology)، وابتكار لغات عالمية . وعلى الرغم من هذه النشاطات المختلفة ، فإن مدرسة لندن تُعرف خاصّة بأعمالها العلمية في الصوتيات . ومن الباحثين الذين برزوا في هذا الميدان : " بال " (Bell) وابنه، و" سويت " (Sweet)، و " جونز " (Jones)، وفيرث (Firth). ونحاول فيمايلي أن نتعرف على كلّ واحد منهم.

8 ـ 1 ـ عائلة " بال " والصوتيات:

في القرن التاسع عشر الميلادي ، انكبّ جمع من علماء بريطانيا على دراسة الأصوات اللغويّة دراسة وصفية موضوعية. واشتهرت عائلة أسكوتلندية بالصوتيات العامّة ، وكان منها الكسندر مالفيل بال (Alexander Malville Bell) الذي حاضر لأول مرّة على طريقة الخطابة والإلقاء (elocution) بجامعة إيدنبارغ في منتصف القرن التاسع عشر ، ثم بجامعة لندن بعد ذلك . وقد توّج نشاطه الأكاديمي بتأليف كتاب بعنوان: *الكلام المرئي ، علم الأبجديات العالمية*(1867) Visible speech, the science of universal alphabetics (1867)

وبعد الأب، جاء دور إبنه: ألكسندر غراهام بال (Alexander Graham Bell) الذي ذاع صيته في كلّ أنحاء المعمورة ، نظرا للخدمة الجليلة التي قدّمها للبشرية جمعاء باختراعه لجهاز الهاتف . وهكذا كان لهذه العائلة أثر عظيم في تطور الدراسات الصوتية وعلاقاتها بعلوم الاتصال.

8 ـ 2 ـ هنري سويت Henry Sweet (1845 ـ 1912):

يُعدُّ "سويت" واحدا من العلماء البريطانيين الأوائل الذين اعتنوا بتطوير الدراسات الصوتية. فبعد ما قضى ردحا من عمره في أحضان اللسانيات التاريخية والمقارنة ، اجتذبته أعمال كلٍّ من "مالفيل" و " غراهام بال " ، وتأثّر بها تأثراً شديدا ، حتى أصبح مع نهاية القرن التاسع عشر، باحثا ذا سمعة عالمية كبيرة . وفي سنة 1902م ، كتب رسالة إلى نائب عميد جامعة أوكسفورد واصفا فيها الصوتيات (Phonetics) على أنها "موضوع غير نافع في حدّ ذاته بيد أنّه في الوقت نفسه ، يُعدُّ أساس كل دراسة لغويّة ، سواء كانت نظرية أم تطبيقية ".

ومن إسهامات " سويت " الفريدة أنّه ربط الدرسات التاريخية بالأعضاء الصوتية، وألّف كتابا بعنوان : *كتيّب الصوتيات* : (1877) Handbook of phonetics ، تناول فيه تنظيم الكتابة الصوتية (phonetic transcription) وعلاقتها بإصلاح التهجئة وتعليم اللغات. وقد وصف "أونيونز" (C.T. Onions) كتيّب " سويت " هذا في قاموس البيوغرافيا الوطنية (Dictionary of National Biography) بأنّه " لقّن أوروبا دروسا في الصوتيات ، وجعل من إنكلترا مهدا لهذا العلم الحديث ".

8 ـ 3 ـ دانيال جونز Daniel Jones (1881 ـ 1967):

قام " جونز " بتطوير الخطى التي رسمها " سويت " من قبل فيما يخص منهج الصوتيات العام الذي ينبغي اتباعه. وقد رأى أن تدريس اللغة يرتكز على تلقين المتعلمين المهارات العملية المتعلقة بإدراك الأصوات المختلفة ، والنطق بها بطريقة سليمة ، ثم كتابتها برموز صوتية دقيقة . لقد ألحّ على هذا الأمر لأنّه لا يوجد في اللغة الإنجليزية تطابق بين الحروف والفونيمات أو الوحدات الصوتية الأخرى : فعدد الحروف لا يتجاوز الستة والعشرين بينما عدد الفونيمات يربو عن الأربعين ، وهنا تكمُن إحدى إشكاليات التعليم في رأيه.

وعلى الرغم من أن " جونز " قد دخل حقل الصوتيات عن طريق الهواية ، فإنه أفاد أكثر مما يفيد كثير من اللسانيين المحترفين . فقد تمكن من تعميق الاهتمام بالدراسات الصوتية بين اللسانيين ، وتأسيس أول معهد للدراسات الصوتية . ويعرف طلاب الإنجليزية

اليوم " دانيال جونز " من خلال أعماله في الصوتيات، وخاصّة من خلال نظام الصوائت الرئيسية (System of Cardinal Vowels)، الذي ابتكره في مطلع القرن العشرين ، والذي مازال معمولا به إلى يومنا هذا . ويُمَكِّن هذا النظام من كتابة الصوائت المنطوقة برموز فونيمية أو ألوفونية دقيقة للغاية . ومن مؤلفاته الشهيرة:

(أ) مختصر الصوتيات الإنجليزية (1914) Outline of English Phonetics (1914).

(ب) قاموس تلفظ الإنجليزية (1917) English pronouncing Dictionary (1917).

وتناول " جونز" في هذين الكتابين دراسة القواعد الصوتية للغة الإنجليزية الفصحى وتقنين ما يُسمّى بالتلفظ المقبول (Received pronunciation) المستعمل في إنكلترا ، وبخاصة في التعليم والإذاعة والتلفزيون.

ومن اللسانيين الذين جاءوا بعد " جونز " ، الإنجليزي " غاردينر " (Gardiner) الذي عالج بعض المسائل اللغوية العامة في كتابه : *نظرية الكلام واللغة* (1932) Theory of speech and lan-guage، ولكنه في الواقع ، لم يُغيِّر من المنهج المتبع، ومن التيار اللساني العام، أي شيء يذكر . أما الرجل الذي أحدث لأوّل مرّة تغييرا جذريا في التنظير اللساني البريطاني ، فهو عالم اللسانيات الإنجليزي الشهير : جون فيرث (John Firth).

8 ـ 4 ـ **جون فيرث** John Firth (1890-1960):

ولد " فيرث " بيوركشير (Yorkshire) سنة 1890م، ودرس التاريخ قبل أن يلتحق بالخدمة الوطنية، وبجوب مختلف أنحاء الأمبراطورية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. وكان من حسن حظه أن استقرّ بالهند لمدة طويلة ، وتعلم بعض اللغات الشرقية . وهكذا تأثّر بالنظريات اللغوية الهندية . الشيء الذي جعله يعتقد بأن تطوير أيّة نظرية لغويّة لا يكون إلاّ بالمعرفة الدقيقة للصوتيات الحديثة. ونظرا لاهتمامه بالتعليم ومناهجه ، فقد تولّى مهمة تدريس اللغة الإنجليزية بجامعة البنجاب من سنة 1919م حتى سنة 1928م.

وبعد هذه الجولة المشرقية المليئة بالنشاطات الأكاديمية ، رجع " فيرث " مباشرة إلى جامعة لندن ، ليشغل منصب أستاذ بمعهد الصوتيات . وفي سنة 1938م ، انتقل إلى كلية اللسانيات للدراسات الشرقية والإفريقية بلندن : (School of Oriental and African Studies)

ليتولّى تدريس مقياس الدراسات الشرقية والإفريقية . ويعدُّ فيرث أوّل من درّس هذا المقياس منذ إقراره عام 1944م ، وكذلك أوّل من مُنح رتبة أستاذ ذي كرسي في اللسانيات العامة ببريطانيا العظمى . وجدير بالذكر أن " فيرث " قد كوّن أجيالا عديدة من الطلبة ، وتخرّج على يده عدد لابأس به من اللسانيين الذين ما فتئت أعمالهم تعكس أفكاره وتشعُّ بنظرياته.

8 ـ 5 ـ **منهج الدراسة:**

نادى " فيرث " في منهجه المتميّز بفلسفة الأحديّة (monism)، إيمانا منه بأن ثمة مبدأ مادّيًا واحدا ألا وهو المادة.[1] فكان يرفض باستمرار بناء فكره اللغوي على ما يُسمّى بالثنائيات (dichotomies) التي يصعب تحقيقها من الناحية العملية ، وذلك على خلاف ما ذهب إليه دي سوسير تماما . لقد كان شديد الحرص على وصف اللغة بوصفها نشاطا معنويا في سياق اجتماعي معيّن . و جاء تبريره لهذا الموقف بقوله : "بما أنّنا نعرف القليل عن العقل ودراستنا هي دراسة اجتماعية في جوهرها ، فسوف أكف عن احترام ثنائية الجسم والعقل والتفكير والكلام ، وأكون راضيا بالإنسان ككلٍّ، يفكر ويتصرف وسط رفقائه كوحدة شاملة."[2] ولتوضيح مبدئه من هذا المذهب المثير للشكوك، أردف قائلا : " إن اجتنابي لاستعمال هذه الثنائيات لا ينبغي أن يفهم على أنني أقصيت مفهوم العقل إقصاء ، أو احتضنت المذهب المادي احتضانا."[3]

وفي الواقع ، فإن تطور أيّ فرع من فروع المعرفة عبر التاريخ يرجع إلى الأوضاع السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية السائدة في ذلك العصر . وإذا كان الحافز الأساسي لتطور الدراسات اللغوية عند العرب هو نزول القرآن الكريم ، وتقدم الدراسات اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية هو وجود أعداد هائلة من اللغات الهندية الغريبة دفع باللسانيين مثل " بوعز" (Boas)، وسابير (Sapir)، وبلومفيلد (Bloomfield) إلى العمل الدؤوب في هذا الميدان ، فإن الدافع الرئيس الذي حرّك الدراسات اللغويّة في بريطانيا هو اتّساع رقعة

(1) John Firth : " Synopsis of Linguistic Theory ". Studies in Linguistic Analysis, Philosophical Society Special Volume, Oxford, 19576, p.2.
(2) John Firth: Papers in Linguistics,(1934 - 51), London: Oxford University Press,1957 c, p.19.
(3) Ibid., p. 192.

الأمبراطورية البريطانية بشكل مذهل ، وازدياد الحاجة الماسّة لدراسة اللغات الشرقية والإفريقية لأغراض متعددة . فكان من بين هؤلاء اللسانيين " وليم جونز " (William Jones) الذي كشف النقاب عن القرابة القائمة بين اللغة السنسكريتية واللغات الأوروبية الكلاسيكية والأستاذ " جون فيرث " (John Firth) الذي أعطى نفسا جديدا للدراسات اللغوية البريطانية وجعلها تصطبغ بصبغته الخاصة.

ولا تشمل مدرسة لندن الدراسات اللغوية التي ازدهرت في لندن فحسب ، بل كلّ الدراسات اللغوية التي ظهرت في أماكن أخرى من المملكة المتحدة لكونها تحمل طابعا خاصاً وتتبع منهجا متميّزا . وبشكل عام ، يفضل علماء بريطانيا الأشياء العمليّة التطبيقية على الأشياء النظرية ، ولم يدرسوا اللغات لذاتها ، بل لما تدريه من منفعة عاجلة . وقد اعتمد لسانيو مدرسة لندن على كثير من المعطيات اللغوية الغريبة عنهم ، والمتمثلة في اللغات الشرقية والإفريقية المنتشرة عبر الأمبراطورية البريطانية . وهذا ما يزيد - حسب رأيهم - في الموضوعية العلمية، ويزيل الاستنتاجات المبنيّة على الأفكار المسبقة التي قد يحملها بعض اللسانيين عن لغاتهم.

وفيما يلي نحاول أن نسلّط الضوء على أهم مجالات التنظير الفيرثي التالية : المكوّن الاجتماعي، والتحليل اللغوي ، وعلم الدلالة ، والصوتيات الوظيفية ، كما نحاول أن نتعرّف على الفيرثيين الجدد وقواعدهم النظامية (Systemic Grammar).

8 ـ 6 ـ المكوّن الاجتماعي :

تأثر " فيرث " بالأنثروبولوجيا تأثّرا شديدا ممّا جعله يركز على دراسة المكوّن الاجتماعي (sociological component) في دراسة مختلف اللغات البشريّة. والحقيقة فإنه كان متحمسا لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية منذ الثلاثينيات ، وأكّد على هذا مرّة أخرى قبل موته سنة 1960 م بقوله : " إن اللغة ينبغي أن تدرس بوصفها جزءا من المسار الاجتماعي (social process) أي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية ، وليس كمجموعة من

العلامات الاعتباطية (arbitrary signs) أو الإشارات Signals ".[1] وبما أن استعمال اللغة هو الوسيلة الوحيدة التي تساعد على فهم المعاني المتعددة ، فإن " فيرث " قام بدراسة مكوّنات اللغة وفق مكونات اجتماعية بحتة ، بالتركيز على العلاقات المختلفة التي تربط اللغة بالمجتمع.

8 ـ 7 ـ التحليل اللغوي :

قام " فيرث " بإرساء مجموعتين رئيسيتين من العلاقات. تنقسم كلّ مجموعة منهما إلى قسمين : العلاقات الداخلية أو الشكلية والعلاقات الموقفية:[2]

1 ـ العلاقات الداخلية أو الشكلية المتعلقة بالنص (internal / formal relations)

(أ) العلاقات الركنية (syntagmatic relations): وتتمثّل في العلاقات الموجودة بين عناصر البنية (structure) على مستويات مختلفة منها : النحويّة والصوتية ، وذلك كالعلاقة بين مفردة شكلية وأخرى في جملة ما ، أو في تتابع معيّن (collocation)، أو العلاقات التركيبيّة بين الوحدات النحويّة ، أو العلاقات بين الوحدات الفونولوجية.

(ب) العلاقات الاستبدالية للمفردات ضمن الأنظمة (Systems): حيث تُمثّل كل مفردة عنصرا معيّنا من البنية ، ويُمثّل النظام مجموعة المفردات التي نختار منها أية مفردة.

2 ـ العلاقات الموقفيّة (situational relations): وتغطي شبكتين مختلفتين من العلاقات:

(أ) جميع العلاقات الموجودة ضمن سياق الموقف.

(ب) العلاقات القائمة بين أجزاء النص ومظاهر الموقف . وهي علاقات بين مفردات اللغة ومكونات الموقف غير اللفظية. وبما أن وحدات اللغة تدخل في كلا النوعين من العلاقات ، فإنها تكتسب معاني شكليّة وموقفية.

(1) J.C.Catford, " J.R.Firth and British Linguistics" , in A.Hill's edition, 1969, pp.250 - 51
(2) J.R.Firth, op.cit., 1957 b, p.5.

ولمعرفة أهم المصطلحات التي استعملت في النظرية الفيرثية، لابدّ من الرجوع إلى مقدمة " فيرث" المتعلقة بالتحليل اللغوي ، والتي شملت مايلي:[1]

(أ) تدعى المادة الأولية المادة الصوتية (phonic material)... وتصف الصوتيات معطيات صوتية تتعلق بوحدات فونيمية وفوقطعية (phonematic and prosodic categories) موزّعة في وحدات (units)، ومفردات (terms)، وأقسام (classes)، وبنى (structures) وأنظمة.

(ب) أقام " فيرث " تمييزا أساسيا بين البنى وعناصرها التي تربطها علاقات ركنية من جهة ، وأنظمة ووحدات ومفردات تربطها علاقات استبدالية ، وتزود العناصر ببعض القيّم (values) من جهة أخرى.

(جـ) تربط نظرية الأسس (Theory of Exponents) المعطيات الصوتية التي تصفها الصوتيات بوساطة وحدات من النحو والفونولجيا، وتعدُّ ضرورة أساسية للتحليل اللغوي على مستويات منسجمة.

(د) استعمل " فيرث " عددًا من مستويات الترميز (levels of notation)، وركّز بالخصوص على مايلي: الترميز الصوتي الانطباعي (impressionistic phonetic notation) لأشياء مدركة بالحواس ، ومنتقاة من المعطيات الصوتية ، والترميز الصوتي المعمّم (generalized phonetic notation) ، وقراءة الكتابة الفونيمية، و " النقحرة " (transliteration)، والترميزات الفونولوجية المعمّمة من بينها : الترميز الصيغي (formulaic notation) ، وعلم التهجئة (orthography).

وفي ميدان النحو والفونولوجيا ، ميّز " فيرث " بين البنية (structure) والنظام (system). ولهذين المصطلحين دور كبير في تحليل مختلف مظاهر النظرية الفيرثية وفهمها . فالبنية تدل على كلّ العلاقات الموجودة على مستوى المحور الركني : أي الترتيب الأفقي لمختلف العناصر

(1) J.R.Firth, " Introduction ", Studies in Linguistic Analysis, Philosophical Society Special Volume, Oxford, Blackwell, 1957 a, pp. vi - vii.

اللسانية . أما النظام فيدلُّ على كلّ العلاقات الموجودة على مستوى المحور الاستبدالي بين مختلف العناصر : أي مجموعة الوحدات التي يمكن أن يعوض بعضها بعضا في بنية ما على المستوى الرأسي.

ويمكننا توضيح الفرق بين البنية والنظام بأمثلة مأخوذة من اللغة العربية . فحسب هذه النظرية ، فإن كلّ كلمة هي عبارة عن بنية متميّزة، تتشكل من وحدات مختلفة صائتة وصامتة كما في هذه الصيغة العامة « صامت + صائت + صامت » ، التي تمثلها المفردات الثلاثية التالية : رام ، وقام ، وجاب ، وكوب ، وقوم ، وريب ، وعين ، أما مجموعة الصوائت والصوامت التي تحلُّ محل الوحدات الثلاث للبنية ، فتعدُّ أنظمة مختلفة . وبهذا يكون نظام الصوائت الاستهلالية الممكنة في هذه البنية مختلفا كمًّا وكيفا عن نظام صوامتها الختامية.

8 ـ 8 ـ علم الدلالة :

من المعلوم أن اللساني الأمريكي بلومفيلد امتنع عن دراسة الدلالة لأنها ليست مهمة خارجة عن نطاق اللسانيات فحسب ، بل فوق طاقتها أيضا ، ولكن " فيرث " أراد أن يجعل من الدلالة علما قائما بذاته ، وذهب إلى القول بأن " دراسة الدلالة هي المهمة الرئيسية للسانيات الوصفية ".[1]

ولكي نتمكن من فهم الدلالة عند " فيرث " ، ينبغي أن نرجع مباشرة إلى الاطلاع على أفكار زميله " برونيسلو مالينوسكي " (Bronislaw Malinawsky) الأنثروبولوجي البولندي الذي عمل أستاذا بمدرسة العلوم الاقتصادية بلندن منذ 1927 م . لقد استخلص " مالينوسكي " من أبحاثه الحقلية التي أجراها على قبائل بدائية ، " أن اللغة تعمل كأداة تواصل ضمن نشاط إنساني متعارف عليه ، فهي ضرب من النشاط ، وليست أداة تفكير ... وما الكلمات إلا أدوات ولا يكمن معنى الأداة إلا في استعمالها ".[2] وتأثّر " فيرث " بهذه الآراء ، وقبلها قبولا حسنا وأقرَّ بأن أيّة خاصيةٍ للكلام هي جزء من معناه ، وما معنى الكلام إلاّ ما يقوم به الكلام

(1) J.R.firth, op.cit., 1957 c, p.190.
(2) Malinowsky (1932,p.312), in G.Sampson, op.cit., p.224.

بالذات، وبالفعل هناك بعض مظاهر الكلام التي تقوم بأنواع مختلفة من الأشياء. وهذا ما ذهب إليه "سارل" (J.R. Searle) في كتابه : *الأفعال الكلامية* Speech Acts (1969)، وكذلك " أوستين" (J.L. Austin) من قبلُ في مؤلفه : كيف تصنع من الكلمات أشياء: How to Do Things with Words (1962)، وذلك في خضم حديثهما عن الأفعال الأدائية (Performative verbs) كما هو الحال في هذين الجملتين : (أ) أُعْلِنُ الجلسة مفتوحة، (ب) نُسمّي هذه الباخرة : الكاهنة لكن الأغلبية العظمى من الأفعال لا تدخل في هذا الإطار.

ولتوضيح فكرة المعنى ، استعان " مالينوسكي " بمفهوم سياق الموقف (Context of situation) الذي ابتكره حينما واجهته مهمة ترجمة مفردات وجمل من النصوص الاثنوغرافية في الجزر التروبرايندية شرقي غينيا الجديدة إلى لغة إنجليزية مفهومة . فطوّر على إثرها نظرية سياق الموقف التي تعين الباحثين على استيعاب معاني المفردات والجمل بالرجوع إلي مُعاينة الوظائف التي تؤديها في السياقات الموقفية الخاصة التي تُستعملُ فيها . وحسب " مالينوسكي " فإنه إذا أتينا بشخص أوروبي إلى مجتمع بدائي ، وزودناه بترجمة حرفيّة للكلام المتفوّه به فلا يستطيع أن يدرك معناه، إلا إذا كان واردا في السياق الذي جرى في إطاره الحديث ، وفي الجو العام الذي يكوِّن جزءًا منه. واستخلص من هذا ، أنّه من الضروري أن توضع كلّ ألفاظ الكلام في سياق الموقف لفهم مغزاها الحقيقي .[1]

وتبنّى " فيرث " نظرية سياق الموقف ، وأعطاها معنى عاما مجردا . ولكن إذا كان سياق الموقف بالنسبة لمالينوسكي هو محيط الكلام الطبيعي الفعلي ، فهو بالنسبة لفيرث، حقل من العلاقات (field of relations) : علاقات بين أشخاص يقومون بأدوارهم في المجتمع ، مستعملين في ذلك لغات مختلفة ، ومرتبطين بحوادث وأشياء متنوعة . أما المعنى في نظر " فيرث " ، فهو تلك الشبكة العامة للعلاقات والوظائف التي تستعمل فيها كلّ المفردات . وهذا ما نلحظه في قوله : " إنّي اقترح تقسيم المعنى أو الوظيفة إلى مجموعة من الوظائف المكوِّنة . وما الوظيفة إلاّ ضرب من استعمال شكل أو عنصر من لغة معيّنة حسب سياق معيّن. وينبغي علينا أن ننظر إلى المعنى على أنه مركب من العلاقات السياقية ، حيث تعالج كلّ من القواعد ، والدلالة والصوتيات ، وصناعة المعاجم مكوناتها في السياق الملائم لهذا المركب ".[2]

(1) Ibid., p. 225.
(2) J.R.Firth, op.cit., 1957 c., p.19.

ولكي نفهمَ جيّدا موقف " فيرث " من الدلالة، ينبغي أن نعرف أوّلا أنه ميّز بين نوعين من العلاقات ترتبط بهما الألفاظ : العلاقات الشكلية أو الداخلية ، والعلاقات الموقفية . ويشمل النوع الأول العلاقات التي تربط وحدة لغويّة معيّنة بالوحدات الأخرى : كالعلاقة الموجودة بين الوحدات اللغوية في تتابع ما (collocation) ، والعلاقات التركيبية بين الوحدات النحوية والعلاقات الفونولوجية بين الوحدات الصوتية . أما النوع الثاني فيشمل العلاقات بين الوحدات الصوتية. أما النوع الثاني فيشمل العلاقات بين الوحدات اللغوية ومكونات الموقف غير اللغوية. وبما أن مفردات اللغة تقوم بدور مميّز في هذين النوعين من العلاقات ، فتكون لها معانٍ شكلية (formal) وموقفية (situational) في آن واحد.

ويرى فيرث أنه يمكن دراسة المعنى الشكلي على مستوى التتابعات (collocations). والتتابع - على حد تعبيره - هو اقتران مألوف ومميّز لمفردات النصوص، كاقتران كلمة «بقرة» بالفعل « يحلب » ... إذ إن جزءا من معنى « البقر » يتجلّى لنا من خلال هذه التتابعات مثل : « هم يحلبون البقر» ، و « تنتج البقرة حليبا » .[1] وهكذا يبدو أن هناك معادلة بين معنى الكلمة ومجموعة السياقات اللفظية التي ترد فيها. فكلمة « الطيور » يمكن أن تملأ الفراغ في الجمل التالية : « تبني ...... أعشاشها » ، و « تزقزق .... صباحا» ، و «تُفرِّخ ...... في فصل الصيف» . وبالفعل، فإن وقوع هذه الكلمة في هذه السياقات المختلفة ، يبيّن بوضوح معناها اللغوي . والمعنى على المستوى النحوي هو لون آخر من ألوان المعنى الشكلي. إنه " القيمة " (Value) التي تكتسبها كل وحدة نحويّة من خلال علاقاتها بالوحدات الأخرى. وهنا يقول " فيرث " : " المفرد في نظام العدد الثنائي له معنى نحوي مختلف عن المفرد في نظام العدد الثلاثي ، أو نظام العدد الرباعي كما هو الشأن في اللغة الفيجية (Fijian) التي تميّز عادة بين المفرد، والمثنى، وجمع القلّة، وجمع الكثرة .[2] وتستعمل معظم اللغات مصطلح "الجمع " للدلالة على ما زاد على الواحد، وتستعمل العربية هذا المصطلح للدلالة على ما زاد على الاثنين ، إذ ما زاد على الواحد يُعدُّ " مثنى " . وكما يختلف المعنى على المستوى النحوي

(1) J.R.Firth: op.cit., 1957 b, pp.11 - 12.
(2) J.R.Firth: op.cit., 1957 c, p.227.

فإنه يختلف كذلك على المستوى الفونولوجي في هذه النظرية . فمعنى الصائت [i] في النظام الصائتي الثلاثي [i - a - u] يختلف عن معنى الصائت نفسه في النظام الصائتي الرباعي [i - e - a - o]، وفي النظام الصائتي الخماسي [i - e - a - o - u]، وفي غيرها من الأنظمة الصائتية الأخرى الأكثر عددا .

أما المعنى الموقفي ، فهو ما يعرف عادة بالمعنى. ويتمثل في العلاقات بين وحدات اللغة وتلك العناصر الخارجة عن اللغة في المواقف التي تتوسط فيها اللغة بين أفراد مشاركين في موقف اجتماعي معيّن. وليست الوحدات المفرداتية والنحوية فقط هي التي لها معان موقفية، بل السمات الفونولوجية، والفونتيكية ، وحتى الإملائية قد يكون لها معنى موقفي معيّن.[1] فكلمة « سلوك » قد تُكتب في اللغة الإنجليزية «behavior» أو «behaviour». وتكتسب معنى موقفيا على مستوى الإملاء أو الكتابة ، إذ الكلمة المكتوبة بـ or ـ تدلُّ على أن هناك أمريكيا في الموقف قد يكون كاتبا ، أو قارئا ، أو محررا ، أو ناشرا . والكلمة المكتوبة بـ our ـ تدلُّ على أن مستعملها شخص بريطاني سواء كان كاتبا ، أو قارئا ، أو غير ذلك . وبمعنى آخر ، فإن هناك إنجليزية بريطانية وإنجليزية أمريكية . وكلتاهما تُستعمل في مواقف سياقية اجتماعية مختلفة .

وكما تأثّر بلومفيلد " بالأنثروبولوجي " بوعز " (Boas)، تأثّر " فيرث " بالأنثروبولوجي " مالينوسكي " ، وتشبّع بمبادئ التجريبية البريطانية، وقام بدراسة المعنى من الوجهة الاجتماعية والسلوكية . ورأى أن الكلمات تدلُّ على أشياء ومواقف، وتصير جزءا من العمل المعتاد، والمعاني الوحيدة التي تمتلكها هي الأنماط السلوكية. ويتضمن معنى الكلمة المنطوقة ثلاثة أشياء: مواقف تجاه المرجع، مواقف تجاهْ المخاطَب، والغرض من وراء الكلام .

فموضوع النظرية الفيرثية إذن هو السلوك البشري في إطار سياق معيّن . ولكن الموقف تجاه المعطيات السلوكية هنا، جاء مخالفا لما ورد في النظريات الأخرى، التي نظرت إلى اللغة على أنها نشاط إنساني . فالنظريات اللغوية التي تبنت فكرة اللغة على أنها سلوك كالبنيوية السلوكية البلومفيلدية ، تبنت كذلك ثنائية دي سوسير بين المتصور والمدلول مقابل

(1) J.C.Catford: op.cit., p.254.

الصورة الصوتية والدال ، وفسّرتها في إطار السلوك : أي المثير والاستجابة للمثير ، أو السياق : أو المعنى مقابل الصوت ، ويمكن تحري النمط اللغوي من العلاقات القائمة بين هذين المظهرين للمعطيات . أما " فيرث " فيرى أن النمط يُستخلص من المعطيات السلوكية الكلامية في سياق ما ، ولكن العلاقة بين السلوك والسياق ليست كما ذهب إلى ذلك دي سوسير . وقد أطلق " فيرث " على السلوك الكلامي اسم : المعطيات الصوتية (phonic data).[1] وهي عبارة عن متصل كلامي غير مقطّع. والسياق الواسع هو الثقافة.[2] والسياقات الثانويّة هي سياقات الوقف.[3]

وحسب " فيرث " فإن هناك عدّة سياقات موزّعة ضمن تسلسل هرميّ مضبوط كما يبيّن ذلك الشكل التالي:[4]

1ـ مصطلح صوتي في

2ـ سياق صوتي في

3ـ سياق معجمي في

4ـ سياق صرفي في

5ـ سياق تركيبي في

6ـ سياق موقفي في

7ـ سياق ثقافي

وبعد هذا التفصيل، استطرد فيرث قائلا : " إن التقنية التي رسمتها هنا هي عبارة عن تحليل تجريبي عوض تحليل نظري للمعنى . ويمكن وصفها كسلسلة من الإجراءات لوضع الظواهر في سياقات : سياق في سياق ، وكل سياق عبارة عن وظيفة ، أو عضو في سياق آخر ، وتجد كل السياقات مكانا لها فيما يُسمّى بسياق الثقافة .[5]

(1) J.R.Firth, op. cit., 1957 b: 226.
(2) Ibid., p. 36.
(3) Ibid., pp., 27,35 - 36.
(4) Ibid., pp., 26 - 27.
(5) Ibid., p. 32.

8 ـ 9 ـ الصوتيات الوظيفية

اعتنى "فيرث" بالصوتيات الوظيفية (Phonology) عناية شديدة مكنته من بلورة مقاربتين أساسيتين ملازمتين للغات : مقاربة الأنظمة المتعددة (polysystemic approach) ومقاربة الصوتيات الوظيفية الفوقطعية (prosodic phonology approach) . وسنتناول فيمايلي كلّ واحدة منهما.

أ ـ الأنظمة المتعددة :

عارض "فيرث" فكرة إقامة نظام واحد من الفونيمات لوصف اللغات البشريّة. ونادى بمقاربة الأنظمة المتعددة التي تنص على وجود إمكانيات بديلة ترد على مستويات مختلفة من البنية الفونولوجية. وخلص إلى أنه لا يوجد أيّ مبرر منطقي لمطابقة أو معادلة بدائل صوتية في نظام معيّن ببدائل من نظام آخر ، إذ يقول : "يلازم كلَّ عنصر من البنية نظام متميّز عن الأنظمة التي تلازم عناصر أخرى من البنية نفسها : وبالتالي يختلف نظام الصوامت الاستهلاليّة المكنة في اللغة الصينية عن نظام الصوامت الختامية الممكنة".[1] فالنظام الملازم لعنصر من البنية قد يختلف من بنية إلى أخرى . ففي اللغة الإنجليزية يتضمن نظام الصوامت الممكنة في المقاطع المنفتحة الختامية عناصر أقلّ من عناصر النظام المطابق للمقاطع المنغلقة وتختلف الأنظمة التي تنطبق على الكلمات الدخيلة عن الأنظمة التي تنطبق على الكلمات الأصيلة في اللغة.[2]

وقد وضّح "كتفورد" (Catford) مفهوم الأنظمة المتعددة بهذا المثال: إن هناك بعض اللغات التي يكون فيها العدد الإجمالي للفونيمات الذي يرد في موقع معيّن من البنية مختلفا تماما عن العدد الذي يرد في موقع آخر. ففي اللغة الجاوية مثلا، ثمة تعاقب شامل: نظام من أحد عشر صامتا انفجاريًا مزجيًا في المواقع الاستهلالية للمفردات، وهي P b t d ṭ ḍ tj dj k g ? وأربعة صوامت في المواقع الختامية للمفردات وهي /p t k ?/[3] وحسب نظرية "ترويتسكوي" السائدة آنذاك ، أنه يجب عدّ كل الفونيمات الختامية الأربعة متغيّرات

(1) Firth and Rogers in E.Fudge: op.cit., p. 272.
(2) Ibid.
(3) J.C.Catford, op.cit., pp. 255 - 56.

موقعية (positional variants) أو "ألوفونات" (allophones) لأربعة فونيمات من النظام المتكوّن من أحد عشر فونيما. وهنا تكمن المعضلة ؛ إذ من الصعب معرفة هذه الفونيمات الأربعة وتحديد كيفية استعمالاتها. وهذا ما أدّى إلى مشاكل عدّة في النظرية الفونيمية ، دفع "تروبتسكوي" إلى ابتكار مفهوم "التحييد" (neutralization) والفونيم الأم (archiphoneme) كما رأينا ذلك عند حديثنا عن مدرسة براغ.

وحسب تصريح "فيرث" ، فإن عزو الصوامت الأربعة الأخيرة إلى أربعة من الصوامت الأحد عشر الأولى هو عمل لا يمكن تبريره، حيث إن قيمة الوحدة في النظام المتآلف من إحدى عشرة وحدة لا يمكن ـ بأيّ حال ـ أن تساوي قيمة الوحدة في النظام المتكون من أربع وحدات. وعلى هذا الأساس ، ارتأى "فيرث" وضع عدد من أنظمة الوحدات الصوتية كلّما استدعى الأمر ذلك . وبعد تحديد البنى المختلفة ، يكتشف الباحث مواقع البنية التي تحتاج إلى نظام مختلف . وهذا ما يعرف بمقاربة الأنظمة المتعددة في الصوتيات الوظيفية الفيرثية.

ب ـ الصوتيات الوظيفية الفوقطعية (prosodic phonology)

يحمل مصطلح "prosody" معنيين في اللغة الإنجليزية . المعنى الأول ، والذي لا يعنينا هنا ، وهو علم العروض ، الذي يبحث في أوزان الشعر وتفعيلاته وقوافيه . والمعنى الثاني، وهو المقصود هنا ، ويدلّ على مفهوم "الفوقطعيّة" بشكل عام . ويشمل ظواهر صوتية مختلفة كالنّبر (stress) والفاصل (juncture)، والنغم (pitch)، والتنغيم (intonation). وتقترن هذه السمات الفوقطعية بالمقطع والجملة وشبه الجملة . وفي اللغة الإنجليزية ، يُعدُّ التنغيم سمة فوقطعية على مستوى الجملة وشبه الجملة، ويعدُّ النبر وطول الصوت (word-length) من السمات الفوقطعية على مستوى المقطع (syllable)، ومن جهة أخرى ، هناك لغات نغميّة (tone languages) ، حيث يحدث فيها اختلاف درجة النغم اختلافا في معنى الكلمة الواحدة كما هو الشأن في السويدية، والنرويجية، والصينية.

وعارض "فيرث" الفكرة القائلة بأن كل السمات الصوتية المميّزة للغة ينبغي أن تعزى إلى مواقع قطعية منفردة ، وأتى بنظرية التحليل الفوقطعي التي تعنى بتحليل الكلام إلى فونيمات قطعية (segmental phonemes)، وفونيمات فوقطعية (suprasegmental phonemes)

وإضافة بعض السمات الثانوية إلى كلّ منهما . وقد أعدّ هذا النوع من التحليل الصوتي في إطار نظريته العامة التي تدعى بالنظرية السياقية . والفونيم القطعي هو أصغر وحدة صوتية متمثّلة في أحد الصوامت أو الصوائت التي نتلفظها . والفونيم الفوقطعي هو فونيم يزامن أحيانا الفونيم القطعي ، وقد يكون نبرة أو نغما أو فاصلا ، ويُطلق عليه أيضا الفونيم الثانوي أو البروسوديم (prosodeme).

وبالإضافة إلى السمات الفوقطعية التي ذكرناها : النّبر، وطول الصوت، والنغم ، فإن الوحدات الفوقطعيّة تشمل كل مادة صوتية تنتمي إلى البنى التي هي أطول من القطع (segment) ، كالمقطع مثلا ، ومثال ذلك سمة الأنفيّة أو الغنّة (nasalization)، وسمة التغوير (palatalization)، وسمة الإطباق أو التفخيم (velarization). وهكذا يمكن عدّ بعض السمات النطقيّة المميّزة سمات فوقطعية . فاللغة الروسية تتألف من اثنين وثلاثين فونيما من الصوامت وخمسة فونيمات من الصوائت ، اثنا عشر فونيما من بين الاثنين والثلاثين هي فونيمات مغوّرة (palatalized) مثل [p'ae] الذي يقابل [pa] ، و [t'ae] الذي يقابل [ta] ، حيث يمكن تقليص عدد الفونيمات إلى حدّ العشرين ، بالإضافة إلى سمة فوقطعية واحدة هي سمة التغوير.

وعلى غرار " فيرث " ، درس هندرسون (Henderson) الظواهر الصوتية بعمق، وتوصل في سنة 1949 إلى ضبط قائمة من السمات الفوقطعية والوحدات الفونيمية التالية:[1]

(أ) السمات الفوقطعية على مستوى الجملة : التنغيم.

(ب) السمات الفوقطعية المتعلقة بأجزاء الجملة : النبر والنغم.

(جـ) السمات الفوقطعية الخاصّة بالمقطع : طول الصوت، والنغم، والنبر، والتغوير والإطباق الشفوي (labiovelarization).

(د) السمات الفوقطعية الخاصة بأجزاء المقطع . الهائية (aspiration)، والارتداد (retroflexion)، والانفجار (plosion)، والإغلاق غير الانفجاري (unexploded plosure).

(هـ) العناصر الفونيمية (phonematic elements) الصائتة والصامتة: طبقي، أسناني شفتاني ، أنفي ، أمامي ، خلفي ، مدوّر (rounded) ، وغير مدوّر .[2]

---

(1) Henderson in Fudge, op.cit., p. 272.
(2) Ibid .

8 ـ 10 ـ القواعد النظامية (Systemic Grammar):

بعد ما عرفنا مقاربة مدرسة لندن الخاصّة بالصوتيات ، نحاول الآن أن نتعرف على مقاربتها المتعلقة بالنحو أو القواعد . وكما هو معلوم ، فإن التحليل التركيبي في هذه المدرسة يعرف بالقواعد النظامية . وقد اعتنى بهذا الجانب الفيرثيون الجدد (Neo-Firthians)، وهم جماعة من اللسانيين الذين سعوا إلى تحقيق ما رفض " فيرث " القيام به من قبل: وهو إقامة نظرية لسانية واحدة متكاملة . ومن الذين نادوا بتطبيق المبادئ الفيرثية في مجال التركيب هما: هاليداي (MAK Halliday) وهادسون (R.A . Hudson) . وفي الواقع ، تستحق هذه النظرية فصلا خاصّاً بها ، ولكن نظرا لحجم الكتاب ، وللأهداف المتوخاة منه ، فلا يمكننا أن نفصّل القول فيها هنا كما ينبغي . وباختصار فإن مصطلح " النظام " (system) في هذه النظرية ، يدلّ على أن اللغة تتكوّن من شبكة من الأنظمة . والنظام هو مجموع الاختيارات أو البدائل التي يمكن استعمالها في نقطة معيّنة من البنية اللغوية . وهكذا فالقواعد النظامية تعنى بطبيعة الاختيارات المتعددة التي يستخدمها الشخص شعوريا أو لا شعوريا ، عندما يلفظ جملة معيّنة من بين الجمل غير المتناهية التي تتوفر عليها لغته . وحسب هذه النظرية، فإن جميع الاختيارات مبنية على تعالقات دلالية محدّدة .[1]

وتقوم القواعد النظامية على ثلاثة مستويات : الشكل ، ويجمع بين القواعد والمفردات ؛ والمادة ، وتشمل الأصوات أو نظام الكتابة : والسياق ، ويعكس العلاقة القائمة بين الشكل والموقف . وتتضمن أربع طبقات رئيسية هي : الوحدة (units)، والبنية (structure)، والقسم (class) ، والنظام (system)، بالإضافة إلى ثلاثة تدرُّجات (scales) ، وهي : الرتبة (rank) والدليل الأسّي (exponence)، والدقة (delicacy). فالوحدات كالجمل مثلا لها بنى خاصة، بحيث ترد فيها وحدات أقلّ رتبة منها كالجُميْلات والمفردات، والوحدات التي تأتي في الرتبة الثانية من القمّة تُصنّف في أنظمة مختلفة . وفي هذه القواعد، تكون الجملة ، و " الجُميْلة"، وشبه الجملة ، والمفردة ، والمورفيم في تدرّج تنازلي . وكذلك الشأن بالنسبة للفونولوجيا ، إذ نلحظ وجود مجموعة متآلفة من المقاطع ، ثم المقطع ، ثم القطع وذلك من أكبر وحدة إلى أصغر وحدة.[2]

---

(1) Geoffrey Sampson, op.cit., p. 228.
(2) R.H.Robins, op.cit., p. 221.

أما فيما يخصّ التدرّج الأسّي ، فإنه يربط التجريدات (abstractions) بالمعطيات الملموسة (concrete data). والانتقال تجاه المعطيات ضمن التجريدات يعني الانتقال من أعلى إلى أسفل تجاه التدرّج الأسّي . ومثال ذلك ، الانتقال من الوحدة النحويّة في البنية الجميلية إلى "الاسم" ومن ثمة إلى كلمة " الرجل " كحالة أو أسّ لقسم " الأسماء " ، ثم الانتقال من هنا إلى طبقة "الوحدات" . ويتعلق تدرّج الدقة (scale of delicacy) بالتفريعات الثانويّة للأقسام والبنى ، ويرمي إلى الأخذ بعين الاعتبار كلّ التفاصيل الصغيرة والدقيقة . ومن هذا المنظور ، فالفعل اللازم والجُميْلة المضادة (concessive clause) من المسائل التي تحتاج إلى دقة أكثر من "الفعل" و" الجُميلة التابعة ."[1]

وأخيرا ، نستطيع أن نقول : إننا تطرقنا إلى أهم الجوانب التي ميّزت مدرسة لندن واكتشفنا الدور الكبير الذي قام به " فيرث " من أجل تطوير اللسانيات النظرية بشكل عام واللسانيات البريطانية بشكل خاص . ومن المجالات التي تناولها هذا اللساني بالدراسة ، والتي لازالت تستقطب اهتمام العديد من الأخصائيين المكوّن الاجتماعي ، وسياق الموقف ، ونظرية الدلالة ، ومنهج تحليل اللغة ، والتحليل الفونولوجي القِطعي والفوقطعي ، والأنظمة المتعددة بالإضافة إلى تطوير فنيات الترجمة وأساليب تدريس اللغات الوطنية والأجنبية.

وجاء من بعد " فيرث " ما يُعرف بالفيرثيين الجدد ، وعلى رأسهم " هاليداي " ، وحاولوا إقامة نظرية لسانية واحدة متكاملة ، أطلقوا عليها اسم القواعد النظامية . ولاتزال هذه النظرية تحظى بقبول حسن في أوساط المنشغلين بتقدم الدراسات اللغوية.

(1) Ibid.

الفصل التاسع

اللسانيات الوصفيّة

9 ـ 1 ـ مفهوم اللسانيات الوصفية:

لئن كان القرن التاسع عشر قد هيمنت عليه اللسانيات التاريخية والمقارنة ، فإن القرن العشرين قد سيطرت عليه اللسانيات الوصفيّة . وقد تطور هذا النمط من اللسانيات الآنيّة بطريقة مستقلة في جهتين مختلفتين من العالم : أوروبا وأمريكا. وبشكل عام ، فإن اللسانيات الأمريكية اختلفت عن اللسانيات الأوروبية من حيث المنهج المتّبع والمادة المدروسة ، وذلك لأن المدارس الأوروبية التي أشرنا إليها آنفا لم تبدأ من الدرجة الصفر ، وإنّما من الفكر اللغوي العريق الذي ظهر بظهور الدراسات الإغريقية ، واستمر حتى القرن التاسع عشر ، حيث ظهرت اللسانيات التاريخية والمقارنة التي اعتنت بدورها باللغات الكلاسيكية قبل اللغات الأوروبية الناشئة . أما اللسانيات الأمريكية ، فقد انطلقت من الأنثروبولوجيا والدراسات الحقلية التي اهتمت بتدوين وتصنيف اللغات الهندية الأمريكية المتناثرة في الولايات المتحدة ، وذلك خشية انقراض هذه اللغات التي تستعملها في معظم الأحيان مجموعات صغيرة من الناس. وبالفعل فإن هناك لغات انقرضت قبل تسجيلها وذلك بموت آخر مستعمليها . وهكذا ، فإن هذه الدراسة تنبني على اللغة المنطوقة ، وتعتمد على الأشكال اللغوية بعيدة كل البعد عن إقحام النطق والمعنى في تفسير الظواهر اللغوية ، وترتكز على وصف خصوصيات كل لغة على انفراد ؛ أي دراسة كل لغة كما هي مستعملة في مكان وزمان معيّنين .

والحق إن هناك ثلاثة باحثين بارزين قاموا بإرساء دعائم اللسانيات الأمريكية وتوجيهها الوجهة التي نعرفها اليوم ، وهم على التوالي : فرانز بوعز (Franz Boas)، وأدوارد سابير (Edward Sapir)، وليونارد بلومفيلد (Leonard Bloomfield). وسأتوقف عند كلّ واحد منهم لتوضيح مقارباته ونظرياته، وتأصيله للمنهج الوصفي ، وتأثيره على الداسات اللسانية الحديثة.

9 ـ 2 ـ فرانز بوعز (1858 ـ 1942):

كان " فرانز بوعز " أوّل من وضع أسس اللسانيات الوصفية في الولايات المتحدة ، وقد ظلت هذه الأسس التي تضمنها كتابه : *دليل اللغات الهندية الأمريكية* : Handbook of American Indian Languages الصادر سنة 1911 مهيمنة على النظرية اللسانية ، ولم يُثر بشأنها أيّ جدال حتى سنة 1957م عندما ألّف تشومسكي مؤلفه الشهير: البنى التركيبية: Syntactic Structures .

لقد بدأ بوعز دراسته الجامعية طالبا في الفيزياء والجغرافيا، ومن هذه الأخيرة عرف الأنثروبولوجيا، وعَلِم أنها ليست شعبة من الجغرافيا: أي أن ثقافة مجتمع ما ليست مجرد نتاج لافرازاتها الماديّة، وأن العلوم الإنسانية تختلف منهجا ومضمونا عن العلوم الفيزيائية. وما أن أدرك "بوعز" هذه الحقيقة حتى اجتذبته العلوم الإنسانية، ورأى أن اللغة هي أهم مظهر من مظاهر الثقافة، ومن ثمة يجب على الأنثروبولوجي أن يفهمها، ويصفها بدقّة بالغة، ويبيّن كيف أن نظامها يشكل وحدة متماسكة .(1) فالمجتمع حسب بوعز لا يمكن فهمه من خلال بيئته بل من خلال ثقافته، ولا يمكن فهم ثقافته إلا من خلال لغته. وبما أن أغلب اللغات الهندية الأمريكية غير مدوّنة في الأصل، فقد اعتمد "بوعز " على اللغات المنطوقة، وبالضبط على"الكلام" (La parole)، وذلك على خلاف دي سوسير الذي اعتمد على " اللغة " (La langue). والمعروف أن بوعز تخصّص في أنثروبولوجيا أمريكا الشمالية ، وأجرى عدة دراسات حقليّة مكّنته من وصف اللغات المحليّة وتصنيفها . وبعد فترة قصيرة من التدريس في برلين الألمانية ، استقر في الولايات المتحدة الأمريكية للقيام بمهمته الشاقة على أحسن وجه . ومما لاشك فيه أن شهرة هذا الباحث تعود إلى كونه المؤسس الرئيس للمدرسة اللسانية الأمريكية والمسؤول الأول عن برنامج دراسة اللغات الهندية المنتشرة في شمال المكسيك . واليوم يعترف الجميع أن معاهد اللسانيات في الجامعات الأمريكية قد انبثقت من معاهد الأنثروبولوجيا بدلا من معاهد اللغات الحديثة كما هو الحال بالنسبة للدول الأوروبية.

(1) Geoffrey Sampson,Op . Cit. , p. 57.

إن مقدمة " بوعز " لكتابه :<< *دليل اللغات الهندية الأمريكية* >> تُعدُّ موجزا ثريّا للمنهج الوصفي الذي اتبعه هذا اللساني العصامي في دراسته للغة . وقد تميّزت المدرسة التي أنشأها بالنسبيّةُ اللغوية (linguistic relativism) ؛ وهذا يعني أنه ليس هناك لغة مثالية يُقاس عليها ، بل إن اللغات الإنسانية تتميز بالاختلاف والتمايز ، ولئن بدت لنا لغات بعض القبائل البدائية غريبة وغير منطقية ، فهذا الحكم ليس له أي أساس من الصحة ، إذ قد تبدو اللغات الأوروبية غير منطقية كذلك لأفراد هذه القبائل .(1)

وكما قال ليونز (Lyons): " إن بوعز قد توصل إلى أن درجة التنوّع بين اللغات الإنسانية هي أوسع مدى مما يظنه المرء ، وخاصة إذا ما حاول إرساء قوانين عامة (generalisation) تعتمد على الوصف النحوي الخاص باللغات الأوروبية المألوفة."(2) وفي الواقع فإن هذا الباحث قد قدّم خدمة جليلة للغات المحليّة ، و وضع أسس اللسانيات الأمريكية الوصفيّة . وليس من المستغرب أن يكون كلّ أعلام اللسانيات الأمريكية قد تتلمذوا على يديه سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

9 ـ 3 ـ أدوارد سابير (1884 ـ 1939)

تخصّص " أدوارد سابير " (Edward Sapir) كغيره من الباحثين الأوروبيين في الدراسات الفيلولوجية ، ولكن عندما التقى لأول مرّة باللساني الأنثروبولوجي " فرانز بوعز " سنة 1904م سرعان ما تأثر به ، واجتذبه المنهج اللساني الأنثروبولوجي ، فاتجه إلى الدراسة الحقليّة وانكب على دراسة اللغات الهندية الأمريكية المتناثرة على طول ساحل المحيط الهادئ للولايات المتحدة الأمريكية .

وفي الواقع ، لم يكن " سابير " منشغلا بالأنثروبولوجيا واللسانيات فحسب ، بل بالأدب والفن والموسيقى أيضا ، ولهذا رأى أنّه لا ينبغي فصل الدراسة اللغوية عن دراسة باقي مظاهر السلوك البشري ، وعن علم النفس وعلم الاجتماع. وهذا ما جعله يركز كثيرا على الجانب الإنساني للغة وعلى بعدها الثقافي ، وعلى أسبقية الفكر على الإرادة والأحاسيس.

(1) Ibid. , p. 59.
(2) J. Lyons, New Horizons in Linguistics , Penguin, 1970, p. 28.

ولئن كان " سابير " قد ترك عدة مقالات ، فإنه لم يُخلف لنا إلا كتابا واحدا « اللغة » language الذي صدر في 1921م ، بعد عشر سنوات من ظهور كتاب " بوعز " « الدليل » وقبل اثنتي عشرة سنة من ظهور كتاب بلومفيلد الذي يحمل العنوان نفسه « اللغة » ولكنه يختلف في الأصل شكلا ومضمونا . وفي هذا الخصوص ، ذهب " سامبسون " إلى القول بأن معظم عمل سابير يشبه إلى حدٍّ بعيد عمل اللسانيين الوصفيين ، ولكن الشيء الذي ميّز سابير عن السلوكيين هو تشديده على أن الأنماط التي يكتشفها التحليل اللساني هي أنماط موجودة في عقول المتكلمين ، وإذا ما أراد الباحث أن يعرف بنية أيّة لغة ، فما عليه إلا أن يرجع إلى الناطقين بها ويستقصيهم .[1]

ونلاحظ من خلال كتابات سابير أنه كان يؤكد كثيرا على دراسة الأشكال اللغوية (linguistic forms) دراسة تحليلية تصنيفية دون تصورات مسبقة ، ودون محاولة إقحام أنماط من لغات أخرى ، لأن هذه الأشكال هي أهم مظاهر اللغة ، ولكن هذا لا يعني تناولها بطريقة مستقلة عمّا تؤديه من وظيفة . ومن هنا كان رفض " سابير " الاعتماد على التقسيم التقليدي "لأقسام الكلام " (parts of speech) في دراسته الوصفية للغات الهندية . وذهب إلى أن هذه الأقسام ليست بأيّ حال من الأحوال " كليّات لغويّة " (linguistic universals)، أو حتى وحدات وظيفية طبيعية ، بل إن لكل لغة أقسامها الخاصة وأنماطها المتميّزة.[2] وقد أكّد كذلك أن كل لغة تملك من الأصوات والبنى والمفردات ما يكفيها لتلبية حاجياتها ، وقد لا تملك لغة أخرى ما تملكه اللغة الإنجليزية من مفردات ، ولكن هذا لا يعني أنها لغة بدائية.

9 ـ 4 ـ نظرية " سابير " و " وورف ":

من الأهمية بمكان أن نذكر في هذا المقام فكرة أسالت الكثير من المداد، وفتنت العديد من اللسانيين على اختلاف مشاربهم . وهي التي اقترن بها اسم كل من " سابير " (Sapir) و"وورف " (Whorf)، وأصبحت تعرف باسم " فرضية سابير و وورف" (Sapir - Whorf Hypothe-sis)، ومفاد هذه الفكرة أن العالم الذي يعيش فيه الإنسان قفص لغوي ، وأن لغة المرء تؤثّر على تفكيره ، وعلى إدراكه للواقع ، ورؤيته للأشياء . وعلى حدّ قول " سابير " : " إن الناس يعيشون تحت رحمة اللغة التي أصبحت وسيلة للتعبير في مجتمعهم ... وإن العالم الحقيقي مبني إلى حد كبير - وبدون وعي - على العادات اللغوية للمجتمع . "[3] وفي مقال آخر ذهب

(1) G.Sampson, Op. Cit. , p. 82.

(2) Edward Sapir, Language, 1933, p. 119.

(3) Edward Sapir , " The status of linguistics as a science", language, vol. 5,1929, p. 209.

إلى " أن اللغة لا ترجع إلى الخبرة المكتسبة في غالب الأحيان دون مساعدتها فحسب بل تعد خبرتنا أيضا بسبب اكتمالها الشكلي وتصورنا غير الواعي لتوقعاتها الضمنية داخل مجال الخبرة ... وأن هذه المقولات مثل العدد، والجنس، والحالة، والزمن لم تُكتشف عن طريق الخبرة ، بل فُرضت عليها بسبب القبضة الاستبدادية التي يمارسها الشكل اللغوي على توجهاتنا في العالم ."[1]

أمّا " وورف " فقد ذهب إلى حد القول : " بأنه لو كان رجال الهوبي (Hopi) هم الذين طوروا النظريات العلمية الموجودة اليوم ، لكانت الفيزياء الحديثة مغايرة تماما لما هي عليه الآن منسجمة مع نفسها ومقنعة في ان واحد." وانطلاقا من هذا ، فقد رأى " بأن فيزياء نيوتن (Newton) قد حصل عليها جاهزة من لغته ، ولكن النظر إلى الفيزياء التي طورها نيوتن على أنها معالجة دقيقة للفطرة السليمة تُعدُّ وهما مستخلصا من المرحلة الطويلة التي احتاجها قبول فيزياء نيوتن على أنها حقيقية."[2] وبهذا يرى وورف أن للمنطق صلة وثيقة باللغة حيث إنه لو كان أرسطو من الهوبي ، لكان المنطق الحديث والفيزياء الحديثة قد تطورا تطوّرًا مختلفا تماما.[3] وهذا يعني أن الأشكال اللغوية قد أثّرت في تطور المنطق والفيزياء وغيرهما من العلوم الأخرى ، وأن اللغة ـ لامحالة ـ تفرض على أبنائها طريقة خاصة في التفكير.

وفي الحقيقة ، إن هذه الفرضية كما قال ليونز (Lyons) تجمع بين الحتمية اللغويّة (أي أن اللغة تحدد الفكر) و النسبية اللغوية (أي أن هناك اختلافا كبيرا في بنية اللغات) .[4] ويبدو أنه على الرغم من وجود جانب من الصحة في هذه الفرضية ، فإن هناك تأثيرا متبادلا بين لغة المجتمع ونمط تفكيره . ولئن كانت هذه الفرضية تعلمنا أن لا نحترم الأفكار المسبقة وأن لا نصدق كلّ ما يقدم إلينا على أساس أنّه علميّ ، وأن ننظر إلى الأشياء بعين النقد ، إلا أنه لا ينبغي أن نتجاهل مقدرة الفرد على الخلق والإبداع ، وتحطيم كل القيود اللغوية التي قد تُفرض عليه شعوريًا أو لا شعوريًا.

(1) Edward Sapir, Conceptual categories in primitive languges, Science, Vol.74, 1931, p. 578.
(2) B.L Whorf, Language, Thougt, and Reality: Selected Writings of Benjamin Les whorf, ed. J.B caroll, MIT press, 1956, p. 153.
(3) Ibid, P 241.
(4) J. Lyons, Language and Linguistics , Cambridge University Press, 1981, P. 304.

لقد ألح سابير والوصفيون عامّة إلحاحا لا نظير له على التنوع الموجود بين اللغات وجعلوه مسلمة أساسية واستراتيجية ضرورية لوضع حدّ للافتراضات المسبقة. وفي رأيهم أنه لا يمكن لأي باحث أن يدرس لغة غريبة عنه دراسة علمية إذا كان يعتقد سلفا بأن بنيتها تشبه بنية لغة أخرى يعرفها من قبل. وفي الواقع ، إن سابير قد أسهم إسهاما كبيرا في إرساء أصول اللسانيات الوصفية في أمريكا . ويبدو أن نظرته إلى اللغة وعلاقاتها الوطيدة بالحياة عامة وبالفكر خاصة ترجع أساسا إلى تأثره بأفكار العالم اللغوي الألماني همبولت . ونظرا للمكانة العلمية التي بلغها سابير ، فإن كثيرا من آرائه قد تبناها تشومسكي فيما بعد . وخير دليل على مكانة سابير ما صرح به ليونز (Lyons) " بأن عمل سابير لازال يستقطب انتباه اللسانيين إلى اليوم ، ومع هذا فلا توجد مدرسة " سابيرية " كما توجد مدرسة "بلومفيلدية " في اللسانيات الأمريكية ، وهذا ليس بالأمر الغريب."[1]

9ـ 5ـ ليونرد بلومفيلد (1887ـ 1949)

على الرغم من المكانة التي حظي بها كلّ من بوعز وسابير بين الباحثين ، فإن اللساني الذي يُعدُّ اليوم الممثل الرئيس للمدرسة الوصفية والذي صبغ اللسانيات الأمريكية بصبغة خاصة هو ليونرد بلومفيلد (Leonard Bloomfield).

9ـ5ـ1ـ حياته ونشاطاته:

ولد بلومفيلد بشيكاغو عام 1887 م من أب فندقيّ، وتابع دراسته الأكاديمية بالمدينة نفسها . التحق بجامعة هارفرد في سنة 1903م ، وحصل على الماجستير (MA) في عام 1906م. وفي السنة نفسها ، بدأ يُدرّس بجامعة فيسكونسين (Wisconsin) بوصفة أستاذا مساعدا في اللغة الألمانية . وبعدها انتقل إلى جامعة شيكاغو أين حصل على الدكتوراه في عام 1909 . وقد هاجر إلى أوروبا، ومكث بها عاما كاملا حيث تابع في ليبزيغ (Leipzig) وغوتينغن (Göttingen) محاضرات أعظم علماء اللسانيات المقارنة أمثال لسكين (Leskien) وبروغمن (Brugmann). درّس الفيلولوجيا الجرمانية في جامعات عديدة بالغرب الأوسط من الولايات المتحدة الأمريكية ، وأخذ على عاتقه دراسة اللغات الهندية الأمريكية الألغونقوية (Algonquian) وبعض اللغات الهندية الأخرى المنتشرة في جزر الفيلبين .

(1) John Lyons, Chomsky, 1970, p. 30.

ومع مرور الزمن ، أصبح بلومفيلد يعتني أكثر فأكثر باللسانيات الوصفية والبنيوية ، وذهب إلى أن الدراسة اللغوية التقليدية التي ظهرت قبل اللسانيات التاريخية تعد دراسة غير علميّة لأنها استدلالية ومعياريّة ، وأكد على أن دراسة اللغة يجب أن تكون وصفية واستقرائية.[1]

وفي سنة 1914 ، ألّف بلومفيلد كتابا بعنوان: «مدخل إلى دراسة اللغة» (Introduction to the Study of Language)، وقام بمراجعته وإخراجه تحت عنوان: «اللغة» (Language) سنة 1933م بعدما تشبع بمبادئ السلوكية (Behaviorism). وبالفعل ، لقد أعلن بلومفيلد صراحة عن التزامه بهذا المذهب بعَدّه إطارا نموذجيا لوصف اللغة . ونظرا لأهمية هذا الكتاب الذي يُعدّ مصدرا أساسيا في اللسانيات الوصفية ، فقد أطلق عليه الأخصائيون اسم " إنجيل اللسانيات الأمريكية" .

وفي عام 1940 خلف بلومفيلد سابير لتعليم اللسانيات العامة بجامعة ييل (Yale)، ولكن في عام 1946م، أصابه فالج شقيّ (شلل) منعه من القيام بأيّ نشاط ، وبقي على هذه الحالة الصحية المتدهورة حتى وافته المنية عام 1949م.

9ـ5ـ2ـ منهجه الدراسي :

بعد دراسة معمقة لتطور الدراسات اللغوية ، شدّد بلومفيلد تشديدا لا مثيل له في تاريخ اللسانيات على جعل دراسة اللغة دراسة علميّة ومستقلة. وذهب إلى أن اللسانيات شعبة من شعب علم النفس السلوكي (Behavioristic psychology)، وقد كان متأثرا في منحاه هذا بواطسون (Watson) مؤسس المذهب السلوكي في علم النفس ، وحاول على هذا الأساس تفسير " الحدث الكلامي " (Speech act) من منظور سلوكي بحت رافضا بذلك الدراسة العقلية التي كان هو بالذات من أنصارها .

أطلق بلومفيلد على المنهج الذي اتبعه في دراسة اللغة اسم المنهج المادي (materialistic) أو الآلي (mechanistic). وهو الذي يفسر السلوك البشري في حدود المثير (stimulus) والاستجابة (response) على غرار ما تقوم به العلوم الفيزيائية والكيمياوية في اعتمادها في تفسير الظواهر على تتابعات العلة والأثر (Cause - and - effect sequences) ، وقد رفض المنهج الذهني (mentalism)

(1) Leonard Bloomfield, Language, New York, 1933, p. 20.

الذي كان متداولا في عصره على أساس أنه لا يعتمد في تفسير الظواهر على المبادئ العلمية التجريبية ، بل يرجع السلوك البشري إلى عوامل غير فيزيائية كالروح ، والعقل ، والإرادة التي تُعدّ غير قابلة للملاحظة والوصف العلميين ، ولذلك لا يمكن التنبؤ بالسلوك البشري بما في ذلك الحدث الكلامي.[1]

وكما وضّح ذلك ليونز (Lyons) " فإنّ بلومفيلد قد فهم مصطلح " علميّ " - وهذا تأويل شائع في عصره - على أنّه يتضمن الرفض التام للمعطيات (Data) غير القابلة للملاحظة المباشرة والقياس المادي ، وحسب " واطسون " وأتباعه ، فإن علماء النفس ليسوا في حاجة إلى التسليم بوجود العقل أو أيّ شيء آخر لا يمكن ملاحظته لتفسير تلك النشاطات والقدرات الخاصة بالكائنات البشرية التي وصفها علماء النفس التقليديون بأنها ذهنيّة ، أي أن سلوك أي كائن حي ، ابتداء من الأميبيا ، وانتهاء بالكائن البشري ، لا يجب أن يُوصف أو يُفسر إلاّ في حدود استجاباته لمثيرات نابعة من البيئة. والمسلم به هنا هو أن تعلم الكائن الحي لهذه الاستجابات يمكن تفسيره بطريقة مرضية بوساطة القوانين الفيزيائية والكيمياوية المألوفة، وذلك على غرار ما يفعله الباحث لتفسير كيف أن التّرموستات (Thermostat) " تتعلم " الاستجابة لتغيّرات درجة الحرارة ، وتجعل الفرن يشتعل أو يتوقف أحيانا."[2]

ومما لاشك فيه أن هناك مبالغة كبيرة من قبل بلومفيلد في تركيزه على الجانب الآلي وتشبيه السلوك البشري بسلوك الأميبيا ، أو القطط ، و القردة ، والكلاب التي تجرى عليها التجارب في المتاهات والمخابر . فالإنسان يتميّز عن باقي الحيوانات بالعقل الذي يُعدُّ ملكة مبدعة خلاّقة لا توجد في غير جنس البشر ، ولكن بلومفيلد تجاهل الجانب الخلاّق في اللغة الذي كان قد أكّد عليه ديكارت وهمبولت من قبل ثم تشومسكي فيما بعد. وهذا ما فتح عليه باب الانتقادات من قبل العقلانيين.

وفي الحقيقة، فقد اتّخذ بلومفيلد هذا الموقف الخاص بالعلميّة في وقت ظهرت فيه الفلسفة الوضعية (positivism) التي تعنى بالظواهر اليقينية ، وترفض كل تفكير تجريدي في

(1) Ibid. , pp. 32 - 33.
(2) John Lyons, Op. Cit. , p. 30.

الأسباب المطلقة : أي أن هذه الفلسفة لا تُسلم إلا بما هو مرئي وتجريبي ، وتنفي صفة العلميّة عمّا سوى ذلك. ولم يكن بلومفيلد متأثرا بهذه الفلسفة فحسب ، بل كان من الدعاة المتحمسين لتطبيقها في دراسة السلوك البشري بما في ذلك اللغة.

إن اللغة - حسب بلومفيلد - سلوك فيزيولوجي يتسبب في حدوثه مثير معيّن ، وعلى الرغم من أننا نستطيع مبدئيا أن نتنبأ إذا ما كان مثير معيّن يمكن أن يدفع شخصاً ما إلى أن يتكلم ، أو حتى إلى ما سيقوله بالضبط ، ففي الواقع ، إنه لا يمكن أن نتنبأ إلا إذا عرفنا البنية الدقيقة لجسمه في تلك اللحظة.[1]

ولتوضيح الموقف الذي تستعمل فيه اللغة ، جاء بلومفيلد بهذا المثال البسيط ، ولكنه يمثل بحق الحدث الكلامي.

" افترض أن جاك (Jack) وجيل (Jill) كانا يتنزهان بين صفوف الأشجار ، وشعرت جيل بالجوع ، ثم رأت تفاحة على شجرة ، فأصدرت صوتا بحنجرتها ولسانها ، وشفتيها. فقفز جاك فوق السياج، وتسلق الشجرة ، وقطف التفاحة ، وأتى بها إلى جيل ، ووضعها في يدها فأكلتها."[2]

وقد قام بلومفيلد بتحليل هذه القصّة كما يلي :

1 - أحداث عملية سابقة الحدث الكلامي.

2 - الحدث الكلامي.

3 - أحداث عمليّة تابعة للحدث الكلامي.

S --------> r .... s ----------> R

إن الخطوط المتقطعة في هذا الشكل تمثّل الحدث الكلامي الذي يملأ الفراغ بين جسمي المتكلم والسامع ، وإن المثير (S) يعادل الأحداث العملية السابقة للحدث الكلامي ، وإن الاستجابة (R) تعادل الأحداث العملية التابعة للحدث الكلامي . ويدلُّ الحرف (r) على الاستجابة البديلة والحرف (s) على المثير البديل.[3]

(1) Leonard Bloomfield, Op. Cit. , p. 33.
(2) Ibid. , p. 23.
(3) Ibid. , p. 26.

وفي رأي بلومفيلد ، أن شعور "جيل" بالجوع " يعني أن بعض عضلاتها كانت تتقلص وأن بعض السوائل كانت تفرز على مستوى المعدة " . وأن رؤيتها للتفاحة " يعني أن موجات ضوئية انعكست من التفاحة على عينيها ". فالشعور بالجوع ورؤية التفاحة يمثلان المثير (S) أما الاستجابة المباشرة للمثير فهي أن تتسلق جيل الشجرة ، وتأتي بالتفاحة لنفسها (R) ولكنها بدلا من ذلك تقوم باستجابة بديلة substitute response (r) على شكل سلسلة معينة من الأصوات بأعضائها الصوتية . وهذه الأصوات تقوم بدور المثير البديل substitute response (s) بالنسبة لـ : جاك جاعلة أياه يتصرف كما لو كان هو نفسه جائعا ثم رأى التفاحة.

وفي هذا المنحى ، يقول بلومفيلد : " إن الكلام الذي هو تافه وغير هام في حدّ ذاته له شأن كبير لأن له معنى . ويشتمل هذا المعنى على الأشياء الهامة التي يرتبط بها الكلام وخاصة الأحداث العمليّة." (1) وفي الحقيقة ، إن بلومفيلد لم يستدل بالمنهج السلوكي إلاّ في حديثه عن المعنى . ومع هذا ، فهو يرى " أن تحليل المعنى هو أضعف نقطة في دراسة اللغة وسوف يظل هكذا حتى تتقدم المعرفة الإنسانية أكثر مما هي عليه في الحالة الراهنة."(2)

إن موقف بلومفيلد الصارم من مبدإ " العلمية " هو الذي حال دون دراسته للمعنى فقد ألح إلحاحا شديدا على عدم إقحام المعنى والمعايير غير اللغوية في دراسة اللغة ، وذلك لأن التعريف الدقيق للمعنى الذي يتضمنه أي شكل لغوي يتطلب منا معرفة علميّة عميقة بالأشياء ، والحالات ، والعمليات التي يدلّ عليها . ولئن كان بإمكان اللساني تعريف عدد قليل من الكلمات مثل أسماء النبات ، والحيوان ، والمواد الطبيعية بمساعدة المصطلحات العلمية الموجودة في بعض العلوم كعلم النبات ، والحيوان ، والكيمياء ، والعدانة ، فإنه لا يمكنه تعريف معظم الكلمات الموجودة في اللغة مثل الحب والكراهية.

ومما يمكن قوله : إن كتاب بلومفيلد « اللغة » بقي مرجعا أساسيا بعد أكثر من ثلاثين سنة من ظهوره ، وإن تفسير بلومفيلد للسانيات قد هيمن على موقف معظم اللسانيين الأمريكيين من 1933م حتى 1957م ، وإن جلّ العمل الذي أنجز في هذه السنوات عدّه

(1) Ibid., p. 27.
(2) Ibid., p. 140.

القائمون به مجرد شرح أو تطوير للأفكار التي أتى بها بلومفيلد . وخير دليل على هذا أن هذه المرحلة أصبحت تعرف في تاريخ اللسانيات بالعهد البلومفيلدي (Bloomfieldian era).

9 ـ 5 ـ البنيوية.

بشكل عام ، كان معظم اللسانيين الأمريكيين في هذا العهد من دعاة البنيوية (Structuralism). وكما تدل التسميّة ، فالبنيوية تعني أن لكل لغة بنية . وبهذا المعنى فإن كل اللسانيين بنيويون لأنهم يدرسون بنية اللغة ، ويبحثون عن الانتظام ، والاطراد ، والقوانين التي تحكمها . وقد انكب هؤلاء البنيويون على دراسة اللغة ، وخاصة المنطوقة ، في الإطار الذي رسمه بلومفيلد في الثلاثينيات دراسة وصفية (descriptive) ومن هنا عُرفوا بالوصفيين (descriptivists) كذلك .

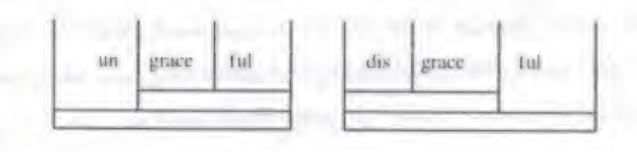
وتبنى البنيويون دراسة الظواهر حسب الأولوية : أي أن الأشياء التي لا يمكن مشاهدتها ودراستها بطريقة موضوعية يجب تأجيلها إلى أن تتطور المعرفة العلمية . وقد اتبع البنيويون طريقة بلومفيلد في التحليل ، وذلك بتقسيم اللغة إلى مستويات ، وعدم الخلط بينها: (1) المستوى الفونيمي (phonemic level) الذي يحتوي على وحدات صوتية ، (2) والمستوى المورفيمي (morphemic level) الذي يتضمن وحدات معجمية (كالمفردة، والسابقة prefix، واللاحقة suffix ، والداخلة infix ، والساق (stem) ، والجذر (root)، (3) والمستوى التركيبي (syntactic level) الذي يحتوي على تراكيب أوسع من الكلمة كشبه الجملة والجُملة (clause) (4) والمستوى الدلالي (semanitc level) الذي لم يتناوله البنيويون لأنهم كانوا يركزون على التحليل الشكلي.

وقد أولى البنيويون اهتماماتهم بالفونولوجيا أولا وبالمورفولوجيا ثانيا ، ولكنهم لم يهتموا بالتركيب إلا قليلا ، وتجاهلوا الدلالة تجاهلا تامّا لأن المعاني - في رأيهم - غير خاضعة للمشاهدة ، وبالتالي لا يمكن دراستها دراسة علمية. أما عن طريقة التحليل ، فيبدأ البنيويون عادة بعملية التقطيع (Segmentation)؛ أي فصل القِطع (segment) عن القطع المجاور له : وبعبارة أخرى فهو تحليل المُتّصِل الكلامي إلى الوحدات الصغرى التي يتألف منها ، سواء

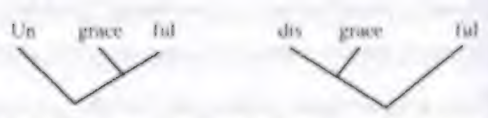
أكانت غرافيمات أم فونيمات أم مورفيمات. والهدف من وراء التقطيع هو وضع أبجديات اللغات الهندية الأمريكية التي لا تعرف أنظمة كتابية لأن الحروف والأصوات تختلف من لغة إلى أخرى. وعلى سبيل المثال ، هناك لغات لا تحتوي إلا على اثنى عشر فونيما كلغة الهاواي، ولغات أخرى قد تصل إلى حوالي خمسين فونيما كاللغة الجورجية . وقد استعمل المبشرون التقطيع لتدوين لهجات المجتمعات الهندية حتى تتم ترجمة الكتاب المقدس إليها.

وبعد تقطيع الفونيمات وضبطها، ينتقل البنيويون إلى تحليل المورفيمات، وتصنيفها وشرح كيفية بنائها على مستوى المفردات والعبارات والجمل . وقد تبنوا في هذا العمل تقنية خاصة تعرف باسم : " التحليل إلى المكوّنات المباشرة " (Immediate Constituents Analysis) وتتمثل في تقسيم الجملة إلى مكوناتها المباشرة ؛ أي أننا نأخذ الجملة ، ونقسمها إلى مكونين اثنين ثم نقسم هذين المكونين إلى مكونين آخرين، ونستمر في التقطيع حتى نصل إلى أصغر الوحدات التركيبية أي المورفيمات . أمّا إذا استحال التقسيم إلى اثنين، فبإمكاننا التقسيم إلى ثلاثة أو أربعة مكونات . ويبدو أن التقطيع مازال معمولا به في التركيب (syntax) والمورفولوجيا ويُعدّ ضروريا في اللغات اللاصقة (agglutinative) أكثر من اللغات العازلة والمتصرفة.

ففي كلمة « ungraceful » مثلا ، يُلحق المورفيم « ful » بـ : « grace » ، ويلحق المورفيم « un » بـ : « graceful » . أما في كلمة « disgraceful » ، فيُعدُّ المورفيم « dis » مكونا مباشرا لـ : « grace » وكلمة « disgrace » مكونا مباشرا لـ : « ful » . ويمكن تمثيل هذه العلاقات كمايلي:



كما يمكن تمثيل العلاقات نفسها في هذين المشجرين:



ولو أخذنا هذه الجملة : « نسي الطالب كتاب القواعد » ، وحاولنا تحليلها، لحصلنا على هذا التمثيل:

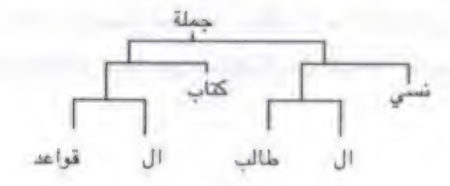
نسي	الطالب	كتاب	ال	قواعد
نسي الطالب		كتاب	قواعد	
		كتاب القواعد		
نسي الطالب كتاب القواعد				

ولتوضيح عملية التقطيع ، يستعمل البنيويون خطا عموديا قصيرا للتقسيم الأول، وخطين قصيرين للتقسيم الثاني ، وهكذا حتى يصلوا إلى هذا الشكل :

نسي || ال ||| طالب | كتاب || ال ||| قواعد. أما الطريقة الشائعة لهذا النوع من التحليل فهي التمثيل بالأقواس (Bracketing)، وقد استلهمها بلومفيلد من الجبر.

(((نسى ((ال)) ((طالب))) (((كتاب ((ال)) ((قواعد)))

وأحسن طريقة لتمثيل العلاقة بين المكونات هي المشجر (tree diagram).



وفي الحقيقة، لقد اسهم كثير من اللسانيين ، والأنثروبولوجيين ، والمبشرين في تطوير مناهج عملية وتقنيات خاصة بدراسة اللغة من أمثال هوكيت (Hockett)، وهاريس (Harris)، وبايك (Pike) ، وبوجين نيدا (Eugen Nida)، غير أن المقام هنا لا يتسع لذكرهم جميعا ، أما الشيء الذي ينبغي ذكره هو أنه مع نهاية العهد البلومفيلدي ، ظهر كتاب قيّم جمع بين طياته كلّ ما يتعلق بالبنيوية الأمريكية تنظيرا وتطبيقا بعنوان: << *مناهج اللسانيات البنيوية* >> لـ : زليغ هاريس وذلك عام 1951م.(Zellig Harris, Methods in Structural Linguistics, (1951

وقد حاول هاريس في مؤلفه هذا وضع جملة من المناهج البنيوية لوصف اللغة في إطار ما أسماه " منطق العلاقات التوزيعية ". وما يُعرف عن " هاريس " هو أنه قبل أن يصير منظرا للتوزيعية (distributionalism) كان أحد الممثلين الموهوبين للجيل البلومفيلدي الثاني ، ولكنه مع مرور الزمن تأكد من بعض نقائص التحليل التوزيعي ، فحاد عنه ، ولجأ إلى فكرة التحويل. والحق أن " هاريس " هو أول من نادى بالمنهج التحويلي في دراسة اللغة ، وقد ظهر عنده هذا التوجه الجديد منذ 1952م في مقاله : " الثقافة والأسلوب في الخطاب المطوّل "

" Culture and Style in Extended Discourse"

وقام " هاريس" بتطوير هذه النظرة التحويلية الجديدة في بعض مقالاته وخاصة في هذين المؤلفين : (1) << *البنى الرياضية للغة* >>.

Mathématical Structures of Language, (New York, Interscience Publishers, 1968)

(2) << أبحاث في اللسانيات البنيوية والتحويلية >> :

Papers in Structural and Transformational Linguistics, (Dordrecht, 1970)

والتوزيع عند هاريس ، هو مجموع السياقات التي يرد فيها مكوّن لغوي ما ، ومدى تأثير هذه السياقات على هذا المكوّن سواء أكان فونيما أم مورفيما . وعلى خلاف بلومفيلد استعمل هاريس مقياس المعنى ومقياس التوزيع لتحديد البنى الفونولوجية والتركيبية . أما فيما يتعلق بالتحويل ، فقد طوّر مفهومي الجملة النواة (Kernel sentence) والتركيب المحوّل (transform) اللذيْن تبناهما تشومسكي فيما بعد ، وأكّد أن ثمة تشابها كبيرا بين اللغات على مستوى الجمل النواة واختلافا نسبيًا على مستوى الجمل المحوّلة . وباختصار شديد ، لقد

ظلت أبحاث هاريس في المجال التحويلي غير معروفة كثيرا من قبل جمهور القراء ، ويعود هذا إلى ظهور القواعد التوليدية التحويلية لـ : تشومسكي التي أحدثت ثورة في حقل اللسانيات واستقطبت اهتمام كلّ الباحثين من اللسانيين وغيرهم.

وبعد ، فهذه هي أهم النقاط التي اعتنت بها البنيوية الأمريكية ، وقد تحتاج كل نقطة من هذه النقاط إلى الدرس المعمّق من قبل كلّ من أراد التفصيل أكثر ، ومهما يكن من أمر فإن المنهج الوصفي ظل مسيطرا على اللسانيات الأمريكية والأوروبية حتى سنة 1957م ، حيث ظهر تيار جديد على يد تشومسكي في مؤلفه : *البنى التركيبية* :<< Syntactic Structures >> أطلق عليه القواعد التوليدية التحويلية ، وسنتعرف عليه بالتفصيل في الفصل اللاحق.

الفصل العاشر

القواعد التوليدية التحويلية

إن التغيّر الجذري في إتجاه السانيات الوصفية قد حدث في عام 1957م عندما أصدر تشومسكي مؤلفه الشهير: « البنى التركيبية » Syntactic Structures، معلنا بذلك عن منهج جديد لدراسة اللغة ، أطلق عليه اسم القواعد التوليدية التحويلية (Transformational Genera-tive Grammar)، وقد أحدث هذا التيار العقلاني ثورة في عالم اللسانيات.

10 ـ 1 من هو تشومسكي ؟

أفرام نوعم تشومسكي (Avran Noam chomsky) لساني أمريكي من عائلة روسية إسرائلية متطرفة في أفكارها السياسيّة. ولد في مدينة فيلادلفيا بالولايت المتحدة الأمريكية في 7 ديسمبر 1928م ، و درس بجامعة بنسلفانيا الفلسفة ، واللسانيات ، والرياضيات ، وحصل على الماجستير في " علم الفونيمات الصرفي للعبرية الحديثة " Morphophonemics of Modern Hebrew في عام 1955 . وبعد هذا التحصيل الأكاديمي ، عُيّن أستاذا للسانيات بمعهد ماساتشوست التكنولوجي أين تدرس الرياضيات ، والمنطق ، واللسانيات ، وعلم النفس والترجمة الآلية وغيرها من الفروع التي تساعد على النضج الفكري ، ومازال يشغل هذا المنصب إلى يومنا هذا.

وبما أن تشومسكي قد تتلمذ على يد " هاريس " الذي يُعدُّ قطبا من أقطاب المدرسة الوصفيّة فهو في الحقيقة نتاج وسط بلومفيلدي ، ولكنه خالف ـ كما خالف أستاذه في الأخير ـ المنهج الوصفي ، وتبنى فكرته الجديدة في التحويل ، وأراءه السياسية الراديكاليّة . ومن جهة أخرى ، فقد تأثّر تشومسكي كثيرا بفكر ياكبسون (Jackobson) الذي كان ينادي بوجود "كليّات فونولوجية " (Phonological universals) في جميع اللغات ، ويعتقد أن ثمة " كليّات " أو عموميات لغوية على مستويات أخرى من التركيب اللغوي التي هي في أمس الحاجة إلى البلورة والتطوير . ومن هاتين الفكرتين انطلق تشومسكي في تجسيد منهجه الجديد ، وبناء نظرية أكثر نفاذا ورواجا من النظريات اللسانية الأخرى ، معتبرا موقع التركيب من اللغة بمثابة القلب من جسم الإنسان.

إن شهرة تشومسكي لا تعود إلى عمله النظري في اللسانيات فحسب ، بل إلى عمله السياسي الناهض للسياسة الأمريكية الداخلية والخارجية ، وبخاصة تلك التي انتهجتها في الحرب الفيتنامية . وقد عبّر عن أرائه السياسية في مؤلفه هذا: American Power and the New Mandarins . وفي الواقع ، إن انتسابه إلى « الجماعة اليهودية الراديكالية في نيويورك » وجاء بفضل الفكر الاشتراكي عماً سواه ، وكانت منطلقاته السياسية لا تختلف عن منطلقاته الفلسفية التي أقام عليها منهجه في اللسانيات.

10 ـ 2 القواعد التوليدية التحويلية ، النشأة والتصور:

استفادت هذه القواعد من النتائج التي توصل إليها النحو التقليدي والنحو الوصفي فأخذت نقاط القوة منهما ، وانتقدت نقاط ضعفهما . ولئن كان تشومسكي قد اعترف ببعض جوانب القوة في النحو التقليدي ، فإنه انتقد على الخصوص شكله العام ، وتعريفاته ، وقواعده الغامضة. والطريف أنه في الوقت الذي كان فيه نلسون فرانسيس (Nelson Francis) منهمكا في إظهار نقائص النحو التقليدي وتقديم النحو الوصفي كبديل وثورة على كلّ قديم [1] معبّرا بذلك عن الآراء السائدة آنذاك ، كان تشومسكي قد أعلن أن النحو التقليدي يعطي تصورا أكثر عمقا وملاءمة عن طبيعة اللغة . وقد صرّح في كتابه : « اللسانيات الديكارتية » " أن عدم استمرار التطور في النظرية اللسانية كان قد أضرّ بها ، وأن الفحص الدقيق للنظرية اللسانية الكلاسيكية ونظرية العمليات العقلية المرافقة لها قد يثبت لنا في المستقبل أنه عمل ذو قيمة كبيرة . "[2] وقد بلغ به الأمر إلى القول في المصدر نفسه : " إن نظرية القواعد التوليدية التحويلية في تطورها الحالي ما هي إلا نسخة حديثة ومعدّلة عن نظرية بور رويال . "[3]

أما فيما يخص السلوكية في اللسانيات ، فإن تشومسكي لم يرفضها فحسب ، بل حاربها في عقر دارها ، وقوّض الدعائم التي يقوم عليها علم النفس السلوكي بشكل عام . وقد

(1) CF. N. Francis 'Revolution in Grammar', In Quarterly Journal of speech, 40, 1954.
(2) N. Chomsky, Cartesian Linguistics , 1966, p. 73.
(3) Ibid, p. 39

انتقد تشومسكي كتاب سكينر: << السلوك الكلامي >> :B.F.Skinner: (1957), Verbal Behavior في مقال له بعنوان " مراجعة كتاب سكينر : السلوك الكلامي

" Review of B.F. Skinner : Verbal Behavior ", Language 35, 1959 pp. 26 - 58

والتذكير أنّ سكينر كان من أبرز علماء النفس السلوكيين و أشدهم نفوذا، ويُعدُّ مؤلفه هذا من أهم المؤلفات التي تناولت اكتساب اللغة في إطار نظرية التعليم عند السلوكيين. وقد بيّن تشومسكي في هذا المقال قدرته العلمية الفائقة ومعرفته الواسعة بعلم النفس، وأهم المبادئ التي انبنى عليها المذهب السلوكي كالمثير، والاستجابة، والتقوية (reinforcement) والتقليد، والقياس، وذهب إلى أن الإنسان لا يختلف عن الآلة أو الحيوان بالفكر والذكاء فحسب، بل بقدرته اللغوية، وأن سلوكه لا يمكن رصده واكتشافه من خلال العمليات الشكلية التي اعتمدها الوصفيون، والتي أطلق عليها تشومسكي مصطلح " إجراءات الاستكشاف " (discovery procedures).

إن البنيوية - في رأي تشومسكي - اكتفت بوصف التراكيب اللغوية وتحليلها بطريقة شكلية، متجاهلة بذلك الدور الذي يلعبه المعنى على مستوى اللغات، ولم تحاول تحديد القواعد التي يلجأ إليها المتكلم عند تكوين جمل غير محدودة، ومن ثمة فإنها لم تعر أيّ اعتبار للكفاءة اللغوية. وبالإضافة إلى هذا، فالبنيوية لم تلق النجاح اللازم لأنها اهتمت بالبنية السطحية فقط، ولم تتمكن بذلك من وضع قوانين شاملة وتعميمات عميقة. وعلى العكس من ذلك، فإن القواعد التوليدية التحويلية لم تتوقف عند وصف اللغة، بل تعدته إلى تحليلها، وتفسيرها، واستنباط القواعد العامة التي تحكمها.

والفرق الجوهري بين تشومسكي والوصفيين هو أن تشومسكي ينتمي إلى العقلانيين (rationalists) مثل أفلاطون، وديكارت، وهمبولت الذين يعتقدون أن العقل في ذاته مصدر كل معرفة، وهو أسمى من الحواس، ومستقل عنها، وأن هناك متصورات وقضايا مسبقة مكتسبة دون تجربة، يقوم العقل من خلالها بتفسير معطيات التجربة. أما الوصفيون فقد تبنوا المذهب التجريبي (Empiricism) الذي كان لوك (Locke) وهيوم (Hume) من دعاته، والذي

ينص على أن المعرفة لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق التجربة المستمدة من الحواس. وإذا كان الوصفيون لا يعترفون بالعقل، فإن تشومسكي يرى بأنه مصدر كل معرفة، وأن الطفل يولد مزودا بمعرفة فطرية (inborn knowledge) مجسدة فيما أسماه بجهاز اكتساب اللغة (Language Acquisition Device).

إن العقل - في نظر تشومسكي - ليس ذلك اللوح الأملس (Tabula rasa) الذي ترسم التجربةُ بصماتها عليه، وتختط طبقة معينة من المجتمع ما تشاء عليه بما يتماشى ومصلحتها الخاصة، ولكن العقل - كما شبّه ذلك ليبنيتز Leibniz - مثل الكتلة الرخامية التي يمكن نحتها في أشكال مختلفة، ولكن بنية الرخام في ذاتها تفرض بعض القيود على إبداعية النحّات.[1] وإذا كان السلوكيون قد ذهبوا إلى أبعد حدّ لهم في قولهم: إن الإنسان كائن طيّع غير حرّ وإن كل ما يفعله هو مُجرد رُدود أفعال لمثيرات خارجية، فإن تشومسكي قد انتقد هذا الموقف الذي يحطُّ من قيمة الإنسان ويحدُّ من قدراته الخلاّقة.

10 - 3 القواعد التوليدية التحويلية: التطور والفرضيات:

لكي نتمكن من سبر أعماق القواعد التوليدية التحويلية، ينبغي علينا معرفة نشأتها وتطورها، وضبط الفرضيات الأساسية التي قامت عليها.

إن هذه القواعد لم تأت دفعة واحدة، بل مرّت بثلاث مراحل رئيسية. المرحلة الأولى جسدها تشومسكي في كتابه الثوري: << البنى التركيبية >> الصادر عام 1957، وأطلق على هذه النظرية فيما بعد اسم النظرية الكلاسيكية (Calssical Theory) والمرحلة الثانية ظهرت إلى حيّز الوجود مع ظهور كتابه << مظاهر النظرية التركيبية >> Aspects of the Theory of Syntax في عام 1965، وتعرف هذه النظرية بالنظرية النموذجية (Standard Theory). المرحلة الثالثة وتبلورت بعدما نشر تشومسكي ثلاثة مقالات مختلفة حول مكانة الدلالة والبنية العميقة في نظريته، والتي جمعها فيما بعد في كتاب واحد بعنوان: << دراسات الدلالة في القواعد التوليدية >> وذلك في سنة 1972م: Studies on Semantics in Generative Grammar، وبات هذا الشكل الجديد يعرف بالنظرية النموذجية الموسّعة (Extended Standard Theory)

(1) John Lyons, Language and Linguistics, 1981, p. 244.

وبعد هذا العرض الخاص بالتطور ، نمر مباشرة لتعريف جوانب هذه النظرية وفرضياتها . ولعلّ أول ما يلفت الانتباه هنا هو التوليد والتحويل.

10 . 4 التوليد:

يدلُّ مصطلح التوليد (generation) على الجانب الإبداعي في اللغة ؛ أي القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين وفهم عدد لا متناه من الجمل في لغته الأم ، بما فيها الجمل التي لم يسمعها من قبل ، وكل هذا يصدر عن الإنسان بطريقة طبيعية دون شعور منه بتطبيق قواعد نحويّة معيّنة . وقد أولى تشومسكي هذه القدرة الإبداعيّة (Creativity) اهتماما كبيرا ، وأكّد على أن النظرية النحويّة لابدّ أن تعكس قدرة جميع المتكلمين باللغة. والنحو التوليدي - في نظره - لابدّ أن يولد كلّ الجمل النحويّة (grammatical) في اللغة ؛ أي أننا باتباع قواعد نحوية يمكننا تكوين كل الجمل الممكنة في اللغة .

وفي هذا الصدد يوضح بالمر (Palmer) بأن القواعد التوليدية تختلف عن القواعد التقليدية والبنيوية في نقطتين أساسيتين : أولا : إنها لم تهتم بالجمل الفعليّة أو الحقيقية (actual): أي الجمل التي وردت من قبل ، ولكن بالجمل الممكنة (possible) ، التي يمكن أن ترد أو يمكن أن تكون قد وردت من قبل . وقد لجأ تشومسكي إلى هذا التمييز لأن المدونة (corpus) - في رأيه - مهما كان حجمها لا تضم إلا عددا محدودا من الجمل ، في حين أن اللغة تتكون من عدد لا متناه من الجمل . ثانيا : إن القواعد التوليدية تبيّن بدقة الجمل الممكنة في لغة ما ، ولم تترك بذلك مجالا للشك أو الصدفة ، ولم تدع كذلك أيّ شيء لذكاء القارئ أو معرفته بلغته [1].

أما التوليدية (Generativism) كمذهب فلسفي فقد هيمنت هيمنة كبيرة ، ليس على اللسانيات فحسب ، بل على الفلسفة وعلم النفس وبعض العلوم الأخرى . وكما ذهب إلى ذلك تشومسكي نفسه ، فإنها إحياء للقواعد الكليّة(Universal Grammar) التي نادت بها مدرسة بور رويال سنة 1660م ، والبحوث اللغوية التي ظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي ، والتي كان دي سوسير وبلومفيلد قد حكما عليها بأنها فلسفية وغير علميّة . ومع هذا فقد أشـــار

(1) Frank Palmer, Grammar, Penguin, 1971, P. 150-52.

لاينز إلى أن ثمة فرقا بين تشومسكي وأسلافه، فبينما حاول هؤلاء استنباط الملامح الجوهرية للغة من المقولات الموجودة في المنطق (Logic) أو الواقع (reality) والتي كانو يعدونها كليّة (Universal) أي عامّة ، وخاصّة بجميع اللغات ، فإن تشومسكي قد تأثر أكثر بالخصائص الكليّة الشكلية المعقّدة الموجودة في كافة اللغات ، والتي تُعدُّ في أصلها اعتباطية (arbitrary): أي أنها لا تخدم هدفا معيّنا، ولا يمكن استنباطها من أي شيء آخر نعرفه عن الكائنات البشرية أو عن العالم الذي تعيش فيه . ودليل تشومسكي في هذا الشأن أن الملكة اللغوية للإنسان فطرية (Innate) ووراثية ، ولا تخص إلا الجنس البشري [1].

10 . 5 التحويل:

تحتل التحويلات المكانة الرئيسية والثورية في القواعد التشومسكية ، وتكمن مهمتها في تحويل البنى العميقة إلى بنى متوسطة وسطحية . وبعبارة أخرى ، فإنها تربط البنى العميقة بالبنى السطحية ، ولكن إذا ما اقتضى الأمر تطبيق أكثر من عملية تحويلية ، فإن البنى المتوسطة يقوم بتوليدها عدد من التحويلات حتّى يتم تكوين البنية السطحية.

البنية العميقة	التحويلات =====	البنية السطحية
المعنى		الشكل المستعمل في التواصل

في « البنى التركيبية » (1957) ، ميّز تشومسكي بين الجملة الأساسية التي أطلق عليها الجملة النواة (kerne sentence) والجملة المشتقة التي أطلق عليها الجملة المحوّلة (Transform) . ووصف الجملة النواة بأنها بسيطة ، وتامة ، وصريحة ، وإيجابية ، ومبنية للمعلوم ، والجملة المحوّلة بأنها تنقصها خاصّة من خواص الجملة النواة ، وتكون إما استفهاما ، أو أمرا ، أو نفيا ، أو معطوفة (Coordinated) ، أو متبعة (Subordinated)، أو مُدمجة (embedded) . وقال بأن التحويل يكشف لنا بطريقة جليّة كيف تتحول الجملة النواة إلى عدد من الجمل المحوّلة ، وأتى بجملة من القواعد التحويلية التي قد تكون وجوبية (obligatory) أو جوازية (optional) منها: الاستفهام، والنفي ، والأمر ، والمجهول ، والعطف ، والدمج ، والإتباع والزمن ، والملحقات ، والحدود الفاصلة (boundaries)... إلخ.

(1) John Lyons, Op. Cit. , p. 232.

وبشكل عام ، فإن الطريقة المتّبعة هي أنّه بعد تطبيق القواعد المركبية (Phrase Structure Grammar) ، تُطبق مباشرة القواعد التحويلية (Transformational Rules) على السلسلة النهائية (terminal string) لتشكيل الجمل المرادة . وهي بذلك لا تخرج من إطار هذه العمليات المستعملة بكثرة في الرياضيات :

أ ـ الحذف (deletion):   أ + ب -------> ب

ب ـ الإحلال (replacement): أ   -------> ب

جـ التوسع (expansion):   أ   -------> ب + حـ

د ـ الاختصار (reduction): أ + ب -------> حـ

هـ ـ الزيادة (addition):   أ   -------> ب + حـ

و ـ إعادة الترتيب (permutation): أ + ب -------> ب + أ

وكما ورد في « البنى التركيبية »، تساعدنا القواعد التوليدية التحويلية على التمييز بين الجمل التي تبدو متماثلة ولكنها في الأصل مختلفة ، والجمل التي تبدو مختلفة ولكنها في الواقع متماثلة . وعلاوة على هذا ، فإنها تلعب دورا كبيرا في فك الغموض الذي يكتنف عددا كبيرا من الجمل مثل : << Flying planes can be dangerous>> التي يُمكن أن يُفْهَمَ منها شيئان مختلفان : أولا، إن قيادة الطائرات قد تكون خطيرة ، وثانيا . إن المركبات التي تطير قد تكون خطيرة .

10 ـ 6 مفهوم النحو عند تشومسكي:

كانت كلمة " النحو " عند النحاة التقليديين تشمل الصرف (morphology) والتركيب (syntax). وأصبحت تشمل عند تشومسكي فضلا عن الفونولوجيا والدلالة الصرف والتركيب . أما حدّ النحو فقد ورد في « البنى التركيبية » بأنه جهاز (device) لتوليد الجمل النحوية في اللغة . وحسب ليونز (lyons) ، فإن استعمال هذه المصطلحات مثل "جهاز " و " توليد" في هذا المقام قد أضلّ كثير من القراء ، حيث فهموا من كلامه أن النحو جهاز إلكتروني أو آلي ، يكرر

أو يفحص سلوك المتكلم عندما يتلفظ أيّة جملة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن تشومسكي قد استعمل هذه المصطلحات لأن فرع الرياضيات الذي اعتمده لشكلنة (formalization) نحوه يستعمل هذه المصطلحات مثل " جهاز " ، و " آلة " (machine) ، و" إنتاج " (producing)، و"توليد " بطريقة تجريدية دون إلماع إلى الخصائص المادية لأيّ نموذج فعليّ قد يستعمل هذا الجهاز التجريدي .[1]

10 ـ 7 مفهوم اللغة عند تشومسكي:

عرّف تشومسكي اللغة في كتابه « البنى التركيبية » قائلا : "من الآن فصاعدا سأعدّ اللغة مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمل . كل جملة طولها محدود ومؤلفة من مجموعة متناهية من العناصر . وكل اللغات الطبيعية في شكليها المنطوق والمكتوب هي لغات بهذا المعنى وذلك لأن كل لغة تحتوي على عدد متناه من الفونيمات (أو الحروف) ، ومع هذا ، فإن عدد الجمل غير متناه ."[2]

وفي نظر تشومسكي، إن الجمل قد يكون طولها غير محدود، ومع ذلك فهي جمل نحوية ومقبولة ، وقد أتى بمثال واضح كما هو الشأن في هذه الجملة « هذا هو الرجل الذي تزوج البنت التي ألّفت الكتاب ... ». وتدلُّ النقاط الثلاث على إمكانية توسيع الجملة إلى الطول المرغوب فيه . ومن الناحية العملية ، هناك بعض الحدود التي ينبغي أن تقف عندها الجملة ، وإنْ كانت غير مضبوطة من قبل النحاة . ومن جهة أخرى ، فإن هذه الجمل التي تتكون من عناصر محدودة هي في الواقع غير متناهية ، وتعكس بصورة واضحة الجانب الإبداعي أو الخلاّق في اللغة . وقد أطلق ابن هشام على هذا النوع من الجمل الطويلة مصطلح الجمل الكبرى في مقابل مصطلح الجمل الصغرى . وتكون الجملة الكبرى جملة اسميّة أو فعليّة . أما الجملة الاسمية فخبرها جملة أخرى مثل « زيد قام أبوه » و « زيد أبوه قائم » وأما الجملة

(1) John Lyons, Chomsky, 1970, pp. 42 - 43.
(2) Noam Chomsky, Syntactic Structures , 1957, p. 51.

الفعلية فهي كما يلي : «« ظننت زيدا يقوم أبوه »» وقد تكون الجملة في رأيه - صغرى وكبرى مثل : «« زيد أبوه غلامه منطلق »» حيث إن مجموع هذا الكلام يعد جملة كبرى .[1]

10 - 8 موضوع النظرية اللسانية :

يقول تشومسكي في هذا الخصوص : " إن النظرية اللسانية تعنى في المقام الأول بمتكلم مستمع مثالي في مجتمع لغوي متجانس تماما ، حيث يعرف هذا الشخص لغة ذلك المجتمع معرفة جيّدة ، ويكون غير مصاب بهذه الحالات النحوية غير الملائمة مثل قصور الذاكرة ، والاضطراب العقلي ، عدم الانتباه والاهتمام ، والأخطاء العفوية والمميّزة وذلك عند تطبيق معرفته اللغوية في كلّ أداء فعليّ ."[2]

ومن خلال هذا التعريف الدقيق ، نلحظ أن تشومسكي قد ألمح إلى ضرورة التمييز بين جانبين أساسيين في الدراسة اللسانية : معرفة المتكلم المستمع المثالي والأداء اللغوي الفعلي وألحّ خاصة على الجانب الأول . وهذا ما فصّل فيهما القول تحت هذين المصطلحين : الكفاءة والأداء .

10 - 9 الكفاءة و الأداء :

إن مفهومي " الكفاءة " (competence) و " الأداء " (performance) اللذين ظهرا - لأول مرّة - بطريقة جليّة في مؤلف تشومسكي : «« مظاهر النظرية التركيبية »» (1965) يرتبطان بمفهومي " اللغة " (Langue) و " الكلام " (Parole) اللذين استحدثهما دي سوسير ، ولكن تشومسكي رفض فكرة دي سوسير القائلة بأن " اللغة " كتلة من المادة ، أو قائمة من المفردات ، التي ينتقي منها الشخص " الكلام " ، وذهب إلى التمييز بين " الكفاءة " التي تتمثل في المعرفة اللغوية الباطنية للفرد ؛ أي مجموعة القواعد التي تعلمها ، و " الأداء " وهو الاستعمال الفعليّ للغة في المواقف الحقيقية . فالكفاءة إذن نظام عقلي تحتي قابع خلف السلوك الفعليّ ، وعليه فإنه غير قابل للدراسة التجريبية المباشرة ، وهكذا فإن الوسيلة

(1) ابن هشام ، مغني اللبيب، 2 / 381
(2) Noam Chomsky , Aspects of the Theory of Syntax, Mouton, 1965, p. 3.

الوحيدة للوصول إلى هذا النظام ودراسته هي الاستبطان (introspection)؛ إذ يساعدنا على إصدار أحكام على كلّ الجمل من حيث صحتها النحوية (grammaticality) ومقبوليتها (acceptability).

وحسب تشومسكي ، فإن اللساني وصاحب اللغة يتمتعان بمقدرة لغويّة تتمثل في الحدس (intuition) تُمكّنهما من معرفة الجمل من حيث استحالتها واستقامتها . ومن هنا ذهب في مؤلفه : «« البنى التركيبية »» إلى " أن الجمل التي يولدها النحو لابد أن تكون مقبولة من قبل صاحب اللغة . "[1] وفيما يخصّ مكانة الحدس في القواعد التوليدية ، يقول ليونز (Lyons) : " إن تشومسكي قدّم حدس صاحب اللغة على أساس أنه دليل مستقل ، ولكن الشرح الذي يقدمه هذا الحدس عدّه دليلا ثانويا للمهمة الأساسية لتوليد الجمل . أما في عمله الأخير ، فقد اعتبر حدس أبناء اللغة جزءا من المادة اللغوية (data) التي تقوم القواعد بدراستها ، وأصبح الآن يعتمد على صحة هذا الحدس أكثر من ذي قبل عندما كان مهتما باختباره بوساطة تقنيات عمليّة (Operational techniques) مرضيّة ."[2]

ويمكن لصورة الكفاءة والأداء أن تتوضح أكثر إذا علمنا أن المتعلمين - على العموم - يجيدون إجراء العمليات الحسابية كالجمع ، والقسمة ، و الضرب . ولكن إذا طُلب منهم إجراء عملية ما ، فإنهم يحتاجون إلى وقت من الزمن ، ومع هذا فإنهم يخطئون أحيانا . وعلى نحو مماثل ، فإن جل الناس - تقريبا - يمتلكون " مقدرة " لغوية تمكنهم من استعمال اللغة استعمالا جيّدا ، ولكنهم - عند تطبيق هذه المقدرة خلال الكلام أو التلقّي - قد يحتاجون إلى وقت للتفكير . وعلى الرغم من هذا فقد يرتكبون بعض الأخطاء . فالناس - أثناء عملية الكلام - قد يترددون ، ويتأتئون ، ويكررون أشياء ، وتصدر عنهم بعض زلاّت اللسان . أما أثناء التلقّي فقد لا يفهمون بعض الجمل والمفردات ، وتغيب عنهم كثير من الأشياء . كلّ هذا دفع تشومسكي إلى التمييز بين الكفاءة والأداء .

وبالنسبة للساني ، فإن الكفاءة - أي معرفة الفرد بقواعد لغته - هي موضوع الدراسة اللسانية . وإذا كان اللساني لا يمكنه أن يدرس اللغة إلا بفحص ما يقوله الفرد ، فإن هذه

(1) Noam chomsky , Syntactic Structures , 1957, pp. 49 - 50.
(2) John Lyons, Chomsky, 1970, pp. 39 - 40.

الأقوال الفعليّة التي هي جزء من أدائه لا تُكوّن إلا جزءا من الدليل على كفاءته ، ويكون الحدس المتمثل في الأحكام التي يصدرها الفرد الجزء الثاني من هذه الكفاءة ، وبهذا التركيز على دراسة الكفاءة ، يكون تشومسكي قد جعل من اللسانيات شعبة من علم النفس المعرفي (cognitive psychology).

10 ـ 10 البنية السطحية والبنية العميقة:

إن أوّل من استعمل مصطلحي " البنية السطحية " (surface structure) و "البنية العميقة" (deep structure) هو تشارلز هوكيت (Charles Hockett) في مؤلفه الشهير : << محاضرة في اللسانيات الحديثة >> .[1] ولكن هذين المصطلحين لم يظهرا عند تشومسكي بطريقة جليّة إلا في << مظاهر النظرية التركيبية >> (1965). وملخص القول : إن لكل جملة بنيتين : بنية عميقة وبنية سطحية . أما البنية العميقة فهي شكل تجريدي (abstract) داخلي يعكس العمليات الفكرية ، ويمثل التفسير الدلالي الذي تُشتق منه البنية السطحية من خلال سلسلة من الإجراءات التحويلية . وأما البنية السطحية فتمثل الجملة كما هي مستعملة في عملية التواصل أي في شكلها الفيزيائي بوصفها مجموعة من الأصوات أو الرموز . وحسب التحويليين فإن هاتين الجملتين: << كَتَبَ أحمدُ الرسالة >> و << كُتِبت الرسالةُ من قبل أحمد >> لا تختلفان إلا من الناحية التركيبية : أي على مستوى البنية السطحية ، ولكنهما مرتبطتان ارتباطا وثيقا ـ إن لم نقل متطابقتان ـ على مستوى البنية العميقة .

وجدير بالذكر أن تشومسكي وأتباعه انتقدوا البنيوية ، والنظريات اللسانية الأخرى التي جاءت بديلا لها كنظرية القوالب (Tagmemics) التي قدّمها كنيث بايك (Kenneth Pike)، والقواعد الطبقيّة (Stratificational Grammar) التي طوّرها سيدني لامب (Sydney lamb) ، والقواعد النظاميّة (Systemic Grammar) التي أتى بها مايْكل هاليداي (Michael Halliday). وبشكل عام فإن هذه النظريات الثلاث اهتمت باللغة ككل ، وليس بالتركيب فحسب ، وتتشابه فيما بينها تشابها كبيرا سواء من حيث المصطلح أو التصور . وفي نظر تشومسكي ، فإن هذه النظريات قاصرة على تفسير الظواهر المعقدة التي تميّز البنية اللغوية ، ولا تدرسها إلا بقصد تصنيفها،

(1) Charles Hockett, A Course in Modern Linguistics , Macmillan , 1968, p. 246

من هنا أطلق عليها ازدراء اللسانيات التصنيفية (taxonomic) ، وإذا كان التصنيف في معناه العلم يدلُّ على منهج في البحث يُعنى بتشخيص مختلف أنواع الظواهر ، وتصنيفها وتسميتها بطريقة علميّة كما هو الحال في البيولوجيا حيث يقوم الباحثون بتصنيف النباتات والحيوانات ، فإن تشومسكي يرى بأن النظرية التركيبية التصنيفية تسعى إلى تمثيل الجملة من خلال بنيتها السطحية لا غير . وفي رأيه فإن كل هذه النظريات أخفقت في تمييز البنى السطحية عن البنى العميقة. ومن ثمة فالقواعد التوليدية التحويلية هي الوحيدة ـ حسب زعمه ـ التي أولت اهتماما قائما بالبنية العميقة ، دون أن تتجاهل البنية السطحية . وقد علّق كريستل (Crystal) على ما ذهب إليه تشومسكي قائلا : " إنّه ليس من العدل ، بل إنه من السذاجة بمكان تسميّة أي نظرية من النظريات السابقة بالقواعد التصنيفية ... وعلى سبيل المثال ، فإن القواعد النظامية لـ هاليداي تعتمد أساسا مفهوم " العمق " ('depth') في التحليل النحوي الذي يشبه مفهوم تشومسكي في كثير من النواحي."[1]

10 ـ 11 إجراءات التحليل ،

كان المنهج البنيوي يرتكز أساسا على وصف البنية السطحية لكل مادة لغوية قابلة للملاحظة ، انطلاقا من النظام الصوتي إلى النظام النحوي ، والحرص على عدم الخلط بين المستويات في التحليل . وتكمن مهمة اللساني في تطبيق إجراءات معينة على لغة غير معروفة لاكتشاف الفونيمات ، والمورفيمات ، والوحدات الأخرى لبناء قواعد نحوية دقيقة . وقد أطلق تشومسكي على تقنيات التحليل هاته اسم " إجراءات الاستكشاف " (discovery procedures) . وذهب إلى أن " النظرية اللسانية لا ينبغي أن تُتخذ على أساس أنها سلسلة من الإجراءات النافعة ، كما لا ينبغي أن ننتظر منها أن تزودنا بإجراءات ميكانيكية لاكتشاف القواعد النحوية".[2] وأضاف بأن هناك عدة طرق تساعد اللساني على التحليل منها " الحدس ، والتخمين ، وكل أنواع الإلماح المنهجي الجزئي والاعتماد على التجربة الماضية ... وغيرها ".[3] ومن هنا نلحظ أن العبرة ـ عند تشومسكي ـ تكمن فيما تحققه النظرية اللسانية من نتائج

(1) David Crystal, Linguistics , London, 1971, p. 216.
(2) Noam Chomsky, Syntactic Structures, 1957, p. 55.
(3) Ibid. , p. 56.

ملموسة ، دون أن ينفي جدوى التقنيات الخاصة بالوصف والتحليل ، بل إن النظرية اللسانية - في نظره - ينبغي أن تُعنى بتبرير القواعد وتسويغها.

وبالفعل حاول تشومسكي إرساء بعض المعايير (criteria) للحكم على مختلف القواعد النحوية الممكنة الخاصة بتحليل المادة اللغوية ، واختيار أفضلها : أي أكثرها دقة وأشدها ملاءمة . وخلص إلى أن هذا الهدف في ذاته : أي صياغة " إجراءات الفصل " (decision procedures) بين القواعد البديلة هدف طموح للغاية ، وأن كل ما يمكن أن تطمح إليه النظرية اللسانية هو أن تقدم " إجراءات تقويمية " (evaluation procedures): أي جملة من المعايير التي تساعد على اختيار أحسن القواعد . وفي هذا الصدد ، ذهب ليونز (Lyons) إلى " أنه لا يمكن القول بأن وصفا معيّنا لأية مادة لغويّة هو وصف صحيح بشكل مطلق ، ولكن ما يمكن قوله فقط هو أن هذا الوصف أحسن أو أكثر صحة من أي وصف آخر للمادة اللغوية ذاتها وكذلك الأمر بالنسبة للفيزيائي إذ لا يمكنه أن يقول بأن نظرية النسبية (relativity) لأينشتاين تقدم أفضل تفسير للمعطيات التي تدرسها ، وإنما يمكنه أن يقول فقط ، بأنها أحسن من النظرية الأخرى المبنية على فيزياء نيوتن التي حلّت محلّها ".[1]

وفي مقال موسوم بـ " أنظمة التحليل التركيبي "[2] صادر قبيل ظهور كتاب « البنى التركيبية » ، حاول تشومسكي صياغة بعض إجراءات التحليل اللساني الموجودة في كتاب هاريس (Harris) « مناهج في اللسانيات البنيوية »[3] بطريقة رياضية دقيقة . ومن خلال دراسته " لاقتراحات محكمة لتطوير نظرية لسانية " خلص إلى أن هذه الأعمال - بالرغم من أنها تسعى مظهريًا إلى تحديد إجراءات الاستكشاف - فهي في الواقع " لا تقدم أكثر من إجراءات تقويمية للقواعد النحويّة ".[4]

وقد علّق بالمر (Palmer) عن الإجراءات التحليلية قائلا : إنه ليس صحيحا إطلاقا بأن اللسانيين الأوائل كانوا غير مهتمين بتقويم مختلف ألوان الوصف ، واعتنوا بالاكتشاف

(1) John Lyons, Chomsky, 1970, p. 41.
(2) N. Chomsky , ' Systems of Syntactic Analysis', 1956.
(3) Z.S Harris , Methods in Structural Linguistics , Chicago, 1951.
(4) N. Chomsky, Syntactic Structures , 1957, P. 52.

(discovery) فقط ، بل لقد ناقشوا مرارا مزايا بعض الحلول ونقائصها ليتمكنوا من اختيار الحل الأفضل ، وهذا نوع من التقويم ، واستدلّ في هذا بمقال بعنوان : " نموذجان للوصف النحوي " : ناقش فيه صاحبه مزايا هذين النموذجين وعيوبهما ، وبمدرسة لندن تحت قيادة فيرث (Firth) التي رفضت " المناهج " (methods) ، وفضّلت العمل بما يُسمّى بـ : " الملاءمة النظرية " (theoretical relevance) . وفي الأخير ، أكّد " بالمر " على أن تشومسكي هو الأول الذي أقام تمييزا واضحا بين التقويم والاستكشاف .[1] وهذه حقيقة لا يمكن أن يطعن فيها اليوم أحد.

10 - 12 نماذج التحليل النحوي:

إن الجانب الأهم والأصلي الذي ميّز نظرية القواعد التوليدية التحويلية في مراحلها الأولى كما ورد في « البنى التركيبية » يعود أساسا إلى نماذج التحليل النحوي الثلاثة التي قدّمها تشومسكي بطريقة مفصّلة وبدقة رياضية متناهية . ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن النحو التوليدي ينبني على " القواعد" (rules) . وهذه القواعد تُعد جزءا من الجهاز الذي يولد الجمل النحويّة في اللغة ، وتختلف عن القواعد الموجودة في النحو التقليدي والنحو الوصفي ؛ فهي ليست معيارية (normative) تُعنى بوصف اللغة كما ينبغي أن تكون ، وليست وصفية (descriptive) تهتم بوصف اللغة كما هي مستعملة بغية إرساء التعميمات (generalizations) ولكنها تشبه القواعد المعيارية لأنها عبارة عن تعليمات لتوليد كل الجمل الممكنة في اللغة وليس الجمل الصحيحة فحسب . وتشبه القواعد الوصفية لأنها تعتمد وقائع اللغات الفعلية وليس اللغات المبتكرة من قبل النحاة . ومن هذه الزاوية ، فإنها ترتكز علي ما يقوله الناس ، وليس عمّا ينبغي أن يقولوه.

إن قواعد النحو التوليدي أطلق عليها تشومسكي " قواعد إعادة الكتابة " (rewrite rules) أي أنها تكتب رمزا معيّنا مرة ثانية بشكل آخر ، أو تولد من الرمز الواحد عدة رموز . وعادة ما تبدأ القواعد التوليدية بالرمز « ج » الذي يُمثّل الجملة ، وبعدها تُعيد سلسلة من القواعد كتابة هذا الرمز ، والرموز المترتبة عنه إلى رموز أخرى ، حتى يتم توليد الجملة بأكملها على هذا النحو الرياضي : أ ---------> ب + جـ .

(1) Frank Palmer, Grammar, 1971, p. 156.

وفيمايلي ، نحاول أن نسلط الضوء على النماذج الثلاثة التي استعملها تشومسكي في « البنى التركيبية » (1957) نظرا لأهميتها القصوى في فهم التحليل النحوي . وهي على التوالي : القواعد المحدودة الحالات ، والقواعد المركبية، والقواعد التحويلية.

10 ـ 12 ـ 1 القواعد المحدودة الحالات :

نتناول في هذا المقام أول النماذج وأبسطها ، وهو نموذج القواعد المحدودة الحالات (Finite State Grammar). وقد وصفها تشومسكي بقوله : " نفترض أن لنا آلة (machine) ذات عدد محدود من الحالات الداخلية (internal states) المختلفة ، ونفترض أن هذه الآلة تنتقل من حالة إلى أخرى بإنتاج رمز معيّن (كلمة إنجليزية مثلا) ، فإن إحدى هذه الحالات هي الحالة الاستهلالية (initial state)، والحالة الأخرى هي الحالة الأخيرة (final state) . ونفترض أن الآلة تبدأ من الحالة الاستهلالية ، و تمر عبر سلسلة من الحالات (منتجة كلمة واحدة في كل انتقال لها)، وتتوقف عند الحالة الأخيرة ، أنئذ نطلق على سلسلة الكلمات المنتجة اسم "الجملة" . وهكذا فإن هذه الآلة تُحدد لغة معيّنة : أي مجموع الجمل التي يمكن انتاجها بهذه الطريقة . وكل لغة يمكن إنتاجها بوساطة أيّة آلة من هذا النوع نسميها لغة محدودة الحالات (finite state language) ، ويمكن أن نُسمّي الآلة ذاتها القواعد المحدودة الحالات."[1]

وحسب تشومسكي ، إذا كان النحو لابد أن يتألف من مجموعة من القواعد (rules) المحدودة التي تعمل من خلال عدد محدود من المفردات ، ولابدّ أن يكون قادرا على توليد عدد غير محدود من الجمل ، فهذا يستوجب أن تكون بعض القواعد قابلة للتطبيق على الأقل أكثر من مرة في توليد الجملة الواحدة . وقد أطلق على هذا النوع من القواعد اسم القواعد التكرارية (recursive rules). ومن بين هذه القواعد قاعدة الصفات التي تنص على إمكانية إضافة عدد من الصفات إلى اسم معيّن مثل : ذلك الرجل العظيم الأبي الكريم الشهم المخلص المتواضع ... الخ . ومن أمثلة ذلك أيضا " جميْلات الصلّة " (relative clauses) أي تلك الجمل الفرعيّة التابعة التي تبدأ بضمير موصول أو ظرف موصول كما في هذه الجملة « هذا هو الرجل الذي رأيته أمس ، والذي كان يرتدي لباسا عصريّاً ، والذي اتصل بجارنا

(1) Noam Chomsky , Syntactic Structures , 1957, p. 2.

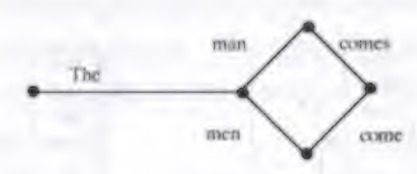
الذي حصل على الدكتوراه ، والذي يشتغل بوزارة التعليم ، والذي يقطن في العمارة المقابلة التي تم بناؤها العام الماضي ... الخ » . وهذه في الواقع خاصية أساسية تتميّز بها اللغات البشرية ، على الرغم من أن هذا النوع من الأساليب قد يبدو ركيكا في اللغة العربية .

إن القواعد المحدودة الحالات تسعى إلى توليد الجمل عبر سلسلة من الاختيارات التي تنطلق من اليسار إلى اليمين : إذ بعد اختيار العنصر الأول من السلسة ، فالاختيار الذي يلي سوف تحدده العناصر التي تسبقه مباشرة . وقد مثّل تشومسكي[1] القواعد المحدودة الحالات التي لا تولّد إلا هاتين الجملتين :

جاء الرجل (1) The man comes

جاء الرجالِ (2) The men come

كما يلي:



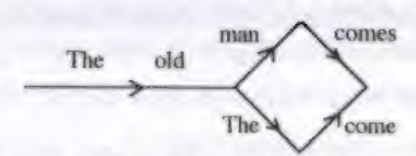
ويمكن توسيع هذه القواعد لإنتاج عدد غير محدود من الجمل بإضافة " أنشوطات مغلقة " (closed loops) . وتعرف هذه الظاهرة ـ كما رأينا آنفا ـ بالتكرارية (recursion) ، وعليه فإن هذه القواعد المحدودة الحالات التي ولّدت الجملتين السابقتين بإمكانها أن تُولّد الجمل التالية :

(3) The old man comes. (4) The old old man comes ....

(5) The old men come. (6) The old old men come ....

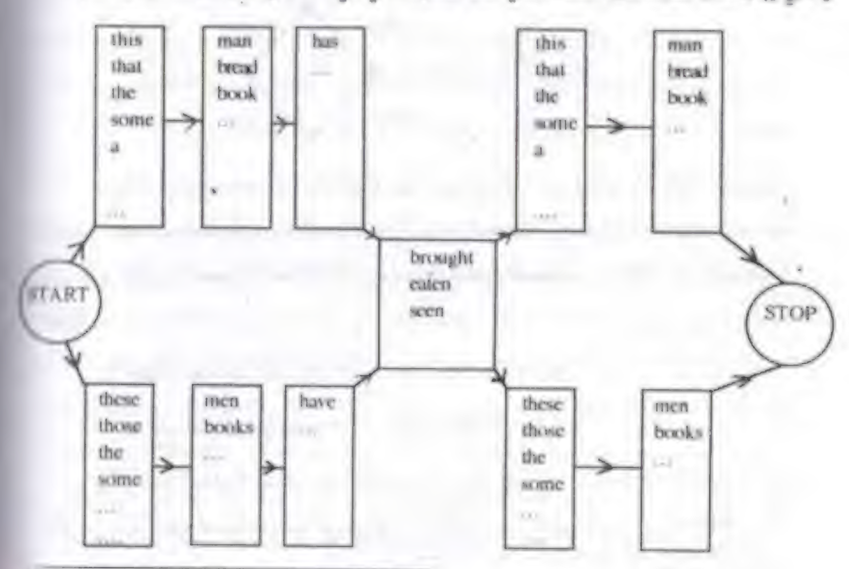
ولأن هذه الجمل لا تختلف عن الجملتين (1) و (2) إلاّ باحتواء صفة « العجوز » (old) أكثر من مرّة ، فقد قدّمها تشومسكي في هذا الشكل الذي يحتوي على أنشوطة مغلقة . [2]

(1) Ibid . , p. 19.
(1) Ibid.



لقد عرض تشومسكي هذا النوع من القواعد لا لشيء إلا ليبيّن بأن اللغات البشرية غير قابلة للوصف بالطرائق المتّبعة من قبل الوصفيين. وهذا ما أشار إليه في الهامش بأن النموذج اللساني الذي قدّمه هوكيت (Hockett) في مؤلفه « كتاب الفونولوجيا » ما هو إلاّ لون من القواعد المحدودة الحالات.[1] كما أشار كذلك إلى أن هذه الآلات التي تنتج لغات بهذه الطريقة تعرف في الرياضيات باسم : قواعد ماركوف المحدودة الحلات (Finit State Marcov Processes)

ولكي نوضح أكثر صورة القواعد المحدودة الحالات، نقدم الشكل البياني الذي جاء به ليونز[2] والذي يبدو أكثر تعقيدا من الشكل الذي قدّمه تشومسكي في « البنى التركيبية » (ص 19.)



(1) Ibid. p. 20.

(2) John Lyons, Chomsky, 1970, p. 52.

وحسب هذا التّصور للبنية التركيبية ، فإن هذه الجملة : « This man has bought some bread» يمكن توليدها كما يلي :[1]

إذا بدأنا باختيار كلمة « this» من الخانة الأولى ، فيمكننا أن نختار كلمة « man » من الخانة الثانية من بين الكلمات الأخرى التي يمكن أن تقع بعد « This » ، ثم علينا أن نختار الفعل المساعد « has » الذي يرد بعد «This man» وهكذا . وإذا بدأنا باختيار « That » عوض « this » ، فإن الاختيارات الموالية لا تتأثر ، ولكن إذا اخترنا « Those » أو «these» فلابد أن نختار بعدها كلمة « men » ثم الفعل المساعد « have » وهكذا . وإذا اخترنا «the» في البداية ، فإنه يمكننا أن نتبعها بـ « man » ثم « has » أو « men » ثم «have» ، ونستمر بهذه الطريقة في اختيار الكلمات المناسبة آخذين بعين الاعتبار القيود النحوية والدلالية حتى تولد جميع الجمل الممكنة . ولئن كانت هذه القواعد ـ كما يمثلها الرسم البياني ـ قادرة على توليد عدد محدود من الجمل ، فيمكنها بفضل التكرارية إضافة " أنشوطات " بين [This , that, the, a , some} و {man, book, bread} و[books, men] لاختيار صفة أو أكثر من هذه السلسلة من الصفات {awful , fat, big} لتمكننا بذلك من توليد هذا النمط من الجمل :

(1) That awful man.

(2) That big fat man.

(3) Some big fat awful men.

ويمكن توسيع هذه القواعد لتوليد جمل مركبة على نحو :

(4) That man has brought some bread and this beautiful girl has eaten the cheese.

أما في اللغة العربية ، فيكن لهذه الآلة أن تبدأ من اليمين إلى اليسار ، فلو أخذنا أسماء الإشارة مثلا ، و وضعناها في الخانة الأولى ، و وضعنا في الخانة الثانية كلمات مثل : الولد ، الأطفال، التلميذتان ... إلخ ، وفي الخانة الثالثة أفعالا مثل : تحترم، تحترمان ، يحترمون ... إلخ ، وفي الخانة الأخيرة كلمات مثل : أباه ، أستاذهما ، أستاذهم ... إلخ .

(1) Ibid . , pp. 51 - 53.

وبدأنا على سبيل المثال ـ بـ : « هاتان » ، فيجب أن نختار بعدها اسما في صيغة المثنى المؤنث ، فنقول : « هاتان التلميذتان » . وبعد هذا لابد أن نختار الفعل المناسب في الصيغة الملائمة مثل : « تحترمان »، ثم نختار الكلمة الأخيرة : « أستاذهما » أو « أستاذيهما » أو غيرهما . وبهذه الطريقة تتولد الجملة التالية : « هاتان التلميذتان تحترمان أستاذهما » وإذا بدأنا بـ : « هؤلاء » فيمكننا أن نقول : « هؤلاء التلاميذ » أو « هؤلاء » فيمكننا أن نقول : « هؤلاء التلاميذ » أو « هؤلاء البنات »، ولكن إذا قلنا « هؤلاء التلاميذ » فلابد أن نقول :« يحترمون »، وإذا قلنا « هؤلاء البنات » فلابد أن نقول : « تحترمن ». أما بالنسبة للكلمات الأخيرة، فيمكننا أن نختار كلمة « أستاذ » مع المفرد أو الجمع . فنقول مثلا « هؤلاء التلاميذ يحترمون أستاذهم » أو « هؤلاء التلاميذ يحترمون أساتذتهم » وهكذا.

وبعد هذه النظرة السريعة ، نريد أن نلفت الانتباه إلى أن تشومسكي سرعان ما تحدث عن قصور القواعد المحدودة في « البنى التركيبية » لأنها تولد عددا غير محدود من الجمل، ولكنها تولد في الوقت نفسه جملا غير نحويّة وغير مقبولة لا تتماشى وحدس أبناء اللغة. أضف إلى ذلك أنها ليست لها القدرة الكافية على تحليل كل التراكيب اللغوية الموجودة في الإنجليزية واللغات الإنسانية الأخرى.[1]

10 ـ 12 ـ 2 القواعد المركبيةُ:

أطلق تشومسكي على النموذج الثاني الذي اعتمده في تحليل اللغة اسم القواعد المركبية (Phrase Structure Grammar) وباختصار PSG. وتستطيع هذه القواعد أن تولد من الجمل ما لا تستطيع أن تولده القواعد المحدودة الحالات (FSG). ولئن كانت هذه القواعد تشبه إلى حد بعيد طريقة التحليل إلى المكونات المباشرة (Immediate Constituents Analysis) وطريقة الإعراب التقليدية (parsing) ، غير أن تشومسكي أضفى عليها طابعا علميًا باستعمال قواعد توليدية مبنية على الرياضيات والمنطق الرمزي . وفي هذا الخصوص يقول " ليونز " [2] : إن

(1) N. Chomsky, Syntactic Structures , 1957, pp. 21-24.
(2) John Lyons, Chomsky , 1970, pp. 57 - 58.

مفهوم البنية المركبية ، يشبه مفهوم الأقواس (Bracketing) في الرياضيات أو المنطق الرمزي . فإذا كانت لدينا هذه الصيغة س + (ع × ص) فإننا نعرف أن عملية الجمع لابد أن تسبق عملية الضرب. وعلى خلاف ذلك ، فإن س × ع + ص تعد مماثلة لـ : (س × ع)+ ص حيث تسبق عملية الضرب. وهكذا فإن طريقة إجراء العمليّات تؤدي إلى نتائج مختلفة. فإذا كانت س = 2 ، ع = 3 ، ص = 5 فإن س ×(ع + ص) = 16، ولكن (س × ع) +ص = 11 وبالتوازي فإن هناك كثيرا من التراكيب اللغوية التي يكتنفها الغموض كما هو الحال بالنسبة لهذه الصيغة : س × ع + ص ، ولكن الفضل يعود إلى الرياضيين الذين بيّنوا بأن الضرب يسبق الجمع في غياب الأقواس . ومثال تشومسكي في هذا العبارة التالية <<old men and women >> (النساء والرجال العجائز) التي يمكن فهمها <<(old men) and women>> أي (الرجال العجائز) والنساء أو <<old (men and women)>> أي (الرجال والنساء) العجائز.

أما شكل القواعد فهو كما يلي: [1]

(1) الجملة ----> مركب اسمي + مركب فعلي	(1) S -------> NP + VP
(2) مركب اسمي ----> أداة تعريف + اسم	(2) NP -------> T + N
(3) مركب فعلي ----> فعل + مركب اسمي	(3) V -------> Verb + NP
(4) أداة تعريف ----> ال	(4) T -------> The
(5) اسم ----> { رجل، كرة ، ...}	(5) N -------> {man, ball}
(6) فعل ----> {قذف، أخذ، ...}	(6)Verb -------> hit, took, ...

ولكي يتم توليد هذه الجملة : << The man hit the ball >> (قذف الرجل الكرة) يستدعي هذا النموذج استبدال كل رمز بمكون مباشر بطريقة تدريجية، حتى نصل إلى البنية السطحية للجملة ، وذلك باتباع الخطوات التالية التي وضعها تشومسكي : [2]

(1) N. Chomsky, Syntactic Structures , 1957, p. 26.
(2) Ibid. , p. 27.

الجملة	Sentence
مركب اسمي + مركب فعل	NP + VP
أداة تعريف + اسم + مركب فعلي	T + N + VP
أداة تعريف + اسم + فعل + مركب اسمي	T + N + verb + NP
ال + اسم + فعل + مركب اسمي	The + N + verb + NP
ال + رجل + فعل + مركب اسمي	The + man + verb + NP
ال + رجل + قذف + مركب اسمي	The + man + hit + NP
ال + رجل + قذف + ال + اسم	the + man + hit + The + N
ال + رجل + قذف + ال + كرة	The + man + hit + the + ball
الرجل قذف الكرة .	The man hit the ball.

وحسب تشومسكي يمكن تمثيل بنية هذه الجملة بوساطة هذا المشجر (tree diagram) [1]



إن القواعد المركبية لا تعكس بدقة حدس أبناء اللغة فيما يخص الحكم على استقامة الجمل أو استحالتها. ومهما كانت هذه القواعد أشد قوّة وأكثر ملاءمة من القواعد المحدودة

(1) Ibid.

الحالات في نظر تشومسكي ، فإنها لا تستطيع أن تولد كل التراكيب اللغوية الموجودة في اللغة . وقد أدرك هذا اللساني قصور النموذج الثاني ، وسرعان ما قام بتطويره ليكون قادرا على توليد كل الجمل النحوية أو المستقيمة التي تصدر عن المتكلم المستمع المثالي . وهكذا جاء بالنموذج الثالث الذي أحدث به ثورة في اللسانيات ، وأكسبه شهرة عالمية لا تضاهى ، وأصبح عنوانا للنظرية اللسانية التشومسكية.

10 ـ 12 ـ 3 القواعد التحويلية:

في «البنى التركيبية» فضّل تشومسكي القواعد التحويلية (Transformational Grammar) على القواعد المركبية نظرا لبساطتها (simplicity) . والغريب أن القواعد التحويلية عددها كبير وتعقيدها شديد ، وكل ما في الأمر أنها تقدم أحيانا وصفا بسيطا لبعض التراكيب اللغوية . أما في أعماله الأخيرة ، فقد علّل تفضيله على أساس أن القواعد التحويلية تعكس حدس أصحاب اللغة أفضل من غيرها من القواعد ، وتولد عددا لا حصر له من الجمل ، وتولي اهتماما كبيرا بالمعنى أكثر مما توليه القواعد المركبية ، وتفك أقفال اللبس التركيبي التي استعصت على القواعد السابقة .

وتُبنى القواعد التحويلية (TG) على القواعد التوليدية المركبية المستخدمة في النموذج الثاني مع إضافة سلسلة من القواعد التحويلية (transformational rules) . وهي تهدف ـ أولا وقبل كل شيء ـ إلى تحليل البنية العميقة ، وكيف تتمخض عنها البنية السطحية التي نستعملها أثناء الكلام . ولأخذ صورة كاملة عن هذا النموذج الثالث ، لا بدّ أن نقدم كافة الخطوات التي اتّبعها تشومسكي في توليد أيّة جملة كانت : [1]

(1) S -----> NP + VP
(2) NP -----> NP sing
NP pl
(3) NP sing -------> Det + N
(4) NP pl ---------> Det + N + S
(5) VP ---------> Verb + NP
(6) Det ---------> The

(1) Ibid . , P. 111

(7) N --------> man,ball,door, girl ...

(8) Verb --------> Aux + V

(9) V ---------> hit, open, read ...

(10) Aux -------> Tense (M) (have + en) (be + ing) (be + en)

(11) Tense -------> { present { - S in the context NP sing / O in the context NP pl } ; past }

(12) M -------> { will, can, may, shall, must }

(12 a) Let AF stand for any of the affixes past , S , O , en , ing

Let V stand for any M or V , or have, or be.

Then AF + V ------> V + AF #

(12 b) Replace + by # except in the context V - AF.

Insert # initially and finally.

الاشتقاق وتطبيق القواعد

لتوليد هذه الجملة :

The girl has opened the door

نقوم أولا بتطبيق القواعد (1 ـ 12) ثم القواعد (13 ـ 20) مباشرة وذلك كمايلي:

(13) # The + girl + verb + the + door #

(14) # The + girl + Aux + V + The + Door #

(15) # The + girl + Aux + open + the + door #

(16) # The + girl + Tense + have + en + open + the + door #

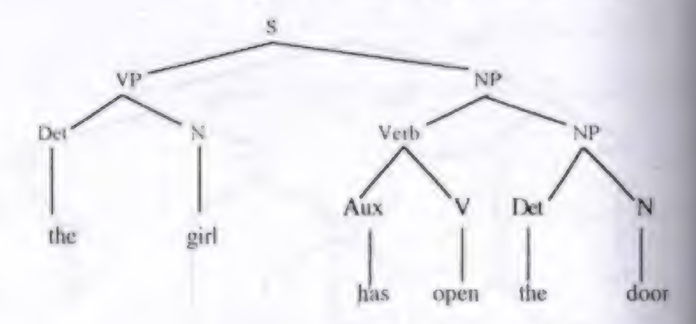
(17) # The + girl + S + have + en + open + the + door #

(18) # The + girl # have + S # open + en # the + door #

(19) # The # girl # have + S # open + en # The # door #

(20) The girl has opened the door

ويمكن تمثيل هذه الجملة من خلال المشجر التالي:



اشتقاق آخر

The man has been reading the book.

بتطبيق القواعد (1 ـ 12) سوف نولد:

(13) # The + man + verb + the + book #

(14) # The + man + aux + V + The + Book #

(15) # The + man + aux + read + the + book #

(16) # The + man + tense + have + en + be + ing + read + the + book #

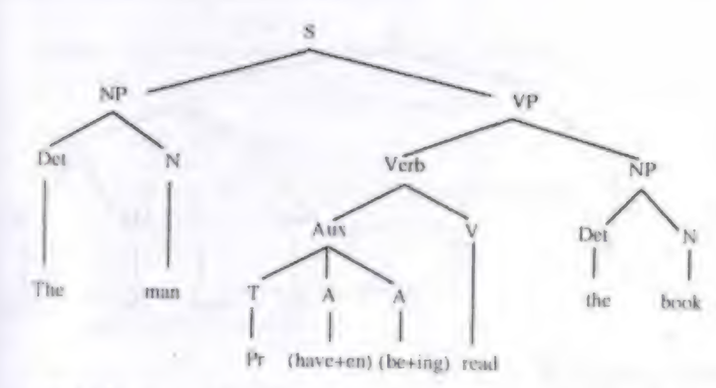
(17) # The + man + S + have + en + be + ing + read + the + book #

(18) # The + man # have + S # be + en # read + ing # the + book #

(19) # the # man # have + S # be + en # read + ing # the # book #

(20) The man has been reading the book.

ويشير المشجر التالي إلى البنية العميقة لهذه الجملة.



وفي العربية يمكن توليد هذه الجملة : « يراجع التلميذ الدروس » باتّباع القواعد التوليدية والتحويلية التالية :

(1) جملة <------ مركب اسمي + مركب فعلي

(2) مركب اسمي <------ مفرد / مثنى / جمع

(3) مركب اسمي مفرد <------ أداة + اسم

(4) مركب اسمي مثنى <------ أداة + اسم + علامة المثنى

(5) مركب اسمي جمع <------ أداة + اسم + علامة الجمع.

(6) مركب فعلي <------ فعل + مركب اسمي .

(7) الأداة <------ ال

(8) اسم <------ تلميذ ، درس

(9) فعل <------ فعل مساعد + فعل

(10) ف <------ راجع

(11) فعل مساعد <------ الزمن + المساعد الصيغي

(12) الزمن <--- الحاضر / الماضي

(13) مساعد صيغي <--- { سـ ، سوف ، قد ، يجب .... }

(13 أ) نفترض أن « ز » يرمز إلى زوائد المضارع والتأنيث والمثنى والجمع ، و « ف » إلى كلّ من الفعل ، والمساعد الصيغي ، وأفعال الملكية والكينونة . وعليه فإن ز + ف <-- ف+ ز.

(13 ب) استبدال + ب # ، أدخل # في أول الجملة وآخرها.

(14) # فعل + ال + تلميذ + ال + دروس #

(15) # ماضي + فعل + ال + تلميذ + ال + دروس #

(16) # ماضي + راج ع + ال + تلميذ + ال + دروس #

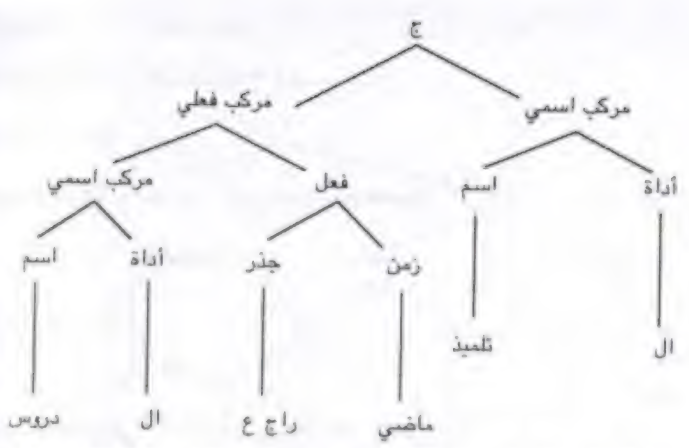
(17) # راج ع + ماضي + ال + تلميذ + ال + دروس #

(18) # راج ع # ال + تلميذ # ال + دروس #

(19) # راجع # ال # تلميذ # ال # دروس #

(20) راجع التلميذ الدروس

وبنية هذه الجملة يوضحها المشجّر التالي :



وبشكل عام ، فإن هذه القواعد تتميز بالاختيارات المختلفة التي تقدمها لتوليد شتّى أنواع الجمل ، وتأخذ في الحسبان الأسماء في حالة الإفراد والمثنى والجمع عن طريق القاعدة الثانية، وتدخل في الاعتبار كل الأزمنة tenses (كالحاضر والماضي والمستقبل) والصيَغ mood (كالأمر والشرط والإخبار) عن طريق القاعدة العاشرة والتوضيحات الواردة في القاعدتين (11) و (12). وبالإضافة إلى هذا ، فقد قدّم تشومسكي مجموعة من القواعد التحويلية التي تنطبق على اللغة الإنجليزية خاصّة والتي لا يمكن تطبيقها بحذافيرها على اللغة العربية ، وتتطلب في الواقع بحثًا منفصلا معمقا . ومِن بين هذه القواعد :

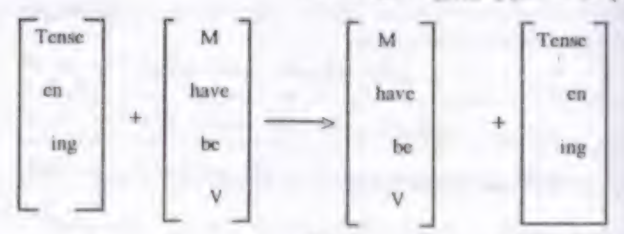
(أ) قواعد تحويلية جوازية للبناء للمجهول :

NP1 + Aux + V + NP2 ----> NP2 + Aux + be + en + V + by + NP1

(ب) قواعد تحويلية وجوبية للزمن :

Tense: Present → - S for Np sing / ∅ elsewhere; past

(جـ) قواعد تحويلية وجوبية للفعل المساعد:



وللتوضيح أكثر نستعين بهذه الأمثلة:

en + be ----> be + en ⟹ been

ing + be -----> be + ing ⟹ being

ing + work -----> work + ing ⟹ working.

(د) قواعد تحويلية وجوبية للحدود الفاصلة:

X - Y ---> X # Y   ع # س ← ع - س

condition (1) X ‡ VS   شرط (1) س ‡ جذر

(2) Y ‡ AF   (2) ع ‡ زائدة

Note: VS = verb stem i.e., M, V, have, be

AF = affix i, e , T, en , ing

‡ (is not equal)   ‡ (لا تساوي)

(هـ) قواعد تحويلية وجوبية فونيمية مورفيمية:

can + past -----> could

may + S -----> may

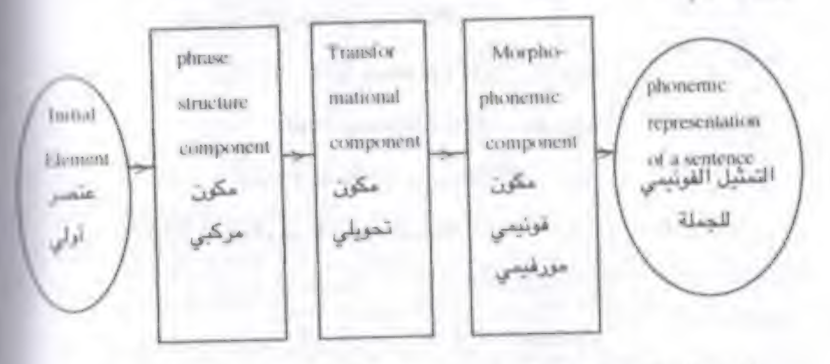
write + en -----> written

وفي العربية :

ك . ت . ب + حركات ـــــ كَتَبَ، كُتِبَ ، كُتُبٌ

ك . ت . ب + زوائد ـــــ أكتب ، يكتب ، استكتب ...

ولإعطاء صورة واضحة عن القواعد التوليدية التحويلية لعام 1957 لابد من تقديم هذا الرسم البياني: (1)



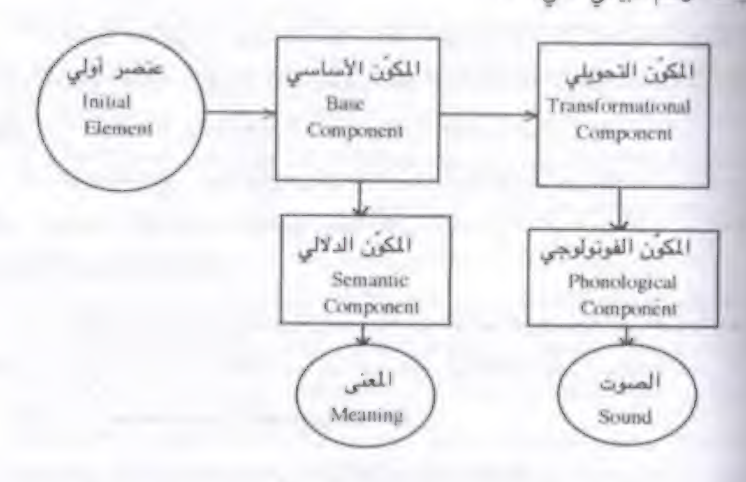
إن مدخل (input) القواعد هنا هو العنصر الأولي الذي يولد مجموعة من السلاسل التحتية (Underlying string) بوساطة المكوّن المركبي ، ثم يقوم المكوّن الثاني بتحويل الجمل بوساطة القواعد التحويلية الوجوبية أو الجوازية . وتتّخذ هذه القواعد كمدخل لها سلاسل تحتية فريدة أو مزدوجة ، وبتغيير هذه السلاسل ومكوناتها المركبيّة ، تولد كلّ الجمل الموجودة في اللغة في شكل سلاسل من المفردات أو المورفيمات كمخرج لها ، وتعطى كلّ جملة بنيتها المكوّنة لها.

أما المكوّن الثالث فيقوم بتحويل كلّ جملة من تمثيلها التركيبي كسلسلة من المفردات والموفيمات إلى تمثيلها الفونولوجي كسلسلة من الفونيمات . (2)

(1) John Lyons, Chomsky, 1970, p. 74.
(2) Ibid. , pp. 74 - 75.

10 ـ 13 مرحلة النظرية النموذجية:

في عام 1965 م ، أصدر تشومسكي كتابا قيّما بعنوان « مظاهر النظرية التركيبية »، طوّر فيه بصورة جليّة القواعد التوليدية والتحويلية وأصبحت هذه النظرية تعرف باسم النظرية النموذجية . ومن أهم النقاط التي بلورها تشومسكي في هذا المؤلف : الكفاءة والأداء ، والبنية السطحية والبنية العميقة ، والنحويّة (grammaticality) والمقبوليّة (acceptability) ، وإدراج المعجم في المكوّن الأساسي . ويكمن الاختلاف بين النظرية الكلاسيكية والنظرية النموذجية في إضافة "صندوق" (box) للقواعد في هذه المرحلة أطلق عليه اسم المكوّن الدّلالي، وذلك كما يمثله الرسم البياني الآتي : (1)



ذهب تشومسكي في المرحلة الكلاسيكية إلى القول بأن " الدلالة لا ترتبط، مباشرة بالتركيب بالرغم من وجود بعض التطابق بين التراكيب والعناصر المكتشفة في التحليل النحوي من جهة ، والوظائف الدلاليّة الخاصة من جهة أخرى ". (2) واستطرد قائلا بأنّه " بعد تحديد البيئة التركيبية للغة ، نستطيع أن ندرس كيف تستعمل البنية التركيبية خلال التوظيف الفعلي للغة. " (3) ولكن بعد هذه المرحلة ذهب إلى أن المعنى ـ مثل التركيب تماما ـ يجب أن يخضع

(1) Ibid. 79.
(2) N. Chomsky, Syntactic Structures , 1957, p. 101.
(3) Ibid., p . 102.

للتحليل العلمي الدقيق ، وأن الدلالة يجب أن تدرج في التحليل النحوي بوصفها جزءا مكمّلا لا يمكن الاستغناء عنه . وبهذا فإن النحو عند تشومسكي عبارة عن نظام من القواعد يربط معنى كل جملة يولدها بتمثيلها الفيزيقي في شكل مجموعة من الأصوات .(1)

وكما هو ملاحظ في الرسم السابق ، فإن قواعد النظرية النموذجية تتألف ممايلي:

1 ـ **المكون الأساسي** : ويشبه المكوّن المركبي لقواعد 1957م ، ويحتوي على مجموعة من قواعدة إعادة الكتابة التي تولد عددا غير محدود من البنى المركبية التحتيّة ، كما يحتوي على مداخل معجميّة (Lexical entries) مزودة بسلسلة من السمات المميّزة مثل : حي ، إنسان ، محسوس ، مجرد ، معدود ... إلخ . وبعد إدراج كل الوحدات المعجمية ، نحصل على البنية العميقة للجملة.

2 ـ **المكون التحويلي** : ويقوم بتطبيق قواعد تحويلية معيّنة على السلسلة الأخيرة من القواعد التوليدية المركبيّة . وبإيجاز ، فإنه يقوم بتحويل البنية العميقة إلى بنية سطحية من خلال عمليات الحذف ، والزيادة ، والتوسع ، والاختصار، وإعادة الترتيب وغيرها .

3 ـ **المكون الدلالي** : ويشتق معنى كلّ جملة من بنيتها العميقة بوساطة قواعد التفسير الدلالي . ويعدُّ هذا المكوّن عنصرا أساسيا جديدا، كان تشومسكي قد أهمله من قبل ، كما أهملته اللسانيات التوزيعية التي سبقته.

4 ـ المكوّن الفونولوجي: ويشتمل على مجموعة من القواعد الفونولوجية التي تقوم باشتقاق التفسير الصوتي لكلّ جملة ، انطلاقا من بنيتها السطحية ، ثم كتابتها برموز صوتية عالميّة.

10 ـ 14 ـ مرحلة النظرية النموذجية الموسّعة:

بعد ظهور النظرية النموذجية في سنة 1965م ، واختبارها لبضع سنين في الميدان من قِبل تشومسكي وغيره من الباحثين في هذا الحقل من اللسانيات ، اتّضح أنّه لا يمكنها أن تولد كل التراكيب اللغوية بطريقة مرضيّة وفعّالة ، فعمد إلى تطويرها وتنقيحها ، وإعادة النظر في المكوّن الدلالي على وجه الخصوص . وقد أطلق على هذه المقاربة الجديدة : النظرية النموذجيّة الموسّعة

(1) Lyons, Chomsky, 1970, p. 79.

(The Extended Standard Theory). وبدا هذا التنقيح جليًا في ثلاثة مقالات لتشومسكي جُمعت في مؤلف واحد بعنوان : «دراسات الدلالة في القواعد التوليدية»(1). وقد اتّخذت هذه المقالات نقطة انطلاقها من صياغة كلّ من النظرية النموذجية لتشومسكي والنظرية النحويّة التي جاء بها "كاتز" و"بوستل"(2)، والتي تنصُّ على إدراج مكوّن دلالي في القواعد التحويلية يحتوي على قوانين تفسيرية ذات طابع مفهومي (intensional).

ويهدف تشومسكي من وراء هذه المقالات إلى إقامة نظرية معجمية تأويلية ، وذلك بالتركيز بصورة أساسية على مكانة البنية العميقة ، وتقليص عدد القواعد التحويلية ، وإدراج القواعد المعجمية أكثر فأكثر . وقد رفض دعوة علماء الدلالة التوليدية التي ترمي إلى الدفع بالبنية التركيبية العميقة إلى درجة تجعلها غير متميّزة عن المستوى الدلالي . وحجته في ذلك أن التراكيب التي خُصّصت لها بنى تحتية مماثلة في الدلالة التوليدية تُظهر في الواقع اختلافات تركيبية معتبرة ، لا يمكن تبيينها من خلال الاختلاف في الاشتقاق التحويلي وإنّما من خلال الاختلاف في البنية العميقة ، وبما أن هذه الظاهرة تنطبق على الجمل المرادفة ، فإن مستوى البنية العميقة ـ في رأيه ـ يجب أن يكون متميّزا عن مستوى التمثيل الدلالي ، وأن النحو يجب أن يحتوي على مكوّن دلالي تفسيري.

ودافع تشومسكي عن رأيه هذا في مقال بعنوان : "ملاحظات حول التأسيم" (Remarks on Nominalization) ، حيث عارض الادّعاء بأن الاسميّ المشتق (derived nominal) في هذه الجملة الإنجليزية : «John's eagerness to please» يجب أن يُشتق باتّباع تحويلات معيّنة من البنية العميقة لهذه الجملة المرادفة: «John is eager to please» . وعلى الرغم من التشابه في المعنى ، وإلى حدّ ما في البنية ، فإنّ هاتين الجملتين وغيرهما ـ في نظر تشومسكي ـ غير مرتبطتين من الناحية التحويلية. وعليه فإنه رفض التحليل التركيبي التجريدي في الحالات التي تحتوي فيه الاسميّات المشتقة على بنى جُمليّة عميقة . واقترح أن تولّد هذه

(1) Noam Chomsky , Studies on Semantics in Generative Grammar, the Hague: Mouton , 1972.

(2) J.J. Katz and P.M Postal, An Integrated Theory of Linguistic Descriptions, Cambridge M.I.T. Press, 1964.

الاسميات المشتقة مباشرة بوصفها اسميات لأنها تشبه الجمل في بعض الجوانب .

وعلى عكس دعاة الدلالة التوليدية ، فإن تشومسكي استعمل البنية التركيبية العميقة لإبراز الاختلافات ، وقام بتوضيح التشابهات في المعجم بإضفاء مدخل معجمي واحد على كلّ من « eager » و « eagerness » . وهكذا صارت هذه التقنية تعرف بالتحليل المعجمي (Lexicalist Analysis) للاسميّات المشتقّة ، وهي خاصة بالنظرية النموذجية الموسّعة . وبهذا التركيز على أن يكون مستوى البنية التركيبية العميقة متميّزا عن المستوى الدلالي ، وعلى ضرورة إدراج القواعد الدلالية التفسيرية ، أصبحت النظرية النموذجية الموسّعة تتوافق ونظرية كاتز (Katz) ، وإن كان الفرق الأساس بينهما يكمن في التراكيب التي تُمثّل المدخل (input) لهذه القواعد الدلالية.

وفيما يخص مضمون المقالات الثلاثة السابقة الذكر فإن تشومسكي استعمل في المقال الأول السمات التركيبية (Syntactic features) لصياغة الفرضية المعجمية (Lexicalist hypothesis) المتعلقة بالاسميات المشتقة . وجاء بأدلة كثيرة تبيّن صحة هذه الفرضية ، وأكّد أن خواص هذه التراكيب لا يمكن التعبير عنها بطريقة ملائمة إلاّ في حدود المفهوم التجريدي للبنية العميقة الذي ورد في النظرية الثانية والثالثة.

ويُعنى المقال الثاني بالنقائص التي ظهرت في النظرية النموذجية، وبالأسباب التي دفعت تشومسكي إلى اقتراح نظرية منقّحة للتفسير الدلالي ، وتسميتها بالنظرية النموذجية الموسّعة . وظلت العلاقات النحوية للبنية العميقة تحتل مكانة أساسية في عملية التفسير الدلالي مُحدّدة في ذلك ما يُسمّى بالعلاقات المحوريّة (thematic relation) أو علاقات الحالات (case relations) وعلى الرغم من هذه التعديلات ، فمازالت بعض مظاهر المعنى تقوم بتحديدها البنية السطحية.

أما المقال الثالث فيطوّر النظرية النموذجية الموسّعة بشكل واضح للغاية ، ويقارنها ببعض المقاربات الأخرى وخاصة بالدلالة التوليدية (Generative Semantics) ، ويبيّن أن النظرية النموذجية الموسّعة مفضّلة على المستويين المنهجي والتجريبي.

وجدير بالذكر أن هناك مرحلة رابعة من النظرية التوليدية التحويلية اعتمد فيها تشومسكي على المنطق ، والرياضيات ، والبيولوجيا ، لإقامة نظرية القواعد الكليّة من خلال

مقاربة الضوابط على القواعد (conditions on rules) ، وقد بدا هذا الاتجاه جليّا في مؤلفه الموسوم بـ : "مقالات في الشكل والتفسير" ، (1977) (Essays on Form and Interpretation).

وفي عام 1981م ، أتى تشومسكي بنظرية أخرى أطلق عليها نظرية العامل والربط الإحالي (Government and Binding Theory) ، وتناول فيها العلاقات القائمة بين اللسانيات البيولوجية والقواعد التوليدية التحويلية . وقد تحدث تشومسكي عن هذه النظرية بطريقة مفصّلة في هذين المؤلفين : (أ) "محاضرات حول العامل والربط الإحالي" (1981) [1] ، (ب) "بعض متصورات نظرية العامل والربط الإحالي وآثارها" (1982) [2] .

كانت هذه لمحة سريعة عن الأصول المعرفية والجوانب النظرية للقواعد التوليدية التحويلية . ولا يمكننا في كتاب من هذا الحجم أن ندرس بالتفصيل كل النظريات التي جاء بها تشومسكي ، إذ إنّه يحتاج إلى عدّة مؤلفات للتعريف به وبأعماله المختلفة التي تتمتع بدرجة علميّة راقية.

10 ـ 15 ـ تعقيبات:

لا أريد أن أترك القارئ العربي يعتقد أن القواعد التوليدية التحويلية غير قابلة للنقد والتعقيب . فلئن كان تشومسكي قد نال شهرة عالمية كبيرة ، وفتح حقلا واسعا للبحث اللساني استقطب انتباه الفلاسفة ، والرياضيين ، وعلماء النفس ، والبيولوجيا ، فإنّه لم يسلم من ألسنة بعض الناقدين .

إن المتتبع للتطورات المختلفة التي مرّت بها القواعد التوليدية التحويلية يلاحظ أن أعمال تشومسكي الأولى قد كتبت في إطار استقلالية اللسانيات عن الفروع اللسانية الأخرى، ولكن في مؤلفاته المتأخرة مثل « مظاهر النظرية التركيبية »(1965)، و« اللسانيات الديكارتية » (1966) ، و« اللغة والعقل »(1968)، فإنه عدّ اللسانيات فرعا من علم النفس المعرفي (cognitive psychology) وشدّد على أهميّة القواعد التوليدية في دراسة العقل البشري وملكاته.

(1) Noam Chomsky, Lectures on Government and Binding. Dordrecht: Foris, 1981.
(2) Noam Chomsky, Some Concepts and Consequences of the Theory of Government and Binding. Cambridge: M.I.T. Press, 1982

وتعود شهرة تشومسكي إلى أرائه الفلسفية والسيكولوجية وليس إلى إسهاماته التقنية في اللسانيات بوصفها علما مستقلا.

ويُعدُّ تشومسكي من العقلانيين من أمثال أفلاطون ، وديكارت ، وهمبولدت . وجوهر الفلسفة العقلانية ينصُّ على أننا نولد مزودين بمعرفة قبليّة ، وأننا لا نتعلم شيئا جديدا ، وإنّما نتذكر فقط ، ونتعرف عمّا هو موجود في عقولنا . وقد انتقد كثير من اللسانيين هذا المذهب لأن الإنسان في الواقع يتعلم أشياء لا تحصى عن طريق الخبرة في عالمه الخارجي . وبطريقة ساخرة قال سامبسون (Sampson) : إن الاستبطان الخاص بالتركيب لا يعوّل عليه كثيرا لأن اللساني لا يهدف إلاّ إلى تعليل أحكامه الخاصّة بتراكيب لغته ... وفي الوقت الذي حاول فيه تشومسكي أن يبيّن كيف يكون التحليل التركيبي تحليلا علميًا ... فإنه بدفاعه عن منهج الاستبطان يكون قد حكم في آن واحد على أن التحليل التركيبي لم يعد علميًا في الواقع العملي . ولحسن الحظ ، فإن حلّ هذا المشكل بسيط جدا ، فإذا اقتنع اللسانيون بهذه المقاربة فعليهم أن يتوقفوا عن كتابة القواعد لتوليد الجمل التي يشعرون بأنها نحويّة ، ويبنوا قواعدهم على ما يلاحظونه من كلام أو كتابة .(1)

إن الاختلاف بين اللسانيات التشومسكية واللسانيات الوصفية يكمن في منهج البحث ، وفي نظر تشومسكي ، فإن مصدر المعطيات (data) التي تخضع للتحليل اللساني هي الأحكام الاستبطانية . فعندما يقول عالم اللسانيات الوصفية بأن سلسلة معيّنة من المفردات تشكّل جملة إنجليزية ، ولا تعالجها إلا القواعد الإنجليزية ، فيعني بذلك " أعتقد بأنني صادفت حالات من هذا النوع تتردّد على ألسن الناطقين باللغة الإنجليزية ، وإذا شكّ أحد في ذلك ، فإني مستعد لتقديم الدليل الكتابي لتدعيم قولي ." (2) وعندما يقول أحد التشومسكيين بأن سلسلة من المفردات تمثل جملة إنجليزية نحوية ، فإنه يعني : " بأن هذه الجملة تبدو صحيحة في نظري بوصفي أحد الناطقين بهذه اللغة ، ولا مجال هنا للاختلاف ، لأنّ أحكامي الاستبطانية صحيحة على الأقل بالنسبة للهجتي الخاصّة التي أنا بصدد وصفها الآن."

(1) Geoffrey Sampson, Schools of Linguistics, 1980, p. 153.
(2) Ibid. , pp. 150 - 151.

وأردف " سامبسون " قائلا : إن المدرسة التشومسكية ركّزت على اللغة الإنجليزية واللغات الأوروبية القريبة منها من أجل بذل قليل من الوقت وذلك على خلاف المدرسة الوصفية التي بذلت وقتا طويلا لدراسة اللغات البدائية الغريبة . ومن البديهي أن هذا المنهج من شأنه أن يُقلص من حظوظ إقامة نظرية عالمية مبنية على الكلّيات اللغوية (linguistic universals). (1)

ومن هذا المنطلق ، رأى " سامبسون " أن المغالطة التي وقع فيها تشومسكي فيما يخصّ المنهج هي نفسها التي وقع فيها السلوكيون . فإذا كان السلوكيون المتشدّدون يعتقدون أنّ الباحث لا يجوز له أن يستعمل الاستبطان كدليل ، وبالتالي لا يوجد شيء يمكن استبطانه فإن تشومسكي يرى بأن لنا عقولا معقّدة التركيب ، والاستبطان هو الوسيلة الوحيدة للوصول إليها . واستنتج من هذا أن الدليل عن طريق الاستبطان مقبول في التنظير العلمي. وفي الحقيقة، إن الاعتراض على الاستبطان في العلم لا يدلّ على عدم وجوده ، بل أن الاستبطان قد يكون عرضة للخطأ مثله مثل المشاهدة ، فضلا عن كونه لا يمكن أن يُنتقد كما تُنتقد المشاهدة.(2) إن الفرق بين الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلانية يكمن في كون الأولى تشجع الفرد على القول :"قد أكون على باطل ، وقد يكون الآخر على حق " . والثانية تشجع الفرد على القول : " أنا أعرف الحقيقة، والغرض من وراء كلامي مع الآخر هو أن أوريه الضوء ." فإذا التقى ممثلان عن هذين المذهبين المتناقضين ، فمن الواضح معرفة من سيكسب الرهان.

ومهما يكن من أمر ، فإن القواعد التوليدية التحويلية قد بلغت ذروة عالية مما جعل اللسانيين يكنّون لها الاحترام العميق ، ولا يجرؤون على انتقادها . وهذا ما حدث بالضبط لكتاب سيبويه، حيث أقعد كلّ من جاء بعده عن التنظير والتجديد ، وجعلهم يكتفون بوضع الحواشي والشروح . وفي هذا المنحى ذهب سامبسون إلى القول: " إن هيمنة المدرسة التشومسكية تُعدّ تطورا لا يخدم مصلحة البحث في اللسانيات، إنها شغلت عقول كثير من الناس ، وأنتجت مجموعة كبيرة من النظريات . وشعر الناس - بصورة طبيعية - أنّه لا يمكن لهذا العمل أبدا أن يكون كلّه على باطل . ولكن الناس - من دون شك - قد شعروا من قبل

(1) Ibid.
(2) Ibid. , p. 154.

شعورا مماثلا تجاه علم التنجيم والكيمياء يوم كان هذان العلمان نَشَاطيْن مزدهرين . وقد عرفنا الآن أنّهما كانا على خطإ ، وهل يوجد شيء لا تبلغه يد الدمار؟ " (1)

ولا يسعنا في آخر هذا المقام إلاّ أن نقدّم عصارة خالصة توصل إليها كلٌ من " ليونز " و " سامبسون " في ختام حديثهما عن القواعد التشومسكيّة . لقد ختم ليونز (lyons) كتابه المعنون بـ : " تشومسكي " قائلا :

" إنه لابدّ أن نتصور على الأقل بأن نظرية تشومسكي للقواعد التوليدية سوف تهجر في يوم من الأيام من قبل اللسانيين بوصفها غير ملائمة لوصف اللغات ... وإنني أعتقد شخصيًا ، ويشاركني في هذا الاعتقاد كثير من اللسانيين ، بأن هذه المحاولة التي قام بها تشومسكي لشكلنة (Formalization) المتصورات المستخدمة في التحليل اللغوي ، حتى وإن قُدِّر لها أن تفشل يوما ما ، فإن المحاولة في ذاتها تكون قد زادت في فهمنا لهذه المتصورات . وعليه فإن الثورة التشومسكية لا يمكن أن تكون إلاّ ثورة ناجحة . (2)

وختم سامبسون أيضا الفصل الخاص بتشومسكي بهذه العبارات : " إنّه لا يوجد شيء في دفاع تشومسكي عن النظرية العقلانية يبرر الطريقة التي انحرفت فيها طاقات أتباعه ... ولكن - ولحسن الحظ - لقد ظهرت في نهاية السبعينيات علامات كثيرة تُبشرُ بعودة هذا الفرع من اللسانيات إلى وضع أكثر صوابًا وتعددية . وبدأت نفحات النسيم تدبُّ بين بقايا الخراب " . (3)

ونحن نقول . إن القواعد التوليدية التحويلية ، وخاصة بعد التطورات الأخيرة التي جعلتها ترتبط بالدلالة ، والرياضيات ، والبيولوجيا ، وعلم النفس ، قد بلغت درجة لم تبلغها النظريات اللسانية الأخرى . ويبقى تشومسكي - بدون منازع - الرجل الأول في قائمة الرجال الذين خدموا اللغة والفكر وصنعوا تاريخ اللسانيات.

(1) Ibid. , pp. 163 - 164.
(2) John Lyons, Op. Cit. , p. 116.
(3) Geoffrey Sampson, Op. Cit. , p. 165.

الفصل الحادي عشر
علم الدلالة

11 - 1 - تعريف علم الدلالة:

علم الدلالة (Semantics) هو أحدث فروع اللسانيات الحديثة ، ويُعنى بدراسة معاني الألفاظ والجمل دراسة وصفية موضوعية. وقد ظهر الاهتمام بالدراسات الدلالية في أوروبا الغربية بادئ ذي بدء في المحاضرات التي كان يلقيها ريسيغ (C.Reisig) في هال (Halle) حوالي 1825 م في حديثه عن الفيلولوجيا اللاتينية . أما أوّل من استعمل مصطلح علم الدلالة (Sémantique) فهو اللساني الفرنسي بريال (Michel Bréal) و ذلك في مقاله الصادر عام 1883م ، ثم ما لبث أن فصّل القول في مسائل المعنى في كتابه الموسوم بـ: « محاولة في علم الدلالة Essai de Sémantique » وذلك سنة 1897م.

وإذا كان اللسانيون الأمريكيون في العهد البلومفيلدي قد اهتموا بدراسة اللغات من الناحية المعجمية ، والصوتية ، والنحوية ، فإنهم لم يلتفتوا إلى دراسة المعنى نظرا لما يحيط به - في رأيهم - من مزالق ومخاطر قد تؤدي بهم إلى الابتعاد عن الدراسة العمليّة. وبالفعل ساعد هذا الموقف السلبي على تعثر الدراسات الدلالية ، ولم تشهد هذه الأخيرة أي تقدّم يذكر إلاّ في الستينيات بعد رواج القواعد التوليدية التحويلية ، وعلم النفس اللغوي، وفرضيّة سابير و وورف (Sapir-Whorf Hypothesis) ، ونظرية الاتّصال ، ونظرية تحليل المكوّنات (Componential Analysis).

وهكذا بدأ الاعتناء بدراسة الدلالة لأن النظرية اللسانية العامة لا يمكنها أن تعتمد على الجوانب الصوتية والنحوية فحسب ، خاصّة و أن الظواهر اللغويّة مشتبك بعضها ببعض ، وترتبط بالدلالة ارتباطا شديدا.

11 - 2 - معنى المعنى:

يعنى علم الدلالة بدراسة المعنى ، ولكن ما معنى المعنى ؟ لقد طُرح هذا السؤال مرارا وكانت الأجوبة في كل مرّة مختلفة تماما . وهذا ما أدّى بكثير من الباحثين إلى التشكيك في إمكانية دراسة المعنى دراسة علميّة . ومادمنا بصدد تعريف المعنى، فلعلّ أشهر كتاب تناول

هذه المسألة بالتفصيل هو : << معنى المعنى >> The Meaning of Meaning الذي ظهر سنة 1923م لصاحبيه " أوغدن و ريتشردز " (Ogden and Richards). وقد أورد هذان اللسانيان اثنين وعشرين تعريفا خاصا بكلمة " المعنى " ، وسنذكر فيمايلي بعضًا منها:(1)

- المفردات التي تُقرن بمفردة ما في القاموس.
- خاصيّة جوهريّة.
- المعنى الإضافي الذي توحيه اللفظة علاوة على معناها الأصلي.
- النتائج العمليّة لشيء ما في تجربتنا المستقبلية.
- موقع أي شيء في نظام ما.
- ذلك الشيء الذي يقصده مستعمل الرمز.
- ذلك الشيء الذي يجب أن يقصده مستعمل الرمز.
- ذلك الشيء الذي يعتقد مستعمل الرمز أنّه يقصده.
- ذلك الذي يقصده مؤوِّل الرمز ، أو يعتقد أنه يقصده ، أو يعتقد أن المستعمل يقصده.

وبشكل عام ، يمكن تقسيم هذه التعريفات المختلفة إلى نوعين اثنين : النوع التحليلي (analytic) الذي يرمي إلى تحليل المعنى إلى كلّ عناصـــره المكوّنة له . والنوع العـــملي (operational) الذي لا يعنى بمعنى المعنى بقدر ما يعنى بالعمل الذي يؤديه.

II ـ 3 علمية علم الدلالة:

تصبو دراسات الدلالة إلى أن تكون علما قائما بذاته . والعلم الحقيقي هو ما يتوفر فيه اليقين المطلق ، أو على الأقل ما يقارب الحقيقة المطلقة . وللوصول إلى هذه الدرجة حسب ليتش (Leech) ، لابدّ للدلالة من المرور بأربع مراحل . أوّلا ، صياغة نظريات واضحة ودقيقة حتى يتمكن كل باحث من الوقوف على ما تدّعيه وما لا تدّعيه أيّ نظرية . ثانيا ، تحرّي

(1) C.K. Ogden and I.A. Richards , The Meaning of Meaning. London, 1936, pp. 186 - 7.

الموضوعية في البحث والتحقيق . ثالثا، البساطة في تفسير الظواهر . ولكن الحديث الدقيق عن قياس هذه البساطة لم يتوفر بعد لأن اللسانيين لم يلتفتوا إلى الدلالة بطريقة جديّة إلا في أواخر الستينيات . رابعا، شمولية الوصف، وهذا لم يتوفر بعد في النظرية الدلالية نظرا لتعقيد المعطيات اللغوية ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّه توصل إلى دراسة شاملة للغة واحدة أو حتى لجانبٍ واحد من جوانب الدلالة .(1) وانطلاقا من هذه المعطيات ، حكم " ليتش " على كل النظريات الدلالية بأنها مؤقتة وجزئية ، وعلى علم الدلالة بأنه ليس علما ، وإنما يهدف إلى أن يكون علما .(2) ومما لاشك فيه أن الدلالة هي أصعب مجال في اللسانيات بالمقارنة إلى التركيب والصوتيات ، ولكن هذا لم يمنع اللسانيين من محاولة إخضاع بعض الظواهر الدلالية إلى الدراسة الموضوعية كما سنرى بعد حين.

II ـ 4 ـ مناهج علم الدلالة:

على الرغم من حداثة علم الدلالة ، فقد ظهرت إلى حيّز الوجود ثلاثة مناهج رئيسية تعنى بدراسة الكلمات والجمل . وهي المنهج التحليلي ، والمنهج العملي أو السياقي، والمنهج العقلاني . ونحاول فيمايلي أن نوضّح مبادئ كل منهج على حدة.

II ـ 4 ـ 1 ـ المنهج التحليلي:

يُعرف النموذج التحليلي للمعنى الذي ظهر بأوروبا الغربية بالمثلث القاعدي (basic triagle). وقد جاء بهذا المثلث كلّ من " أوغدن " و " ريتشردز " في كتابهما: << معنى المعنى >> وقسّما بذلك المعنى إلى ثلاثة مكوّنات : الرمـز (symbol)، والفكر (thought) ، والمرجـع (reference): وبتعبير آخر : الاسم (name) ، والمعنى (sense) ، والشيء (thing) . والاسم هو الكلمة المنطوقة أو المكتوبة ، والمعنى هو المعلومة التي ينقلها الاسم ، والشيء هو الظاهرة غير اللغويّة التي تدلّ عليها الكلمة .(3) ويتضح لنا هذا أكثر من خلال الشكل التالي:



(1) Geoffrey Leech , Semantics , Harmondsworth: Penguin Books Ltd, 1974, p. 70.
(2) Ibid.
(3) Ogden and Richards , Op. Cit. , p. 11.

هذه المسألة بالتفصيل هو : « معنى المعنى » The Meaning of Meaning الذي ظهر سنة 1923م لصاحبيه " أوغدن و ريتشردز" (Ogden and Richards). وقد أورد هذان اللسانيان اثني وعشرين تعريفا خاصا بكلمة " المعنى " ، وسنذكر فيمايلي بعضًا منها:[1]

- المفردات التي تُقرن بمفردة ما في القاموس.
- خاصيّة جوهريّة.
- المعنى الإضافي الذي توجبه اللفظة علاوة على معناها الأصلي.
- النتائج العمليّة لشيء ما في تجربتنا المستقبلية.
- موقع أي شيء في نظام ما.
- ذلك الشيء الذي يقصده مستعمل الرمز.
- ذلك الشيء الذي يجب أن يقصده مستعمل الرمز.
- ذلك الشيء الذي يعتقد مستعمل الرمز أنّه يقصده.
- ذلك الذي يقصده مؤوّل الرمز ، أو يعتقد أنه يقصده ، أو يعتقد أن المستعمل يقصده.

وبشكل عام ، يمكن تقسيم هذه التعريفات المختلفة إلى نوعين اثنين : النوع التحليلي (analytic) الذي يرمي إلى تحليل المعنى إلى كلّ عناصره المكوّنة له . والنوع العملي (operational) الذي لا يعنى بمعنى المعنى بقدر ما يعنى بالعمل الذي يؤديه.

11 ـ 3. علمية علم الدلالة:

تصبو دراسات الدلالة إلى أن تكون علما قائما بذاته ، والعلم الحقيقي هو ما يتوفر فيه اليقين المطلق ، أو على الأقل ما يقارب الحقيقة المطلقة . وللوصول إلى هذه الدرجة حسب ليتش (Leech) ، لابدّ للدلالة من المرور بأربع مراحل . أوّلا ، صياغة نظريات واضحة ودقيقة حتى يتمكن كل باحث من الوقوف على ما تدّعيه وما لا تدّعيه أيّ نظرية . ثانيا ، تحرّي

(1) C.K. Ogden and I.A. Richards , The Meaning of Meaning, London, 1936, pp. 186 - 7

الموضوعية في البحث والتحقيق . ثالثا ، البساطة في تفسير الظواهر ، ولكن الحديث الدقيق عن قياس هذه البساطة لم يتوفر بعد لأن اللسانيين لم يلتفتوا إلى الدلالة بطريقة جديّة إلا في أواخر الستينيات . رابعا ، شمولية الوصف، وهذا لم يتوفر بعد في النظرية الدلالية نظرا لتعقيد المعطيات اللغوية ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّه توصل إلى دراسة شاملة للغة واحدة أو حتى لجانب واحد من جوانب الدلالة .[1] وانطلاقا من هذه المعطيات ، حكم " ليتش " على كل النظريات الدلالية بأنها مؤقتة وجزئية ، وعلى علم الدلالة بأنه ليس علما ، وإنما يهدف إلى أن يكون علما .[2] ومما لاشك فيه أن الدلالة هي أصعب مجال في اللسانيات بالمقارنة إلى التركيب والصوتيات ، ولكن هذا لم يمنع اللسانيين من محاولة إخضاع بعض الظواهر الدلالية إلى الدراسة الموضوعية كما سنرى بعد حين.

11 ـ 4 ـ مناهج علم الدلالة:

على الرغم من حداثة علم الدلالة ، فقد ظهرت إلى حيّز الوجود ثلاثة مناهج رئيسية تعنى بدراسة الكلمات والجمل ، وهي المنهج التحليلي ، والمنهج العملي أو السياقي، والمنهج العقلاني . ونحاول فيمايلي أن نوضّح مبادئ كل منهج على حدة.

11 ـ 4 ـ 1 ـ المنهج التحليلي:

يُعرف النموذج التحليلي للمعنى الذي ظهر بأوروبا الغربية بالمثلث القاعدي (basic triagle). وقد جاء بهذا المثلث كلٌّ من " أوغدن " و " ريتشردز " في كتابهما « معنى المعنى » وقسّما بذلك المعنى إلى ثلاثة مكوّنات : الرمز (symbol)، والفكر (thought)، والمرجع (reference)؛ وبتعبير آخر : الاسم (name) ، والمعنى (sense) ، والشيء (thing) . والاسم هو الكلمة المنطوقة أو المكتوبة ، والمعنى هو المعلومة التي ينقلها الاسم ، والشيء هو الظاهرة غير اللغويّة التي تدلّ عليها الكلمة .[3] ويتضح لنا هذا أكثر من خلال الشكل التالي:



(1) Geoffrey Leech , Semantics , Harmondsworth: Penguin Books Ltd, 1974, p. 70.
(2) Ibid.
(3) Ogden and Richards , Op. Cit. , p. 11.

ويدلّ الخط المنقطع على عدم وجود أيّة علاقة بين الاسم والشيء ، ولا يربط بينهما إلا المعنى.

ولئن كان بعض اللسانيين قد تقبلوا هذه النظرة التحليلية للمعنى ، فإنهم يفضلون تبسيطها بإسقاط ما يسمى بالشيء أو المرجع ، والإبقاء بذلك على عنصرين أساسيين: الاسم والمعنى ، أو الدال والمدلول في اصطلاح دي سوسير . وتعدّ العلاقة بين هذين العنصرين تبادليّة وعكسيّة في آن واحد: فالمتكلم يفكر في المرجع ، ثم يلفظ الاسم بعد ذلك ، وتختلف العمَلية عند السامع ، إذ عندما يسمع الاسم ، فإنه يفكر في المرجع . وقد انتقد بعض اللسانيين هذه الثنائية لأنها تحيي - في رأيهم - فكرة ميتافيزيقية قديمة تتمثل في ثنائية الروح والجسد . ولكن كما يقول ريد (Read) الباحث الأمريكي : إن هذا النقد انبثق من سوء فهم الأشياء ، فالثنائية بين الشكل والمعنى ، الاسم والمعنى ، الدال والمدلول ، العبارة والمضمون لا ترتبط بأيّة نظرية ميتافيزيقية ، بل إنها ثنائية متأصلة في كلّ علامة ، لغوية كانت أم غير لغوية.[1]

11 - 4 - 2 - المنهج العملي أو السياقي:

على خلاف اللسانيات الحديثة التي شدّدت على الجانب النظري (theoretical aspect) في البحث العلمي ، فإن اللسانيات التي ظهرت في الفترة ما بين 1930 و 1960 ألحت على الجانب الذي يعتمد التجربة أو الملاحظة (empirical or observational aspect) وقد افتتن بهذا المنهج أولئك الذين يطمحون إلى إقامة نظرية دلالية مبنية على مبادئ الوضعية العلمية . فإذا درسنا المعنى في حدود الأفكار، والمتصورات ، والحالات العقلية الداخلية ، فإنه لا يتسنى لنا إخضاعه للملاحظة العلمية . ومن هنا يتعيّن علينا - في رأي هؤلاء - دراسة المعنى في إطار الموقف ، والاستعمال ، والسياق .[2] وهذا ما أصبح يعرف بالمنهج العملي أو السياقي (Operational or contextual method). لقد تطوّرت المقاربة العملية للمعنى على يد بريدجمن

---

(1) A.W Read, "The term meaning in linguistics" . ETC. 13. pp. 37 - 45.

(2) G. Leech, Op. Cit. , p. 71

(Bridgman) في الولايات المتحدة الأمريكية ، ولقيت صداها في أوروبا الغربية على يد ويتغنشتاين (Wittgenstein) وإذا كان " بريدجمن " في كتابه : « منطق الفيزياء الحديثة » قد صرّح فقط بأن "المعنى الحقيقي للكلمة يكمن في الوقوف على ما يفعله الإنسان بها ، وليس فيما يقوله عنها "[1]. فإن " ويتغنشتاين " ذهب إلى أبعد من هذا في كتابه :« مباحث فلسفية» الذي نُشر بعد موته سنة 1953م ؛ إذ وازى بين المعنى والاستعمال ، وأبدى بعض التحفظات في قوله : " بالنسبة لقسم كبير من الحالات - وليس كل الحالات - التي تستعمل فيها كلمة "معنى" فإن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة "[2]. وكثيرا ما يربط ويتغنشتاين بين الكلمات والأدوات ؛ فهو يقول : " فكّر في الأدوات الموجودة في صندوقها : مطرقة ، وكمّاشة، ومنشار ، ومسطرة ، ووعاد للغراء ، وغراء ، ومسامير ، ولوالب ؛ فإنك تلاحظ أن وظائف الكلمات تتعدّد بتعدّد وظائف هذه الأدوات"[3] ، ثم يستطرد قائلا : " لا تسأل عن المعنى أسأل عن الاستعمال" ، " فاللغة أداة، ومتصوراتها أدوات ".[4] وعلى غرار دي سوسير ، فهو يرى أن اللغة مثل لعبة الشطرنج ، " وسؤالنا ما هي الكلمة ؟ يشبه سؤالنا: ماهي القطعة في لعبة الشطرنج ... ودعنا نقول : إن معنى القطعة هو دورها في اللعبة ." [5]

ومن الذين ذهبوا إلى دراسة المعنى في إطار السياق : اللساني البريطاني فيرث (J.F. Firth) الذي تأثر بدوره بالأنثروبولوجي البولندي مالينوسكي (Malinowsky). وقد بلغ الأمر بهذا الأخير إلى القول: " بأن اللغة نمط من النشاط ، وليست وسيلة للتفكير . " وهذا - بالطبع - شيء مبالغ فيه . أما فيرث الذي كان يتوخى دراسة الدلالة دراسة موضوعية بعيدة عن كل الاستقراءات الحدسيّة فقال:" إذا اعتبرنا اللغة وسيلة تعبيرية أو تواصلية ، فإننا نعني ضمنيا أنها وسيلة للحالات العقلية الداخلية. وبما أننا نعرف القليل عن هذه الحالات العقلية الداخلية ، ولو بمساعدة الاستبطان الدقيق ، فإن مشكلة اللغة تصبح لغزا كلما حاولنا تفسيرها بالرجوع

---

(1) P.W. Bridgman. The Logic of Modern Physics, London, 1927, p. 7.

(2) L. Wittgenstein. Philosophical Investigations, Oxford, 1953, p; 20.

(3) Ibid. , p. 6.

(4) Ibid. , p. 151.

(5) Ibid. , p. 47 , 150.

إلى الحوادث العقلية الداخلية غير القابلة للملاحظة . ولكن عندما نعدُّ الكلمات أفعالا ، وحوادث وعادات ، فسنحصر بحثنا فيما هو موضوعي ضمن الحياة الجماعية لرفقائنا ."[1]

وفي سنة 1933م ربط بلومفيلد (Bloomfield) في مؤلفه الشهير : اللغة (language) تقدم علم الدلالة بتقدم العلوم، ورأى أن التعريف العلمي للأشياء هو الذي يقدم الإجابة الشافية لعلماء الدلالة . وعلى حدّ تعبيره : " نستطيع أن نعرف معنى شكل كلامي بدقة عندما يتعلق هذا المعنى ببعض المواد التي نعرفها معرفة علميّة . فنستطيع أن نُعرِّف أسماء المعادن في إطار الكيمياء أو علم المعادن كقولنا : إن المعنى الطبيعي للكلمة الإنجليزية " ملح " (Salt) هو كلوريد الصوديوم (NaCl) ، ونستطيع أن نُعرِّف أسماء النباتات والحيوانات بوساطة مصطلحات من علم النبات وعلم الحيوان ، ولكن ليس لدينا أيّة طريقة واضحة لتعريف كلمات مثل : الحب والكراهية ... التي تمثل الغالبية العظمى من مفردات اللغة "[2] ثم أردف قائلا : "وعليه فإن دراسة المعاني هي أضعف نقطة في الدراسة اللغوية ، وستبقى هكذا حتى تتقدم المعرفة البشريّة أكثر مما هي عليه في الحالة الراهنة ."[3] وقد حاول " بلومفيلد" أن يدرس المعنى في حدود المثير السلوكي والاستجابة للمثير وذهب إلى " أن الشكل اللغوي هو الموقف الذي يلفظه فيه المتكلم والاستجابة التي يحدثها في السامع . " وبعبارة أخرى ، يمكننا استنباط معنى الكلمة من خلال السياق الذي ترد فيه ، وأن المعنى يقبل التحويل إلى سياق يمكن مشاهدته. وكما شهد على نفسه ، فإن كثيرا من المفردات التي تعبر عن الأحاسيس والمشاعر والأفكار والمتصورات لا يمكن أبدا دراستها عن طريق ملاحظة البيئة والسلوك .

وعلاوة على هذا ، فإن التعريف بالصيغ العلمية مثل: ملح = NaCl لا يقوم إلا باستبدال سلسلة من الرموز اللغوية بسلسلة من الرموز الفيزيائية أو الكيميائية ، و تأجيل التفسير الدلالي إلى أجل غير مسمّى . وجدير بالذكر أن العلوم الأخرى لم تبدأ بتعريف الأشياء قبل

(1) J.R. Firth. Speech and the Tongues of Men, London: Oxford University Press (Language and Language Learning 2) (1964), (First ed: Speech 1930, The Tongues of Men 1937) , p. 173.

(2) L. Bloomfield. Language, New York, 1933. p 139.

(3) Ibid . , p. 140.

الشروع في دراستها . فعالم الفيزياء مثلا لا يتحتم عليه تعريف مفاهيم الزمن ، والحرارة ، والذرة ، والتذرية، والجزئ ، والنوترون ، والبروتون قبل أن يبدأ في الحديث عن خواصها. وفوق هذا وذاك ، فإن علم الدلالة يحتاج إلى تعريفاته الخاصة ، وليس إلى التعريفات المستعارة من العلوم الأخرى ، كعلم النفس ، والفلسفة ، والفيزياء ، والأنثروبولوجيا . وبهذه النظرة إلى المعنى ، يكون هؤلاء الباحثون قد استبدلوا الكينونات العقلية المجردة بأعمال سلوكية قابلة للملاحظة ، وساعدوا بذلك على إبعاد الدراسات الحقيقية للمعطيات اللغوية.

11 ـ 4 ـ 3 ـ المنهج العقلاني:

يُمثِّلُ هذه النظرة العقلانية في اللسانيات الأمريكي نوعم تشومسكي ، وعلى غرار السياقيين ، فهو يرى أن الوظيفة الأساسية للغة تكمن في نقل الأفكار وتسهيل عمليّة التواصل. ولكنه لم يذعن للمنهج التجريبي ، واعتمد الاستبطان (introspection) منهجًا : أي إمكانية استنباط المعطيات اللغوية مباشرة عن طريق الحدس . والحقيقة إن النظريات الدلالية التي أصبح لها شأن كبير لم تظهر إلاّ في ظل المنهج العقلاني والقواعد التوليدية التحويلية لتشومسكي، وما فتئت هذه النظريات تنافس النظريات التركيبية والفونولوجية إلى يومنا هذا . وأقل ما يقال عنها : إنها تمكنت من الحصول على نوع من الإجماع حول بعض المسائل الدلاليّة مثل تحديد الجمل النحوية وغير النحوية والجمل المرادفة والجمل الغامضة.

وقد تحدّى تشومسكي المذهب التجريبي في اعتماده على الحدس ، وأبدى نوعا من المرونة في فهمه للمنهج العلمي ، أو بالأحرى نوعا من الوعي بأن اللسانيات لا يمكن أن تكون أبدا علما مثل الفيزياء أو العلوم الدقيقة. وإذا كان تفسير الظواهر اللغوية يعتمد بالفعل على الحدس ، فإن علماء الدلالة هم أوّل من نادى بتقنين هذا الحدس حتى يتمكن الدارسون من الحكم الصحيح على التراكيب النحويّة والدلالية . وهذا ما نلحظه جيّدا عند أصحاب قواعد الحالات (Case Grammar) مثل فيلمور (Fillmore) [1] ونيلسن (Nilsen)،[2] وغيرهما كثير.

(1) CF. Charles Fillmore, " The case for case " , in E. Bach and R. Harms (ed), 1968, pp. 1 - 88.

(2) CF. D.L.F. Nilsen , Toward a Semantic Specification of Deep Case. The Hague : Mouton, 1972.

وعندما تطرق تشومسكي إلى قضية الحكم على الظواهر اللغوية ، بدأ بطرح بعض التساؤلات الوجيهة : "كيف نعرف أن هذه الجملة أو تلك نحويّة؟ وأن هذه العبارة أو تلك مرادفة لهذه العبارة أو تلك ؟ " ثم أجاب : " لا توجد إجابة مرضية لهذا السؤال ، وإن المعطيات اللغوي مثل هذا النوع هي - ببساطة - ما يكوّن موضوع النظرية اللغوية "[1] وتوصل في آخر الأمر إلى أن " المعايير العملية ... ينبغي أن تلبي شروط التطابق مع أحكام الاستبطان . "[2] ولذا فإن أيّ لسانيّ كان ، بإمكانه الحكم على كلّ " أداء لغوي " في لغته بالرجوع مباشرة إلى : " كفاءته اللغوية " . وإذا كان هناك اختلاف في الحكم على بعض الظواهر اللغوية بين اللسانيين ، فإن ذلك يعود بدون شك إلى اللهجات المختلفة التي يتكلمونها وكما يقول تشومسكي : " فالأحكام الاستبطانية تكون صحيحة - على الأقل - بالنسبة للهجتي الخاصّة (idiolect) "[3]

11 - 5 - علم الدلالة التاريخي:

يعنى علم الدلالة التاريخي بدراسة تغيّرات المعنى وتحليلها وتصنيفها ، وتقنين القوانين العامّة التي تتحكم في اتجاهاتها . والثابت لدى الدارسين أنه لما ظهر علم الدلالة الأول مرة بوصفه شعبة مستقلة ، كانت اللسانيات نفسها علما تاريخيا. وفي إطار هذا المنحى العام للدراسة اللغوية ، اتخذ علم الدلالة اتجاها تاريخيًا . وكان اللساني " ريزيغ " (Reisig) رائدا في هذا الميدان ، وكان أول من أطلق على الدراسة التي تعنى بالمعنى " علم الدلالة " (Semasiology) وليس " السيمانتيك " (Semantics)، وبيّن أن موضوع هذا العلم الجديد هو إرساء المبادئ التي تتحكم في تطوّر المعنى . وعندما تحدث بريال (Bréal) في مقاله الشهير الصادر عام 1833م عن علم الدلالة قال : " إنّه يبحث في القوانين التي تتحكم في تغيّرات المعنى ، واختيار العبارات الجديدة، ونشأة التعبيرات الاصطلاحية (idioms) وموتها . "

وظلت النظرة التاريخية مهيمنة على علم الدلالة حتى سنة 1930م ، بل أن في سنة 1931م ، نشر " ستارن " (Gustav Stern) كتابه الشهير : المعنى وتغيّر المعنى : Meaning and

(1) N.Chomsky, Current Issues in Linguistic Theory , Mouton , 1964, p. 79.

(2) Ibid. , 80.

(3) Ibid.

Change of Meaning الذي لم يسبق لأحد أن ألّف مثله من قبل ، وقد شرح فيه كلّ أنواع تغيّرات المعنى مستعينا في ذلك بعدد كبير من المصادر والمراجع. وبهذا العمل العظيم بلغ علم الدلالة التاريخي ذروته . وبالإضافة إلى هذا العمل الدلالي التاريخي ، فإننا نلحظ في الكتاب نفسه أن " ستارن " قد تحدث أيضا عن علم الدلالة الوصفي ، والمظاهر الفلسفية والسيكولوجية للمعنى ، وظاهرة الحُبسة (aphasia) وعلاقتها بالدلالة.[1]

وقد انكب علماء الدلالة التاريخية على تصنيف التغيرات الدلالية حسب أسبابها ، فأحصى شميدت (K.Schmidt) سنة 1894 عشرة أسباب ، وتوصل غراسري (Grasserie) سنة 1908 إلى ذكر واحد وثلاثين سببا ، وأجمل ميي (Meillet) ثلاثة أسباب رئيسية : لغوية، واجتماعية ، وتاريخية ، وأضاف إليها نيروب (Nyrop) سنة 1913 سببا رابعا تمثّل في العوامل السيكولوجية.[2]

11 - 6 - علم الدلالة الوصفي:

يُعنى علم الدلالة الوصفي (Descriptive Linguistics) بدراسة المعنى والعلاقات الدلالية البسيطة والمعقدة دراسة وصفية آنيّة . وقد درس النحويون القدامى بعض هذه الجوانب منها: الترادف ، والتضاد ، والاشتراك اللفظي، ولكن هناك بعض العلاقات الدلالية الأخرى التي لم ينتبهوا إليها ، وقام بدراستها علماء الدلالة في العصر الحديث.

وعلى الرغم من الثورة التي أحدثها دي سوسير في الدراسات اللغويّة ، وتمييزه بين الدراسات الآنية والزمانية، وتفضيله للأولى ، فإن النظرة التاريخية بقيت مهيمنة على علم الدلالة حتى 1930م ، حيث بدأ بعض الباحثين يمزجون في كلامهم بين الدراسة التاريخية والوصفية . أما أوّل محاولة جادّة في علم الدلالة الوصفي ، فكانت من لدن اللساني الألماني مارتي (Marty) وذلك في سنة 1950م . وقد ساعدت اللسانيات الجغرافية على تطوّر علم الدلالة الوصفي نتيجة الاهتمام باللغات واللهجات وما تحمله ألفاظها من معانٍ في الزمن الحاضر.

(1) G. Stern, Meaning and Change of Meaning, Bloomington , Ind, 1931 , 1964

(2) S. Ullman, " Semantics " in Thomas A.Sebeok ed. Current Trends in Linguistics. vol. 9 , Mouton, 1972, pp. 343 - 394.

ومن المواضيع التي انصب عليها اهتمام علماء الدلالة في العصر الحديث : أسماء العلم (proper names)، والتحفيز (motivation)، والالتباس (ambiguity)، والمعنى العاطفي (emotive meaning) و والإتيمولوجيا الشعبية (popular etymology)، والتسمية المحاكية (anomatopoeia) ، والتغيّر الدلالي (semantic change)، والمجاز (metaphor)، والمحظور (taboo)، والتأنق اللفظي أو البياني (euphemism) : أي استبدال تعبير غير سار بتعبير لطيف، وعلم الأعلام (onomasiology)؛ أي دراسة أصل وأشكال أسماء الأشخاص والأماكن، والنظرية الحقليّة (Field theory)، والاقتضاء (entailment)، والتضمين (presupposition)، وبنية المعجم (vocabulary structure)، والتحليل إلى مكونات (componential analysis) ، والأفعال الكلامية (speech acts). وبطبيعة الحال، لا يمكننا أن نتحدث عن كل هذه المواضيع في كتاب بمثل هذا الحجم.

11 ـ 7 ـ النظريات الدلالية في القواعد التوليدية :

استفاد علم الدلالة من القواعد التوليدية التحويلية ، واكتسب بذلك نوعا من الموضوعية والدقّة في التحليل. وتعدُّ دراسة المعنى جزءًا لا يتجزأ من النظرية اللغوية العامة ؛ إذ لا يمكن دراسة الشكل دون المضمون، كما لا يمكن دراسة المضمون دون الشكل . وإذا كان المنهج التجريبي قد عطّل تقدّم الدراسات الدلالية، فإن المنهج العقلاني بريادة تشومسكي قد أعطاها نفسا جديدا ، ومكّنها من التبلور في كنف القواعد التوليدية التحويلية.

ومن النظريات الدلالية التي انبثقت من القواعد التوليدية : الدلالة التفسيريّة (Interpretive Semantics) لـ : كاتز (Katz) ، والدلالة التوليدية (Generative Semantics) التي طوّرها كلّ من ليكوف (G. Lakoff) ، ومكاولي (McCawley)، وروس (Ross) ، وبوسطل (Postal) وغيرهم ، والنظرية المعياريّة الموسّعة (The Extended Standard Theory) لتشومسكي وجاكندوف (Jackendoff) ، وقواعد الحالات (Case Grammar) لتشارلز فيلمور (Charles Fill-more) . وتعدُّ هذه النظرية الأخيرة أشهر النظريات الدلالية على الإطلاق ، ولذا فإننا سنُخصّص لها حيّزا أوسع ، وسنحاول مناقشتها بشيء من التفصيل . وكما هو معروف ، فإن الاختلافات الموجودة بين هذه النظريات الأربع ناتجة عن الرؤى المتباينة إزاء تمثيل التركيب والدلالة.

11 ـ 7 ـ 1 ـ الدلالة التفسيرية :

بعد ظهور كتاب تشومسكي : « البنى التركيبية » سنة 1957 أصدر كاتز وفودور (Katz and Fodor) سنة 1963 مقالا بعنوان : "بنية النظرية الدلالية"(1) متسائلين بذلك عن كيفية تعامل القواعد التوليدية التحويلية مع الظواهر الدلالية ، وبالتالي عن مكانة الدلالة في هذه النظرية التشومسكية التي أهملت الدلالة إطلاقا . وقد عرفت الدلالة التفسيرية منذ ذلك الحين تطورات مختلفة ؛ ومع هذا ، فهي تنص في جوهرها على أن " عزو التمثيلات الدلالية إلى الجمل مثله مثل عزو البنى التركيبية ، يجب أن يكون بوساطة قواعد تكرارية (recursive rules) وأن ربط أية جملة بمعنى ما لا يكون بطريقة اعتباطية ، وإنما يكون بوساطة البنى التركيبية والمضمون المعجمي للجملة "(2).

ويرى كاتز وفودور " أن وجود مكوّن تركيبي قائم بذاته يُعدُّ شيئا مفروغا منه لأنه يحدد البنية التركيبية والمضْمون المعجمي لكل جملة في اللغة . وعليه فإن مهمة [النظرية الدلالية] تتمثل في : (أ) تحديد معاني الوحدات المعجمية ، و (ب) تزويد قواعد تكرارية تعمل على البنى التركيبية لبناء معاني المركبات (phrases) والجمل من خلال معاني الوحدات المعجمية (Lexical items)" (3).

ولئن كانت النظرية التفسيرية الأولى التي ظهرت عام 1963م تقضي بأن البنى التركيبية السطحية تكوّن المدخل الخاص بقواعد الإسقاط (projection rules) للمكوّن الدلالي ، فإن كاتز وبوسطل (Katz and Postal) ذهبا في مؤلفهما الصادر عام 1964 الموسوم بـ « النظرية التأليفية للوصف اللغوي » إلى أن البنى التركيبية العميقة هي التي ينبغي تفسيرها دلاليا لأن التحويل التركيبي لا يغيّر من معنى البنية ، وأن البنية العميقة نفسها لا تتحول أبدا إلى جملتين مترادفتين .(4)

---

(1) J.J. Katz and J.A . Fodor, " The structure of a Semantic Theory " , Language, 39, 1963, pp. 170 - 210.

(2) J.D Fodor, Semantics: Theories of Meaning in Generative Grammar, New York: Thomas Crowel Company, Inc, 1977, p. 64.

(3) Ibid.

(4) J.J. Katz and P.M. Postal, An Integrated Theory of Linguistic Descriptions, Cambridge: MIT Press, 1964.

ويقول فودور (Fodor) بشأن هذه النظرية : " إن المزاوجات بين الوحدات المعجمية وتمثيلاتها الدلالية تكوّن معجم (dictionary) اللغة ، وكل مدخل معجمي (lexical entry) يحتوي على قراءة أو أكثر ، حيث تمثّل كلّ قراءة معنى من معاني الوحدة المعجمية . والقواعد التكرارية التي تبني قراءات مكوناتها تدعى قواعد الإسقاط . وتقوم هذه القواعد بإسقاط القراءات الصرفية على قراءات المركبات والجمل مفسرة بذلك قدرة الناطقين باللغة الأم على إسقاط معرفتهم الخاصّة بمعاني المجموعة المتناهية من الجمل التي صادفوها من خلال العدد غير المتناهي من الجمل الممكنة في اللغة . " (1)

" وتُعدُّ معاني الوحدات المعجمية والمكوّنات الكبرى متصورات (concepts) يمكن تحليلها إلى متصوّرات صغرى بسيطة تمثلها الواسمات الدلالية (semantic markers) والمميّزات (distinguishers) . وعليه فإن الواسمات الدلالية والمميّزات تكوّن المعجم الذي تُؤلَّفُ منه كل القراءات . ويقال : إن المميّز لوحدة معجمية في القراءة يستهدف إظهار المعنى الخاص بهذه الوحدة ."(2)

وقد أعاد " كاتز " النظر في هذا التعريف الخاص بالمميّز سنة 1972 في قوله : " تقوم المميّزات بالتمييز بين الوحدات المعجمية التي قد تكون مترادفة تماما . وعلى عكس الواسمات الأسلوبية التي تمثّل مكونات مفاهيمية لمعاني الوحدات المعجمية والعبارات ، فإن المميّزات تسم الاختلافات المدركة بالحواس والمرتبطة بمراجع (referents) المعاني التي تتماثل من الناحية المفاهيمية ." (3) أما التمييز بين الواسمات الدلالية والمميّزات فقد ظهر لأوّل مرّة عند كاتز وفودور سنة 1963 في قولهما : " الواسمات الدلالية هي العناصر التي تُعبّر عن العلاقات الدلالية في النظرية ... والغرض من الواسمات الدلالية التي تلحق بوحدة معجميّة في مدخل معجمي هو إظهار العلاقات النظامية التي تربط هذه الوحدة ببقية مفردات اللغة . ومن جهة أخرى ، فالمميّزات التي تلحق بأية وحدة معجمية تستهدف إظهار المعنى الخاص بهذه الوحدة."(4)

(1) Janet Dean Fodor, Op. Cit. p. 64.
(2) Ibid. , p. 64
(3) Ibid. , p. 147.
(4) Ibid. , p. 145.

ومثال عن هذا التمييز بين الواسمات الدلالية والمميّزات المدخل المعجمي لكلمة « bache-lor » كما يمثله الشكل التالي:



وهنا تعدُّ العناصر الموجودة بين قوسين (...) واسمات دلالية والعناصر الموجودة بين معقّفتين [...] مميّزات . لاحظ أن المكونات التي تُمثلها الواسمات الدلالية هي متصورات : الذكر ، والإنس ، والحيوان . وهي مكونات لكلمات كثيرة في الإنجليزية وغيرها من اللغات الأخرى ، وبالتالي لا يمكنها أن تُميّز وحدها بين المعاني الأربعة لكلمة "bachelor".(1)

11 ـ 7 ـ 2 ـ الدلالة التوليدية :

على غرار الدلالة التفسيرية ، فإن الدلالة التوليدية تطوّرت في أواخر الستينيات عن النظرية التشومسكية الكلاسيكية ، ثم سرعان ما اتّخذت اتجاها مغايرا تماما . وقد أولى أصحاب هذه النظرية أمثال روس (Ross)، وليكوف (Lakoff)، ومكاولي (Mc Cawley) اهتماما شديدا بتعميق البنية العميقة حتى تقترب أكثر من التمثيل الدلالي للجملة ، وبتوسيع العملية التحويلية للاشتقاق من البنية العميقة إلى البنية السطحية ، وبتقليص القواعد الدلالية التفسيرية ، وربطها بالتمثيلات الدلالية . وهكذا أصبح التركيب أكثر تجريدا مما كان عليه .

(1) Ibid. , p. 146.

والدلالة التوليدية ـ كما عرّفها مكاولي ـ هي نظام لغوي يربط البنى السطحية بالبنى الدلالية التحتية . وتكون البنية المنطقية لكل جملة في شكل مشجر متضمن لبعض المصطلحات النحويّة ، كالعنصر الشبيه بالفعل الذي يدعى المحمول ، والعناصر الشبيهة بالأسماء التي تدعى مواضيع (arguments) . وتكون العجرات النهائية (terminal nodes) للبنية السطحية عبارة عن وحدات معجمية . ويكون الاشتقاق عبارة عن مجموعة من المشجرات المرتبطة التي تبيّن المراحل المنتظمة التي يتم من خلالها تحويل البنى المنطقية إلى بنى سطحيّة . وتكون العلاقة بين أيّ مرحلتين من مراحل الاشتقاق في حدود قواعد التطابق (correspondence rules) التي تعكس العلاقات القائمة ، وليس في حدود القواعد التحويلية التي تُعنى بتحويل الجمل .(1)

لقد ابتعدت الدلالة التوليدية كثيرا عن النظرية الأصلية لكاتز وبوسطل (1964) وعن نظرية تشومسكي (1965) ولكن في اتجاه مغاير للنظرية المعيارية الموسّعة . وقد تمّ التركيز في هذه النظرية على الظواهر التي تتطلب آليات وصفية قويّة وعلى استعمال قواعد شاملة وقيود اشتقاقية.

أما التحويرات الأخيرة التي أضفاها ليكوف (George Lakoff) سنة 1973 على الدلالة التوليدية فمسّت جانب اللغة أثناء الاستعمال . فقد اقترح نظرية دلالية تقوم بتوليد أربعة مستويات : بنية منطقية ، وبنية سطحية ، والسياق ، والمعنى المنقول (conveyed meaning) ويُسند المعنى السطحي للجملة في حدود البنية المنطقية التي يتم تحويلها بوساطة قواعد الاشتقاق إلى بنية سطحية . ويجب أن يشتمل النحو على مجموعة من القواعد الاشتقاقية خارج نطاق الاشتقاق الخاص بالبنية المنطقية والبنية السطحيّة ، وأن يقوم بتفسير المعاني المنقولة عن طريق الجمل .(2) وهكذا تمّ تعميق البنية العميقة إلى درجة أنها أصبحت مماثلة لتمثيلها الدلالي . وهذا يعني أن المكوّن القاعدي (base component) كما ورد عند تشومسكي لم يعد تركيبيًا ، بل أصبح دلاليًا . وبما أن البنية العميقة كانت هي التفسير الدلالي ، فلم تكن هناك حاجة لقواعد الإسقاط لتفسير البنية العميقة ، وبذلك اختفت هذه القواعد.

(1) W. A Cook, " Case Grammar and Generative Semantics", Languages and Linguistics : Working Papers, No. 10, 1973, p. 144

(2) Ibid. , p. 144.

وبهذه التعديلات الجديدة، باتت الدلالة التوليدية تعنى بمجالين مختلفين ، ولكنهما مرتبطان أيّما ارتباط : أحدهما يتناول البنية اللغوية ، والآخر يتناول الاستعمال اللغوي . وفي دراسة البنية اللغوية ، فإن المعنى السطحي للجملة يمكن تحديده من خلال بنيته المنطقية التحتيّة . وفي دراسة الاستعمال اللغوي الذي يدعى التداوليّة (pragmatics) ، فإن المعنى المنقول للجملة يُفسَّر في حدود المظاهر المتصلة بالسياق . وهذا ما نستلهمه من خلال الحوار التالي:

الشخص الأوّل : ماذا تقول في فنجان من القهوة ؟

الشخص الثاني : ما أقوله فيه يتوقف على ما يقوله لي .

وبهذا يكون الشخص الثاني قد أجاب عن السؤال بعد ما فسّره تفسيرا سطحيًا . ولكن المعنى المنقول لهذا السؤال في السياق العادي هو أن الشخص الأوّل قد عزم الشخص الثاني على تناول فنجان من القهوة .(1)

وحسب هذه النظرية الدلالية ، تشتمل كل جملة على بنية منطقية تحتية تحمل معنى معيّنًا ، وتتحول هذه البنية المنطقيّة إلى بنية سطحية عن طريق الاشتقاق . وإذا كانت القضية في المنطق تكتب في حدود المحمول (ف) الذي يُعدُّ مركزا لمجموعة من العلاقات مثل :(س، ع، ص)، فإن القضية في الدلالة التوليدية تكتب كالتالي:

محمول (موضوع، موضوع ، موضوع)

Predicate (Argument, Argument, Argument)

تدلّ البنية المنطقية على مجموعة من العلاقات بين المحمول الرئيسي والمواضيع الأساسية دون أيّة إشارة إلى زمن حدوث الفعل . وفي التحليل المنطقي ، تتمثل الخطوة الأولى في استخراج المحمول ، والخطوة الثانية في إدراج المواضيع بطريقة منتظمة بعد المحمول مباشرة . والترتيب المتّفق عليه هو كمايلي : الفاعل ثم المفعول غير المباشر ثم المفعول المباشر . ومن هنا وضع علماء الدلالة التوليدية ثلاث بنى منطقية : المحمول ذو الموضوع الواحد ، والمحمول ذو الموضوعين ، والمحمول ذو المواضيع الثلاثة. وهذه البنى ـ فريدة أو مندمجة ـ تكوّن البنى المنطقية لكل جملة.

(1) Ibid. , p. 145.

وعليه فجملة : مرض الطفل تكتب كمايلي : م . ر . ض. (الطفل) ، مثلها في ذلك مثل هذه الجملة الاسمية : الرجل شجاع التي تكتب كمايلي :

ش . ج . ا . ع (الرجل)

وتكون البنية المشجرة لكل جملة من هذين الجملتين كالتالي:



أما جملة ذات الموضوعين مثل : ضرب زيد عمرا . فيتمُّ تمثيلها كما يلي :

ض.ر . ب (زيد ، عمر)

وتكون بنيتها المشجرة كالتالي.

جملة

فعل — مركب اسمي — مركب اسمي

ض. ر . ب — زيد — عمر

ويتمُّ تمثيل جملة ذات المواضيع الثلاثة مثل : أعطى خالد الكتاب إلى علي كمايلي:

ع . ط . ى (خالد، علي ، الكتاب)

وتكون بنيتها المشجرة كالتالي :

جملة

فعل — مركب اسمي — مركب اسمي — مركب اسمي

ع . ط . ى — خالد — علي — الكتاب

أجل، لقد شارك في تطوير الدلالة التوليدية عدد كبير من اللسانيين ، وظهرت بذلك تعديلات وتغييرات عديدة مسّت بالخصوص البنية العميقة ، والتمثيلات الدلالية ، وبعض القواعد الاشتقاقية الأخرى . ولم يعد " ليكوف " و " روس " و " مكاولي " ينظرون إلى الدلالة التوليدية على أنها ضرب من القواعد التحويلية ، لأن هذه الأخيرة - في رأيهم - غدت مجرد مقاربة لغويّة تمهيدية محدودة الأفاق . وهكذا أصبح موقف الدلالة التوليدية من القواعد التوليدية التحويلية مماثلا لموقف هذه الأخيرة من اللسانيات التصنيفية البلومفيلدية . وهذا هو موقف "مكاولي " الذي كان صرّح في أوّل الأمر أن الدلالة التوليدية كالزائدة الفطرية في جنب القواعد التوليدية.

11 - 7 - 3 - النظرية المعياريّة الموسّعة :

اقترح كلّ من تشومسكي وجاكندوف (Jackendoff) نظرية دلالية تفسيرية أيضا ، ولكنها مختلفة تماما عن النظرية الدلالية التفسيرية لكاتز، وأطلقا عليها اسم النظرية المعياريّة الموسّعة (Extended Standard Theory). وقد جاءا بهذه النظرية الأخيرة لتعديل النظرية المعيارية (Standard Theory) التي رسمها تشومسكي في كتابه : مظاهر النظرية التركيبية (1965) والتي تمثّل آخر عمل في اللسانيات التوليدية قبل ظهور أي حديث عن الدلالة وعلاقتها بالتركيب.[1]

وكما رأينا آنفا أن الدلالة التفسيرية والدلالة التوليدية تطورا عن النظرية الكلاسيكية التشومسكية الصادرة عام 1965 ، وتنص هذه النظرية على أن الجملة تنتظم تركيبيًا على مستويين أساسيين : مستوى البنية العميقة ومستوى البنية السطحية. تُشتق البنية السطحية من البنية العميقة بوساطة القواعد التحويلية . وتُحدّد القواعد المركبية (phrase structure rules) البنية العميقة للجملة ، وتُكوّن المكوّن القاعدي (base component) للتركيب ، وتكون البنية العميقة مخرجا لها . وتُكوّن القواعد التحويلية المكوّن التحويلي للتركيب ، وتكون البنية السطحية مخرجا لها . وإلى جانب التركيب ، هناك مكوّنان تفسيريان: المكوّن الفونولوجي والمكوّن الدلالي. ويُشتق التفسير الصوتي للجملة من خلال بنيتها السطحية بواسطة قواعد فونولوجية، في حين يشتق التفسير الدلالي للجملة من البنية العميقة من خلال ما يُسمّى بقواعد الإسقاط.

(1) J.D. Fodor, Op. Cit. , p. 64.

لقد عارض تشومسكي بشدّة تجريد البنية التركيبية العميقة إلى درجة تصبح فيها غير متميّزة عن البنية الدلالية. وحجته في ذلك أن التراكيب التي تُعزى إليها بنى تحتيّة مماثلة في الدلالة التوليدية تبدي اختلافات تركيبية معتبرة لا يُظهرها الاختلاف الناتج عن الاشتقاق التحويلي بل الاختلاف الناتج عن البنية العميقة . وبما أن هذا ينطبق على الجمل المرادفة . فإن مستوى البنية العميقة يجب أن يكون مختلفا عن مستوى التمثيل الدلالي، وأن النحو يجب أن يشتمل على مكوّن دلالي تفسيري.

ونعثر على أوّل حجة من هذا النوع في مقال لتشومسكي صادر عام 1970 م بعنوان " ملاحظات حول التأسيم "[1]. وقد عارض تشومسكي هنا الإعتقاد السائد آنذاك بأنّ "الاسمي المشتق " (derived nominal) كما هو الشأن في العبارة (أ) ينبغي أن يشتق بطريقة تحويلية من البنية العميقة للعبارة (2).

(أ) توق يوحنا إلى الإرضاء (1) John's eagerness to please

(2) يوحنا توّاق إلى الإرضاء (2) John is eager to please

وبإمكاننا هنا أن نورد أيضا هذين المثالين:

(أ) اشتياق الأمّ إلى ولدها .

(2) الأم مشتاقة إلى ولدها .

فعلى الرغم من التشابه في المعنى بين هذين النوعين من العبارات ، فإن تشومسكي يرى أنهما غير مرتبطين من الوجهة التحويلية ، ورفض التحليل التركيبي المجرد الذي تكون فيه للاسميّات المشتقة بنى جملية عميقة ، واقترح أن تولد الاسميات المشتقة بعدّها اسميات (Nominals) : لأنها تشبه الجمل في بعض الجوانب ، وتختلف عنها في جوانب أخرى.

وعلى خلاف علماء الدلالة التوليدية ، استعمل تشومسكي البنية العميقة التركيبية لتبيين الاختلافات الموجودة بين العبارات والجمل التي تبدو متشابهة ، واقترح إظهار أوجه التشابه في

(1) CF.N. Chomsky, " Remarks on Nominalization " , in N. Chomsky " Studies on Semantics in Generative Grammar, Mouton, 1972.

المعجم بإسناد مدخل معجمي واحد لهذين النوعين من المفردات مثل : توّاق (eager) وتوق (eagerness) ، وسهل (easy) وسهولة (easiness) وغيرهما . وهذا ما أصبح يدعى بـ : التحليل المعجمي (lexicalist analysis) للاسميات المشتقّة ، وصار خاصيةُ أساسية من خصائص النظرية المعيارية الموسّعة.

وبهذا التشديد على إيجاد مستوى متميز للبنية العميقة التركيبية ، وعلى ضرورة إيجاد قواعد دلالية تفسيرية تكون النظرية المعيارية الموسّعة متطابقة تماما مع نظرية " كاتز " . ولكن الفرق الأساسي بينهما يكمن في التراكيب التي تتخذ مدخلا (Input) لهذه القواعد الدلالية. وإذا كان " كاتز " قد ذهب إلى أن البنى العميقة التركيبية هي وحدها فقط التي يجب أن تكون مدخلا للمكون الدلالي لأنها تشتمل على كل المعلومات المتعلقة بعمل قواعد الإسقاط الدلالية، فإن تشومسكي في مقاله الصادر عام 1970 بعنوان : " البنية العميقة ، البنى السطحية ، والتفسير الدلالي "[1] قد أكّد كذلك أنّ البنى السطحية المحدّدة صوتيا لابدّ أن تُفسّر دلاليًا كما هو الشأن بالنسبة للبنى العميقة.

وتدعيما للتفسير البنيوي السطحي ، أشار تشومسكي إلى أن بؤرة (focus) الجملة وتضمينها (presupposition) يتعالقان مع النبر (stress) والتنغيم (intonation)، ولابدّ من توضيحهما في حدود مكوّنات البنية السطحية.

ومن جهة أخرى ، فالنظرية المعيارية الموسّعة تناقض مبدأ كاتز وبوسطل الذي يقضي بأن التحويلات لا تؤثر على المعنى وأن البنى العميقة فقط هي التي يجب تفسيرها دلاليًا . ومع ذلك فلم يتخل تشومسكي وجاكندوف إطلاقا عن هذا المبدإ، وبالأحرى فقد أكّدا صحته فقط بخصوص العلاقات النحويّة . والعلاقات النحوية المتعلقة بالمعنى هي تلك المتمثلة على مستوى البنية العميقة . ولذا فهذه الظواهر مثل : البؤرة ، والتضمين ، والاشتراك الإحالي (coreference) وحقل العناصر المنطقية هي التي يجب تحديدها عن طريق تفسير البنى المشتقة .[2]

(1) CF. N. Chomsky , Deep Structure , Surface Structures , and Semantic Interpretation, 1970. In Jakobson and Kawamoto, eds. Also Chomsky 1972.
(2) J. D . Fodor, Op . Cit . , pp. 86. 87.

الفصل الثاني عشر

قواعد الحالات

12-1- نشأة قواعد الحالات:

على غرار النظريات الدلالية التي ذكرناها من قبل، فإن قواعد الحالات (Case Grammar) قد انبثقت كذلك من القواعد التوليدية التحويلية لتشومسكي. وإن كنّا قد أجملنا القول في النظريات السابقة، فإننا سنحاول أن نتحدث عن هذه النظرية بشيء من التفصيل في فصل خاص بها نظرا للمكانة التي أحرزتها ضمن النظريات اللسانية الأخرى.

في عام 1968م، نشر اللساني الأمريكي شارلز فيلمور (Charles Fillmore) مقالا بعنوان: " الحالة للحالة " "The case for case"[1] محدثا بذلك ضجّة كبيرة في أوساط الدارسين والباحثين المهتمين بقضايا اللغة واللسانيات. وبهذا المقال يكون قد وضع دعائم نظرية دلالية جديدة تنافس النظريات التي سبقتها. وتهدف هذه النظرية إلى اكتشاف العلاقات الدلالية التي تربط الفعل بمختلف الحالات (cases)، أو ما يعرف بالمكوّنات الاسمية على مستوى الجملة. وبهذا العمل، تكوّنت بنية عميقة أكثر تجريدا و أعمق دلالة من البنى العميقة التي ظهرت في النظريات الدلالية الأخرى، مستعملة بذلك أقل عدد ممكن من القواعد الدلالية التفسيرية. وقد جاءت نظرية الحالات في خضم تيار من النظريات التي ظهرت في بقاع مختلفة من العالم منها: نظرية التكافؤ (valence theory)، ونظرية الاتّباع (dependency theory)، ونظرية الحساب الجملي (predicate calculus). وقد ذكر " فيلمور " نفسه أن اللساني الفرنسي " تينيار" (Lucien tesniere) قد ألف كتابًا بعنوان: « مبادئ التركيب البنيوي » Elements de syntaxe structurale سنة 1959م، مشيرا بذلك أن هذا العمل يشبه كثيرا عمله الخاص بالحالات.[2] وكما يقول " كوك " (W. Cook): لقد ظهرت نظريات مماثلة في ألمانيا، كالتي وضعها " أربن " (J. Erben) في عمله الموسوم بـ « النحو الألماني » (Deutsche Grammatick)

---

(1) Charles Fillmore, " The case for case ", in E. Bach and R. Harms (ed) 1968, pp. 1-88

(2) Ibid., p. 1.

عام 1968، والتي وضعها "هلبيغ" (Gerhard Helbig) في مقاله المعنون بـ: " مساهمة في نظرية التكافؤ " (Beitrage zur Valenztheorie) عام 1971. كما ظهرت نظرية مماثلة لقواعد الحالات في روسيا عُرفت بـ: « نظرية الطبقات الفرعيّة » (Theory of subclasses) وذلك سنة 1960م.[1]

وعلى الرغم من الاختلافات الموجودة بين هذه النظريات فإنها تُقدّم جميعا صورة عن القواعد التي تُعنى بالفعل (verb)، وتعدُّه العنصر النواة في كل جملة: إذ الفعل هو الذي يفرض علينا اختيار كل عناصر الجملة الأخرى.

12-2- مصطلح « الحالة »:

كان مصطلح الحالة (case) مستعملا بكثرة في القواعد التقليدية الإغريقية للدلالة على الصيَغ الخاصة بالأسماء والضمائر، والتي تتجلى في شكل زوائد تصريفية أو تغيّرات جذرية على مستوى " الساق " للتعبير عن وظيفتها في الجملة وعلاقتها بالكلمات الأخرى. وهكذا فالمصطلح التقليدي للحالة يدل على الشكل (form) وما قد يحمله هذا الشكل من معنى مثل حالات الرفع، والنصب، والجر في العربية، وحالات الفاعلية (nominative)، والمفعولية (accusative)، والإضافة (genitive)، والمفعول غير المباشر (dative)، والمنشأ (ablative)، والمنادى (vocative) في بعض اللغات الأخرى كالإغريقية والسنسكريتية. وبهذا المعنى القديم، فإن عدد الحالات يختلف من لغة إلى أخرى. وحسب ما رواه " بلايك " (Blake)، " للفنلندية والهنغارية أكثر من اثنتي عشرة حالة، وللسنسكريتية ثماني حالات فقط، وللاتينية ست حالات، وللإغريقية خمس حالات، وللجرمانية أربع حالات، وللأسماء الإنجليزية حالتان، وللأسماء الفرنسية حالة واحد. أما اللغات التي ليست لها أسماء أو ضمائر معربة كالصينية فلا تحتوي على أيّة حالة ".[2]

ونظرًا لأن الحالات التقليدية يختلف عددها وشكلها من لغة إلى أخرى، فقد أطلق عليها " فيلمور " اسم الحالات الشكليّة (case forms)، وأتى بمجموعة من الحالات الدلالية (semantic

---

(1) W. Cook, " Covert Case Roles", L. L. W. P, No. 6.1972 a, p. 82.

(2) F. Blake, " A Semantic Analysis of Case ", in Curne Volume Of linguistic Theory, 1930, pp. 34 - 35.

(cases التي تعدّ عناصر كليّة (universal) موجودة ضمنيًا في جميع اللغات البشريّة . وبهذا يكون فيلمور قد أعطى لكل اسم موجود على مستوى الجملة مصطلحا معيّنا حسب الدور الوظيفي الدلالي الذي يقوم به .

وبعبارة أخرى ، فالمصطلحات النحوية مثل الفاعل، والمفعول به ، والاسم المجرور لا تمكننا من التحليل الدلالي العميق والحكم على استقامة الجمل واستحالتها . فعندما نقول : «نام الطفل »، فهذه جملة مستقيمة لا يختلف فيها اثنان . وعندما نقول : « نام النهر »، فقد ينشب بعض الخلاف لأن التعبير قد يكون مجازيا . أما عندما نقول: « نام الصخر »، أو «يغُطُّ الصخر في نومه» ، فهذا ـ بدون شك ـ كلام مستحيل . فكل هذه الجمل نحويّة لأن ترتيبها النحوي مقبول : « فعل + فاعل ...» . ويحكم النحاة على الجملتين الأخيرتين بأنهما مستحيلتان بالحدس والسليقة . وقد جاء فيلمور بقواعد الحالات لتقنين هذا الحدس بوضع مصطلحات دلالية كليّة أطلق عليها الحالات الدلالية ، أو الأدوار الدلالية ، أو الحالات العميقة . وبكلمة مختصرة ، فالفاعل النحوي ليس دائما فاعلا في المعنى : فقد يكون فاعلا ، ومفعولا ومستفيدا ، ومجربا ... إلخ. وهذه الظاهرة هي التي استقطبت اهتمام فيلمور ، فانكبَّ على دراستها ، وجعلها قاعدة أساسية للتركيب.

ويرى فيلمور في مقاله الصادر عام 1968 أن كلّ جملة تتكون من صيغة فعلية (Modality) وقضيّة (Proposition) . وتضم الصيغة الفعلية كلّ المعلومات الخاصّة بالفعل الوارد في الجملة كالزمن ، والنفي ، والاستفهام ، والصيغة (mood) ، والمظهر (aspect) . وتتكوّن القضية من الفعل وعدد محدّد من الحالات (cases). وتتشكّل كلّ حالة من واسم للحالة (case marker) ومركب اسمي (noun phrase). ويكون واسم الحالة إمّا حرف جر سابق أو لاحق أم زائدة (affix) [1]. ويمكننا إعادة كتابة هذه القواعد كمايلي:

الجملة ——> صيغة فعلية + قضية

القضية ——> فعل + حالة 1 + حالة 2 ... + حالة ن

(1) C.Fillmore, " The case for case " , 1968 a , pp. 23 - 24.

وبخصوص عالمية الحالات ، يقول فيلمور في مقاله الموسوم بـ : " المداخل المعجمية للأفعال " : " أعتقد أن اللغات الإنسانية مقيّدة بطريقة معيّنة ، حيث إن العلاقات الموجودة بين الأفعال والمواضيع (arguments) تنقسم إلى عدد صغير من الأنماط . وأعتقد ـ بالخصوص ـ أن أنماط هذه الأدوار (roles) تتطابق وبعض الأحكام الأساسية المتعلقة بالأشياء التي تجري حولنا : أحكام حول من فعل شيئا ما، ومن جرّب شيئًا ما ، وأين حدث شيء ما ، وما الذي تغيّر ، وما الذي تحرّك ، ومن أين بدأ ، وإلى أين انتهى . وبما أن مثل هذه الأحكام تشبه إلى حدّ بعيد أنواع الأشياء التي ربطها النحويون باستعمال الحالات النحوية لعدة قرون ، فإني أطلقت على هذه الأدوار الحالاتية (case roles) العلاقات الحالاتيّة (case relationships) أو ـ ببساطة ـ الحالات (cases)."[1]

ومن الناحية التأصيلية، تعدُّ قواعد الحالات فرعا من القواعد التوليدية التحويلية : إذ جاءت بوصفها نظرية بديلة لهذه الأخيرة ، لأنها فشلت في التمييز بين الأدوار الدلالية للمركبات الاسمية والعلاقات التي تربطها بالأفعال في الجملة . وبديهي أن مشكلة المقاربة البنيوية والتحويلية تكمن في استعمالهما لمفاهيم تقليدية مثل " الفاعل " و " المفعول به " ... إلخ، في حين أن العلاقة الدلالية بين الفعل والمكوّنات الأساسية للجملة ليست لها أيّة صلة بهذه المفاهيم.

وقد تفطن النحاة العرب إلى هذه الظاهرة ، وأدركوا أن مفهوم " الفاعل " لا يدل دائما على الكينونة التي تقوم بالفعل ، بل على كلٍّ من فعل الفعل أو اتّصف به . فعندما نقول : «مرض زيد » أو « مات حاتم » ، فزيد وحاتم لم يقوما بأيّ فعل يُذكر، وإنّما وقع عليهما الفعل. وكذلك الأمر بالنسبة للمفعول به ، فيمكن أن يكون مفعولا في المعنى لا في الاصطلاح ومثال ذلك : « فتك زيد بعدوّه . »، و « قضى الخليفة على الفتنة. » . فالجار والمجرور في هاتين الجملتين يُعدّان مفعولين في المعنى لا في الاصطلاح.[2]

(1) C. Fillmore , " Lexical Entries for Verbs " Foundations of Language, 1968 b, No 4. P. 382

(2) أنظر حسان عباس : النحو الوافي ، مصر : دار المعارف 1968، ج2 ، ص . 153

وتنبّه تشومسكي أيضا إلى العلاقات الدلالية بين الأفعال و المركبات الاسمية ، وشدّد على ضرورة ابتكار مصطلحات جديدة للدلالة على هذا النوع من العلاقات بقوله: " يبدو أنه بالإضافة إلى وجود مفاهيم خاصّة بالبنية السطحية (كالفاعل النحوي) وبالبنية التحتية (كالفاعل المنطقي) توجد ثمة بعض المفاهيم الأكثر تجريدا تتعلق بالوظيفة الدلالية ، وتحتاج إلى الشرح المعمق. هناك إذن أدوات شكلية مختلفة تفرض نفسها للتعبير عن هذه الظواهر، ويبدو أن هذه المسألة ليست تافهة. "[1]

والشيء الذي جعل تشومسكي يتّخذ هذا الموقف هو وجود عدد غير محدود من الجمل مثل: « درس سمير » و « مرض سمير » . فالقواعد التقليدية تعطي تحليلا واحدا لهاتين الجملتين لكون « سمير» فاعلا في كلتا الحالتين . وعلى مستوى البنية التحتية، فإن «سميرا » هو الذي قام بالفعل في الجملة الأولى ، ووقع عليه الفعل في الجملة الثانية . ولذا عدّ تشومسكي « سميرا » الفاعل التحتي في الجملة الأولى والمفعول به التحتي في الجملة الثانية . وبهذه الطريقة استمر تشومسكي في استعمال المفاهيم النحوية القديمة بالرغم من إدراكه لضرورة ابتكار مصطلحات جديدة . أما اللساني الأمريكي " فيلمور " ، فقد تمكّن من التعبير بدقة عن مختلف الأدوار الدلالية التي تقوم بها عناصر الجملة في إطار نظرية الحالات، وبذلك يمكننا عزو حالة « المنفذ » (Agent) لسمير في الجملة الأولى وحالة المجرب (Experiencer) لسمير في الجملة الثانية.

12 ـ 3ـ نماذج الحالات :

إذا كانت أول نظرية للحالات قد ظهرت عند فيلمور سنة 1966، فإنه قام بتطويرها وتنقيحها أكثر من أربع مرات ، وذلك سنة 1968، و 1970، و1971، و 1977. وهناك عدد كبير من اللسانيين الذين اعتنوا بهذه النظرية كذلك وأضافوا إليها بعض التعديلات الهامة، وقاموا بتطبيقها على لغات مختلفة، ومن بين هؤلاء، على سبيل المثال لا الحصر، : "أندرسون" (J. Anderson 1971 / 77)، و " نيلسن " (Nilsen 1972 / 73)، و "شايف" (Chafe 1970)، و "كوك"

(1) N. Chomsky, Aspects of The Theory of Syntax, 1965, p. 163.

(W. Cook 1970 / 78)، و " شروير " (Shroyer 1969) ، و " لمبرت " (Lambert 1969)، و"ماكوي " (McCoy 1969) و " بلات " (Platt 1971) ... إلخ . ويلاحظ الدارس لكل هذه النماذج أنّها استمدت جميعا من نظرية فيلمور ، وقد تختلف عنها فقط في تسمية بعض الحالات (cases) وضبط عددها ، وسنرى كلّ هذا بعد قليل.

نموذج الحالات لفيلمور:

نحاول الآن أن نسلّط الضوء على الحالات التي قدّمها فيلمور سنة 1970[1]، ونورد بعض الأمثلة الحيّة من اللغة العربية ، ونقوم ببعض التعقيبات البناءة كلّما لزم الأمر ذلك .

1 ـ المنفذ (Agentive) : محدث الحدث، حي.

2 ـ المجرّب (Experiencer) : متأثر بالحدث، حي.

3 ـ الأداة (Instrumental): القوة أو الشيء المسبب لحدث أو حالة (State).

4 ـ الموضوع (Objective): الحالة الأكثر حيادا من الناحية الدلالية.

5 ـ المصدر (source): المنشأ ، الأصل، أو نقطة البداية.

6 ـ الهدف (Goal) : القصد أو نقطة النهاية.

7 ـ المكان (Locative): الاتجاه المكاني للحدث.

8 ـ الزمن (Time) : الاتجاه الزمني للحدث.

9 ـ المعيّة (Comitative) : الدور المصاحب ، حي.

10 ـ المستفيد (Benefactive) : الدور المستفيد ، أو المنتفع ، حي.

وفي هذه النظرية ، تنقسم الحالات إلى قسمين : حالات رئيسية (nucleus/ proposition-al cases) وحالات ثانوية (modal / adverbial cases) . وفي حين تكون الحالات الثانوية اختيارية ؛ أي يمكنها أن ترد أو لا ترد في الجملة ، قد تكون الحالات الرئيسية اختيارية أو إجباريّة معا .

(1) CF. W. Cook, " Improvements in Case Grammar ", Languages and Linguistics Working Papers , 1970 a , No. 2, pp. 18 - 19.

وبوجه عام ، فالحالات التي تؤدي وظيفة المبتدأ ، والفاعل ، والمفعول به ، والمفعول غير المباشر تعدُّ حالات رئيسية ، وتكون مرتبطة بالفعل ارتباطا دلاليًا وثيقًا . أما الحالات الأخرى ، فتعدُّ حالات ثانوية ، ولا تسهم في تحديد الخصائص الدلالية للفعل.

ويمكننا أن نوضح هذه الفكرة باستعمال الجمل التالية:

1 ـ انفتح الباب + [ـ موضوع]

2 ـ فتح علي الباب + [ـ منفذ ، موضوع]

3 ـ فتح المفتاح الباب + [ـ أداة ، موضوع]

4 ـ فتح علي الباب بالمفتاح + [ـ منفذ ، موضوع ، أداة]

5 ـ فتح علي الباب بالمفتاح البارحة + [ـ منفذ ، موضوع، أداة ، زمن]

وهكذا فالفاعل النحوي يشغله في الجملة الأولى الموضوع (الباب) ، وفي الجملة الثانية المنفذ (علي) ، وفي الجملة الثالثة الأداة (المفتاح). فالعلاقات الدلالية هي التي تتغيّر، ويمكن أن تختفي بعض الحالات مثل المنفذ ، والزمن ، والأداة . أما " الموضوع " هنا ، فإنه حالة إجبارية لا يمكن الاستغناء عنها . وهكذا فالفعل « فتح » يرد في عدة قوالب (case frames). ويوضع كل قالب بين معقّفتينْ ، ويكون أيضا مسبوقا بعلامة زائد ، ويحتوي على عدد معيّن من الحالات . أما القالب العام للفعل « فتح » فهو كالتالي:

+ [ـ موضوع ، (منفذ) ، (أداة) ، (زمن)] حيث يكون " الموضوع " إجبارياً والحالات الأخرى اختيارية. وبهذا الشأن يقول فيلمور : " إن قوالب الحالات تفرض على أفعال اللغة تصنيفا معيّنا ."[1]

وكما قلنا سابقا ، نقوم الآن بتقديم أمثلة حيّة وبعض التوضيحات الأخرى عن جميع هذه الحالات :

1 ـ المنفذ (Agentive):

(1) ما يرزق الخلق إلا اللهُ.

(2) نظم الشاعرُ قصيدة.

---

(1) C. Fillmor, " The case for case " , 1968 a , p. 27.

ومن اللسانيين من يرى أن المنفذ لا يشترط أن تتوفر فيه إلاّ سمة السببيّة . وخلافا لما ذهب إليه فيلمور : فالمنفذ يمكن أن يكون حيًّا أو غير حي ، وقد تكون الكينونات غير الحيّة أشياء أو آليات ، أو كواكب ، أو قوى طبيعية . ولهذا الأمر ، قسّم بعض الباحثين حالة المنفذ إلى حالات أخرى كالمادة (Material)، والمسبِّب (causative)، والمثير (stimulus) . ومن هنا يمكن للمفردات التي تحتها سطر في الجمل التالية أن تقوم بدور المنفذ.

(3) قتله طمعه.

(4) زان الشجر زهرُهُ.

(5) حلّ الكمبيوتر المسألة.

(6) يصارع الرجل الموت والموت يصارعه.

(7) أتى الزلزال على المدينة.

2 ـ الأداة (Instrumental) :

يمكن أن تكون هذه الحالة حيّة أو غير حيّة جليّة أو ضمنية . وتدلُّ على الأداة أو الشيء أو الوسيلة المستعملة في إحداث عمل ما ، ومن أمثلة ذلك :

(1) قتله بخنجر.

(2) استعمل صنّارة لاصطياد السمك.

(3) ضربه بسوط.

(4) ساط السيّد خادمه. (ضرب بسوط)

(5) علّب الخادم السمك (عبّأ في علب)

فهذه الأفعال مثل : ساط ، علّب ، رشى ، رمح ، نبل تحتوي في أصلها على أداة، وتدعى في اللسانيات بالأفعال المعجمة. (Lexicalized verbs). وحسب " لمبرت " (Lambert)، تنقسم الأداة إلى أربع حالات : الأداة (tool)، والمادة (material) ، والقوة (force) ، والعضو (body part).[1]

---

(1) D.M. Lambert,The Semantic Syntax of Metaphor: A Case Grammar Analysis,1969,p. 47.

3 ـ الموضوع (Objective):

تدلُّ هذه الحالة على الكينونة التي يقع عليها الفعل أو يتسبّب في إحداثها أو إتمامها ، وغالبا ما تتطابق مع ما يعرف باسم المفعول به . وبما أنّها تحمل معاني عديدة ، فقد قام بعض اللسانيين بتفريعها. وقسّمها " شروير " (Shroyer) إلى خمس حالات : متأثّر (affective) ومنفعل (reactive)، ومستجيب (responsive)، ونتيجة (resultative)، ومتعاقد (contaractive) (1)

ومن أمثلة الموضوع :

(1) اخترع بيرد التلفزيون.

(2) بنى الملك قصرا .

(3) قتل الجنديُّ عدوَّه.

(4) راجع التلميذ الدرس.

4 ـ المستفيد (Benefactive):

تدلّ هذه الحالة على الكينونة التي اكتسبت منفعة أو مصلحة ، ومنها مايلي:

(1) للراعي ثلاثون نعجة.

(2) الجنّة للمؤمنين .

(3) رحم الله صالحا.

(4) نال نجيب محفوظ جائزة نوبل.

5 ـ المُجرِّب (Experiencer):

تعكس هذه الحالة الكينونة التي تتأثر بواقعة نفسيّة أو فكريّة أو عاطفية ، أو التي تتحمّل أو تقاسي أو تعاني من أيّ شيء كان ، أو التي تجتاز اختبارا أو تخضع لتغيّر.

(1) T.Shroyer,' An Investigation of the Semantics of English as a Proposed Basis for Language Curriculum Materials', Unpublished Ph. D Dissertation. University of Michigan, 1969, pp. 61 - 69.

(1) قيس الشاعر العربي أحبّ ليلى حبّاً جنونيّاً.

(2) فوجيء الرجل.

(3) سمع الطالب شعرا جميلا.

(4) يخشى الناس المنيّة.

6 ـ المكان (Locative):

غالبا ما تستعمل هذه الحالة لتدلّ على المكان الذي يقع فيه الفعل ، أو المكان الذي يكوّن نقطة انطلاق أو وصول.

(1) لم أبرح ساكنا في قسنطينة.

(2) الخطيب فوق المنبر.

(3) حسن الأخلاق يدخل الناس الجنة.

(4) نظرت يمينا وشمالا.

7 ـ المصدر (Source):

يمكن أن تكون كينونة هذه الحالة اسم علم أو شيئا أو حادثة. وهناك من يرى أن نقطة البداية لزمان أو مكان معيّن تُعدُّ مصدرا كذلك . وخلافا لما ذهب إليه فيلمور ، فإن كوك (Cook) لم يدرج هذه الحالة في قائمته الخاصّة بالحالات لأنه عدّها مجرد سمة دلالية.

(1) صنع باخرة من الخشب الأحمر.

(2) خلق الله آدم من طين.

(3) هذه الأقراط مصنوعة من الذهب الخالص.

(4) تحوّل من رجل تقيّ إلى مقامر سكّير.

8 ـ الهدف (Goal):

تدلُّ هذه الحالة على شيء ، أو اسم ، أو حادثة ، أو غرض، أو نتيجة. وهناك من يرى أن نقطة النهاية لزمان أو مكان معيّن تُعدُّ هدفا كذلك . وعلى عكس ما ذهب إليه فيلمور ، فإن هذه الحالة عدّها " كوك " سمة دلالية.

والأمثلة الموالية توضح ذلك بدقة.

(1) صيّرت الطين خزفا.

(2) جعل الفارس الغصن قوسا.

(3) تحولت اليرقة إلى فراشة.

(4) قابل اللئيم الخير بالشر.

9 ـ الزمن (Time):

تدلّ هذه الحالة على زمن حدوث الفعل . ويرى بعض اللسانيين أن هذه الحالة مخصّصة فقط لنقطة زمنية معينة ، وليس لامتداد زمني من نقطة بداية إلى نقطة نهاية. وإليك هذه الأمثلة:

(1) خرج للصيد ليلا.

(2) دخلت البستان مزهرا.

(3) المطر في الصيف مضر.

(4) استيقظت وطلوع الشمس.

10 ـ المعيّة (Comitative) :

تدلُّ هذه الحالة على الدور الدلالي المصاحب لدور دلالي آخر. وقد يصعب التمييز بين الدور المصاحِب والدور المصاحَب، وفي هذه الحالة فالكينونة التي تقوم بالدور الأهم هي التي تُعزى إليها حالة المعيّة ، وذلك كما في المثال التالي:

(1) جاءت الأم ورضيعها.

وإذا تعادلت الكينونتان في الأهمية ، أو كان لهما دور دلالي واحد ، فيجب أن تُعزَى حالة المعيّة إلى كل واحدة منهما. وهذا ما تبيّنه الأمثلة التالية.

(2) يلتقي أحمد وعلي كل يوم.

(3) اصطدمت شاحنة وحافلة.

(4) سافر سليمان وصديقه إلى القسطنطينية.

هذه هي إذن الحالات العشر التي جاء بها فيلمور ، ولكن يبدو أن هذا العدد غير كاف لتغطية كل الأدوار الدلالية التي تقوم بها المفردات في الجمل المتعددة ، وعليه يمكننا إضافة الحالات التالية التي أدرجها بعض المنظرين في قواعد الحالات منها: المدى ، والكيفية ، والنعت ، والسبب ، والمبرر . ومن الأهميّة بمكان أن نُعرِّف هذه الحالات ونوضّحها ببعض الأمثلة.

1 ـ المدى (Range):

أول من وضع هذا المصطلح هو هاليداي (MAK HALLIDAY) ، ثم سرعان ما أقبل على استعماله لسانيون آخرون. وتسند هذه الحالة إلى الاسم الذي يُتمّم الفعل أو يُحدّده، وغالبا ما تتطابق مع المفعول المطلق في العربية ، ومن أمثلة ذلك:

(1) استحسنته استحسانا عظيما .

(2) تقدّم الطالب تقدّما ملحوظا في دراسته.

(3) ضربته ضربتين.

2 ـ الكيفية (Manner):

تحدد هذه الحالة الطريقة أو الكيفية التي يكون عليها الفعل، وتتطابق في القواعد العربية مع ما يسمى بالحال . ومن أمثلة ذلك:

(1) جاء الفرسان راكبين.

مشيت والنهر فائضاً.

3 ـ النعت (Attributive):

تقوم هذه الحالة بوصف أو تقييد اسم ما ، أو تحديد نتيجة فعل حدثي أو إجرائي ونمثّل هذه الحالة بمايلي:

(1) انتخب الشعب أبا موسى رئيسا.

(2) هذا رجل عالم.

(3) خديجة خالتي.

4 ـ المبرر (Reason):

تعبّر هذه الحالة عن الشيء الذي يبرر عملا ما ، وتتطابق في القواعد العربية مع المفعول لأجله ، ولكن يمكنها أن تكون هنا في شكل جار ومجرور ، أو جُميْلة ظرفية ، أو فعل غير متصرف، وبذلك تفقد مصطلحها النحوي ، وتحافظ على مصطلحها الدلالي . وتتضح هذه الحالة من خلال استعمال الأمثلة الموالية:

(1) قصدته للماء.

(2) هاجر إلى لندن طلبا للعلم.

5 ـ السبب (Cause):

تدلُّ هذه الحالة على سبب حدوث الفعل ، وقد تكون اسما أو جارا ومجرورا ، ويمكن تجسيدها من خلال الأمثلة التالية:

(1) هربت خوفا من بطشه.

(2) مات من الحمى .

(3) زرتك اليوم لإكرامك لي البارحة.

12-5ـ العمليات التحويلية في قواعد الحالات:

بما أن قواعد الحالات هي شعبة من القواعد التحويلية ، فإن " كوك " (Cook) يرى أن القواعد التي تليق باشتقاق البنى السطحية من الأدوار الدلالية العميقة هي قواعد من النوع الموجود في القواعد التحويلية الحديثة [1] : أي قواعد مركبية ، وقواعد تحويلية ، وقواعد صرفية صوتية.

وتشبه القواعد المركبية (phrase structure rules) قواعد إعادة الكتابة التي تنطلق من السلاسل الأوليّة ، تمرُّ بالسلاسل الموالية لتوليد سلاسل نهائية . وتنقسم القواعد المركبية إلى قسمين :

(أ) قواعد تفريعية (branching rules) : تعيد كتابة الرموز الأولى في شكل رموز أخرى.

(ب) قواعد معجمية (lexical rules): تقوم باستبدال الرموز بمكونات معجمية . ويشتمل مخرج السلسلة النهائية على كل المورفيمات التي تحتضنها الجملة النواة ، ولكن ليس بالضرورة أن تعكس الترتيب التركيبي الصحيح للمفردات.

دعنا الآن نلقي نظرة على كيفية توليد الجملة التالية:

« وضعَ علي الكتاب في الخزانة . »

(أ) القواعد التفريعية:

1 ـ الجملة ---> صيغة الفعل + القضية.

2 ـ القضية ---> فعل + منفذ + موضوع + مكان.

3ـ الموضوع ---> حرف جر + مكون اسمي

4 ـ المكان ---> حرف مكاني + مكون اسمي.

5ـ المنفذ --->حرف تنفيذي + مكون اسمي.

6ـ مكون اسمي ---> أداة تعريف + اسم.

---

(1) W. Cook , " Case Grammar from Roles to Rules " , L. L : W.P. 1970 a, p. 1.

(ب) القواعد المعجمية

7 ـ الصيغة ←—— ماضي.

8 ـ فعل ←—— وضع

9 ـ حرف ←—— ∅

10 ـ حرف مكاني ←—— في.

11 ـ حرف تنفيذي ←—— من قبل.

12 ـ الأداة ←—— ال التعريف.

13 ـ اسم ←—— كتاب ، خزانة.

14 ـ اسم علم ←—— علي.

هـ ـ قواعد صوتية صرفية :

15 ـ # ماضي + و . ض.ع . + على + ال + كتاب + في + ال + خزانة # [1]

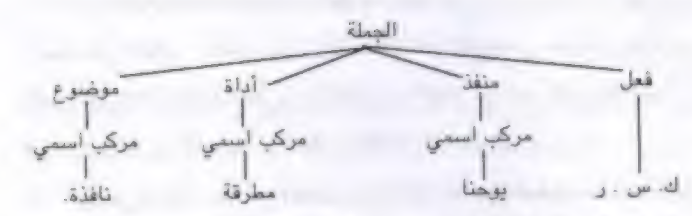
وينبغي التذكير هنا أن فيلمور قد قدّم نموذجا جديدا في صيف 1970م ، ملحقا بذلك بعض التغييرات على النموذج الذي قدّمه سنة 1968. ومسّ هذا التغيير كلاً من المشجّر، وعدد الحالات وتعريفاتها وقوالبها ، بالإضافة إلى إدراج خمس عشرة قاعدة لتحويل البنية العميقة إلى بنية سطحية . وبهذا يكون قد قلّل من قيمة المكوّن المركبي وعزّز مكانة المكوّن التحويلي ولم تعد الجملة تحلّل هكذا « صيغة الفعل + قضيّة » ، بل أصبحت تكتب مباشرة بهذا الشكل : « فعل + مجموعة من الحالات » ، كما تخلصت الحالات من الواسم الإعرابي الخاص بحروف الجر والعجرة الفعلية التي تضم النفي ، والزمن ، والصيغة ، والمظهر .[2]

وحسب نموذج 1970 ، فإن تمثيل البنية العميقة لهذه الجملة : « كسّر يوحنا النافذة بالمطرقة » يكون كالتالي : [3]

(1) Ibid. , p. 5.

(2) Ibid. ,pp. 15, 16, 21, 26.

(3) W.cook, 1978b, p. 18.



ويمكن تحويل هذه البنية العميقة إلى مجموعة من الجمل منها:

1 ـ انكسرت النافذة. 2 ـ كسّرتْ المطرقة النافذة.

3 ـ كسّر يوحنا النافذة بالمطرقة. 4 ـ كُسرت النافذة بمطرقة من قبل يوحنا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فيلمور كان متأثرا في نموذجه الأول الذي ظهر سنة 1968 بالقواعد التوليدية التحويلية ، وهذا ما جعله يولي دورا رئيسيا للتركيب. أما في نموذجه الصادر عام 1970، فقد أكّد أن الدور الرئيسي يعود إلى الدلالة، وعزّز هذا المنحى بإدراج خمس عشرة قاعدة لتحويل البنى العميقة إلى بنى سطحية وهذه القواعد هي : الحذف الإجباري للشركة الإحالية required coreference delection ، نقل المجرب experiencer shunting، النقل النفسي psych-movement، وسم حالة النصب accusative marking قاعدة البناء للمجهول (اختيارية) passive rule (opt) ، وسم حالة الرفع nominative marking ، تكوين الفاعل subject formation، الزحلقة (اختيارية) extraposition (opt)، تكوين المفعول به object formation، انتقاء حرف الجر preposition selection إقصاء حرف الجر preposition extrusion ، إلحاق حرف الجر preposition attachement، إقصاء الأداة particle extrusion، نقل الأداة particle movement .[1]

وفيما يخصُّ قاعدة تكوين الفاعل ، فإذا كان هناك "منفذ" ، فإنه يقوم بدور الفاعل، وإذا لم يكن ثمة "منفذ" ، ويوجد "مجرب" ، فيكون هذا الأخير فاعلا . وإذا لم يكن ثمة "منفذ" أو "مجرب" ، وتوجد "أداة" ، فتقوم هذه الأخيرة بدور الفاعل . وإذا لم يكن هناك منفذ أو مجرب أو أداة ، فالموضوع أو المكان هما اللذان يمكن لهما أن يقوما بوظيفة الفاعل.

(1) W. Cook, ' Improvements in Case Grammar ' , L.L.: W.P. 1970 b , pp. 21 - 26.

وفيما يتعلق بقاعدة تكوين المفعول به ، فقد اقترح فيلمور (1970) الموضوع، والمجرب، والهدف على التوالي . واقترح لمبرت (Lambert 1969) الموضوع ، والمكان ، والمجرب، والأداة، واقترح كوك (Cook 1970) المجرب ، والموضوع، والهدف . وأخيرا اقترح نيلسن (Nilsen 1972) الموضوع، والمكان ، والمجرب ، و الهدف ، والأداة، والمنفذ.

وينبغي أن نذكر هنا أن الاختلاف في انتقاء الفاعل والمفعول به قد يعود إلى الاختلاف الموجود بين اللسانيين فيما يخص عدد الحالات وكيفية الاصطلاح عليها، وإلى المدونات أو الأساليب اللغوية التي يعتمدونها في دراساتهم.

12 - 6 - إجراءات التحليل في قواعد الحالات:

عادة ما يبدأ اللسانيون في قواعد الحالات بتسليط الضوء على البنية السطحيّة ثم ينتقلون بعد ذلك إلى البنية العميقة . وفي هذا الصدد يقول " كوك " (Cook): " إن إجراءات التحليل في قواعد الحالات تأتي في مرحلتين : تتمثل المرحلة الأولى في تحليل البنية السطحية وذلك بتحديد الحالات الظاهرية وتصنيفها . وتتمثّل المرحلة الثانية في تحديد الأدوار الدلالية التي لا تظهر على البنية السطحية إلاّ أحيانا أو لا تظهر إطلاقا ، ثم القيام بتصنيفها بعد ذلك "(1)

وهكذا يمكن تلخيص إجراءات التحليل في النقاط التالية:

المرحلة الأولى : تحليل البنية السطحية.

(أ) تنظيم المعطيات اللغوية.

(ب) عزو الحالات إلى الأسماء.

(جـ) تكوين قوالب الحالات.

المرحلة الثانية : تحليل البنية العميقة:

(أ) تعيين الحالات الظاهرية.

(1) W. Cook, " Covert case Roles " , L.L. W.P. , 1972 a , P. 83.

(ب) تعيين الحالات المستترة جزئياً.

(جـ) تعيين الحالات المستترة كلياً.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن قواعد الحالات تميّز بين نوعين من الحالات : حالات ظاهرية (overt cases) وحالات مستترة (covert cases) . وتتجلّى الحالات الظاهرية ليس على مستوى البنية السطحية فحسب بل على مستوى البنية العميقة أيضا . وتتجلى الحالات المستترة على مستوى البنية العميقة ، ولا تتجلّى إطلاقا على مستوى البنية السطحية. وقد تكون الحالات المستترة مستترة جزئيا (partially covert) : أي قد لا تظهر إطلاقا على البنية السطحية .(1)

و بالنسبة للحالات الظاهرية ، أورد فيلمور مجموعة من الجمل تتماشى مع الفعل «فتح» ، ثم رسم القالب العام لهذه الحلات كمايلي + [- (منفذ)، (أداة)، موضوع] وعدّ هذا القالب مدخلا معجمياً للفعل « فتح ».

(1) انفتح الباب + [ــ موضوع]

(2) فتح يوحنا الباب + [ــ منفذ ، موضوع]

(3) فتحت العاصفة الباب . + [ــ أداة ، موضوع]

(4) فتح يوحنا الباب بإزميل . +[ــ منفذ ، أداة ، موضوع]

وهكذا تكون للفعل « فتح » أربع بنى عميقة ، حيث تظهر كل حالة على مستوى البنية السطحية والعميقة.(2)

وبالنسبة للحالات المستترة جزئيًا ، جاء فيلمور بمجموعة من الجمل التي ترافق الفعل «يطهو » ، وعدّ هذا القالب + [ــ (منفذ) ، موضوع] مدخلا معجميا ، كما عدّ "الموضوع " حالة موجودة دائما في البنية العميقة.

(1) الأم تطهو البطاطس . + [ـ منفذ ، موضوع]

(2) الأم تطهو. + [ـ منفذ]

(3) البطاطس تُطهى + [ـ موضوع]

(1) Ibid . , p. 83.

(2) C.Fillmore , " The Case for Case " , 1968 p. 27.

وقد أرجع فيلمور الغياب غير الدائم لحالة الموضوع على مستوى البنية السطحية إلى أن الفعل « يطهو » لا يستدعي دائما وجود هذه الحالة.[1]

فالحالات المستترة جزئيا موجودة دائما في البنية العميقة ولكنها غالبا ما تكون محذوفة من البنية السطحية . ومن أمثلة ذلك :

(1) أعلن الملك الخبر (على الملإ) . + [ـ منفذ ، موضوع ، (مجرب)]

المجرب قابل للحذف.

(2) سرق اللص المال (من الخزينة). + [منفذ، موضوع، (مستفيد)]

المستفيد قابل للحذف.

أما بالنسبة للحالات المستترة كليًا، فإنّها لا تتجلى في القالب العام للحالات المشتق من البنية السطحية والواجب إدراجه في المدخل المعجمي للفعل . وعلى الرغم من عدم وجود هذه الحالات في البنية السطحية ، فإنها موجودة في البنية العميقة، والأمثلة الموالية توضح ذلك بدقة :

(1) علّب الرجل السمك. (= وضعه في علب).

+ [ـ منفذ ، موضوع ، مكان* / مكان معجمي].

وإذا أردنا تحديد نوع « المكان » ، فإن حالته تكون ظاهرية: علّب الرجل السمك في علب معدنيّة.

(2) عسلت الأم الطعام . (= خلطته بالعسل).

+ [ـ منفذ ، مستفيد ، مكان* / مكان معجمي]

وفي الحقيقة، هناك أفعال عديدة في اللغة تحمل في معناها أدوارا دلالية مختلفة ، تُعرف في اللغة الإنجليزية بالأفعال المعجمية (lexicalized verbs)، وتدخل تحت ما اصطلح عليه ابن يعيش بأفعال العلاج في إطار حديثه عن فعل العلاج وغير العلاج . ومن بين هذه الأفعال:

(1) Ibid.

عضّ (بالأسنان)، وقبّل (بالشفتين)، ولحس (باللسان) ، ورضع (بالشفتين)، ورمح (بالرمح)، وركل (بالرجل) وفاه (بالفم) ... إلخ.

7-12 ـ كوك والنموذج الدلالي التصنيفي

ذهب عالم الدلالة " شايف " (Wallace Chafe) إلى أن الأفعال تفرض قيودا انتقائية على المركبات الاسمية (noun phrases)، وتقوم بدور كبير في اختيار قوالبها العامة. وهذا ما دفعه إلى تقسيم الأفعال إلى صنفين رئيسيين: أفعال الحالة (state verbs) وأفعال غير الحالة (non-state verbs).[1] وقسّم الصنف الثاني إلى ثلاثة أصناف: أفعال حدثيّة (action verbs) ، وأفعال إجرائية (process verbs)، وأفعال حدثية إجرائية (action- process verbs).[2] وبهذا حصل على أربعة أصناف من الأفعال: أفعال حاليّة، وأفعال إجرائية ، وأفعال حدثيّة ، وأفعال حدثية إجرائية. ويمكن تمثيلها على التوالي بالجمل الموالية:

(1) كان الامتحان صعبا. (2) ذاب الثلج.

(3) غنّى عبد الوهاب. (4) كسّر الطفل الصحن.

وانطلاقا من هذا التقسيم ، قام عالم اللسانيات الأمريكي كوك (Cook) بإدماج ما توصل إليه كلٌّ من " فيلمور " و " شايف " في نموذج تصنيفي واحد في كتابه : « قواعد الحالات : تطوير النموذج التصنيفي ».[3] وبعبارة أخرى ، فإن " كوك " جعل من نموذج الحالات لـ : " فيلمور" ومن الدلالة التوليدية لـ : " شايف " نموذجا دلاليًا تصنيفيًا ، وذلك بربط قوالب الحالات للأول بأصناف الأفعال للثاني . وكان لهذا التزاوج أهمية كبيرة في وصف اللغات البشرية وتصنيف كل الأفعال الموجودة بها.

(1) Wallace Chafe , Meaning and the Structure of Language. Chicago, 1970 p. 99.

(2) Ibid . . p. 101.

(3) W.Cook," Case Grammar Matrix ", L.L.: W.P,Georgetown University press,1971b.

لقد وضع كوك قائمة قصيرة مكوّنة من خمس حالات رئيسية : المنفذ ، والمجرب، والمستفيد ، والموضوع، والمكان . وعرّفها كمايلي :[1]

(1) المنفذ : الحالة التي يتطلبها فعل حدثي أو حركي ، والتي تدلُّ على منفذ الحدث، وغالبا ما تتجسد في شكل اسم حيّ.

(2) المجرب: الحالة التي يفرضها فعل تجريبي ، والتي تدل على الكينونة التي تتحمل حادثة سيكولوجية ، أو حسيّة ، أو عاطفية ، أو معرفية .

(3) المستفيد : الحالة التي يفرضها فعل مستفيد ، والتي تدلّ على كل من كان في حالة تملُّك ، أو كل من أضاع شيئا أو اكتسبه.

(4) الموضوع: (أ) الحالة التي يقتضيها فعل الحالة ، وتحدد الكينونة التي تكون في حالة ما . (ب) الحالة التي يقتضيها فعل إجرائي ، والتي تدل على الكينونة التي تخضع إلى تغيير حالتها . ومع الأفعال التجريبية ، فإن الموضوع يحدد محتوى التجربة أو المثير للتجربة . ومع الأفعال التجريبية ، فإن الموضوع يحدِّد الشيء المكتسب أو الشيء المتحوّل . ومع الأفعال المكانية ، فإن الموضع يحدد الحالة التي هي في مكان ما ، أو التي طرأ عليها تغيّر في الموقع .

(5) المكان: الحالة التي يتطلبها فعل مكاني ، والتي تحدد مكان الموضوع أو تغيّر مكان الموضوع.

ونلحظ من هذه القائمة القصيرة أن " كوك " قد حذف أربع حالات : الزمن والأداة، والمصدر والهدف. وقال : " الزمن والأداة حالتان ثانويتان ، والمصدر والهدف سمتان للحالات بدلا من كونهما حالتين مستقلتين ".[2]

(1) Ibid. , P. 52.

(2) Ibid. , P. 52.

وكما رأينا آنفا أن « شايف » قسّم الأفعال إلى أربعة أصناف : أفعال حاليّة وإجرائية ، وحدثية ، وحدثية إجرائية . ومن هنا استنبط « كوك » أنه " إذا كانت هذه الأنماط الأربعة من الأفعال يمكن أن ترد سواء دون اقتران بأية حالة ، أو مع حالة المجرب ، أو مع حالة المستفيد، أو مع حالة المكان ، فإنها تُكَوِّن نموذجا دلاليًا تصنيفيًا من ستة عشر قالبا للحالات ".[1] ومثّل لذلك عن طريق الجدول التالي:

الصنف الفعلي	+ مجرب	+ مستفيد	+ مكان
حالي	حالي تجريبي	حالي مستفيد	حالي مكاني
إجرائي	إجرائي تجريبي	إجرائي مستفيد	إجرائي مكاني
حدثي	حدثي تجريبي	حدثي مستفيد	حدثي مكاني
إجرائي حدثي	إجرائي حدثي تجريبي	إجرائي حدثي مستفيد	إجرائي حدثي مكاني

إن مثل هذا التصنيف للأفعال يعدُّ تصنيفا كليًا ينطبق على جميع اللغات البشرية . ولكن اللغات بطبيعتها تختلف في ترتيب مفرداتها المتكونة من أفعال وحالات . فهناك من اللغات ما تبدأ بحالة معيّنة ثم الفعل ، ومنها ما تبدأ بالفعل ثم الحالات اللازمة الأخرى ، ومنها ما تبدأ بكل الحالات ثم يأتي الفعل في آخر الجملة. وإذا كان النحو القديم ركّز على الجوانب الشكلية

(1) Ibid . P. 53.

في بناء الجملة ، فإن علم الدلالة الحديث قد ركّز على الجانب الدلالي ، لأن الحكم على الجمل من حيث استقامتها واستحالتها يعود في الأخير إلى الدلالة وليس إلى التركيب . وقد استفادت اللسانيات التطبيقية من قواعد الحالات ، وجعلتها في خدمة تدريس اللغات وتحسين أساليب التعليم.

وخلاصة القول: إن قواعد الحالات هي أشهر النظريات الدلالية على الإطلاق ، وقد استعملت كثيرا في الداسات الحقلية لوصف عدد كبير من اللغات ومقارنة بعض اللغات الأخرى . كما استعملت أيضا في نظريات اكتساب اللغة الأم ، ودراسة الحُبسة (aphasie)، وتعليم اللغات الأجنبية والوطنيّة ، وتحليل الأساليب المختلفة . وقد استخدمها بعض الباحثين في دراسة اللغة العربية دراسة دلالية بحتة، ويمكن استغلالها في تعليم هذه اللغة بالذات للأجانب الذين يرغبون في تعلمها.

الخاتمة

يمكننا القول : إن الدراسات اللغوية التي عرفتها البشرية جمعاء قد مرّت بثلاث مراحل متميزة.

(أ) النحو التقليدي: ويشمل كل الدراسات النحوية القديمة التي ظهرت عند الهنود، والإغريق، والعرب، والرومان، واستمرت حتى عصر النهضة ومطلع العصر الحديث. ويقتصر هذا النحو على دراسة النصوص المكتوبة دراسة معيارية ويرتكز في جوهره على مبادئ عقليّة ومقولات منطقية أرسطية.

(ب) الفيلولوجيا: وتشمل كلّ الدراسات التاريخية والمقارنة التي سادت خاصة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وتهدف إلى مقارنة اللغات الإنسانية قصد تصنيفها، وتحديد نسبها ، وبناء تاريخها.

(جـ) اللسانيات: وهي الدراسة العلمية للغة التي ظهرت في القرن العشرين ، والتي وضع أسسها ، وحدّ أهدافها ومناهجها اللساني السويسري دي سوسير . وتعنى بدراسة الأنظمة اللغوية دراسة آنية وصفية ، وتُعدُّ في الحقيقة تتويجا لكل الأعمال السابقة التي عرفتها الفيلولوجيا والنحو التقليدي.

ونريد أن نلفت الانتباه هنا إلى أن الدارسين ، بشكل عام ، لا يمكنهم فهم التيارات اللسانية الحديثة فهما صحيحا إذا لم يكونوا يعرفون التطورات الفكرية والنحوية التي مهدت السبيل إليها . فهذا الفكر اللغوي المتطور ، وهذه القواعد النحوية التي نعرفها اليوم لم توجد دفعة واحدة ، وإنما تمّ اكتشافها بطريقة تدريجية عبر عصور مختلفة . لقد كان العالم بأسره يفتقد إلى أنظمة كتابية تُمكّن الناس من تدوين اللغة المنطوقة . وتوالت المحاولات الجادّة لابتكار غرافيمات معبّرة ؛ فظهرت الخطوط المسمارية والهيروغليفية على يد الأكاديين و المصريين والمكسيكيين ، وتطورت الكتابة الأبجدية على يد الفينيقيين ، وتبنى اليونانيون الكتابة الفينيقية في القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم ما فتئوا أن ألحقوا بها بعض التعديلات والتحويرات .

وهكذا فهؤلاء الذين ابتكروا أنظمة الكتابة هم - في الحقيقة - أكبر اللسانيين وجهابذتهم، ويدين لهم العالم كله بالإجلال والاعتراف . وحتى هذه المصطلحات النحوية التي هي في متداول الجميع كانت في يوم من الأيام بحاجة لمن يبتكرها . فكان أفلاطون أوّل من قسّم الكلام إلى قسمين : اسم وفعل ، ثمّ قسّم الكلام إلى قسمين : اسم وفعل ، ثم قسمه أرسطو إلى ثلاثة أقسام : اسم وفعل ورابطة ، ثمّ قسّمه ثراكس إلى ثمانية أقسام : اسم ، وفعل ، وأداة تعريف ، واسم فاعل أو مفعول به ، وضمير ، و حرف جر ، وظرف ، وأداة عطف.

وإذا كان دي سوسير في بداية القرن العشرين قد نادى باستقلالية اللسانيات ، وختم محاضراته قائلا : " إن موضوع اللسانيات الوحيد والصحيح هو دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها " ، فإن اللسانيين في أواخر هذا القرن قد ربطوا اللسانيات ببعض العلوم الأخرى كعلم الاجتماع، وعلم النفس ، والبيولوجيا ، والفلسفة ، والرياضيات ، و أخذوا يراجعون مواقفهم المعادية للفيلولوجيا والنحو التقليدي. وقد نادى تشومسكي أيضا باستقلالية اللسانيات في مؤلفه الصادر عام 1957 بعنوان : « البنى التركيبية » ، ثم ما لبث أن عدّ هذا العلم شعبة من علم النفس المعرفي (cognitive psychology). وقد حاول البريطاني هنري سويت Henry Sweet والدانماركي أوتو يسبرسن (Otto Jespersen) التوفيق بين اللسانيات والدراسات النحوية القديمة.

وفي أوئل القرن العشرين ، ظهرت أربع مدارس لسانية كبيرة في أوروبا .(1) مدرسة ذات اتجاه سويسري انبثقت مباشرة من الأفكار الواردة في محاضرات دي سوسير. ومن أكبر المروجين لها شارل بالي (Charle Bally) وألبارسيشيهاي (Albert Sechehay)، وفي الحقيقة لا يوجد لساني واحد لم يتأثر بما كتبه دي سوسير .(2) مدرسة دانماركية تمركزت بكوبنهاغن واقترنت أساسا باسم لويس يلمسليف (Louis Hjelmslev) وهان يورغن أولدال (Han Jorgen Uldall).(3) مدرسة سلافية متمركزة في براغ بتشيكوسلوفاكيا ، وتضم البولندي بودوان دي كورتني (Jan Baudoin de Courtenay)، والتشيكي فيلام مثيزيوس (Vilem Mathesius)، والنمساوي كارل بوهلر (Karl Buhler) ، والروسيين نيكولاي تروبتسوي (Nikolai Trubetzkoy) ورومن ياكبسون (Roman Jakobson).(4) مدرسة بريطانية ارتكزت أولا في العاصمة لندن ، ثم

ما فتئت أن امتدت أفكارها لتشمل بعض المدن الجامعيّة الأخرى مثل : إدينبرغ ، وكمبريدج ، وليدز، وراديمغ . وإلى جانب اهتمام هذه المدرسة باللغة الإنجليزية وبعض اللغات الأوروبية الشهيرة ، فقد أولت عناية بالغة بدراسة اللغات الشرقية والإفريقية خدمة للمصالح العليا للأمبراطورية البريطانية التي كانت الشمس لا تغيب عن أراضيها . و عُرفت هذه المدرسة بتفضيلها للجانب العملي التطبيقي على الجانب النظري المحض الذي قد لا يدُر أيّة منفعة، واهتمت خاصّة بالدراسات الصوتية واللسانيات التطبيقية . ومن أقطابها: هنري سويت (Henry Sweet)، ودانيال جونز (Daniel Jones)، وديفيد أبركومبي (David Abercombie) في الصوتيات ، وفيرث (J.R. Firth)، وهاليداي (Mak Halliday)، وليونز (J. Lyons)، وبالمر (F.Palmer)، وكريستل (D.Crystal) في اللسانيات النظرية، وكوردر(S.Pit Corder). وستريفنس (Peter Strevens) في اللسانيات التطبيقية.

وبشكل عام ، فقد عُنيت كلّ هذه المدارس الأوروبية باللغات بوصفها أنظمة بنيوية وظيفية ، وكان لها دور عظيم في تطوير الدراسات اللغوية ، وربطها ببعض الفروع العلمية الأخرى.

أما اللسانيات الأمريكية ، فقد تأثرت بالأبحاث الحقلية الأنثروبولوجية التي قام بإجرائها كلٌ من بوعز (Boas)، وسابير (Sapir) ، و وورف (Whorf) على اللغات الهندية الأمريكية من جهة وبالنشاطات الدينية المسيحية التي قام بها بعض الباحثين من أمثال يوجين نيدا (Eugene Nida) من جهة أخرى . وهيمنت اللسانيات الوصفية البنيوية التي وضع أسسها " بلومفيلد " على الساحة الأمريكية حتى أواخر الخمسينيات . وكانت هناك اختلافات عديدة بين البنيويين أنفسهم ثم ظهرت نظريات أخرى صبّت انتقاداتها على المقاربة البنيوية منها : نظرية القوالب (Tagmemics) لـ : بايك (Kenneth Pike) والقواعد الطبقية (Stratificational Grammar) لـ لامب (S.M. Lamb).

وأحدث تشومسكي ثورة ضد البنيوية السلوكية بقواعده التوليدية التحويلية وفلسفته العقلانية ، واعتنى عناية كبيرة بالنحو التقليدي والمنطق الرمزي ، ونجح في توجيه معظم

اللسانيين الأمريكيين إلى دراسة الجانب اللغوي الإبداعي ، والأخذ بعين الاعتبار الاستعدادات القبليّة التي تساعد الأطفال على اكتساب اللغة في وقت قياسي دون جهد وعناء. وإذا كانت مؤلفات تشومسكي الأولى قد كتبت في إطار اللسانيات بوصفها علما مستقلا، فإن مؤلفاته التي ظهرت بعد ذلك مثل :«« مظاهر النظرية التركيبية »»(1965)، و «« اللسانيات الديكارتية»»(1966)، و «« اللغة والعقل »» (1968) قد أكّدت أن اللسانيات شعبة من علم النفس المعرفي ، وشدّدت على أهمية القواعد التوليدية التحويليّة في دراسة بنية العقل البشري واستعداداته الفطرية . وبهذا الاتجاه الجديد ، اكتسب تشومسكي شهرة عالمية لا تضاهى.

وانبثقت من القواعد التوليدية التحويلية أربع نظريات لسانية عنيت بدراسة الدلالة دراسة موضوعية: الدلالة التفسيرية لـ: كاتز (Katz)، والدلالة التوليدية لـ: ليكوف (Lakoff)، ومكاولي (Mc Cawley)، وروس (Ross)، وغيرهم ، والنظرية المعيارية الموسّعة لـ : تشومسكي وجاكندوف (Jakendoff)، وقواعد الحالات لـ : فيلمور (Fillmore). وساعدت هذه النظريات على التحليل العميق للتراكيب النحوية الدلالية المستعصيّة ، وفهم كثير من القضايا المنطقية والميتالغوية التي لم تتوصل النظريات اللسانية السابقة إلى توضيحها.

وبهذا العرض المتواضع نكون قد غطّينا الأطوار المختلفة التي مرّ بها الفكر اللغوي بدءا من العصور القديمة إلى نهاية القرن العشرين . وأمل أن يكون هذه الكتاب قاعدة قويّة وخلفية ثرية لمن أراد التعمق أكثر أو التخصص في ميدان اللسانيات.

A

Ablative	حالة المنشأ
abstract	مجرد
Acoustic phonetics	صوتيات فيزيائية
Articulatory phonetics	صوتيات نطقية
Auditory phonetics	صوتيات سمعية
Acceptability	مقبولية
Accusative	حالة المفعولية
Acquisition	اكتساب
Addition	إضافة
Adverb	ظرف
Adverbial	ظرفي
Aerodynamics	الديناميكا الهوائية
Affix	زائدة
Agentive	منفذ
Agglutinative language	لغة لاصقة
Allophone	لويّن صوتي
Ambiguity	التباس
Analogist	قياسي
Analogy	قياس
Anaphora	عائد
Anomalist	شذوذي
Anomaly	شذوذ
Aphasia	حُبسة
Approach	مقاربة

Arbitrariness	اعتباطية
Arbitrary	اعتباطي
Archiphoneme	فونيم أو كلّي
Articulation	نطق
Artificial language	لغة اصطناعية
Aspiration	هائية
Associative relation	علاقة ترابطية

B

Base	قاعدة
Base compenent	مكوّن قاعدي
Behaviourism	السلوكية
Behaviourstic psychology	علم النفس السلوكي
Benefactive	مستفيد
Bilingualism	ازدواجية لغويّة
Bracketing	استعمال الأقواس
Branching rules	قواعد تفريعية

C

Case	حالة
Case grammar	قواعد الحالات
Class	قسم
Clause	جُميلة
Code	شفرة
Cognitive psychology	علم النفس المعرفي
Collocation	تتابع

Communicative channel	قناة الاتّصال
Communicative theory	نظرية الاتّصال
Comparative linguistics	لسانيات مقارنة
Competence	كفاءة
Component	مكوّن
Componential analysis	التحليل إلى مكوّنات
Concept	متصوّر
Concessive clause	جُميلة مضادة
Content	محتوى
Content word	كلمة محتوى
Cooccurence	توارد
Coreference	اشتراك إحالي
Corpus	مدوّنة
Correlation	تعالق
Correspondence	تطابق
Correspondence rule	قاعدة تطابق
Criterion	معيار

D

Data	مادة لغويّة
Dative	حالة المفعول غير المباشر
Decision procedures	إجراءات الفصل
Deep structure	بنية عميقة
Deletion	حذف
Delicacy	دقّة

Descriptive	وصفي
Descriptivism	الوصفية
Diachronic	تطوري
Diachronic linguistics	لسانيات تطورية / زمانية
Dialectology	علم اللهجات
Dichotomy	ثنائية
Discourse	خطاب
Discovery procedures	إجراءات الاستكشاف
Distinctive feature	سمة مميّزة
Distinguisher	مُميِّز
Distributionalism	التوزيعيّة

E

Embedded sentence	جملة مدمجة
Embedding	إدماج
Emitter	مُرسل
Empirical	تجريبي
Empiricism	التجريبية
Entailment	اقتضاء
Entity	كينونة
Epigraphy	علم النقوش
Epistemology	علم المعرفة
Etymology	علم أصول الكلمات
Euphemism	تأنق لفظي
Evaluation procedure	إجراء تقييمي

Exhaustivity	شمولية
Expansion	توسيع
Experiencer	مُجرِّب
Exponence	دليل أسّي
Extraposition	زحلقة

F

Faculty	ملكة
Fied theory	نظرية حقلية
Finite State Grammar	القواعد المحدودة الحالات
Focalisation	تبئير
Focus	بؤرة
Form	شكل
Formalism	الشكلانية
Formality	رسمية
Function	وظيفة
conative-	وظيفة النزوع
demarcative -	وظيفة فاصلة
distinctive -	وظيفة تمييزية
expressive -	وظيفة تعبيرية
metalinguistic -	وظيفة واصفة
phatic -	وظيفة إقامة الاتصال
Poetic -	وظيفة إنشائية
referential -	وظيفة مرجعية
Function word	كلمة وظيفية

Functionalism	الوظيفية

G

Generalisation	تعميم
Generation	توليد
Generative grammar	قواعد توليدية
Generative Semantics	دلالة توليدية
Generativism	التوليدية
Genitive case	حالة الإضافة
Gender	جنس
Genre	نوع
Geographical linguistics	لسانيات جغرافية
Glossary	مسرد المفردات
Glossematics	لسانيات رياضية
Goal	هدف
Grammar	نحو
descriptive -	نحو وصفي
historical -	نحو تاريخي
traditional -	نحو تقليدي
Grammatical	نحوي
Grammaticality	نحويّة

H

Haplology	حذف المقطع
Hard palate	الحنك الصلب
Head word	كلمة أساسيّة

Historical linguistics	لسانيات تاريخية
hypothesis	فرضية

I

Idiolect	لهجة فردية
Idiom	تعبير اصطلاحي
Immanence	المحايثة
Immanent linguistics	لسانيات محايثة
Immediate constituent analysis	التحليل إلى مكوّنات مباشرة
Index	قرينة
Induction	استقراء
Inference	استدلال
Infix	داخلة
Inflecting language	لغة متصرفة
Inflection	تصريف
Informality	لا رسمية
Innate ideas	أفكار فطريّة
Input	مدخل
Instrumental	أداة
Intensional	مفهومي
Interpretive semantics	دلالة تفسيرية
Intonation	تنغيم
Introspection	استبطان
Intuition	حدس
Inversion	قلب

Isolating Language	لغة عازلة

J

Juncture	فاصل
Juxtaposition	تجاور

K

Kernel sentence	جملة نواة
Knowledge	معرفة

L

Labial	شفوي
Labiovelarization	إطباق شفوي
' Langage '	' لسان '
' Language '	' لغة '
Language acquisition device	جهاز اكتساب اللغة
' Langue '	' لغة '
Lexeme	لفظم
Lexical entry	مدخل معجمي
Lexical hypothesis	فرضية معجمية
Lexical item	وحدة معجمية
Lexical rule	قاعدة معجمية
Lexicalist analysis	تحليل معجمي
Lexicology	صناعة المعاجم
Linguistic universals	كليات لغوية
Linguistics	لسانيات
Locative	مكان

Logic	منطق

M

Mark	سمة
Marked	موسوم
Marker	واسم
Materialistic method	المنهج المادي
Matrix model	نموذج تصنيفي
Matter	مادة
Mentalism	العقلانية
Message	رسالة
Metaphor	مجاز
Model	نموذج
Moneme	لفظم
Monism	فلسفة الأحديّة
Mood	صيغة الفعل
Morphology	الصرف

N

Natural Language	لغة طبيعية
Naturalists	طبيعيون
Nasal	أنفي
Neogrammarians	النحويون الجدد
Neutralization	تحييد
Node	عجرة
Nominal	اسمي

Nominalization	تأسيم
Nominative	حالة الفاعلية
Non-contradiction	لا تناقض
Normative	معياري

O

Object	مفعول
Objective	موضوع
Obligatory	إجباري
Observation	ملاحظة
Onomasiology	علم الأعلام
Onomatopoeia	تسمية محاكية
Opposition	تضاد
bilateral -	تضاد ثنائي
equipollent -	تضاد متكافيء
gradual -	تضاد تدريجي
multilateral -	تضاد متعدد الجوانب
Neutralizable -	تضاد ممكن تحييده
phonological -	تضاد صوتي
privative -	تضاد سالب
proportional -	تضاد متناسب
Orthoepy	علم اللفظ
Output	مخرج

P

Pair	زوج
Pairing	مزاوجة
Paradigm	نموذج
Palatal	غاري
Palatalization	تغوير
Paleography	علم الوثائق
Paradigmatic disorder	اضطراب استبدالي
Paradimgatic relation	علاقة استبدالية
' Parole '	' كلام '
' Performance '	' أداء '
Performative verb	فعل أدائي
Permutation	إعادة ترتيب
Philology	الفيلولوجيا
Phonematics	علم الفونيمات
Phoneme	فونيم / صوتم
Phonemics	علم الفونيمات
Phonetics	صوتيات
Phonology	صوتيات وظيفية
Phonostylistics	أسلوبية صوتية
Phrase marker	واسم مركبي
Phrase structure grammar	قواعد مركبية
Pitch	نغم
Plosion	انفجار
Plosive	انفجاري

plural	جمع
Poetics	إنشائية
Polysystemic approach	مقاربة الأنظمة المتعددة
Positivism	الفلسفة الوضعية
Pragmatics	التداولية
Prefix	سابقة
Presupposition	تضمين
Projection rules	قواعد الإسقاط
Prosodeme	فونيم ثانوي / فوقطعي
Prosodic phonology	صوتيات وظيفية فوقطعية
Punctuation	تنقيط

R

Rank	رتبة
Rationalism	المذهب العقلي
Receptor	متلقّي
Recursive rules	قواعد تكرارية
Reduction	اختصار
Referent	مرجع
Replacement	إحلال
Representation	تمثيل
Response	استجابة
Retroflex	ارتداد
Rewrite rules	قواعد إعادة الكتابة
Rheme	خبر

Root	جذر
Rounded phoneme	فونيم مدوّر

S

Scale	تدرُّج
Scholasticism	السكولاستية
Segment	قطع
Segmentation	تقطيع
Selection	انتقاء
Selectional restrictions	قيود انتقائية
Semantics	علم الدلالة
Semiology	السيمياء
Signal	إشارة
Signified	مدلول
Signifier	دال
Simplicity	بساطة
Source	مصدر
Speech act	فعل كلامي
Spelling	تهجئة
Standard theory	النظرية المعيارية
Stem	ساق
Stenography	اختزال
Stimulus	مثير
Stratificational grammar	قواعد طبقية
Stress	نبر

Structuralism	البنيوية
Structure	بنية
Stylistics	الأسلوبية
Suffix	لاحقة
Suprasegmental phoneme	فونيم فوقطعي
Surface structure	بنية سطحية
Syllable	مقطع
Symbol	رمز
Synchronic linguistics	لسانيات آنية
Syntactic feature	سمة تركيبية
Syntagmatic disorder	اضطراب استبدالي / ركني
Syntagmatic relation	علاقة استبدالية / ركنية
Syntax	تركيب
System	نظام
Systemic grammar	قواعد نظامية

T

Taboo	محظور
Tabula rasa	لوح أملس
Tagmemics	نظرية القوالب
Taxonomic	تصنيفي
Taxonomic linguistics	لسانيات تصنيفية
Tense	زمن
Terminal string	سلسلة نهائية
Thematic relations	علاقات محورية

Topic	موضوع
Topicalisation	موضعة
Transformation	تحويل
Transformational generative grammar	قواعد توليدية تحويلية
Type	نمط
Typology	نمطية

U

Unbound	غير مربوط
Unit	وحدة
Universal	كلّي / عالمي
Universal grammar	قواعد كلّيّة
Universal laws	قوانين كلّيّة
Unmarked	غير موسوم
Usage	استعمال

V

Valence theory	نظرية التكافؤ
Value	قيمة
Variant	متغيّر
Velarization	إطباق / تفخيم
Verb	فعل
Verb phrase	مركب فعلي
Verbal behaviour	سلوك كلامي
Verification	تحقيق
Vowel	صائت

W

كلمة	Word
ترتيب الكلمات	Word order
نمطية ترتيب الكلمات	Word order typology
كليّات ترتيب الكلمات	Word order universals

المصادر والمراجع العربية

- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب بمصر، 1952.
- ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق د. مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، 1963.
- ابن النديم، أبو يعقوب محمد بن اسحق، الفهرست. تحقيق رضا تجدّد، طهرن ـ مهر، 1971.
- باي ، ماريو ، أسس علم اللغة ، ترجمة د. أحمد مختار عمر القاهرة : عالم الكتب،1987.
- تمام ، حسّان ، الأصول : دراسة ابيستومولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982.
- الجرجاني، عبد القادر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر القاهرة :مكتبة الخانجي، 1984.
- حجازي محمود فهمي ، علم اللغة العربية : مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، (دون تاريخ).
- السنيطي ، محمد فتحي، أسس المنطق والمنهج العلمي ، بيروت : دار النهضة العربية، 1970.
- عباس، حسان ، النحو الوافي ، مصر : دار المعارف، 1968.
- عباس، محمود العقاد، اللغة الشاعرة (مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية، بيروت : منشورات المكتبة العصرية، 1973.
- عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، بيروت : دار الثقافة، 1972.
- مدكور، عاطف، علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- وِلْفِنسُون، أبو ذؤيب ، تاريخ اللغات الساميّة ، بيروت : دار القلم، 1980.

المصادر والمراجع الأجنبية:

Bach, E. and Harms R.T.(1968). Universals in Linguistic Theory. New York: Holt Rinehart and Winston, Inc .

Blake, F. (1930). " A Semantic Analysis of Case ", in Curne Volume of linguistic Studies, (Language Monograph 7), edited by Hartfield and Leopold.

Bloch, B and Trager G.L (1942). Outline of linguistic Analysis. Baltimore : Linguistic Society of America .

Bloomfield, L. (1933). Language.New York.

Bolinger, D. (1976). Aspects of Language. New York: Harcourt Brace Jovanovich, Inc.

Bridgman, P.W (1927).the logic of Modern Physics. London.

Chafe, W. (1970) . Meaning and the Structure of Language. Chicago : The University of Chicago Press .

Chomsky, N. (1964). Current Issues in Linguistic Theory. The Hague: Mouton.

Chomsky, N. (1957). Syntactic Structures. the Hague : Mouton.

Chomsky, N. (1959). " Review of B.F. Skinner, Verbal Behavior " Language 35:26 - 57.

Chomsky, N. (1964) . Current Issues in Linguistic Theory. The Hague: Mouton.

Chomsky, N. (1965) . Aspects of the Theory of Syntax . USA : MIT.

Chomsky, N. (1966). Cartesian Linguistics. New York: Harper and Row.

Chomsky, N. (1972). Studies on Semantics in Generative Grammar. The Hague: Mouton.

Chomsky, N. and Halle, M. (1968). The Sound Pattern of English. New York: Harper and Row .

Cook, W. (1970 a). " Case Grammar from Roles to Rules ". Languages and Linguistics : Working Papers No. 1.

Washington D.C. Georgetown University, PP. 1 - 15.

Cook, W (1970 b). " Improvements in Case Grammar ". Languages and Linguistics : Working papers. No.2. Washington D.C Georgetown University, PP. 16 - 27.

Cook, W. (1971 a) " A Set of Postulates for Case

Grammar analysis " Languages and Linguistics : Working Papers. No.4 Washington D.C : Georgetown University, PP.36.49.

Cook, W. (1971 b) . " A Case Grammar Matrix ". Languages and Linguistics: Working Papers. No. 5. Washington D.C : Georgetown University, PP. 50 - 81

Cook,W. (1972 a) , "Covert Case Roles " , Languages and Linguistics : Working Papers. No 6. Washington D.C : Georgetown University, PP. 82 - 108.

Cook, W. (1973 b). " Case Grammar and Generative Semantics " . Languages and linguistics : working papers. No 10. Washington D.C : Georgetown University, PP . 144 - 66.

Crystal, D . (1971). Linguistics . London: Penguin.

Crystal, D . (1987) The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge: Cambridge University Press.

Davis, P.W. (1973) . Modern Theories of Language. New Jersey: Prentice-Hall, Inc.

De Saussure, F . (1916). Course in General Linguistics. Eng. Trans. Wade Baskin . Glasgow: William Collins Sons and Co. Ltd. (1974).

Dineen , F . (1967) . An Introduction to General Linguistics. New York : Holt Rinehart and Winston.

Dixon, R. (1965). What is Language . Longman.

Durkheim , E . (1985). The Rules of Sociological Method. English ed , collier- Macmillan (1966).

Fillmore, C.J. (1966a) " A Proposal Concerning English Prepositions " . Monograph Series on Languages and Linguistics Georgetown University , No 19: 19 - 33.

Fillmore, C.J. (1968 a). " The Case for Case" In E. Bach and R. Harms, 1 - 88.

Fillmore, C.J (1968 b) " Lexical Entries for Verbs", Foundations of Language. No4: 93 - 173.

Fillmore, C.J. (1971) . " Types of Lexical Information " . In D. Steinberg and L. Jocabovits (eds), Semantics , USA: Cambridge University Press, 370 - 92.

Fillmore, C.J. (1977) " The Case for Case Reopened " . In P. Cole and J. Sadock (eds) Syn-

tax ans Semantics .vol 8 . 59 - 81 New York : Academic Press.

Fodor, J.D . (1977). Semantics : Theories of Meaning in Generative Grammar . New york : Thomas Y . Cromwell Company, Inc.

Firth, J.R (1957 a) . Introduction Studies in Linguistic Analysis . Philosophical Society Special Volume . pp. V - VIII. Oxford: Blackwell.

Firth, J.R. (1957 b) Synopsis of Linguistic Theory, 1930 - 55. Studes in Linguistic Analysis . Philosophical Society Special Volume . pp 1 - 32 Oxford: Blackwell.

Firth, J.R. (1957 c) Papers in Linguistics , 1934 - 51. London : Oxford University Press.

Firth, J.R. (1964). Speech and the Tongues of Men (Language and language Learning 2). (First eds: Speech (1930) , The Tongues of Men (1937).

Francis, W.N. (1954) . " Revolution in Grammar ". In Quaterly Journal of Speech , No 40: 299 - 312.

Fudge, E. (1972). Phonology and Phonetics. In Thomas A. Sebeok ed. Current Trends in Linguistics, Vol. 9 . pp 254 - 312. the Hague: Mouton.

Gleason, Jr. (1955). An Introduction to Descriptive Linguistics , Calcutta: Oxford and IBH Publishing Co. (Revised ed. 1968).

Greenberg, J.H. (ed), (1966). Universals of Language.Mass: : MIT.

Greenberg. J.H. (1966). Languages of Africa . Indiana University

Grinder, J. and Elgin, S. (1973) . Guide to Transformational Grammar. New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc.

Hall, R.A. (1968). An Essay on Language. New York: Chilton Books.

Hartman , P. and Schmidt, S. (1972). Theory and Philosophy of language - In T.Sebeok's (ed). PP. 51 - 52.

Hill, A. (1969). Linguistics, Voice of America Forum Lectures.

Hjelmslev, L. (1961). Prolegomena to a Theory of Language. (Revised Eng. ed) , trans. F.J. Whitfield. Madison: the University of Wisconsin Press.

Hockett, C.F. (1958). A Course in Modern Linguistics. New York: Macmillan.

Jakobson et al . (1952). Preliminaries to Speech Analysis, Mass: MIt press, 6th printing 1965.

Jakobson , R.O. and Halle , M. (1956). Fundamentals of Language, (Janua linguarum), the Hague: Mouton.

Jakobson, R. (1968). Kindersprache (= Child Language, Aphasia and Phonological Universals . Trans. by Allen R.Keiler. (Janua Linguarum). The Hague: Mouton.

Jespersen, O. (1922). Language: its Nature, Development and Origin. London: Allen and Unwin.

Katz, J.J. and Fodor, J.A. (1963). " The Structure of a Semantic Theory " , Language, No. 39: 170 - 210.

Katz , J.J and Postal, P.M. (1964). An Integrated Theory of Linguistic Descriptions , . Cambridge, Mass: MIT press.

Koch. J. (1956). Artes Liberales. Leiden.

Kurylowics, J. (1964 a) . On the Methods of Internal Reconstruction, PICL, 9: 9 - 31.

Labov, W. (1966). The Social Stratification of English In New York city. Washington D.C . : Center for Applied Linguistics.

Lambert, D.M. (1969). The Semantic Syntax of Metaphor: A Case Grammar Analysis (Unpublished Ph. D dissertation), University of Michigan.

Langacker, R.W. (1968). Language and its Structure.

New York: Harcourt, Brace and world, Inc.

Leech, G. (1974). Semantics . England: Penguin Books Ltd.

Lehman, W.P. (1973). Historical Linguistics: An Introduction . New York : Holt Rinehart and Winston, Inc.

Lyons, J. (1968) Introduction to Theoretical Linguistics, London: Cambridge University Press

Lyons, J. (1970). Chomsky, London: Penguin.

Lyons, J. (1977). Semantics . Cambridge: Cambridge University Press.

(1981). Language and Linguistics. Cambridge: Cambridge University press.

Martinet , A. (1955). Economie des changements phonétiques. Bern, Francke.

Martinet , A. (1964). Elements of General Linguistics. Eng. Trans. by E. Palmer. London : Faber and Faber.

Mathesius, V. (1911). On the Potentiality of the Phenomena of Languange, Eng . trans, in Vachek ed. 1964.

McCoy, A.M. (1969). A Case Grammar classification of Spanish Verbs. Unpublished Ph.D dissertation), University of Michigan.

Milewski, T. (1973). Introduction to the Study of Language, The Hague : Mouton.

Mounin, G. (1967). Histoire de la linguistique des origines au xxe siècle. Presses Universitaires de France.

Mounin, G. (1972). La linguistique du xxe siècle . Presses Universitaires de France.

Nilsen, D.L.F. (1972). Toward a Semantic Specification of Deep Case, The Hague: Mouton, 1972.

Ogden , C.K. and Richards, I.A (1936). The Meaning of Meaning . London. (4th ed.).

Palmer, F (1972). Grammar. London: Penguin.

Postal , P.M . (1968). Aspects of Phonological Theory, Harper and Row.

Robins, R.H . (1976). A Short History of Linguistics , 2nd ed. London: Longman. (1st ed . , 1967).

Sampson, G. (1980). Schools of Linguistics. London: Hutchinson and Co.

Sapir, E. (1921) Language, New York: Harcourt Brace

Sapir, E. (1929), The Status of Linguistics as a Science, Language, vol. 5 , PP 207 - 14.

Sapir, E. (1931), ' Conceptual Categories in Primitive Languages, Science,vol - 74 , p . 578.

Sebeok, T.A . (ed). (1972). Current Trends in Linguistics. vol . 9. Linguistics in Western Europe. The Hague: Mouton.

Stern, G. (1931). Meaning and Change of Meaning: With special reference to the English language. Bloomington, Inc. (1964 ed).

Taylor, A.B. (1926). Plato: the Man and his Work. London : Methuen.

Trubetzkoy, N.S. (1939). Principles of Phonology. Eng. ed Los Angeles: University of California Press (1969).

Ullman, S. (1951). The Principles of Semantics . Oxford: Basil Blackwell. (2nd. ed. 1957).

Ullman, S. (1972). 'Semantics ' , In Thomas A. Sebeok . ed. pp. 343 - 394.

Vachek, J. ed. (1964). A Prague School Reader in Linguistics. Indiana University press.

Waterman, J.T. (1963). Perspectives in Linguistics. Chicago: The University of Chicago Press.

Wechter , P. (1964). Ibn Barun's Arabic Works on Hebrew Grammar and Lexicography . Philadelphia.

Whorf, B.L. (1956). language, Thought , and Reality: Selected Writings of Benjamin lee whorf , ed. J.B. Caroll, MIT press.

Wittgenstein, L. (1953). Philosophical Investigations , Oxford.

الفهرس

الفصل الثالث

الدراسات اللغوية في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث

الفصل الرابع

اللسانيات التاريخية

الفصل الخامس

فردنان دي سوسير

الفصل السادس

مدرسة براغ

الفصل العاشر
القواعد التوليدية التحويلية

الفصل الحادي عشر
علم الدلالة

الفصل الثاني عشر
قواعد الحالات